



مركز
للبحوث والتحريات الكمبيوترية

اصبحان

للغافل



عليه
صباح
الرمضان

www.ghaemiyeh.com
www.ghaemiyeh.org
www.ghaemiyeh.net
www.ghaemiyeh.ir

آية الله العظمى شهيدنا العظيم

العلماء الثلاثة

شرح مختصر على نهج الأئمة

مناهج كبرى في الفقه
إعداد: محمد بن محمد

دار الفکر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

نفحات الولاية: شرح عصرى جامع لنهج البلاغه

كاتب:

آيت الله العظمى ناصر مكارم شيرازى

نشرت فى الطباعة:

مدرسه الامام على بن ابى طالب (عليه السلام)

رقمى الناشر:

مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

الفهرس

٥	الفهرس
١٦	نفحات الولاية (شرح عصرى جامع لنهج البلاغه) المجلد ٤
١٦	اشاره
١٧	اشاره
٢١	الخطبه الحاديه و التسعون
٢١	اشاره
٢١	نظره إلى الخطبه
٢٥	القسم الأول: جوده لا ينضب
٢٥	اشاره
٣٠	تأمل: شمول النعم الإلهيه
٣٣	القسم الثانى: معرفه الله عن الله
٣٣	اشاره
٣٦	تأمل: الراسخون فى العلم وتفسير المتشابهات
٣٩	القسم الثالث: العالى على الخيال والقياس والظن والوهم
٤٣	القسم الرابع: الحديث عن تدبيره
٤٧	القسم الخامس: انت المنزه عن الشبيهه والتميل
٤٧	اشاره
٤٩	تأمل: من هم المجسمه؟
٥٣	القسم السادس: الممتنع على احاطه العقول
٥٥	القسم السابع: كلى شىء يستند إلى اراده الله
٥٧	القسم الثامن: سر الخلق
٥٧	اشاره
٥٩	تأمل: أوضح طريق إلى معرفه الله
٦١	القسم التاسع: خلق السموات

- ٦١ اشاره
- ٦٦ تأمل: خصائص السماوات
- ٦٧ القسم العاشر: خلق الشمس والقمر والشهب والكواكب
- ٦٧ اشاره
- ٦٩ تأملات
- ٦٩ ١- الكواكب الثابتة والسياره
- ٧٠ ٢- خصائص الكواكب
- ٧٠ ٣- سعد ونحس الكواكب
- ٧٣ القسم الحادي عشر: خلق الملائكه
- ٧٧ القسم الثاني عشر: وظائف الملائكه
- ٧٧ اشاره
- ٨٠ تأمل: لم الملائكه واسطه الوحي؟
- ٨١ القسم الثالث عشر: الانقطاع إلى الله
- ٨٣ القسم الرابع عشر: مدبرات الأمور
- ٨٧ القسم الخامس عشر: خصائص الملائكه
- ٨٧ اشاره
- ٩٠ تأمل: الناس والملائكه
- ٩١ القسم السادس عشر: عودة على بدء في صفات الملائكه
- ٩١ اشاره
- ٩٥ تأمل: الناس والملائكه ثانيه
- ٩٩ القسم السابع عشر: ظهور اليابسه و استقرار البحار
- ١٠٣ القسم الثامن عشر: ظهور الجبال والعيون
- ١٠٣ اشاره
- ١٠٥ تأمل: أسرار خلق الجبال
- ١٠٧ القسم التاسع عشر: إحياء الأرض الميتة بالسحب الممطره
- ١٠٧ اشاره

- ١١١ تأمل: سعه قاعده اللطف فى التكوين والتشريع -
- ١١٣ القسم العشرون: خلق آدم وبعثه الأنبياء -
- ١١٧ القسم الحادى والعشرون: الرزق وسيله الامتحان -
- ١١٧ اشاره
- ١١٩ تأمل: هل رزق كل إنسان مقدر؟ -
- ١٢٣ القسم الثانى والعشرون: العالم بكل شىء -
- ١٢٣ اشاره
- ١٢٤ تأمل: تنوع الكائنات -
- ١٢٩ القسم الثالث والعشرون: شموليه العلم الإلهى -
- ١٢٩ اشاره
- ١٣٢ تأملات
- ١٣٢ ١ - العلم الكامل -
- ١٣٢ ٢ - علم الله بكافه الخفايا -
- ١٣٣ ٣ - ابن أبى الحديد فى شرح هذه الخطبه -
- ١٣٥ القسم الرابع والعشرون: إليك الملاذ و أنت الرجاء -
- ١٣٥ اشاره
- ١٣٧ تأمل: فى اعجاز البيان -
- ١٣٩ الخطبه الثانيه و التسعون -
- ١٣٩ اشاره
- ١٣٩ نظره إلى الخطبه -
- ١٤١ دعونى و التمسوا غيرى -
- ١٤٤ تأملات
- ١٤٤ ١ - لم قال دعونى؟ -
- ١٤٤ ٢ - لم لا يتحملوا عداله على عليه السلام؟ -
- ١٤٧ ٣ - لم وزارته عليه السلام خير من إمارته؟ -
- ١٤٩ الخطبه الثالثه و التسعون -

١٤٩	اشاره
١٥١	القسم الاول: أنا فقأت عين الفتنة
١٥٧	القسم الثاني: فتنة بنى أميه
١٥٧	اشاره
١٦١	تأملات
١٦١	١- مميزات الفتنة
١٦٢	٢- حكمومه بنى أميه
١٦٥	القسم الثالث: انتقام الله من بنى أميه
١٦٥	اشاره
١٦٧	تأملان
١٦٧	١- ضربه الفرار من الحق
١٦٨	٢- عاقبه بنى أميه
١٧١	الخطبه الرابعه والتسعون
١٧١	اشاره
١٧١	نظره إلى الخطبه
١٧٣	القسم الأول: عجز الفكر عن معرفته
١٧٥	القسم الثاني: (ومنها فى وصف الأنبياء): المكانه الرفيعه للأنبياء
١٧٧	القسم الثالث: فضائل النبي صلى الله عليه و آله
١٧٧	اشاره
١٨١	تأملان
١٨١	١- منزله النبي صلى الله عليه و آله لدى الآخرين
١٨١	٢- أسره النبي صلى الله عليه و آله
١٨٣	القسم الرابع: اعملوا ما استطعتم
١٨٥	الخطبه الخامسه والتسعون
١٨٥	اشاره
١٨٥	نظره إلى الخطبه

١٨٧	النور الذي كشف الظلمه
١٩١	الخطبه السادسه و التسعون
١٩١	اشاره
١٩١	نظره إلى الخطبه
١٩٣	القسم الأول: الأول والآخر
١٩٥	القسم الثاني: كلامه بيان وصمته لسان
١٩٩	الخطبه السابعه و التسعون
١٩٩	اشاره
١٩٩	نظره إلى الخطبه
٢٠١	القسم الأول: عبيد كآرباب
٢٠٧	القسم الثاني: شهود الابدان وغياب العقول
٢٠٩	القسم الثالث: العمل بالتكليف
٢٠٩	اشاره
٢١١	تأمل: مقارنة بين أهل العراق والشام
٢١٥	القسم الرابع: صحب النبي صلى الله عليه و آله
٢١٥	اشاره
٢١٨	تأملات
٢١٨	١ - ولايه أهل البيت وعصمتهم
٢١٩	٢ - مميزات أهل الكوفه والشام
٢١٩	٣ - حقيقه الصحابه
٢٢٣	الخطبه الثامنه و التسعون
٢٢٣	اشاره
٢٢٣	نظره إلى الخطبه
٢٢٥	مظالم بنى أميه
٢٢٧	تأمل: بدع بنى أميه
٢٣٢	الخطبه التاسعه و التسعون

٢٣٢	اشاره
٢٣٢	نظره إلى الخطبه
٢٣٤	القسم اول: السلامه فى الدين والبدن
٢٣٤	القسم الثانى: سرعه زوال الدنيا
٢٤٠	القسم الثالث: دروس الدنيا وعبرها
٢٤٢	القسم الرابع: هادم اللذات
٢٤٢	اشاره
٢٤٣	تأملان
٢٤٣	١ - خداع الدنيا محدود
٢٤٤	٢ - أكيس الناس
٢٤٤	الخطبه مأه
٢٤٤	اشاره
٢٤٤	نظره إلى الخطبه
٢٤٨	القسم الأول: رايه الحق
٢٤٨	اشاره
٢٥٤	تأملان
٢٥٤	١ - أولياء الله
٢٥٤	٢ - الفشل قنطره النجاح
٢٥٤	القسم الثانى: هدى آل محمد صلى الله عليه و آله
٢٥٤	اشاره
٢٥٧	تأملان
٢٥٧	١ - حديث النجوم
٢٥٨	٢ - آخر مراحل تكامل النعم الإلهيه
٢٦٠	الخطبه المأه وواحد
٢٦٠	اشاره
٢٦٠	نظره إلى الخطبه

- ٢٦٢ القسم الأول: الشهاده المطلقه
- ٢٦٤ القسم الثاني: الحق ما أقول
- ٢٦٦ القسم الثالث: فتنه ضليل الشام
- ٢٦٦ اشاره
- ٢٦٨ تأملان
- ٢٦٨ ١ - الملاحم
- ٢٦٩ ٢ - الكوفه مركز الازمات والعواصف
- ٢٧٠ الخطبه المأه واثنان
- ٢٧٠ اشاره
- ٢٧٠ نظره إلى الخطبه
- ٢٧٢ القسم الأول: هول المحشر
- ٢٧٤ القسم الثاني: فتنه البصره
- ٢٧٨ الخطبه المأه و ثلاث
- ٢٧٨ اشاره
- ٢٧٨ نظره إلى الخطبه
- ٢٨٠ القسم الأول: الدنيا الفانيه
- ٢٨٠ اشاره
- ٢٨٢ تأمل: الزهد في الدنيا
- ٢٨٤ القسم الثاني: سرعه العمر
- ٢٨٤ اشاره
- ٢٨٥ تأمل: في الاعتبار
- ٢٨٨ القسم الثالث: العلماء والمتشبهون بهم
- ٢٨٨ اشاره
- ٢٩٠ تأمل: العلماء الحقيقيون
- ٢٩٢ القسم الرابع: علامات آخر الزمان
- ٢٩٢ اشاره

- ٢٩٥ تأمل: الفساد في آخر الزمان
- ٢٩٦ الخطبه المأه واربع
- ٢٩٦ اشاره
- ٢٩٦ نظره إلى الخطبه
- ٢٩٨ القسم الأول: النهضه التغييريه للنبي عليه السلام
- ٢٩٨ اشاره
- ٢٩٩ تأملان
- ٢٩٩ ١ - هل بعث نبي من العرب؟
- ٣٠٠ ٢ - القوه في الدين
- ٣٠٢ القسم الثاني: بقر الباطل واخراج الحق
- ٣٠٤ الخطبه المأه و خمس
- ٣٠٤ اشاره
- ٣٠٤ نظره إلى الخطبه
- ٣٠٦ القسم الأول: صفات النبي صلى الله عليه و آله
- ٣٠٨ القسم الثاني: زوال حكومه بنى أميه
- ٣١٢ القسم الثالث: التمسك بالإمام
- ٣١٤ القسم الرابع: وظائف الإمام والأئمه
- ٣١٨ الخطبه المأه وست
- ٣١٨ اشاره
- ٣١٨ نظره إلى الخطبه
- ٣٢٠ القسم الأول: خصائص الإسلام
- ٣٢٠ اشاره
- ٣٢٤ تأملان
- ٣٢٤ ١ - منزله الدنيا والآخره في النظره الإسلاميه
- ٣٢٦ ٢ - الشريعه السمحاء
- ٣٢٨ القسم الثاني: صفات النبي صلى الله عليه و آله ومقاماته

- ٣٢٨ اشارة
- ٣٣١ تأمل: إعراف مهم
- ٣٣٢ القسم الثالث: تضييع النعم
- ٣٣٦ الخطبه المأه و سبع
- ٣٣٦ اشارة
- ٣٣٦ نظره إلى الخطبه
- ٣٣٨ أتلجتم صدري
- ٣٤١ الخطبه المأه و ثمان
- ٣٤١ اشارة
- ٣٤١ نظره إلى الخطبه
- ٣٤٢ القسم الأول: تجلى الله للعباد
- ٣٤٢ اشارة
- ٣٤٤ تأمل: فى سعه علم الله
- ٣٤٦ القسم الثانى: وصف النبى صلى الله عليه و آله
- ٣٤٨ القسم الثالث: طيب سيار
- ٣٥٢ القسم الرابع: اشباح بلا أرواح
- ٣٥٢ اشارة
- ٣٥٤ تأمل: الوجود الباهت كالعدم
- ٣٥٦ القسم الخامس: طغاه بنى أميه يأتون على الأخضر و اليبس
- ٣٥٦ اشارة
- ٣٥٨ تأمل: الحكومات المستبده
- ٣٦٠ القسم السادس: احذروا المستقبل المشؤوم
- ٣٦٤ القسم السابع: الانقلاب رأس على عقب
- ٣٦٤ اشارة
- ٣٦٧ تأمل: آثار سلطه الأوباش
- ٣٧٠ الخطبه المأه و تسع

- ٣٧٠ اشاره
- ٣٧٠ نظره إلى الخطبه
- ٣٧٢ القسم الأول: الصفات الكماله لله
- ٣٧٨ القسم الثاني: عبوديه الملائكه
- ٣٨٢ القسم الثالث: عالم الآخرة
- ٣٨٢ اشاره
- ٣٨٥ تأمل: العشق المقدس والهجين
- ٣٩٠ القسم الرابع: سكرات الموت
- ٣٩٠ اشاره
- ٣٩٣ تأمل: سكره الموت والاحتضار
- ٣٩٦ القسم الخامس: قيامه الناس
- ٤٠٠ القسم السادس: الثواب والعقاب
- ٤٠٠ اشاره
- ٤٠٣ تأمل: أسلوب الهدايه
- ٤٠٤ القسم السابع: زهد النبي صلى الله عليه و آله
- ٤٠٤ اشاره
- ٤٠٥ تأمل: الشرط الاصلى فى الزعامه
- ٤٠٨ القسم الثامن: أهل البيت عليهم السلام
- ٤١٠ الخطبه المأه و عشر
- ٤١٠ اشاره
- ٤١٠ نظره إلى الخطبه
- ٤١٢ القسم الأول: فرائض الإسلام
- ٤١٢ اشاره
- ٤١٨ فلسفه الأحكام
- ٤٢٠ القسم الثاني: القرآن والسنة
- ٤٢٠ اشاره

٤٢٣ ----- تأمل: عاقبه العالم غير العامل

٤٢٤ ----- تعريف مركز

شناسه افزوده: مدرسه الامام علی بن ابی طالب (ع)

رده بندی کنگره: ۲/۳۸/۰۲ BP / م ۱۳۸۴۷

رده بندی دیویی: ۲۹۷/۹۵۱۵

شماره کتابشناسی ملی: م ۸۴-۴۰۳۴۷

ص: ۱

اشاره

نفحات الولاية: شرح عصرى لجامع لنهج البلاغه المجلد ٤

ناصر مكارم شيرازى، بمساعده مجموعه من الفضلاء

اعداد عبدالرحيم الحمدانى

ص: ٣

ومن خطبه له عليه السلام

تعرف بخطبه الأشباح وهي من جلائل خطبه عليه السلام

روى عن مسعده بن صدقه عن الصادق، جعفر بن محمد عليه السلام أنه قال: خطب أمير المؤمنين عليه السلام بهذه الخطبه على منبر الكوفه، وذلك أن رجلاً أتاه فقال له: يا أمير المؤمنين صف لنا ربنا مثلما نراه عياناً لتزداد له حباً وبه معرفه، فغضب ونادى: الصلاه جامع، فاجتمع الناس حتى غص المسجد بأهله، فصعد المنبر وهو مغضب متغير اللون، فحمد الله وأثنى عليه وصلى على النبي صلى الله عليه وآله ثم قال...

نظرة إلى الخطبه

هذه من الخطب القيمه التي تفيض رقه وفصاحه وبلاغه وعذوبه، وهي شهاده أخرى على

ص: ٥

١ - ١) سند الخطبه: قد كفانا الرضى (ره) مؤنه البحث عن مصادر هذه الخطبه إذ ذكر أنه نقلها عن مسعده بن صدقه العبدى عن أبى عبد الله عليه السلام ومسعده هذا له كتب منها كتاب (خطب امير المؤمنين عليه السلام) كما ذكرنا ذلك في أوائل هذا الكتاب تحت عنوان الكتب المؤلفه في كلام أمير المؤمنين عليه السلام وقلنا هناك إن كتاب مسعده هذا كان باقياً إلى زمن السيد هاشم البحرانى (ره) إذ نقل عنه كثيراً في تفسيره المعروف بالبرهان كما نوه به في مقدمه الكتاب المذكور ثم صار في ضمائر الغيوب. وعلى كل حال ان الخطبه الاشباح هذه من خطب أمير المؤمنين المشهوره رواها العلماء قبل الرضى أيضاً أحمد بن عبد ربّه المالكي في العقد الفريد والشيخ الصدوق في التوحيد باختلاف في بعض الألفاظ وال فقرات مع روايه الرضى. ورواها الزمخشري في ربيع الأبرار وابن الأثير في النهاية. و الخطبه شاهده لنفسها لا تحتاج مع لفظها الباهر، ومعناها الظاهر، إلى اسناد متواتر كما قال السيد ابن طاووس (حيث من المستبعد إن تصدر مثل هذه المضامين من غير المعصوم) (مصادر نهج البلاغه

عظمه أمير المؤمنين على عليه السلام وإرتباطه بالعالم القدسي وانفتاحه على خزائن العلم الإلهي.

قال ابن أبي الحديد في تعليقه على هذه الخطبة: «إذا جاء هذا الكلام الرباني، واللفظ القدسي، بطلت فصاحه العرب، وكانت نسبه الفصيح من كلامها إليه، نسبه التراب إلى النضار الخالص؛ ولو فرضنا أنّ العرب تقدر على الألفاظ الفصيحة المناسبه، أو المقاربه لهذه الألفاظ، من أين لهم المادة التي عبرت هذه الألفاظ عنها؟ ومن أين تعرف الجاهليه بل الصحابه المعاصرون لرسول الله صلى الله عليه وآله هذه المعاني الغامضه السمائيه؛ ليتها لها التعبير عنها أمّا الجاهليه فإنهم إنّما كانت تظهر فصاحتهم في صفه بعير أو فرس أو حمار وحش، أو ثوره فلاحه، أو صفه جبال أو فلوات؛ ونحو ذلك. وأمّا الصحابه فالمذكورون منهم بفصاحه إنّما كان منتهى فصاحه أحدهم كلمات لا تتجاوز السطرين أو الثلاثه، إنّما في موعظه تتضمن ذكر الموت أو ذم الدنيا، أو ما يتعلق بحرب وقتال؛ من ترغيب أو ترهيب. . .» .

ثم أضاف ابن أبي الحديد بعد أن أشاد بالخطبة قائلاً: «وأقسم أنّ هذا الكلام إذا تأمله اللبيب اقشعر جلده، ورجف قلبه، واستشعر عظمه الله العظيم في روعه وخلده، وهام نحوه وغلب الوجد عليه وكاد أن يخرج من مسكه شوقاً؛ وأن يفارق هيكله صباه ووجداً» (1).

على كل حال فإنّ هذه الخطبه تشتمل على عدّه أقسام، يكمل كل واحد منها الآخر. وهي على عشره أقسام:

القسم الأول: في جانب من صفات الله سبحانه وتعالى من أجل إعداد الأفكار لتقبل ما يرد عليها من حقائق.

القسم الثاني: يتضمن إجابته عن سؤال السائل عن صفات الله و يجعل القرآن ميزانا في دائره أسماء الله و صفاته، و يوصيه بالتمسك بآياته سيّما في هذا البحث.

القسم الثالث: الإشارة إلى عجز الإنسان عن الاحاطه العلميه بكنه الذات و الصفات

ص: ٦

الإلهيه المقدسه وما تنطوى عليه من صفات.

القسم الرابع: بحث القدره الإلهيه فى تدبير عالم الخلقه - الذى يمثل المرآه التى تعكس صفاته سبحانه -.

القسم الخامس: الحديث عن خلق السموات العلى والتى تمثل جانباً من عظمه البارئ سبحانه.

القسم السادس: الحديث عن خلق الملائكه وصفاتهم وخصائصهم.

القسم السابع: لفت انتباه الناس إلى العالم العلوى؛ إلى جانب الحديث عن خلق الأرض.

القسم الثامن: خلق آدم عليه السلام وبعث الأنبياء وارسال الرسل.

القسم التاسع: يتحدث عن علم الله سبحانه بالغيب واحاطته بكافه أسرار وجود الإنسان وخفاياه و ما يضمه من أعمال و أفكار و نيات.

والقسم العاشر: والأخير حيث يختتم الإمام عليه السلام خطبته العميقه المضامين بأدعيه روحيه عظيمه، لتشكل الخطبه بكافه أقسامها لوحه روحيه ساميه تल्प روح الإنسان وتأخذ بيده إلى السير نحو الله واصلاح فكره وأعماله (١).

وأما سبب تسميه هذه الخطبه بالاشباح فهناك اختلاف بين الشراح بهذا الخصوص. فقد ذهب البعض إلى أن «الاشباح» كناية عن الملائكه، حيث تضمنت الخطبه جانباً مهماً فى الحديث عنها ومن هنا سميت هذه الخطبه بالاشباح.

كما رأى البعض الآخر أن مفرده الأشباح ذكرت فى الخطبه، وحيث اعتاد السيد الرضى (ره) على اختيار قطوف من الخطبه، فقد اسقط تلك العبارة والتى احتمل البعض أنها وردت بهذا الشكل فى الخطبه «وكيف يوصف بالاشباح وينعت بالألسن الفصاح». وهى العبارة التى أوردتها المرحوم الشيخ الصدوق فى كتاب التوحيد ضمن خطبه قسما من خطبه الاشباح (٢).

الاحتمال الآخر فى سبب هذه التسميه هو أن الخطبه طويله، وأحد معانى الشيخ هو الطول

ص:٧

١-١) لا بدّ من الالتفات هنا إلى أنّ الخطبه تقسم بشكل عام إلى عشره أقسام، حيث تقسم هذه الأقسام بدورها إلى عدّه أقسام أخرى. ولذلك عمدنا فى النهايه إلى شرحها على أساس جعلها أربعة وعشرين قسماً.

٢-٢) توحيد الصدوق / ٧٩ ح ٣٤.

والامتداد. حيث أورد ابن فارس في مقاييس اللغة في تفسير «الشيخ» قائلاً: «أصل صحيح يدل على إمتداد الشئ في عرض، من ذلك الشيخ» وهو الشخص سمي بذلك، لأنه فيه إمتداد أو عرضاً (١).

وهنا يبرز هذا السؤال: ورد في مقدمه الخطبه أنّ رجلاً سأل أمير المؤمنين عليه السلام صف لنا ربنا مثلما نراه عياناً لتزداد له حباً وبه معرفه. فغضب ونادى: الصلاه جامعه، فاجتمع الناس فصعد المنبر وخطب بهذه الخطبه. والسؤال مم كان غضب الإمام عليه السلام؟

يبدو أنّ هناك بعض النقاط التي ينبغي الالتفات إليها لتتضح الإجابة على هذا السؤال ومنها: صيغه السؤال تفيد أنّ السائل كان يتوقع لله صفات على غرار صفات مخلوقاته، حيث عبر عن ذلك بالرؤيه «مثلما نراه عياناً»؛ الأمر الذي يكشف عن عقيدته المجسمه الذين كانوا يرون الله جسمًا.

أمّا النقطه الثانيه فلعل غضبه عليه السلام كان لهذا السبب وهو: لم لا يزال بعض المسلمين لا يملكون الرؤيه الواضحه عن صفات الله سبحانه رغم تقادم الزمان على انبثاق الدعوه الإسلاميه وسعه المعارف والعلوم والخزين الديني.

أو تأسفًا على تلك الحادثه التي أقصت الإمام عليه السلام عن الساحه وجعلته رهين الدار مدّه خمس وعشرين سنه ليحول دونه ودون تعليم أبناء الأمه الإسلاميه وتعريفهم بالمفاهيم الإسلاميه الحقه والمعارف الدينيه.

ص: ٨

(١ - ١) ابن فارس، مقاييس اللغة. [١]

«الْحَمِيدُ لِلَّهِ الَّذِي لَا يَفْرُهُ الْمَنعُ وَالْجُمُودُ وَلَا يُكْدِيهِ الْإِعْطَاءُ وَالْجُودُ إِذْ كَمَلُ مُعْطٍ مُنْتَقِصٌ سِوَاهُ وَكُلُّ مَانِعٍ مَيِّدٌ مُؤَمٌّ مَا خَلَاهُ وَهُوَ الْمَنَانُ بِفَوَائِدِ النَّعْمِ وَعَوَائِدِ الْمَزِيدِ وَالْقَسَمِ عِيَالَهُ الْخَلَائِقُ ضَمِنَ أَرْزَاقَهُمْ وَقَدَّرَ أَقْوَاتَهُمْ وَنَهَجَ سَبِيلَ الرَّاعِيَيْنِ إِلَيْهِ وَالطَّالِبِينَ مَا لَدَيْهِ وَلَيْسَ بِمَا سُئِلَ بِأَجْوَدَ مِنْهُ بِمَا لَمْ يُسْأَلِ الْأَوَّلُ الَّذِي لَمْ يَكُنْ لَهُ قَبْلُ فَيَكُونُ شَيْءٌ قَبْلَهُ وَالْآخِرُ الَّذِي لَيْسَ لَهُ بَعْدُ فَيَكُونُ شَيْءٌ بَعْدَهُ وَالرَّادِعُ أَنَا سَيِّ الْأَبْصَارِ عَنِ أَنْ تَنَالَهُ أَوْ تُدْرِكَهُ مَا اخْتَلَفَ عَلَيْهِ دَهْرٌ فَيَخْتَلِفُ مِنْهُ الْحَالُ وَلَا كَانَ فِي مَكَانٍ فَيَجُوزُ عَلَيْهِ الْإِنْتِقَالُ وَلَوْ وَهَبَ مَا تَنَفَّسَتْ عَنْهُ مَعَادِنُ الْجِبَالِ وَضَحِكَتْ عَنْهُ أَصْدَافُ الْبِحَارِ مِنْ فِلْزِ اللَّجِينِ وَالْعَقِيَانِ وَنُثَارَهُ الدُّرِّ وَحَصَّةِ يَدِ الْمَرْجَانِ مَا أَثَرَ ذَلِكَ فِي جُودِهِ وَلَا أَنْفَعَدَ سَعَمَهُ مَا عِنْدَهُ وَلَكَانَ عِنْدَهُ مِنْ دَخَائِرِ الْأَنْعَامِ مَا لَا تُنْفِدُهُ مَطَالِبُ الْأَنَامِ لِأَنَّهُ الْجَوَادُ الَّذِي لَا يَغِيضُهُ سُؤَالُ السَّائِلِينَ وَلَا يُبْخِلُهُ إِحْسَاحُ الْمُلْحِحِينَ» .

الشرح والتفسير

أنّ الدافع إيراد من هذه الخطبه كما ورد في مقدمتها هو أنّ شخصاً سأل الإمام عليه السلام قائلاً: صف لنا ربنا مثلما نراه عياناً؛ الكلام الذي تشم منه رائحه القول بالتجسم على الله، أو على الأقل الاشتمال على صفات الممكنات. فغضب الإمام عليه السلام غضباً شديداً و تغير وجهه وأورد هذه الكلمات من أجل تهذيب هذه العقائد الفاسده والأفكار المنحرفه وهدايتها إلى الصراط المستقيم من خلال استعراض صفاته الحقه سبحانه ولذلك فقد استهل عليه السلام الخطبه بأدق

صفاته سبحانه التي تشير إلى مباينتها لصفات كافه مخلوقاته. فقد قال عليه السلام بادي ذي بدء: «الحمد لله الذي لا يفره (١) المنع والجمود، ولا يكديه (٢) الاعطاء والوجود». ثم خاض عليه السلام في الدليل على ذلك قائلاً: «إذ كل معط منتقص سواء، وكل مانع مذموم ما خلاه». نعلم جميعاً أنّ أحد الأركان الأصليه لمعرفة صفات الله سبحانه وتعالى يكمن في الاعتقاد بأنّه وجود مطلق من جميع الجهات وليست هناك من حدود لذاته المقدسه وصفاته. فمن الطبيعي أنّ اللامحدود يبقى كذلك مهما أخذ منه؛ أي ليس للنقصان والقله من سبيل إليه. وعلى هذا الضوء فلو وهب كل إنسان عالماً من الماده، لما نفذت خزائن نعمه. ولهذا أيضاً إذا منع أحد شيئاً فلا يذم عليه. لتعذر تصور البخل على الذات المطلقه. فليس هنالك من سبيل سوى إسناد المنع إلى الحكمة والمصلحه. بعبارة أخرى فإنّ عطائه ومنعه يتوقف على الاستعداد والاستحقاق والأهليه، وعليه ينقطع كل كلام ويخرس كل لسان عن الخوض في هذا الموضوع. جاء في الحديث القدسي: «يا عبادي لو أنّ أولكم وآخركم وانسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد، فسألوني فأعطيت كل إنسان مسألته ما نقص ذلك ممّا عندي شيئاً إلّا كما ينقص المخطط إذا دخل البحر» (٣)، فمن الطبيعي أن لا- يعلق شى من الماء بالأبهره إذا ما القيت فيه سوى بمقدار الرطوبه العالقه بها. وهذا أروع مثال لأدنى نقص يطيل أعظم مصدر ومنبع للماء. فالمثال صورته واضحه لعدم تناهى الخزائن الإلهيه التي لا تزيد بها كثره العطاء إلّا زياده. كما ورد في حديث قدسي آخر: «إن من عبادي من لا يصلحه إلّا الفاقه، ولو أغنيته لأفسده ذلك» (٤)، ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه عن سائر صفاته سبحانه ذات الصله بجموده وكرمه وعطائه فقال: «وهو المنان بفوائد النعم، وعوائد المزيد والقسم» فاللنفات إلى النعم الإلهيه على أساس أنّ وجدان الإنسان يوجب عليه شكر هذه النعم ويشده إلى الحق سبحانه، نرى الإمام عليه السلام يطرق باديء الأمر هذا المعنى ليعد القلوب لما سيرد عليها من حقائق. والتعبير «منان» من ماده من بمعنى كثير العطاء. أمّا فوائد النعم فتنطوي على مفهوم واسع يشمل كافه النعم الماديه

ص: ١٠

١-١) «يفره» من ماده «وفور» بمعنى الكثره والزياده.

٢-٢) «يكديه» من ماده «كدي» على وزن كسب بمعنى البخل، وهى هنا بمعنى يفقره وينفذ خزائنه.

٣-٣) منهاج البراعه ٦/٢٨٨.

٤-٤) بحار الانوار ٦٨/١٤٠ ح ٣١. [١]

والمعنويه. وأما الفارق بين هذه العبارة وقوله: «عوائد المزيد والقسم» فقد وردت بشأنه عدّه احتمالات: الأول: أنّ العبارة الاولى إشاره إلى ضروريات الحياه، والثانيه إلى الرفاه والصدعه وما يدعو إلى الاستقرار واللذّه والراحه؛ أى كماليات الحياه. والاحتمال الثاني: أن يكون المراد بالعبارة الاولى النعم الفرديه، والعبارة الثانيه: «بالنظر إلى مفرده القسم من ماده قسمه» المنافع والنعم الاجتماعيه. والاحتمال الثالث: أن يكون المقصود بفوائد النعم الأرزاق التي تشمل الإنسان من قبيل الماء والهواء ونور الشمس وضياء القمر وبالتالي ما يصله من رزق دون سعى وجهد، والعبارة: «عوائد المزيد والقسم» ناظره إلى الارزاق التي يحصل عليها الإنسان بفعل جده واجتهاده وسعيه ونشاطه وإدارته الصحيحه لشؤون حياته. ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه بهذا الخصوص فقال: «عياله الخلاق، ضمن أرزاقهم، وقدر أقواتهم» فالتعبير بعيال تشير من جانب إلى محبّه الله ولطفه بعباده، كما أنّها مقدمه لبيان ضمان أرزاقهم من جانب آخر، وذلك لأنّ كل فرد يشعر بعظم مسؤوليته إزاء عياله وأهل بيته. فلا يمكن على الله أن يخلق عبداً دون أن يتكفل برزقه. وأما ما نراه من جوع في عالمنا المعاصر وفيما مضى قدأدى بحياه الناس، فذلك ممّا تفرزه طبيعه الحرص والظلم التي انطوت عليها سيره الطغاه والظلمه والاستغلال الذي يمارسونه بحق الضعفاء والفقراء ونهب أموالهم وخيراتهم. كما لا ينبغي أن ننسى خنوع البعض وعدم السعى الجاد في هذه الحياه والافتقار إلى الإداره الصحيحه. وإلّا فإنّ السفره الإلهيه على درجه من السعه والشمول بحيث تلبى احتياجات كافه العباد إلى يوم القيمه. ثم خاض عليه السلام في النعم المعنويه ليكشف اللثام عن فتح باب الميسره إلى الله والفوز بقربه وجواره فقال عليه السلام: «ونهج سبيل الراغبين إليه، والطالبين ما لديه». وهكذا أبان عليه السلام توفر كافه أسباب سعادته الناس على الصعيد المادى والمعنوى ليهديهم إلى الطريق دون أن يكون هناك من اجبار لنهج هذا السبيل أو ترك ذاك، فلإنسان بمحض إرادته أن يستثمر هذه النعم ويوظفها في الاتجاه الصحيح. ثم اختتم كلامه بشأن هذه النعم حيث تعرض إلى صفه أخرى من صفاته قائلاً: «وليس بما سئل باجود منه بما لم يسأل». فالعبارة تختزن إشاره لطيفه إلى حقيقه وهى أنّ جوده وكرمه على أساس الاستحقاق والاستعداد لا على ضوء الطلب والسؤال، وإن كان الدعاء أحد أسباب نزول النعم الإلهيه

فذلك لأنّ الداعى إذا أعد فى نفسه شرائط الدعاء إنّما يكون قد وسع دائره استحقاقه واستعداده؛ فالدعاء الصحيح يسوق الإنسان إلى التوبه والإنابه وإصلاح الذات وذكر الله، وكل من هذه المعانى يسهم بقدر فى اتساع حجم الاستحقاق.

قال ابن الحديد فى تفسيره للعبارة: «وليس بما سئل بأجود. . .» فيه معنى لطيف، وذلك لأنّ هذا المعنى ممّا يختص بالبشر: «لأنهم يتحركون بالسؤال وتهزهم الطلبات، فيكونون بما سألهم السائل أجود منهم بما لم يسألهم إياه. وأما البارئ سبحانه فإنّ جوده ليس على هذا المنهاج، لأنّ جوده عام فى جميع الأحوال» (١).

أضف إلى ذلك فإنّ الناس وإثر نقصهم وحاجتهم إنّما يشحون فى العطاء بما هم إليه أحوج من سائر الأشياء التى لا حاجة لهم فيها؛ الأمر الذى ليس به من سبيل إلى الذات الإلهيه المطلقه المنزهه عن كل نقص وحاجه. ثم انتقل الإمام عليه السلام إلى بيان أربع صفات من صفات الذات فقال: «الأول الذى لم يكن له قبل فيكون شى قبله، والآخر الذى ليس له بعد فيكون شى بعده». فالمفروغ منه هو أنّ الأساس فى معرفه ذات وصفات الله يكمن فى كونه مطلقاً سبحانه لا يعرف القيود والحدود واللامتناهى، و هو الكمال المطلق والوجود الدائم من جميع الجهات، فهو كائن ويكون إلى أبد الأبدين.

فالأول فى عالم الممكنات يقال للشىء بالنسبه لما يليه، وفى نفس الوقت لما سبقه بعض الأشياء لأنّ البدايه والنهائيه فى الممكنات أمر نسبي؛ وتنفرد الذات الإلهيه المطلقه بعدم وجود شى قبلها ولا بعدها. ومن البديهي على هذا الأساس أنّ أوليته وآخرته لا تعنى الأول الزمانى ولا- الآخر الزمانى و ذلك لأن الزمان يأتى من حركه الموجودات حيث أن الزمان يمثل مقدار الحركه؛ فلا يطلق عليه البعديه والقبليه كما يطلق على الزمانيات؛ وإنّما لم يكن وجوده زمانياً لأنّه لا يقبل الحركه، والزمان من لواحق الحركه، وإنّما لم تطلق عليه البعديه والقبليه إذا لم يكن زمانياً؛ والحركه إمّا نحو الكمال أو النقصان. ونعلم أنّه كمال مطلق لا يشوبه أى نقص. ثم قال عليه السلام فى الصفه الثالثه: «والرابع أناسى (٢) الأبصار عن أن تناله أو تدركه» فلا العين

ص: ١٢

١- ١) شرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد ٦/٤٠٠. [١]

٢- ٢) «اناسى» جمع «إنسان» و يطلق على أفراد بنى الإنسان كما يطلق هذا اللفظ على بؤبؤ العين، لانعكاس صوره الأفراد فيها.

الظاهره تراه لأنه ليس بجسم فلا- مكان له ولا- جهه، ولا- العين الباطنه يسعها مشاهده كنه ذاته. فالمحدود يعجز عن رؤيه اللامحدود. فالتعبير بالرادع لا يعنى إن الله تعالى خلق فى الأبصار مانعاً عن إدراكه، بل كنايه عن ذاته أعظم واسمى من أن ترى بالعين الظاهره أو الباطنه. فقد قال القرآن الكريم بهذا الشأن: «لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ» (١) ولما سأل بنو إسرائيل موسى عليه السلام رؤيه الله، جاء الخطاب: «انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ - تَبَّتْ إِلَيْكَ - وَأَنَا أَوْلُ الْمُؤْمِنِينَ» (٢)، ثم قال عليه السلام فى الصفه الرابعه والخامسه المكمله للصفات السابقه: «ما اختلف عليه الدهر فيختلف منه الحال، ولا كان فى مكان فيجوز عليه الانتقال» فالواقع هو أن هاتين الصفتين إنما تشيران إلى نفي الزمان والمكان وعوارضهما عن الذات الإلهيه المقدسه؛ الذات المطلقه التى تأبى الحركه، ومن هنا لم تخضع لسيطره الزمان، ولذلك أيضاً لم يكن للحالات المختلفه والحركه نحو الكمال أو النقصان من سبيل إلى هذه الذات. فالله ليس بجسم ليجتاج إلى مكان. ليس بمحدود ليضمه موضع معين، ومن هنا انعدم تصور المكان عليه سبحانه. ثم عاد الإمام عليه السلام ثانيه إلى وصف جوده وعطائه سبحانه ليحدث عن سعه نعمه استثاره لحس الشكر والحمد لدى العباد والأمل بهذه الذات إلى جانب الإرشاد للمعرفه بصفات الجلال والجمال فقال عليه السلام: «ولو وهب ما تنفست عنه معادن الجبال، وضحكت عنه أصداف البحار، من فلز اللجين (٣) والعقيان (٤) ونثاره (٥) الدر، وحصيد المرجان، ما أثر ذلك فى جوده، ولا انفذ سعه ما عنده، ولكان عنده من ذخائر الانعام، مالا تنفده مطالب الأنام، لأنه الجواد الذى لا يغيضه (٦) سؤال السائلين، ولا يبخله الحاح الملحين» .

ص: ١٣

١- ١) سورة الانعام/١٠٣. [١]

٢- ٢) اقتباس من سورة البقره/٢٥٥؛ [٢] سورة الاعراف/١٤٢. [٣]

٣- ٣) «لجين» على وزن حسين بمعنى الفضة.

٤- ٤) «عقيان» الذهب الخالص.

٥- ٥) «نثاره» من ماده «نثر» على وزن نصر التناثر والتشتت، حيث تتشقق أغلفه الأصداف فتتناثر منها حبيبات الدر هنا وهناك.

٦- ٦) «يغيض» من ماده «غيض» على وزن فيض النقصان وذهاب الماء فى الأرض ووردت فى العباره بمعنى عدم نقصان منابع الفيض الإلهى بالعتاء.

حقاً ليس هناك من تعبير أروع وأبلغ من هذا التعبير لوصف جوده وكرمه سبحانه وسعه رحمته وشمول آلائه. فلو صببت الدنيا بما فيها من كنوز ومعادن مستتره في بطون الأرض وأوديتها وجبالها على شخص، لما كان لها تأثير قطره في بحر بالنسبه لعظم خزائنه وسعه بحر جوده وكرمه. كيف لا وقوله «كن» الذى يتبدل إلى «فيكون» يخلق ما لا نهاية من هذه الخزائن في عالم الوجود ومن هنا أيضاً فإن الحاح الملحّين وكثره طلبات السائلين لاتدعوه ال القبض والبخل أو الغضب والغيط، فانما يغضب من كانت مصادر جوده محدوده ينقصها السؤال والعطاء فتشرف على الانتهاء وعليه فاذا كانت لدينا من حاجه لا بدّ من طرحها على الكريم فهو الكريم والجواد الرحيم فى عطائه وكرمه، والتعبير بالتنفس عن معادن الجبال إشاره لطيفه إلى طرحها المعادن من جوفها بفعل تصدعها والزلازل و التعريه التى تصيبها مع مرور الزمان و أما تعبير «ضحك» فهى إشاره إلى الشقوق التى تحدث فى فوهات الصدف ليستخرج منها اللؤلؤ. وهى على غرار الأسنان الناصعه التى تبدو كحيات اللؤلؤ حين يضحك الإنسان ذا الجمال. فاذا ما ضحكت هذه الاصداف بانشقاقها ظهرت حبات لؤلؤها وقذفتها خارجاً.

تأمل: شمول النعم الإلهيه

اشتمل هذا القسم من الخطبه على عدّه أمور مهمّه بشأن سعه نعمه سبحانه وافاضتها على العبيد من معادن الفيض الازلى الجياش؛ ليشير الإمام عليه السلام بذلك أحاسيس السامعين ويوقظ ضمائرهم، فيستشعروا ضروره الشكر بحكم بدهاه العقل، وهذا ما يقودهم بالتالى إلى الانفتاح على معرفه الله سبحانه والالمام بصفاته. فقد أشار فى موضع آخر إلى سؤاله عن كل ماتريد ودون سؤال غيره وذلك أنّ كثره الجود والعطاء ليس لها أن تنقص خزائن كرمه ولو مثقال ذره، بل أنّها لتربو على الجود والعطاء. وصرح فى موضع آخر بأنّه على درجه من الجود والكرم بحيث لا يحتاج إلى السؤال كما هى طبيعه الممكنات، فحيثما كان الاستحقاق والاستعداد كان الفيض والعطاء. ولعلنا نلمس هذا المعنى فى بعض الأدعيه الرجبيه: «يا من

يعطى من سأله، يا من يعطى من لم يسأله ومن لم يعرفه تحننا منه ورحمه» (١)، وقد عبر الإمام عليه السلام عن ذلك بقوله: «وليس بما سئل بأجود منه بما لم يسأل»، وأخيراً ما أروع عبارته عليه السلام التي تعرضت لسعه جوده وكرمه وعدم تأثرها من قريب أو بعيد بكثرة السؤال: «ولو وهب ما تنفست عنه معادن الجبال وضحكت عنه أصداف البحار، من فلز اللجين والعقيان ونثاره الدر وحصيد المرجان، ما أثر ذلك في جوده، ولا أنفذ سعه ما عنده ما لا تنفذه مطالب الأنام». والحال ليس الإنسان كذلك مهما كان جوده وكرمه وعطائه، فمثل هذه الأمور تؤثر مباشرة عليه، وليس ذلك إلّا لأنّ كافته إمكانياته ومصادره محدوده، ينقصها العطاء. بينما تتصف نعمه سبحانه بالدوام وعدم التناهي والانقطاع فهي كذاته سبحانه مطلقه لاتعرف من معنى للحدود والقيود.

ص: ١٥

١-١) مفاتيح الجنان، [١] أعمال شهر رجب.

«فَانظُرْ أَيُّهَا السَّائِلُ فَمَا ذَلِكُ الْقُرْآنُ عَلَيْهِ مِنْ صِفَتِهِ فَأَنْتُمْ بِهِ وَاسْتَضَيْتُمْ بِنُورِ هِدَايَتِهِ وَمَا كَلَّفَكَ الشَّيْطَانُ عِلْمَهُ مِمَّا لَيْسَ فِي الْكِتَابِ عَلَيْكَ فَرُضُهُ وَلَا فِي سُنَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَأَيْمَةِ الْهُدَى أَثَرُهُ فَكُلُّ عِلْمِهِ إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ فَإِنَّ ذَلِكَ مُنْتَهَى حَقِّ اللَّهِ عَلَيْكَ وَاعْلَمْ أَنَّ الرَّاكِبِينَ فِي الْعِلْمِ هُمُ الَّذِينَ أَعْنَاهُمْ عَنِ افْتِحَامِ السُّدِّ الْمَضْرُوبِ دُونَ الْغُيُوبِ الْإِقْرَارُ بِجُمْلِهِ مَا جَهِلُوا تَفْسِيرَهُ مِنَ الْغَيْبِ الْمَحْجُوبِ فَمَدَحَ اللَّهُ تَعَالَى اعْتِرَافَهُمْ بِالْعَجْزِ عَنْ تَنَاوُلِ مَا لَمْ يُحِيطُوا بِهِ عِلْمًا وَسَيَّمَى تَزَكُّهُمْ التَّعَمُّقَ فِيمَا لَمْ يُكَلِّفُهُمُ الْبَحْثَ عَنْ كُنْهِهِ رُسُوخًا فَاقْتَصَرَ عَلَى ذَلِكَ وَلَا تُقَدِّرْ عَظَمَةَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ عَلَى قَدْرِ عَقْلِكَ فَتَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ» .

الشرح والتفسير

أشار الإمام عليه السلام في هذا الكلام إلى قاعده كليه مهمه وخالده في فهم صفات الحق سبحانه وتعالى، بحيث لو انطلق الجميع في حركتهم الفكرية من خلالها لما بقي هناك من اختلاف بما يرتبط بصفاته سبحانه، فقال عليه السلام: «فانظر أيها السائل فما ذلك القرآن عليه من صفته فأنتم به، واستضيئ بنور هدايته، وما كلفك الشيطان علمه مما ليس في الكتاب عليك فرضه، ولا في سنه النبي صلى الله عليه وآله وأئمة الهدى أثره؛ فكل عمله إلى الله سبحانه، فان ذلك منتهى حق الله عليك». فالواقع أن الإمام عليه السلام قد حدد وظيفه الجميع في ضروره معرفه صفات الله بالاستناد إلى القرآن وسنه النبي صلى الله عليه وآله واهدى أئمة العصمه عليهم السلام، والابتعاد تماماً عن الاستبداد

والتمسك بالرأى والتعويل على الأفكار الإنسانية المحدوده بهذا الخصوص، فكل هذه الأمور من وساوس الشيطان ومكائده. لأن صفات الله مطلقه كذاته ليست محدوده من جانب، ومن جانب آخر فإن معارف الإنسان وعلومه إنما تقتصر على المخلوقات، فاذا اتجهوا صوب صفات الله خشى عليهم السقوط في مستنقع التشبيه على غرار صفات مخلوقاته، ومن هنا فإن أغلب من ولى ظهره لهذا الأصل الأساسى المتمثل بالرجوع إلى القرآن والوحي وكلمات المعصومين عليهم السلام بلى بالانحراف وإجراء صفات المخلوق على الخالق، من جهه أخرى فهذا القرآن يهتف بأنديتنا صباح مساء: «لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ» (١) و«وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا» (٢) فأنى للإنسان بهذا الفكر القاصر أن يطمع في معرفه ذات الله وصفاته ولا يكتفى بمعرفته الإجماليه على ضوء نور الوحي وهدى العصمه الذى ينأى به بعيدا عن الزلل. فلا يمكن معرفه الله إلّا به، وهو كما عرف نفسه وصفاته. وهنا يبرز هذا السؤال: هل صفات الله توقيفيه؟

يعنى لا يجوز وصفه إلّا من خلال ما ورد فى الكتاب والسنة؟

ونقول فى الإجابة على هذا السؤال نعم هذا ما عليه أغلب المحققين والعلماء الأعلام، إلى جانب ضروره مراعاة الحيطة والحذر فى مبحث صفات الله والانفتاح عليها انطلاقاً من الوحي وكلمات المعصومين عليه السلام. بعبارة أخرى فإن السبيل إلى معرفه الله وصفاته إنما يمر عبر خط مستقيم يقع على جانبيه مطين عظيمين؛ مطب التشبيه ومطب التعطيل.

وتوضيح ذلك: إن مبحث معرفه ذات الله وصفاته كسائر المباحث التى اكتنفها الإفراط والتفريط. فقد شبه البعض صفات الله بصفات مخلوقاته، حتى اعتبروا صفاته سبحانه زائده على ذاته على غرار صفاتنا الزائده على ذاتنا من قبيل العلم والقدرة وسائر الصفات، فقد كنا لانعلم يوماً ثم أصبح لنا علم، ولم نكن أقوياء ثم أصبحنا كذلك، وهكذا اعتقدوا اشتماله سبحانه على هذه الصفات المشوبه بأنواع النقص، ثم اندفعوا أكثر من ذلك ليصوروا له سائر ما لخلقه من جسم وزمان ومكان وجهه، بل ويد ورجل وشعر مجعد وأمثال ذلك.

بينما خالف البعض الآخر هذا الاتجاه تماماً حتى قال بتعطيل معرفه صفات الله، فزعم أننا

ص: ١٨

١-١) سورة الشورى/١١. [١]

٢-٢) سورة طه/١١٠. [٢]

لانعرف شيئاً عن صفات الله ولا يسعنا ادراكها، وكل ذلك حذراً من التورط في مستنقع التشبيه الذي هوى فيه الفريق الأول.

والحق أنّ الفريقين الأول والثاني على خطأ، فهما لم يستضيئاً بنور الوحي وهدى أئمة العصمة عليهم السلام، ومن هنا غرقا في هاله من الظلام الدامس والجهل المطلق. ولو التزما وصيه أمير المؤمنين على عليه السلام لما قالوا بالتعطيل ولا التشبيه، ولا قنعنا بالمعرفة الإجمالية - التي وردت في العبارات القادمة من هذه الخطبة - ولركنا إلى القرآن وكلمات المعصومين عليهم السلام ليصونا أنفسهما من الزلل والانحراف ولاكتفيا بما وردت عنهم عليهم السلام من كلمات في صفاته سبحانه، دون أن يحكموا عقولهم القاصره بهذا المجال فليس للعقل من فعالية تذكر في هذا الخصوص دون الاستناد إلى الوحي ومعادنه الواضحة، فالحق أنّ هذا الوادي خطير فلا ينبغى أن يقتصوه، وأنه بحر لجى لا ينبغى لسهم أن يلجوه. فهي ظلمات بعضها فوق بعض ولا يمكن اختراقها إلا بمعونه من كشفت له.

جدير بالذكر أنّ الإمام عليه السلام عبر عما ورد في القرآن بالفرض وسنه المعصومين عليهم السلام بالأثر، ولعل هذا الاختلاف في التعبير بينها يشير إلى حقيقته وهي لزوم ووجوب التعرف على ما جاء في القرآن في باب صفات الله سبحانه. وما وصل عن المعصومين عليهم السلام إنّما هو مبين ذلك الذي جاء في القرآن.

ثم أشار الإمام عليه السلام إلى نقطه بالغه الأهمية وهي هداية الراسخين في العلم عن الانحراف في معرفه الحقائق القرآنية وذلك لتسليمهم وقرارهم بما خفى عنهم، فاذعنوا لعجزهم عن الخوض فيما غاب عن علمهم. فمدح الله سبحانه هذا الاذعان والاعتراف «واعلم ان الراسخين في العلم هم الذين اغناهم عن اقتحام السدد المضروبه دون الغيوب، الاقرار بجمله ما جهلوا تفسيره من الغيب المحجوب فمدح الله تعالى اعترافهم بالعجز عن تناول ما لم يحيطوا به علماً، وسمى تركهم التعمق فيما لم يكلفهم البحث عن كنهه رسوخاً»، ثم أوصى عليه السلام بالاكْتفاء والقناعه بهذا المقدار دون تحكيم العقل في الاحاطه بعظمه الله؛ الأمر الذي يؤدي إلى الهلاك «فاقتصر على ذلك، ولا تقدر عظمه الله سبحانه على قدر عقلك فتكون من الهالكين». فالواقع هو أنّ الإمام عليه السلام قد حذر ذلك السائل الذي سأل عن

صفات الله في أن صفات الله - وعلى غرار كنه ذاته - ليست ميسره لأي من الناس؛ وذلك لأنها غير محدوده، بينما محدود هو الإنسان في وجوده وذاته وعلمه، ليس للمحدود أن يحيط بكنهه وحقيقته الذات والصفات اللامحدوده. وبناءً على ماسبق فالسبيل الوحيد في مثل هذه الأمور هو الاكتفاء بالمعرفه الإجماليه، ونعني بذلك الوقوف على هذا الأمر من خلال آثاره سبحانه التي ملأت عالم الوجود، دون إدعاء معرفه كنه الذات، فنقف على علمه سبحانه وقدرته وسائر صفاته على نحو الإجمال دون الاحاطه بهذا العلم والقدره وما إلى ذلك من الصفات، من خلال تأمل النظام العجيب والمذهل الذي يسود عالم الوجود. ولا بأس هنا بالاستعانه بهذا المثال من عالم المخلوقات؛ فاننا نعلم بوجود ذات وصفات أغلب موجودات وكائنات عالم الخلقه، بينما لانعلم كنهها وحقيقتها. كما نعلم بوجود الزمان والمكان الذان يجريان على حياتنا، ولكن ماحقيقه الزمان والمكان؟ هذا هو الموضوع الذي عجز عن إدراكه كبارالفلاسفه فقدموا لهما عدّه نظريات. كلنا نعلم بوجود الجاذبيه و نلمس آثارها إلا أن أحد لا يعرف ماهي حقيقه الجاذبيه؟ فهل هي أمواج خاصه؟ أم ظاهره مجهوله تؤثر من مسافات بعيدة؟ وأوضح من ذلك أننا ندرك جميع الأشياء بعقولنا، لكن ماحقيقه العقل؟ ليس هناك من إجابة واضحة فالواقع هو أننا نكتفى بالمعرفه الإجماليه في أغلب ظواهر عالم الممكنات دون العلم التفصيلي بها، وعليه فليس من الغرابه أن نتعرف سطحياً على نحو الإجمال على ذات وصفات الحق سبحانه واجب الوجود دون أن يكون لنا علم تفصيل بها.

وعليه فمن الواضح أن الاصرار على إدراك كنه هذه الذات والتعمق في الصفات امّا أن تزيد من حيرتنا وذهولنا، أو أن تقذف بنا في متاهات الضلال ومستنقع التشبيه و تشبيه الخالق بالمخلوق؛ و هو الهلاك المعنوي الذي حذر منه الإمام عليه السلام بقوله: «فتكون من الهالكين» .

تأمل: الراسخون في العلم وتفسير المتشابهات

هنا يقتدح إلى الأذهان هذا السؤال: صرح الإمام عليه السلام في هذه الخطبه قائلاً: «ان الراسخين في العلم هم الذين اغناهم عن اقتحام السدد المضروبه دون الغيوب، الاقرار بجمله ما

جهلوا تفسيره من الغيب المحجوب فمدح الله تعالى اعترافهم بالعجز عن تناول ما لم يحيطوا به علماً» ونعلم أنّ عبارته عليه السلام إشاره إلى الآيه السابعة من سوره آل عمران «وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا» فتأويل الآيه هو أنّ الله وحده العالم بتأويل آيات القرآن المتشابهه والراسخون في العلم يعربون عن عجزهم إزاء ذلك؛ أى أنّ جملة والراسخون إستئنافيه. إلّا أنّ ما ورد في أغلب روايات الأئمه المعصومين عليهم السلام ولعلها تربو على الثلاثين روايه أنّهم عليهم السلام قالوا: «نحن الراسخون في العلم» معطوفه على الله. والسؤال المطروح: كيف يمكن حل هذا التضارب بين ما ورد في خطب نهج البلاغه وما جاء في الروايات؟ وبعبارة أخرى: هل للراسخين في العلم من معرفه بمتشابهات القرآن واسرار صفات الحق سبحانه وتعالى؟ أم أنّهم استحقوا صفه الرسوخ في العلم بسبب قناعتهم بذلك العلم الإجمالي وعدم التعمق في ما وراء ذلك؟

هناك عدّه روايات ذهبت إلى التصريح بالمعنى الأول، ويصعب تجاهل كل هذه الروايات. هذا من جانب، ومن جانب آخر فإنّ الخطبه التي نحن بصددّها تؤيد المعنى الثاني، وهذا ما أصاب أغلب محققي المسائل الإسلاميه والمفكرين بالحيره والذهول. إلّا أنّ قدراً من الدقه من شأنه أن يجمع بين المعنيين وإزاله ذلك التضارب، ولا يتيسر ذلك من طريق واحد بل من طريقين:

الأول: أنّ الراسخين في العلم مهما كانت منزلتهم وعلو مقامهم حتى الأئمه المعصومين عليهم السلام فليس لهم ذاتاً العلم بمتشابه القرآن وأسرار صفات الحق سبحانه؛ وما علمهم إلّا من ذلك التعليم الإلهي والوحي والالهام الغيبي. وهذا ما ذكرناه مسبقاً في بحث علم الغيب والشفاعه بشأن الآيات القرآنيه النافيه لعلم الغيب عن أولئك الكرام عليهم السلام والآيات المثبتة لهم علم الغيب في أنّهم لا يتمتعون ذاتياً بهذا العلم، وان كان لديهم من علم فبتعليم الله، كما أنّهم لا يمتلكون الشفاعه ذاتاً، ولا يشفعون إلّا بأذنه وإلّا لمن ارتضى له الله.

الثاني: أنّ المتشابهات و أسرار المعارف الدينيه المعقده على نوعين: نوع يعلمه الراسخون في العلم (كتفسير أغلب متشابه القرآن). أمّا النوع الثاني المرتبط بتفسير الآيات القرآنيه ذات الصله بذات الله وصفاته. فالعلم التفصيلي به ليس ميسراً لأي إنسان، وكل ما يسع الإنسان

إدراكه فعلى أساس المعرفة السطحية والعلم الإجمالي الذى ورد بيانه سابقاً. بعبارة أخرى: فإنّ المتشابهات على قسمين؛ قسم يعلمه المعصومين عليهم السلام والراسخون فى العلم، وآخر يتعلق بذات الباري وصفاته لا- يعلمه أحد من الناس، والروايات المذكوره ناظره إلى القسم الأول، بينما التى نشرحها وارده فى القسم الثانى.

والنتيجة فإنّ الواو فى الآية الشريفه عاطفه، ومفاد الآية هى علم الله والراسخين فى العلم بتفسير المتشابهات، أما العبارة الوارده فى الآية: «يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا» فهى عبارة منفصله تعالج بعض المسائل من قبيل كنه الذات والصفات أو زمان القيامة وأمثال ذلك (1).

ومن هنا يتضح ما تعارف بين العلماء الأعلام من أنّ صفات الله توقيفيه؛ أى لا ينعت سبحانه إلّا بتلك النعوت والأسماء التى وردت فى الكتاب والسنة. وإلّا لو فسح المجال أمام الأفكار البشريه لتأخذ سبيلها إلى أسماء الله وصفاته، لنعته بما لا يليق بشأنه بفعل قصر هذه الأفكار واقتصار تعاملها مع الممكنات المعروفه بالحدود. ومن هنا وردت التحذيرات التى تميط اللثام عن مدى المخاطر التى تعترض هذا السبيل لو سلك دون الاستضاءه بنور الكتاب وهدى السنه المطهره. لذلك ردّ الإمام عليه السلام على السائل عن صفات الحق سبحانه وتعالى بالقول «فما دلّك القرآن عليه من صفته فائتم به، واستضىء بنور هدايته، . . . إلى أن يقول عليه السلام فاقصر على ذلك، ولا تقدر عظمه الله سبحانه على قدر عقلك فتكون من الهالكين» .

ص: ٢٢

١- ١) قال ابن أبى الحديد فى شرح هذه الخطبه يمكن أن تكون جمله يقولون نصباً على أنّه حال من الراسخين، ويمكن أن يكون كلاماً مستأنفاً، أى هؤلاء العالمون بالتأويل، يقولون: آمنّا به (٤٠٤/٦) .

القسم الثالث: العالی علی الخیال والقیاس والظن والوهم

«هُوَ الْقَادِرُ الَّذِي إِذَا ارْتَمَتْ الْأَوْهَامُ لِتُدْرِكَ مُنْقَطِعَ قُدْرَتِهِ وَحَاوَلَ الْفِكْرُ الْمُبْرَأَ مِنْ خَطَرَاتِ الْوَسَاوِسِ أَنْ يَقَعَ عَلَيْهِ فِي عَمِيقَاتِ غُيُوبِ مَلَكُوتِهِ وَتَوَلَّهَتْ الْقُلُوبُ إِلَيْهِ لِتَجْرِيَ فِي كَيْفِيَّتِهِ صِفَاتِهِ وَغَمَضَتْ مِداخِلَ الْعُقُولِ فِي حَيْثُ لَا تَبْلُغُهُ الصِّفَاتُ لِتَنَاقُلَ عِلْمَ ذَاتِهِ رَدَعَهَا وَهِيَ تَجُوبُ مَهَاوِي سِدْفِ الْغُيُوبِ مُتَخَلِّصَةً إِلَيْهِ سُبْحَانَهُ فَرَجَعَتْ إِذْ جِبْهَتُهَا مُعْتَرِفَةً بِأَنَّهُ لَا يُنَالُ بِجُورِ الْإِعْتِسَافِ كُنْهَ مَعْرِفَتِهِ وَلَا تَخْطُرُ بِبَالِ أُولَى الرُّوِيَّاتِ خَاطِرُهُ مِنْ تَقْدِيرِ جَلَالِ عِزَّتِهِ» .

الشرح والتفسير

واصل الإمام عليه السلام كلامه بالتطرق إلى ما أورده سابقاً بشأن عجز العقول البشريه عن إدراك صفات الله سبحانه بعبارات عميقه وورصينه. كاشفاً النقاب عن حقيقه من خلال قضيه شرطيه - بأربع جمل شرطيه معطوفه على بعضها جزائين للشرط - وهي أنّ الإنسان مهما كان عميقاً في تفكيره جاداً عن طريق العقل والشهود لبلوغ كنه صفات الله سبحانه، فإنّ ذلك لن يتكامل بالنجاح ولا- ينبغي أن يكتب له النجاح؛ وذلك لأنّه ذات فوق: «ما لا- يتناهى بما لا يتناهى»، فعقول الناس قاصره من جميع الجهات فقد قال عليه السلام: «هو القادر الذي إذا ارتمت (1)

ص: ٢٣

١-١) «ارتمت» من ماده «رمى» على وزن نهى تعنى اطلاق السهم، ولما كان السهم يتحرك بسرعه فان جمله «ارتمت» تعنى سرعه حركه الأفكار.

الأوهام، لتدرك منقطع (١) قدرته. وحاول الفكر المبرأ من خطرات الوسوس أن يقع عليه في عميقات غيوب ملكوته، وتولت (٢) القلوب إليه، لتجرى في كيفية صفاته، وغمضت مداخل العقول في حيث لا- تبلغه الصفات لتناول علم ذاته، ردعها وهي تجوب (٣) مهاوى (٤) سدف (٥) الغيوب، متخلصه إليه سبحانه. .

فالواقع هو أنّ الإمام عليه السلام أشار إلى أربعة عوامل للبحث في إطار السعي لمعرفة كنه الصفات؛ الأول: الأفكار العاديه الملوثة، والثاني الأفكار المنزهه عن الوسوس، والثالث: القلوب المفعمه بحب الله والتي تحث الخطى باتجاه الشهود، والرابع: والأخير العقول الحاده والدقيقه التي تعتمد الطرق الاستدلاليه والنظريه في تعاملها مع المسائل، ليصفها الإمام عليه السلام في خاتمه المطاف بالعجز عن إدراك كنه ذاته وصفاته، وأنّ لتلك الذات والصفات أنوار خاطفه تسلب العقول لبها وتردع أصحاب هذا السبيل من الخوص والتقدم. فهو كما قال الشاعر: فيك يا أعجوبه الكون غدا الفكر كليلاً

ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه بأنّ عاقبه حركه هذه العقول والقلوب والأوهام هو العجز، فلا ترى أمامها سوى الاعتراف بسداجه السعي وتفاهه الحركه التي ليس من شأنها الانفتاح على ذاته وصفاته، فعقول البشر قاصره عاجزه ليس لها إدراك ذلك بل لاتخطر عظمته وعزته على أفكار العلماء: «فرجعت إذ جبهت (٦) معترفه بأنه لاينال بجور الاعتساف (٧) كنه معرفته، ولا

ص: ٢٤

-
- ١- ١) «منقطع» الشى ما إلح ينتهى حيث يحصل القطع عاده آخر الشى.
 - ٢- ٢) «تولت» من ماده «وله» بمعنى العشق و شده حب الشى حتى تجعل الإنسان حيراناً وتصيبه بالذهول.
 - ٣- ٣) «تجوب» من ماده «جوب» على وزن ذوب بمعنى القطع والثقب. فقد ورد فى الايه التاسعه من سوره الفجر [١] بشأن قوم الثمود «و ثمود الذين جابوا الصخر بالواد» فى اشاره الى دورهم التى كانوا يبنوها فى الجبال من جراء قطع الحجر والصخر.
 - ٤- ٤) «مهاوى» جمع «مهواه» و «مهوى» تعنى فى الأصل الوادى بين جبلين، أو الحفره بين جدارين، و لما كان مثل هذا المكان مطبا، فقد وردت هذه الكلمه بمعنى الهلاك.
 - ٥- ٥) «سدف» جمع «سدفه» بمعنى الظلمه.
 - ٦- ٦) «جبهت» من ماده «جبهه» بمعنى الجبين با البناء للمجهول ضربت جبهتها والمراد عادت خائبه.
 - ٧- ٧) «اعتساف» السلوك على غير جاده، كما وردت بمعنى مطلق الانحراف والعدول عن الشى.

تخطى ببال أولى الرويات (1) خاطره من تقدير جلال عزته». فالعبارة «إرتمت الأوهام» إشاره إلى سرعه حركه الأفكار العاديه للناس من أجل كشف عمق وسعه صفات الله. والعبارة: «حاول الفكر المبرأ...». إشاره إلى أفكار العلماء والمفكرين الذين طهروا أرواحهم من وساوس الشيطان فاصبحت أفئدتهم على درجه من الصفاء بحيث عادت كالمرآه تعكس الحقائق. والعبارة: «تولعت القلوب إليه...». اشتد عشقها حتى أصابها الوله وهو الحيره، فهي دائبه السعى وحث الخطى لمعرفة الله والانفتاح على ذاته وصفاته والعبارة: «وغمضت مدخل العقول...». إشاره إلى العقول المقتدره التي انطوت على أدق السبل النظرية الاستدلاليه. فالإمام عليه السلام أشار إلى أن الإنسان وإن حكم هذه الطرق الأربع فأنها قد تمكنه من إدراك بعض الحقائق. إلّا أن أى من هذه الطرق لا يمكنها إدراك كنه الذات وحقيقه الصفات. والحق أن هذا أروع بيان وأبلغه يصور عجز البشر عن إدراك كنه ذاته وصفاته سبحانه. طبعاً هذا ليس معلولاً لخفاء ذاته وصفاته سبحانه، بل اشتد ظهوره حتى حارت الأبصار عن الوقوف على كنهه؛ الأمر الذى نلمسه فى تعذر رؤيتنا لقرص الشمس وهل ذاك لظلامها أم لشده نورها وضوئها. فاذا كان هذا وضع الشمس التى تعد كوكباً ضائعاً ضمن ملايين الكواكب والمجرات، فما ظنك بذات الحق؟ وعبارة أخرى: فالإنسان كلما إقترّب أكثر غرق فى بحر وهاله من النور والعظمه، لكى لا يجد من سبيل أمامه سوى الاعتراف بالعجز.

وبالطبع فهذا لا يعنى أننا نعتقد بتعطيل صفاته وذاته ونزعم أننا لا نستطيع مطلقاً التعرف على الله، بل ملأت آثار علمه وقدرته وذاته وصفاته عالم الوجود، بحيث نراه فى كل مكان ونستمع لتسبيحه وتنزيهه فى كل موضع؛ وإن كان علمنا على نحو الإجمال لا التفصيل.

ص: ٢٥

«الَّذِي ابْتَدَعَ الْخَلْقَ عَلَى غَيْرِ مِثَالٍ امْتَثَلَهُ وَلَا- مِقْدَارٍ احْتَدَى عَلَيْهِ مِنْ خَالِقٍ مَعْبُودٍ كَانَ قَبْلَهُ وَأَرَانَا مِنْ مَلَكُوتِ قُدْرَتِهِ وَعَجَائِبِ مَا نَطَقَتْ بِهِ آثَارُ حِكْمَتِهِ وَاعْتِرَافِ الْحَاجَةِ مِنَ الْخَلْقِ إِلَى أَنْ يُقِيمَهَا بِمَسَاكٍ قُوَّتِهِ مَا دَلَّنَا بِاضْطِرَارِ قِيَامِ الْحُجَّةِ لَهُ عَلَى مَعْرِفَتِهِ فَظَهَرَتْ الْبِدَائِعُ الَّتِي أَحَدَتْهَا آثَارُ صَنْعَتِهِ وَأَعْلَامُ حِكْمَتِهِ فَصَارَ كُلُّ مَا خَلَقَ حُجَّةً لَهُ وَدَلِيلًا عَلَيْهِ وَإِنْ كَانَ خَلْقًا صَامِتًا فَحُجَّتُهُ بِالتَّدْبِيرِ نَاطِقَةٌ وَدَلَالَتُهُ عَلَى الْمُبْدِعِ قَائِمَةٌ» .

الشرح والتفسير

جرى حديث الإمام عليه السلام سابقاً عن التحذير في التعمق في كنه الذات والصفات، وذلك لتعذر إدراكها على العقل البشري مهما كانت إمكاناته. فواصل هنا الكلام وبغية عدم تصور غلق باب معرفه الله فتطرق عليه السلام على نحو الإجمال إلى طرق معرفه ذاته وصفاته ليكشف عن حقيقه فحواها سمو هذه الذات وغناها المطلق عن الحدود. فهو الذي أفاض الوجود على المعدومات دون الاحتذاء بمثال سابق، أو الاستمداد من خالق آخر «الذي ابتدع الخلق على غير مثال امثله ولا مقدار احتدى عليه، من خالق معبود كان قبله». فالعبارات إشاره إلى أزليه ذاته المقدسه سبحانه من جانب، ومن جانب آخر أنّ مخلوقاته قد وجدت دون تجربته وسابقه؛ فهو خلق جديد وتام بكل معنى الكلمه.

وتعتبر مسأله «الابداع» (الخلق دون تجربته) من المسائل المهمه. حيث تتضح هذه الأهميه من خلال العلم بأن كافه الابداعات والاختراعات البشريه إنّما تستند لما قبلها من الأمثله في

عالم الخلقه. فهي تقتدى أحياناً في عملها بظاهرة من ظواهر مختلفه في ما تقوم به من إبداع، و أحياناً أخرى بظواهر تركيبه و تليفه مختلفه بالضبط كالرسم الماهر الذي يعكس بريشته بعض الصور الرائعه والجميله بالاستناد إلى من سبقه في الرسم والتصوير. فبالطبع لولا وجود هذه الصور والأشياء لما وسع ذلك الرسام هذا الإبداع والجمال. أمّا الحق سبحانه فليس كذلك فعمله الإبداع دون الاقتداء بالمثل وليس ذلك لأحد سواه. وقد مرّ علينا شبيه هذا المعنى البديع في الخطبه الاولى من نهج البلاغه بعبارة عليه السلام «أنشأ الخلق إنشاءً، وابتدأه ابتداءً. . .». ثم قال عليه السلام موضحاً ما أورده أن أَرَانَا مِنْ عَجَائِبِ قُدْرَتِهِ وَالْآثَارِ الْحَالِيَةِ عَنْ تَنَاهَى حِكْمَتِهِ وَحَاجَةِ كَافَةِ الْأَشْيَاءِ إِلَيْهِ بِمَا يَدْعُونَا تَلْقَائِيَا إِلَى مَعْرِفَتِهِ: «وَأَرَانَا مِنْ مَلَكُوتِ قُدْرَتِهِ، وَعَجَائِبِ مَانَطَقَتِ بِهِ آثَارِ حِكْمَتِهِ، وَاعْتِرَافِ الْحَاجَةِ مِنَ الْخَلْقِ إِلَى أَنْ يَقِيمَهَا بِمَسَاكِ قُوَّتِهِ، مَا دَلَّنَا بِاضْطِرَارِ قِيَامِ الْحُجَّةِ لَهُ عَلَى مَعْرِفَتِهِ» بعبارة أخرى فإنّ الله سبحانه قد أبان آثار قدرته في عالم الوجود وهي تجرى وفقاً لنظام دقيق وقوانين معقده تفيد أنّ الإبقاء عليها يتطلب علمه وتدييره الحكيم. فذرات الكون برمتها محتاجة إليه في خلقها وكذلك في ادامة حياتها واستمرارها، وهي تحكى بكافه تفاصيلها عن تناهى قدرته وحكمته. بما يجعل الإنسان يقر بضعفه وعجزه والاستضاءه بنور معرفته. ثم واصل الإمام عليه السلام قائلاً: «فظهرت البدائع التي أحدثتها آثار صنعته وأعلام حكمته، فصار كل ما خلق حجه له، ودليلاً عليه؛ إن كان خلقاً صامتاً، فحجته بالتدبير ناطقه، ودلالته على المبدع قائمه» (١) نعم فقد غصت أرجاء العالم بعلمه وقدرته وشع نور التوحيد من جبين كافه مخلوقاته وكائناته سبحانه. كما عطر فضاء العالم بحمده وتسيحه «سَدِّ نُرِّيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَّبِعَنَّ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ» (٢).

وهو المعنى الذي عبر عنه أبو العتاهيه حين أنشد قائلاً: (٣) فيا عجا كيف يعصى الاله

ص: ٢٨

١- (١) الضمير في حجته ودلالته يعود إلى الخلق لا الخالق.

٢- (٢) سورة فصلت/٥٣. [١]

٣- (٣) الكنى واللقاب ١/١٢١. [٢]

نعم فايئما وليت وجهك طالعتك آيات الله، وإذا أعت أذنك أى كائن طرقت سمعك ألسنه حال التسييح والتقديس. فما أكثر الأدله والبراهين التى تجعلك تدرك تلك الذات المقدسه، أنهاتمتد لتشمل عدد أوراق الأشجار وقطرات المطر والذرات وخلايا البدن ونجوم السموات والمجرات، وبالتالى جميع ذرات وجود هذا العالم.

والعباره «ما دلنا باضطرار قيام الحججه» لا تعنى أننا نذعن على نحو الإجار بوجوده المقدس، بل تعنى أن الدلائل على وجوده على درجه من الظهور بحيث لم يبق معها مجال لانكار. كمثل من أحضر إلى المحكمه وقد نصبت للشهاده عليه الأفلام والأشرطه والشهود والقرائن المختلفه، بحيث لا يسعه التنكر لاعماله وأفعاله. فيعبر هنا بانه مضطر للاقرار، فهذا لا يعنى أنه ارغم على الاقرار من خلال ممارسه الضغوط والتعذيب، حيث أن المسأله على قدر من الوضوح، بحيث لا يسعه الانكار.

والعباره: «فحجته بالتدبير ناطقه، ودلالته على المبدع قائمه» إشاره إلى أن تدبير عالم الوجود دليل على علمه المطلق وقدرته، كما أن تنوع موجودات العالم المفعمه بالابداعات المذهله هو الآخر دليل على قدرته المطلقه وعلمه.

«فَاشْهَدُ أَنَّ مَنْ شَبَّهَكَ بِتَبَائِينِ أَعْضَاءِ خَلْقِكَ وَتَلَاْحَمِ حِقَاقِ مَفَاصِلِهِمْ الْمُحْتَجِّبِ لِتَدْبِيرِ حِكْمَتِكَ لَمْ يَعْقِدْ غَيْبَ ضَمِيرِهِ عَلَى مَعْرِفَتِكَ وَلَمْ يُبَاشِرْ قَلْبَهُ الْيَقِينَ بِأَنَّهُ لَا نَدَّ لَكَ وَكَأَنَّهُ لَمْ يَسْمَعْ تَبْرُّؤَ التَّابِعِينَ مِنَ الْمَثْبُوعِينَ إِذْ يَقُولُونَ تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ إِذْ نَسَى وَيُكْمِرُ رَبُّ الْعَالَمِينَ كَذَبَ الْعَادِلُونَ بِحُكِّكَ إِذْ شَبَّهُوكَ بِأَصْنَانِهِمْ وَنَحَلُّوكَ حَلِيَةَ الْمَخْلُوقِينَ بِأَوْهَامِهِمْ وَجَزَّوْكَ تَجْزِئَةَ الْمُجَسَّمَاتِ بِخَوَاطِرِهِمْ وَقَدَّرُوكَ عَلَى الْخَلْقِ الْمُخْتَلِفِ الْقُوَى بِقِرَائِحِ عُقُولِهِمْ».

الشرح والتفسير

عاد الإمام عليه السلام هنا ثانيه إلى بيان صفات الله سبحانه وتعالى، محذراً من الاقتراب من وادى التشبيه، فلعل دلائل وجود الله في عالم الخلق والبحث عن آثار عظمته في كل موضع من مواضع هذا العالم توسوس للإنسان أن يعتقد ببعض الصفات لله على غرار صفات مخلوقاته، حتى أنه ليستقط في مطب التجسيم على الله، ليراه جسمًا كسائر مخلوقاته.

ومن هنا ابتهل الإمام عليه السلام إلى الله قائلاً: «فأشهد أن من شبهك بتباين أعضاء خلقك وتلاحم (١) حقايق (٢) مفاصلهم المحتجبه لتدبير حكمتك، لم يعقد غيب ضميره على معرفتك، ولم يباشر قلبه اليقين بأنه لا- ند لك، وكأنه لم يسمع تبرؤ التابعين من

ص: ٣١

١-١) «تلاحم» من ماده «لحم» بمعنى الاتصال، شبيه اتصال عضلات الجسم.
٢-٢) «حقايق» جمع «حقه» وهو رأس العظم عند الفصّل.

المتبوعين إذ يقولون تالله إن كنا لفي ضلال مبين إذ نسويكم برب العالمين» .

فهذه العبارات إشاره واضحه إلى ضلال المجسمه أو المشبهه وشركهم وكفرهم، حيث جعلوا الله جسماً ذا أعضاء ويد ورجل وعين واذن فهووا وافى وادى التشبيه ليروه سبحانه مخلوقاً ضعيفاً وعاجزاً فانياً، حتى عبر عنهم القرآن فى الآيه الشريفه بأنهم على ضلال مبين.

والعباره: «من شبهك بتباين أعضاء خلقك» إشاره إلى من له جسم، وجسمه مركب من أعضاء مختلفه. والعباره: «تلاحم حقاك مفاصلهم» إشاره إلى الارتباط السائد بين الأعضاء وبناء على هذا فإن أعضاء البدن منفصله عن بعضها البعض ومنظمه مع بعضها أيضاً، وهذا من حكمه الله فى خلقه المخلوقات، بحيث لولا- اشتماله على الأعضاء المختلفه لتحددت أعمالها، كما لو كانت منفصله تماماً لتعذر تعاضدها وتعاونها فى القيام بانشطتها وفعاليتها. كما أن البارئ بحكمته ولطفه قد أخفى هذا الارتباط بين الأعضاء تحت طبقات اللحم ليصونها من مختلف الحوادث الخارجيه. ولا يمكن تصور هذا الأمر إلأفى عالم الخلقه، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، فهو منزه عن الأجزاء والأعضاء ولا يحتاج إلى الجسم.

فالإمام عليه السلام يشير إلى أن هؤلاء الأفراد الجهال قد إصيبوا بثلاثه انحرافات: الأول: عدم معرفتهم الحقيقه لله، الثانى: عدم اعتقادهم بوحدانيته، الثالث: أنهم لم يسمعوا آيات القرآن ولم يفتحوا على تعليمات هذا الكتاب السماوى، ومن هنا شهدوا على أنفسهم بأنهم «فى ضلال مبين» . أمّا يوم القيامه حين ترفع الحجب وتتضح الحقائق سرعان ما يقفون على خطأهم، فيتبرأ التابع من المتبوع ويلعن بعضهم بعضاً ولا- يملكون سوى الندم والخجل يوم لا ينفع الندم؛ الأمر الذى ورد بشكل صريح فى هذه الخطبه.

الجدير بالذكر أن الإمام عليه السلام قد نسب كلامه السابق إلى الناس، ثم انتقل هنا إلى الله؛ الأمر الذى ينبه إلى خطوره القضيئه التى حذر منها لأن التأمل فى الكلام يتوقف على درجه ومكانه المخاطب فكيف به إذا صدر من المشفق. ثم واصل عليه السلام الحديث عن طائفه أخرى من المنحرفين - أى المشركين والوثنيين الذين يعدون جزء من المشبهه - فقال «كذب العادلون (1) بك، إذ

ص: ٣٢

١-١) «عادل» ماده «عدل» على وزن قشر بمعنى المعادل والشبيه والنظير والعادلون بك الذين عدلوا بك غيرك، أى سووه بك وشبهوك به.

شبهوك بأصنامهم، ونحلوك (١) حليه المخلوقين باوهمهم، وجزأوك تجزئه المجسمات، بخواطرهم، وقدروك على الخلقه المختلفه القوى بقرائح (٢) عقولهم» فقد نفى الإمام عليه السلام بهذه العبارات الرصينه القاطعه - والتي بينت بأربع صور - كافه أنواع الشرك والتشبيه لله سبحانه بمخلوقاته، وتحذر الجميع من السقوط فى مستنقع الشرك والتشبيه، إلى جانب تعيين الحد الفاصل بين توحيد الموحدين وشرك المشركين. ففى العبارة الاولى نفى التشبيه بالأصنام.

والعبارة الثانيه صرحت ببطلان اصفاء صفات الزينه للمخلوقات على الله (من قبيل وصفه من بعض الجهال بأنه فتى جميل أمر له شعر مجعد) .

والعبارة الثالثه التى تنفى عنه التركب من الأجزاء والأعضاء من قبيل اليد والرجل. والعبارة الرابعه سداجه الاعتقاد باتصافه بمختلف الحواس (التي لمخلوقاته) من قبيل البصره والسامعه والشامه وهكذا تتحطم معاقل الشرك من مختلف الجوانب.

تأمل: من هم المجسمه؟

تطلق المجسمه (بكسر السين) على من نسب الجسميه لله و هم الذين يقولون بأن له يد ورجل واذن وعين، كما يقال لهؤلاء المشبهه بكسر الباء، وذلك أنهم يشبهون الله سبحانه بمخلوقاته الماديه. ويبدو أنّ مثل هذا الاعتقاد كان سائدا بين أفراد البشر منذ قديم الزمان حيث جعلهم قصر فكرهم يعجزون عن تصور ماوراء هذه الطبيعه الماديه، حتى ألقوا الماديات والجسام فظنوا أنّ الله سبحانه مثلهم أو كسائر الأجسام الماديه. ومن هنا نشأ الاعتقاد بسائر المعبودات كالشمس والقمر والكواكب وسائر أجسام المشابهه. ويفيد تاريخ اليهود رسوخ عقيدتهم بجسميه الحق سبحانه وتعالى، ومن ذلك مدى اصرارهم على نبيهم موسى عليه السلام فى أن يريهم الله سبحانه جهره ولا تخفى علينا قصه جبل الطور والصاعقه التى

ص: ٣٣

- ١-١) «نحلوا» من ماده «نحل» بمعنى الهبه والعطيه، وحليه المخلوقين صفاتهم الخاصه بهم من الجسمانيه ومايتبعها.
- ٢-٢) «قرائح» جمع «قريحه» تعنى فى الأصل أول ماء يسحب من البئر، ثم اطلقت على النتاجات الفكريه والذوقيه للإنسان.

أخذت طائفه من بنى إسرائيل فبعد أن نجى بنى اسرائيل من البحر أتوا موسى عليه السلام وقد مروا بقوم يعكفون على أصنام لهم فقالو لنيهم موسى عليه السلام اجعل لنا إلهًا كما لأولئك، بل لم يثوبوا إلى رشدهم حتى بعد أن أخذتهم الصاعقه، ثم سارعوا لعباده العجل الذى أخرجه لهم السامرى، حتى ضلت فيه جماعه من بنى اسرائيل. فرجع اليهم موسى عليه السلام غضبان أسفاً وآخذهم بما فعلوا.

تاريخ النصارى أيضاً يشهد بأن عقيدته التثليث (الله والابن والروح القدس) كانت شائعه بين النصارى والتي تفيد القول بالجسميه على الله. فهم يصرحون جهره بأن المسيح عليه السلام ابن الله وأنه أحد الآلهه الثلاث. والحال لم يكن المسيح عليه السلام سوى بشراً من سائر الناس.

ولما نزل القرآن الكريم على صدر الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله أبطل هذه العقائد الفاسده بما فيها القول بالتجسيم والتشبيه. والشاهد على ذلك الآيات القرآنيه: «لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ» (١) و: «لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ» (٢) و «لَنْ تَرَانِي» (٣) و «وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ» (٤) و «وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ» (٥) و «فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ» (٦) التى تنفى جسميه الله سبحانه وتعالى. إلّا أنّ المؤسف له هو أنّ بعض الأفكار الانحرافيه الموروته من الأمم الوثنيه واليهوديه والنصرانيه والمجوسيه قد وردت الإسلام لتخترق عقائد بعض السذج من المسلمين الذين اصطلح عليهم بالمجسمه أو المشبهه.

ولعل بعض التعبيرات الكنائسيه التى وردت فى بعض الآيات القرآنيه من قبيل الآيه الكريمه: «يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ» (٧) والآيه: «الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى» (٨) قد أصبحت ذريعه لدى بعض المنحرفين من أصحاب النظره القاصره والأفكار الضيقه و المنحرفه ليحتوا الخطى نحو هذه المذاهب المشركه الفاسده؛ والحال من المسلم به أنّ اليد فى الآيه تعنى القوه

ص: ٣٤

١-١ (١) سورة الشورى/١١ [١]

٢-٢ (٢) سورة الانعام/١٠٣. [٢]

٣-٣ (٣) سورة الأعراف/١٤٣. [٣]

٤-٤ (٤) سورة الحديد/٤. [٤]

٥-٥ (٥) سورة ق/١٦. [٥]

٦-٦ (٦) سورة البقره/١١٥. [٦]

٧-٧ (٧) سورة الفتح/١٠. [٧]

٨-٨ (٨) سورة طه/٥. [٨]

والقدره واستوى بمعنى السلطه والسيطره، لا بمعنى الجلوس والاستقرار على الشىء، وبالطبع فإن هذه الكنايات كانت سائده لدى مختلف الأقوام قبل نزول القرآن وبعده، من قبيل قولهم، ليس له يد على هذا الأمر، وهكذا فإن مفرده الاستواء التى تستعمل بشأن استيلاء سلطان وسيطرته على بلاد.

وناهيك عما سبق فإن الأدله العقليه والمنطقيه هى الأخرى تنفى بوضوح أية جسميه عن الله؛ لأن كل جسم محدود وله زمان ومكان واجزاء، وعليه فهو محتاج من مختلف الجهات، ونعلم أن ليس للحاجه والمحدوديه من سبيل إلى ذاته المطلقه سبحانه. والأهم من كل ذلك أن كافه الأجسام يعترئها التغيير بل وحتى الزوال، فى حين ليس لهذا التغيير والزوال أن يدنس ساحه كبريائه وعظمته.

ورغم كل ما مرّ من أدله واضحه، فمما يؤسف له - كما أشرنا إلى ذلك سابقاً - فإن عقيدته الجسميه المنحطه قد طالت جمعاً من جهال المسلمين حتى أوغلوا فى الانحراف والضلال، و حسب ما نقله «المحقق الدوانى» فان البعض يعتقد بأنه جسم مركب من لحم ودم تنبعث منه أشعه قضيه شفافه وله قامه من سبعة أشبار، كما اعتقد البعض الآخر بانه على هيئه شاب أمرد له شعر مجعد حسب ما ذكره المحقق الدوانى بشأن هذه الفئات الضاله.

فقد أورد العلماءه الحلوى فى كتابه منهاج الكرامه قصه عن بعض المجسمه، لا بأس أن أنقلها. فقد حكى عن بعض المنقطعين التاركين من شيوخ الحشويه أنه اجتاز عليه فى بعض الأيام نفاط ومعه أمرد حسن الصوره ققط الشعر على الصفات التى يصفون ربهم بها. فألح بالنظر إليه ليلاً وكرره، فتوهم منه النفاط أمراً، فجاء إليه ليلاً وقال له: رأيتك تلح بالنظر إلى هذا الغلام وقد أتيتك به، فان كان لك فيه نيه فأنت الحاكم. فرد عليه وقال: إنما كررت النظر لأن مذهبي: أن الله ينزل على صوره هذا الغلام، فتوهمت أنه الله. فقال له النفاط: والله ما أنا عليه من النفاطه أجود ممّا أنت عليه من الزهد مع هذه المقاله. (١)

ص: ٣٥

«وَأَشْهَدُ أَنَّ مَنْ سَاوَاكَ بِشَيْءٍ مِنْ خَلْقِكَ فَقَدْ عَدَلَ بِكَ وَالْعَادِلُ بِكَ كَافِرٌ بِمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ مُحْكَمَاتُ آيَاتِكَ وَنَطَقَتْ عَنْهُ شَوَاهِدُ حُجَجِ بَيِّنَاتِكَ وَإِنَّكَ أَنْتَ اللَّهُ الَّذِي لَمْ تَتَنَاهَ فِي الْعُقُولِ فَتَكُونَ فِي مَهَبِّ فِكْرِهَا مُكَيِّفًا وَلَا فِي رَوِيَّاتِ خَوَاطِرِهَا فَتَكُونَ مَحْدُودًا مُصَرَّفًا» .

الشرح والتفسير

عاد الإمام عليه السلام هنا مره أخرى إلى قضيه انحراف المشركين والقائلين بالتشبيه، ليشهد عند الله ثانيه بانحرافهم، وما ذلك الا- لسماع المخاطبين وتحذيرهم من الوقوع في هذا المستنقع النتن. فقد قال عليه السلام: «وأشهد أن من ساواك بشي من خلقك فقد عدل بك، والعاذل بك كافر بما تنزلت به محكمات آياتك، ونطقت عنه شواهد حجج بيناتك» .

يبدو أن هناك فارقا بين شهاده الإمام عليه السلام هنا في انحراف المشركين، وتلك الشهاده السابقه. حيث وردت في طائفتين. فالشهاده السابقه إنما وردت بشأن الوثنيين الذين شبهوا الله بالأوثان والأصنام واتخذوها أرباباً من دون الله. أي كانوا يسألونها حاجاتهم ومن هنا عبدوها واتخذوها آلهه. أما الشهاده التي وردت هنا فهي ناظره لأولئك الذين سواوا به بعض خلقه في جميع الجهات، كالثنويه من الوثنيين الذين يعتقدون بوجود إلهين هما إله الخير وإله الشر، والنصارى القائلين بالتثليث (الأب والابن والروح القدس). فقد اعتبر الإمام عليه السلام هؤلاء كافرين بمحكمات القرآن والحجج البيئه: «كافر بما تنزلت به محكمات آياتك، ونطقت عنه شواهد حجج بيناتك» يمكن ان تكون العبارة «محكمات الآيات» و «الحجج البيئات» كلاهما

إشارة إلى آيات تنفى صراحه أى نظير وشبيه لله، من الآية الشريفة «قُلْ أَيْنَكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أُنْدَادًا» (١) والآية: «فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أُنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ» (٢).

كما يحتمل ان يكون المراد بالآيات المحكمات آيات توحيد صريح القرآن الكريم والحجج البينات الأدله العقلية التي تنفى عن الله سبحانه أى شبيهه ونظير.

ويؤيد هذا الاحتمال العبارات اللاحقه: «وأنتك أنت الله الذى لم تتناه فى العقول، فتكون فى مهب (٣) فكرها مكيفاً، ولا فى روايات خواطرها فتكون محدوداً مصرفاً» .

فقد أشار الإمام عليه السلام فى العبارة الاولى إلى عدم إدراك العقول لكنه ذاته وصفاته سبحانه التي أشير إليها فى بدايه الخطبه. كما أشار فى العبارة الثانية إلى عدم إحاطه الأفكار بهذه الذات المطهره، وذلك لأن هذه الأفكار لو أحاطت به، لكان محدوداً بالضروره، وما كان محدوداً طراً عليه التغيير والزمان والمكان والجهات الأخرى.

ص: ٣٨

١-١ (١) سورة فصلت / ٩. [١]

٢-٢ (٢) سورة البقره / ٢٢. [٢]

٣-٣ (٣) «مهب» اسم مكان من ماده «هبوب» بمعنى موضع هبوب الرياح، وقد شبهت العبارة المذكور الفكر بالنسيم الذى يهب من موضع؛ إلّا أنّ كنه ذات الله وصفاته سبحانه خارجه عن ذلك الموضع.

ومنها: «قَدَرَ ما خَلَقَ فَأَحْكَمَ تَقْدِيرَهُ وَدَبَّرَهُ فَأَلْطَفَ تَدْبِيرَهُ وَوَجَّهَهُ لِرُجُوعِهِ فَلَمْ يَتَعَدَّ حُدُودَ مَنْزِلَتِهِ وَلَمْ يَقْصُرْ دُونَ الْإِنْتِهَاءِ إِلَى غَايَتِهِ وَلَمْ يَسْتَعْصِبْ إِذْ أَمَرَ بِالْمُضِيِّ عَلَى إِرَادَتِهِ فَكَيْفَ وَإِنَّمَا صَدَرَتْ الْأُمُورُ عَنْ مَشِيئَتِهِ» .

الشرح والتفسير

ذَكَرَ الإمام عليه السلام هنا مَرَّةً أُخْرَى بعالم الخليفة والتدبير الإلهي في تنظيم شؤون الخلق وأنَّ هذا التدبير والنظام إنما يستند إلى جلال الحق وجماله، الذي خلق كل شيء بمقدار واخضعه لتدبيره وهداه إلى سبيله: «قدر ما خلق فأحكم تقديره، ودبره فألطف تدبيره، ووجه لوجهته» وهكذا يكون الإمام عليه السلام قد بين المراحل الثلاث «التقدير» و «التدبير» و «التوجيه» . فالتقدير خلق الكائنات بمقدار، والتدبير إداره شؤونها وفق الخطه والمسيره المرسومه لها، والتوحيد تمهيد السبيل وإعداد الظروف اللازمه لهذه الحركه من أجل بلوغ الهدف وتحقيق الغايه، حيث تسير كل هذه المراحل على ضوء برنامج معين منظم غايه في الدقه بالشكل الذي لم يدع مجالاً لكائن من كان أن يسير بطريق عشوائي، لا- في انبثاق خلقه ولا في ديمومته بحيث يشذ عن ذلك النظام والقانون. ومن هنا أشار الإمام عليه السلام إلى هذا الأمر في أنَّ أحداً من الموجودات لم يتجاوز حدوده، ولم يقصر في بلوغ الهدف، ولم ينطلق في حركته الاعلى أساس اراده الله سبحانه وأنى له التمرد على هذه الإراده التي تستند إليها جميع الإرادات: «فلم يتعد حدود منزلته، ولم يقصر دون الانتهاء إلى غايته، ولم يستعصب إذ أمر بالمضى على إرادته، فكيف وإنما صدرت الأمور عن مشيئته؟» . فالواقع هذه العبارات تحول دون التصور بأنه حركات كافه

الكائنات الأرضيه والسماويه بما فيها النباتات والحيوانات والناس والكواكب واجتيازها لمراحل النحو والتكامل يجرى بصورة عشوائيه. فهي تسير بوحى من أمره وإرادته على ضوء الخطه المعده لها سلفاً ولايسعها تخطى تلك الخطه بأى حال من الاحوال. وعليه فعالم الوجود يدار بمنتهى النظام والدقه. و لعلنا نلمس الإشاره إلى المراحل الثلاث المذكوره فى الآيات القرآنيه، ومن ذلك الآيات ٣٨-٤٠ من سوره يس: «وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذِيكُ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ* وَالْقَمَرَ قَدَرْنَا مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ* لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ» .

ناهيك عن سائر الآيات القرآنيه التى أشارت إلى هذه الحقيقه وهنا لابد من الالتفات إلى أمرين: الأول هو أنّ ما ورد فى العبارات المذكوره بشأن الأوامر و تبعيه المخلوقات للمشيئه الإلهيه إنما هو إشاره إلى الاوامر التكوينيّه، أو بعباره أخرى: إشاره إلى القوانين التى أوجدها الله سبحانه فى عالم الوجود وسيره على أساسها، بالشكل الذى يحول دون تجاوزها لهذه القوانين. والأمر الثانى أنّ هذا الكلام لا يعنى إجبار الإنسان على أفعاله وذلك لأنّ الله سبحانه جعل صفه الاختيار وحرية الإراده أحد تلك القوانين التى تسير عالم الوجود، وليس للإنسان قط أنّ يسلب نفسه هذه الصفه، وعباره أخرى فإنّ حرية الإنسان أيضاً بأمره سبحانه وتعالى.

«الْمُنْشَىٰ أَصْنَافَ الْأَشْيَاءِ بِلا رَوِيهِ فِكْرٍ آلِ إِلَيْهَا، وَلَا قَرِيحِهِ غَرِيزِهِ أَضْمَرَ عَلَيْهَا، وَلَا تَجْرِبِهِ أَفَادَهَا مِنْ حَوَادِثِ الدُّهُورِ وَلَا شَرِيكَ أَعَانَهُ عَلَىٰ ابْتِدَاعِ عَجَائِبِ الْأُمُورِ، فَتَمَّ خَلْقُهُ بِأَمْرِهِ، وَأَدْعَنَ لِبَاعِيَّتِهِ، وَأَجَابَ إِلَىٰ دَعْوَتِهِ، لَمْ يَغْتَرِضْ دُونَهُ رَيْثُ الْمُبْطِي، وَلَا أَنَاةُ الْمُتَلَكِّي، فَأَقَامَ مِنَ الْأَشْيَاءِ أَوْدَهَا، وَنَهَجَ حُدُودَهَا، وَلَاءَمَ بِقُدْرَتِهِ بَيْنَ مُتَضَادِّهَا، وَوَصَلَ أَسْبَابَ قَرَائِنِهَا، وَفَرَّقَهَا أَجْنَاسًا مُخْتَلِفَاتٍ فِي الْحُدُودِ وَالْأَقْدَارِ، وَالْغَرَائِزِ وَالْهَيْئَاتِ، بِدَايَا خَلْقِ أَحْكَمَ صُنْعَهَا وَفَطَرَهَا عَلَىٰ مَا أَرَادَ وَابْتَدَعَهَا» .

الشرح والتفسير

خاض الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الخطبة في كيفية خلق الموجودات على أن الله سبحانه وتعالى خلقها من دون حاجه إلى التفكير، أو غريزه مستتره في الباطن، إلى جانب الغنى عن تجارب الماضي وسالف الدهور، وبالتالي دون الحاجه إلى عضيد وشريك «المنشى أصناف الأشياء بلا رويه فكر آل إليها، ولا قريحه (1) غريزه أضمر عليها، ولا تجربه أفادها من حوادث الدهور، ولا شريك أعانه على ابتداء عجائب الأمور» .

فالواقع هو أن أسس علمنا ومعرفتنا بالحقائق إنما تستند إلى أحد أربع: الفكر والتروى، أو الالهام الباطنى الذى يصطلح عليه بالغريزه، أو التجربة التى يحصل عليها الإنسان من

ص: ٤١

١-١) قريحه: كما أسلفنا سابقاً فى الأصل، بمعنى أول ماء يخرج من البئر عند ما يحفر، و كذلك يطلق على مايتفتق من أعمال فكر و ذوق الانسان. و يشمل ذلك الغريزه التى هى بمعنى الطبيعه، و هو الشىء الذى يحصل عليه الانسان بمساعدته ذوقه و طبعه. و يصح هذا المعنى أيضاً على غير الانسان، فمثلاً أكثر الطيور تقوم ببناء أعشاشها و تربيته فراخها و الهجره الطويله و بشكل جماعى و أمثال ذلك، كل هذا يتم بواسطه القريحه و الغريزه.

خلال تكرار الحوادث، و أخيراً العون الذى يحصل عليه من الاستعانه الخارجيه لأصحاب الفكر الذين يعينونه فى القيام ببعض الأعمال والابداعات. وبالطبع فإنّ الحق سبحانه وتعالى ليس بحاجة لأى من هذه الأسس والمصادر فهو العالم بكل الأشياء، وهى حاضره عنده، وليس هنالك من حقيقه خارجه عن دائره علمه المطلق. فالفكر إنّما يستفیده من كان له معلومات ومجهولات، يروم توظيف معلوماته لكشف أسرار هذه المجهولات. والالهام الغريزى إنّما يعتمد من غابت عنه الحقائق ولا تتضح له إلّا من خلال هذا الالهام. وأمّا التجربه وتكرار العمل للوقوف على النتائج فانما ترتبط بمن يجهل نتائج الأمور وأخيراً فان الاستعانه بافكار الآخرين إنّما يختص بضعف الأفراد وعجزهم إلى جانب قصور فكرهم؛ فما حاجه الذات المطلقه لمثل هذه الأمور وهى بتلك الخصائص والصفات؟

وبغض النظر عما سبق فإنّ العبارات بدورها ترشد الإنسان الجاهل إلى الظفر بمصادر المعرفه، وأنّ هذه المصادر الأربعة تمكنا من حل المشاكل التى تواجهنا فى حياتنا اليوميّه. ثم أشار الإمام عليه السلام إلى نقطه أخرى بهذا الشأن وهى قطعيه حاكميه قوانين الخلق على كافه الكائنات: «فتم خلقه بأمره وأذعن لطاعته، وأجاب إلى دعوته، لم يعترض دونه ريث (١) المبطى، ولا أنه (٢) المتلكى» (٣).

فهذا الموضوع إشاره أيضاً إلى قدره الله ونظامه الرصين فى عالم الخلق، حيث تسير كافه هذه الموجودات على ضوء قوانين معينه وهى مؤتمره بأمره، فهى لا تتخلف عن هذه القوانين ولا تتقدم عليها. فقد صرح القرآن الكريم بهذا الخصوص قائلاً: «ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ» (٤).

أضف إلى ذلك فهى تشتمل على رساله واضحه لكافه الناس فى الانسجام وعالم الخلق وتبعيه هذه القوانين الإلهيه، دون التقدم عليها أو التخلف عنها، بهدف بلوغ الغايه والظفر بالفلاح والسعاده.

ثم اختتم عليه السلام كلامه بالإشاره إلى خمسهِ أمورٍ جديره بالتأمل بشأن نظام الخلق وأسرار عالم

ص: ٤٢

١-١) «الريث» التثاقل عن الامر والقيام بالعمل.

٢-٢) «أنه» بمعنى الوقار المقرون بالفكر حين القيام بالعمل.

٣-٣) «متلكى» من ماده «لكأ» على وزن هدف الوقوف فى مكان، ثم اطلقت على من يتوقف فى مسأله ويفكر فيها.

٤-٤) سورة فصلت/ ١١. [١]

الخلق، الأول: استواء هذه الموجودات دون أى اعوجاج او انحراف: «فأقام من الأشياء أودها» (١) الثاني: أنه عين لها المسار الذى ينبغى لها أن تسلكه «ونهج حدودها». الثالث: تأليفه بين الأشياء المتضاده بقدرته «ولاءم يقدرته بين متضادها». الرابع: ربطها مع نظائرها «ووصل أسباب قرائنها». والخامس: تقسيمها إلى أنواع مختلفه على أساس الحدود والأجناس والمقادير والغرائز والاشكال والهيئات «وفرقتها أجناسا مختلفات فى الحدود والأقذار والغرائز والهيئات» وهكذا تمّ نظام الخلق وتكامل من جميع الجهات ليقوم بوظائفه على اختلاف أنواعه وأجناسه كوحده واحده ضمن قانون واحد. وأبعد من ذلك تعاضدت وتعاونت حتى الأشياء المتضاده لتفرز نتائج باهره، كما إتصلت الأشباه والنظائر، لتشكل بالتالى مجموعته بديعه عجيبة تشير إلى مدى قدرته المطلقة سبحانه وعلمه التام.

ذهب بعض شراح نهج البلاغه إلى أنّ المراد بالقرائن فى العبارة هى نفوس البشر التى أقرها الله فى الأبدان، حيث يبدو فى الظاهر أنّ هناك تضاد بين البدن الذى ينتمى إلى عالم المادة والنفس التى تنتمى إلى عالم المجردات.

طبعاً وان كان أحد معانى القرينه (وجمعها قرائن) فى اللغة هو النفس الإنسانى إلّا أننا لا نمتلك الدليل الذى يجعلنا نصرف المعنى المذكور ليقصر على هذه النفس: بل الهدف هو بيان جمع الأضداد ووصل القرائن والأشباه فى جميع أنحاء عالم الوجود والذى يعد الوجود الإنسانى أحد مصاديقه، وأنّ أصل إطلاق القرينه على نفس الإنسان إنّما يعزى لاقترانها ببدنه.

ثم إختتم عليه السلام كلامه بالقول على أساس الخلوص إلى نتيجته واضحه: «بدايا خلائق أحكم صنعها، وفطرها على ما أراد وابتدعها» (٢).

تأمل: أوضح طريق إلى معرفه الله

يعتبر تأكيد الإمام عليه السلام على التفكير فى عالم الخلق والتأمل فى خلق المخلوقات دون

ص: ٤٣

١- ١) «أود» بمعنى الاعوجاج.

٢- ٢) الجملة من حيث النحو هى أنّ «بدايا» خير لمبتدأ محذوف تقديره هذه، واضافه بدايا إلى الخلائق من قبيل اضافه الصفه إلى الموصوف، التى تعنى فى الأصل خلائق بدايا، وبدايا جمع بديئه المصنوع البديع.

الاستغراق في ذات الله، من الأصول الأساسية في الأبحاث ذات الصلة بمعرفة الله. وذلك لأن الأول يقود الإنسان إلى الإيمان والتوحيد؛ التوحيد المفعم بالعشق والحب والاخلاص، بينما يسوقه الثاني إلى الشرك والتشبيه. أما سائر الأدلة والبراهين في معرفه الله من قبيل برهان الوجوب والإمكان والغنى والفقر التي تدور حول محور الدور والتسلسل، فهي دلائل جافه توصل إلى المعرفه إلا أنها لا تختزن أى حب أو عشق وإخلاص. والحال لم يقم نظام الخلق سوى على هذه المفردات. فقد جاء في الحديث القدسى: «كنت كنتراً مخفياً فأجيبت أن أعرف، فخلقت الخلق لكي أعرف». فاذا فكرنا بعظمه السموات والكواكب التي تربو على الملايين في مجرتنا فقط والحال يقول العلماء بوجود مليارات المجرات في هذا العالم. وإذا أمعنا النظر في العالم المذهل لخلايا جسم الإنسان والذي تمتاز كل خليه فيه بان بنيتها قد تنطوى عليه مدينه صناعيه من الخفايا والأسرار. وعندما نتامل التنوع العجيب للنباتات والحيوانات، وأن هناك الملايين من أنواع النباتات والحيوانات التي تعيش في أعماق الغابات والبحار والتي لم يراها أو يتوصل اليها الإنسان لحد الآن، ونقر بأن هذه الموجودات العجيبه إنما تستمد حياتها من موجودين بسيطين هما الماء والتراب. وأخيراً حين نتدبر روعه الورود والأزهار ولطافه الأوراق ودقه نظام دوره الدمويه. وعمل الاورده والشرابين المخ والدماغ وإيعازات الأعصاب، ثم نلتفت إلى أن كل هذا ليس إلا جانباً من عجائب عالم الخلقه، لانملك سوى الالتحاق بقافله هذا العالم ومشاركتها التسبيح والتقديس والحركه نحو الله، ونحن نردد ما يردده الملائه الأعلى «سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا» (١) و«رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا» (٢) وقلوبنا مقعمه بحب الله والإيمان به والخشوع له والتواضع أمام عظمته وجبروته.

وعبارات الإمام عليه السلام الماره الذكر إشاره عميقه إلى هذه الحقائق.

ص: ٤٤

١-١ (١) سورة البقره/٣٢. [١]

٢-٢ (٢) سورة آل عمران/١٩١. [٢]

«وَنَظَمَ بِلَا تَعْلِيْقٍ رَهَوَاتٍ فُرَجِيهَا، وَلَا حَمَّ صِدُوعٍ أَنْفِرَاجِيهَا، وَوَشَّحَ بَيْنَهَا وَيَبْنَ أَرْوَاجِيهَا، وَذَلَّلَ لِلهَا بَطِينٍ بِأَمْرِهِ، وَالصَّاعِدِينَ بِأَعْمَالِ خَلْقِهِ، حُزُونَهُ مِعْرَاجِيهَا، وَنَادَاهَا بَعِيدَ إِذْ هِيَ دُخَانٌ، فَالْتَحَمَتْ عُرَى أَشْرَاجِيهَا وَفَتَقَ بَعِيدَ الْإِرْتِنَاقِ صَوَامِتَ أَبْوَابِيهَا، وَأَقَامَ رَضِيداً مِنْ الشُّهُبِ الثَّوَابِقِ عَلَى نِقَابِيهَا، وَأَمْسَكَهَا مِنْ أَنْ تُمُورَ، فِي خَرْقِ الْهَوَاءِ بِأَيْدِهِ وَأَمَرَهَا أَنْ تَقِفَ مُسْتَسْلِمَةً لِأَمْرِهِ» .

الشرح والتفسير

أشار الإمام عليه السلام في المقطع السابق من هذه الخطبة إلى الكليات في تدبير عالم الخلق والقوانين التي تسوده، إلى جانب تنوع الموجودات وكثرتها. ويخوض عليه السلام في هذا الجزء من الخطبة والجزء القادم في جزئيات ذلك. فيتعرض بصورة عميقة بعيدة المعنى لخلق السموات والملائكة والأرض والعالم السفلى وخلق آدم وما إلى ذلك. فقد استهل كلامه بادئ ذي بدء بخلق السموات فقال عليه السلام: «ونظم بلا تعليق رهوات (1) فرجها، ولاحم (2) صدوع (3) انفراجها»

ص: ٤٥

١-١) «رهوات» جمع «رهوه»، قال بعض أرباب اللغة (كتاب العين) تعنى المرتفع فوق الجبال، بينما فسرها أغلب أرباب اللغة على انها من ماده «رهو» على وزن سهو بمعنى المكان الخالي والمفتوح. والانسب أن يكون معناها في الخطبة النقاط المفتوحه. وأخير اعتبرها البعض من الأضداد؛ أى تعنى المكان المرتفع والمنخفض أيضاً.

٢-٢) «لاحم» من ماده «لحم» بمعنى ملاء فراغ الشئ، ما يصطلح عليه باللحم، ولعل أصلها اللحم الذى يملأ الفاصله بين العظام.

٣-٣) «صدوع» جمع «صدع» على وزن حرف بمعنى الشق.

فالواقع هو أنّ الإمام عليه السلام قد أشار بالعبارة الأولى إلى ما ورد في القرآن الكريم: «اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا» (١) ويصرح علماء الفلك بأن الكرات السماوية منفصلة عن بعضها وأنّ التوازن القائم بين القوهالجاذبه والطارده هي التي تبقى على كل واحد في موضعها. بينما أشارت العبارة الثانية إلى إرتباط أجزاء كل كره وتماسكها مع بعضها. وعليه فليس هنالك من تضاد بين العبارتين «ونظم بلا تعليق رهوات فرجها، ولاحم صدوع انفراجها». فالأولى ناظره للكل والآخرى للأجزاء (ووحده الضمائر هنا لا تسبب أى اشكال، لأنهما تعودان إلى السموات، أحدهما إلى المجموع والآخر إلى الجزء) (لا بدّ من الدقه والتمعن هنا).

ثم أشار في العبارة الثالثة إلى الرابطه بين الكرات السماوية القرينه لبعضها، فقال عليه السلام: «وشج (٢) بينها وبين أزواجها» يمكن أن تكون هذه العبارة إشاره إلى منظومات العالم العلوى المتألف من كرات شبيهه لبعضها إلى جانب النظام الذى كل كره (٣) ثم أشار عليه السلام في العبارة الرابعه إلى طرق هبوط وصعود الملائكه إلى السموات: «وذلل للهابطين بأمره، والصاعدين بأعمال خلقه، حزونه معراجها» (٤).

وهنا يتبادر هذا السؤال: هل الملائكه وجودات ماديه ولها صعود وهبوط مادى من وإلى السموات، أم أنّ المراد بهذا الصعود والهبوط هو الصعود والهبوط المعنوى؟ هنالك عدّه أقوال لشراح نهج البلاغه بهذا الخصوص.

ظاهر هذه العبارات الوارده فى الخطبه وأغلب الروايات والأخبار والآيات القرآنيه، أنّ الملائكه وجودات نوريه لها بعد جسمى رغم لطافتها التى تحول دون قدرتنا على مشاهدتها،

ص: ٤٦

١-١ (١) سورة الرعد/٢. [١]

٢-٢ (٢) «وشج» من ماده «وشج» على وزن نسج أى شبك.

٣-٣ (٣) فسّر البعض «الأزواج» هنا بمعنى الأرواح (النفوس الفلكيه) وترمز إلى عقيدته بعض الفلاسفه الذين يرون لكل فلك روحا مجردة، إلّا أنّ الانصاف هو عدم ثبوت هذه النظرية بدليل واضح، كما لا تدل العبارة المذكور على هذا الأمر.

٤-٤ (٤) «حزونه» (ولها معنى المصدر واسم المصدر) بمعنى الصعوبه، وقد وردت فى الخطبه بمعنى المشاكل والصعاب.

وعلى هذا الأساس يجوز عليها الصعود والنزول والذهاب والاياب. وسنخوض أكثر في هذا الموضوع في المقطع القادم من الخطبه بأذن الله السؤال الآخر الذى يطرح نفسه هنا: هل هناك من مكان يضم الله فى السموات لتهبط منه الملائكه فتوصل الرسالات والأوامر ثم تصعد إليه باعمال العباد؟ قطعاً لا يمكن تصور مثل هذا الأمر على الحق سبحانه الذى يفوق عالم ماده ولا يجرى عليه زمان ولا يحويه مكان ولا يتركب من أجزاء. اذن فما معنى هذا الصعود والهبوط؟ يبدو أنّ الإجابة على هذا السؤال تتضح من خلال الالتفات إلى هذه المسأله الدقيقه وهى: صحيح أنّ السموات والأرضين مخلوقات الله، إلّا أنّ هناك بعض المراكز فى هذا العالم المادى التى تعد من مواضع إنعكاس الأنوار الإلهيه. أو بعبارة أخرى هناك بعض المواضع التى لها قداسه خاصه. على غرار الأرض التى لا تتساوى جميع بقاعها. على سبيل المثال فقد اتجه موسى بن عمران عليه السلام إلى الطور حين أراد أن يأخذ الألواح، كما كان نبي الإسلام صلى الله عليه و آله يتجه قبيل انبثاق الدعوه إلى غار حراء؛ والحال هذان الموضعان ليسا باقرب من غيرهما إلى الله، إلّا أنّ قدسيه بعض المواضع تجعلها أعظم اشعاعاً للأنوار الإلهيه كالطور وحراء والمسجد الحرام. وهكذا الأمر بالنسبه للملائكه، فهناك بعض المراكز القدسيه فى العالم العلوى تتسلم فيها الملائكه الأوامر الإلهيه، وهى المراكز التى بلغها رسول الله صلى الله عليه و آله فى معراجه، بل جاوزها لما هو أقرب ليفيض الله عليه من لطفه وعنايته، وهناك تستودع الأعمال الخيره للعباد وتحفظ إلى يوم القيامة.

ثم خاض الإمام عليه السلام فى تفاصيل ما أورده سابقا على نحو الاجمال، حيث عرض بالشرح بخمس عبارات لمراحل خلق السموات. فأشار فى العبارة الاولى إلى أمره (ويراد به الأمر التكويني لا جتياز مراحل الخلقه والتكامل) السماء حين كانت على هيئته دخان «ونادها بعد إذ هى دخان» فهذه العبارة فى الحقيقة أشارت إلى أولى مراحل خلق العالم التى تعرضت لها الآيه من سورة فصلت «ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ» (1) وهو الأمر الذى يقره العلم المعاصر فى أنّ العالم برمته كان فى البدايه كتله عظيمه جداً من الغاز. وقال فى العبارة الثانيه (حيث وردت الخلقه مرحله جديده) «فالتحمت عرى أشراجها».

فبالنظر إلى أنّ معنى الالتحام هو الوصل، والعرى جمع عروه بمعنى المقبض، والاشراج جمع

ص: ٤٧

١ - ١) لا بدّ من الالتفات هنا إلى أنّ ثم الوارده فى الآيه تعنى التأخير فى البيان لا- الزمان. وعليه فهى لا- تدل على أنّ خلق السموات جاء بعد خلق الأرض (راجع التفسير الأمثل/ ١١ [١] من سورة فصلت).

شرح بمعنى الشق. فإنّ مفهوم الجمله المذكوره هو أنّ الله ضغط تلك الكتله العظيمة للدخان. ثم أдал الشقوق وربط أطرافها مع بعضها، وكأنّ هذه الشقوق كالصناديق التي تغلق مقابضها وتوصل مع بعضها لحفظ ما فيها. والعبارة تتفق و ما توصل إليه العلم الحديث الذى صرح بضغط كتله الغاز بفعل الجاذبيه الداخليه. ثم واصل كلامه عليه السلام حول فصل السموات عن بعضها وفتح أبوابها المؤصده (وقد جعل مسافه بينها) «وفتق بعد الارتقاء صوامت أبوابها». ولعل هذه العبارة إشاره إلى ما توصل إليه العلماء الذين يعتقدون أنّ تلك الكتله الغازيه الهائله قد شهدت انفجارا داخليا عظيما لتتلاشى وتظهر منها الكواكب والمجرات. وعلى ضوء الفرضيه الاخرى فان بعض أجزائها أخذت بالانفصال عن البعض الآخر إثر حركتها الدورانيه الشديده والقوه الطارده عن المركز، فابتعدت عن بعضها البعض فى هذا الفضاء لتتشكل منها الأجرام السماويه. فقد قال القرآن الكريم بهذا شأن «أَوَلَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا» (١).

ثم أشار فى العبارة الرابعه إلى خلق الشهب السماويه (التي تشاهد فى السماء على هيئة خطوط من النور تتحرك بسرعه) ثم تنطفئ، فقال عليه السلام: «وأقام رصدنا من الشهب الثواقب على نقابها» (٢).

لابدّ من الالتفات هنا إلى أنّ الرصد على وزن الصدف ذات معنى مصدرى فى الأصل وتعنى الاستعداد والتأهب لمراقبه الشى وحراسته. كما تطلق على الفاعل وتستخدم فى المفرد والجمع. ونقاب جمع نقب بمعنى الطريق أو الفاصله بين شيئين. وعليه فالعبارة تعنى أنّ الله زود طرق السموات بهذه الشهب لتحول دون نفوذ الشياطين إلى السموات؛ الأمر الذى أشير إليه كرارا فى عده آيات من القرآن الكريم، ومن ذلك الآيه الثامنه من سوره الصافات «لا يسمعون إلى الملاء الأعلى ويقذفون من كل جانب دحورا ولهم عذاب واصلب إلّا من خطف الخطفه فاتبعه شهاب ثاقب»، فالذى يستفاد إجمالا من هذه الآيات وسائرهما الوارده

ص: ٤٨

١-١) سوره الأنبياء/٣٠. [١]

٢-٢) المراد بالرؤيه هنا تلك التي تحصل عن طريق الفكر والتأمل، لا عن طريق المشاهده الحسيه؛ وذلك لأنه لم يكن الإنسان فى ذلك الزمان كما احتمال فى تفسير هذه الآيه ان المراد من رتق السموات عدم وجود المطر ونمو النباتات، والمراد بفتقها هو نزول المطر ونمو النباتات.

بهذا الشأن أنّ هناك أحاديث تدور في العالم العلوي بين الملائكة المأموره من قبل الله سبحانه في إداره شؤون العالم بشأن بعض الأخبار المهمه لهذا العالم، وأنّ الشياطين تحاول أحياناً الاقتراب من السماوات لاستراق السمع، إلّا أنّ الشهب تدفعها عن السماوات.

طبعاً صحيح أنّ الشهب على ضوء العلم الحديث، ليست إلّا صخوراً تائهه تشتعل حين تقترب من الكره الأرضيه وتصطدم بها، إلّا أنّ هذا لا يمنع أن تكون هذه الشهب مأموره بحراسه فضاء السماء من الشياطين؛ وأنّ تعذرت علينا رؤيه الشيطان، وخفيت علينا على وجه الدقه حركات الشهب (للقوف بصوره أعمق على هذا الموضوع المهم، عليك بمراجعته الجلد ١٩ من التفسير الأمثل ذيل الآيات المذكوره) ثم أشار في العبارة الخامسه إلى موضوع مهم آخر ذا صله بنظام كواكب السماء في أن الله سبحانه أمسكها بيد القدره من الحركات الطائشه في الفضاء، وأمرها بالتسليم لأمره: «وامسكها من أن تمور (١) في خرق الهواء بأيده (٢) وأمرها أن تقف مستسلمه لأمره» .

فالعباره تنجسم تماماً والعلم الحديث الذي صرح بأن الكواكب والمنظومات والمجرات في حاله حركه حول مداراتها بفعل تاثرها بالقوه الجاذبيه المتناسبه مع كتلتها والقوه الدافعيه التي تظهر فيها من جراء الحركه وقوه الطرد المركزي، دون أن تستند إلى شى أو ادنى انحراف عن مدارتها. بعباره أخرى فان التوازن الدقيق للقوه الجاذبيه و الطارديه لاتدعها تبتعد عن بعضها لتصبح كتله واحده. وقد يتضح هذا المطلب من خلال مفرده تمور (الحركه الطائشه) وخرق الهواء. إلّا أنّ بعض قدماء شراح نهج البلاغه الذين عاشوا أجواء نظريه الهيئه البطليموسيه القائله بالأفلاك التسع كقشور البصل، شهدوا بعض المشاكل في تفسير هذه العبارات، فاضطروا لحمل بعض الألفاظ المذكوره على معناها المجازي، والحال أنّ تفسيرها على ضوء الهيئه المعاصره لم يعد خافياً على أحد.

والعباره «أمرها» و «لأمره» أشاره إلى معنيين؛ فالأمر في بدايه العباره الأخيره يعنى الأمر

ص: ٤٩

- ١- ١) «تمور» من ماده «مور» على وزن قول بعدّه معانى في اللغه ومنها الحركه السريعه والغبار الذي تبعثره الرياح هنا وهناك، والذي يستفاد من تعبيرات أرباب اللغه أنها تعنى الاضطراب في الهواء.
- ٢- ٢) «أيد» على وزن صيد بمعنى القدره والنعمه، وجاء في القرآن ذا الأيد بمعنى صاحب القوه وهذا هو المعنى المراد بها في الخطبه.

الإلهى التكويني، والأمر فى آخر الجملة يعنى قوانين الخلق. أى أنّ الله خلقها بهذا الشكل لتكون منقاده مستسلمه لهذه القوانين.

تأمل: خصائص السماوات

لقد رسم الإمام عليه السلام بهذه العبارات صورته رائعته بليغه عن الخلقه العجيبه للسماوات، فأشار أولاً: إلى بدايه خلقها على أنّها كانت فى البدايه بمثابة كتله غازيه عظيمه.

ثانياً: الانفجار الهائل الذى وقع فى تلك الكتله العظيمه، والانفصال الذى شهدته الكواكب والمجرات عن بعضها البعض.

ثالثاً: تعلق الكواكب فى هذا الفضاء الواسع على أنه آيه من آيات عظيمه وقدرته سبحانه تعالى.

رابعاً: الحركات المنظمه للكرات السماويه حول مداراتها والخاله من آيه حركات عشوائيه (بفعل توازن قوى الجذب الطرد).

خامساً: حركه الملائكه وصعودها وهبوطها بين الأرض والسما و المراكز المقدسه، حيث تهبط بالوامر وتصعد بأعمال العباد.

سادساً: ارسال الشهب التى ترحم الشياطين حين تحاول الصعود إلى السماء بغيه استراق السمع، حيث بينها الإمام عليه السلام على سبيل الاختصار بعبارات قصيره وبليغه حيث يتطلب كل منها بحثاً مستقلاً.

ولاينبغى أن ننسى هنا أنّ كل ذلك قد حصل فى زمان لم تكن تحكم العقول والأفكار فيه سوى نظريه بطليموس فى الأفلاك والسماوات. ولابدّ من الازعان بأنّ بيان هذه الحقائق فى ذلك الوقت قد يبلغ حدّ الاعجاز، ليدل دلاله واضحه على مدى علم الإمام عليه السلام الذى استقاه من مصادر غير عاديه متعارفه (١).

ص: ٥٠

١-١) ورد شرح مفصل لهذا الموضوع فى المجلد الأول من هذا الكتاب / ١٠٢ - ١٢٠.

«وَجَعَلَ شَمْسَهَا آيَةً مُبْصِرَةً لِنَهَارِهَا، وَقَمَرَهَا آيَةً مَمْحُوءَةً مِنْ لَيْلِهَا، وَأَجْرَاهُمَا فِي مَنَاقِلِ مَجْرَاهُمَا، وَقَدَّرَ سَيْرَهُمَا فِي مَدَارِجِ دَرَجِهِمَا، لِيُمَيِّزَ بَيْنَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ بِهِمَا، وَلِيُعَلِّمَ عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابُ بِمَقَادِيرِهِمَا، ثُمَّ عَلَّقَ فِي جَوْهَا فَلَكَّهَا، وَنَاطَ بِهَا زِينَتَهَا، مِنْ خَفِيَّاتِ دَرَارِيهَا وَمَصَابِيحِ كَوَاكِبِهَا، وَرَمَى مُشْتَرِقِي السَّمْعِ بِثَوَاقِبِ شَهْبِهَا، وَأَجْرَاهَا عَلَى أَدْلَالِ تَسْخِيرِهَا مِنْ ثَبَاتِ ثَابِتِهَا، وَمَسِيرِ سَائِرِهَا، وَهُبُوطِهَا وَصُعُودِهَا، وَنُحُوسِهَا وَسُعُودِهَا» .

الشرح والتفسير

أشار الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الخطبه إلى خلق الشمس والقمر والكواكب وفلسفتها الوجوديه، ثم شرح بعبارات بليغه الفوائد والبركات لهذه الكواكب، حيث أشار إلى خلق الشمس وما يختزنه ضياؤها من بركات: «وجعل شمسها آيه مبصره لنهاها» .

ثم أضاف عليه السلام قائلاً: «وقمرها آيه ممحوه من ليلها» .

حيث اختلفت أقوال شراح نهج البلاغه في تفسير هذه العبارة فقال البعض المراد ممحوه بليالي المحاق الليالي الظلماء في آخر الشهر. وقال البعض الآخر القطع السوداء على سطح القمر. وقيل أيضاً المراد بهوت لون القمر تدريجياً بعد منتصف الليل. ولكن لا يبدو أى من هذه التفاسير تاماً، والمراد بقوله ممحوه هو قلّه ضياء القمر بالنسبه لضياء الشمس. على كل حال فإنّ هذه العبارة تتفق تماماً والآيات القرآنيه التى عدت الليل والنهار من آيات الله:

«وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ» (١) ولا تخفى بركات ضياء النهار وأشعه الشمس على حياه البشريه التي يعزى إليها كفافه الأنشطة والفعاليات والسعي والحركه من أجل العيش والحياه، كما أنّ الضياء المتواضع واللطيف للقمر في الليالي الظلماء والذي يقود إلى حل أغلب مشاكل الحياه البشريه، كما كان يستعين الإنسان حين الضروره في الطرق بضياء القمر ولاسيما في الصحراء. وفي ذات الوقت فإنه ليس على درجه من القوه بحيث يعيق حركته ونشاطه في النهار، وهذه نعمه أخرى من نعمه سبحانه.

ثم تطرق الإمام عليه السلام إلى حالات الشمس والقمر وفلسفتهما الوجوديه فقال: «واجراهما في مناقل (٢) مجراهما، وقد سيرهما في مدارج درجهما، ليميز بين الليل والنهار بهما، وليعلم عدد السنين والحساب بمقاديرهما»، وهو الأمر الذي أشار إليه القرآن الكريم بقوله: «هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ»، (٣) فمعلوم إنفصال الليل عن النهار بواسطه الشمس. ثم تطرق الإمام عليه السلام إلى الكواكب فقال: «ثم علق في جوها فلكها، وناط (٤) بها زينتها، من خفيات دراريها (٥)، ومصايح كواكبها». فقد أشار عليه السلام إلى نوعين من الكواكب السماويه: الأول الكواكب الصغيره التي عبر عنها الإمام عليه السلام بقوله خفيات دراريها، والثاني الكواكب الكبيره والتي عبر عنها بالقول مصايح. ونعلم بالطبع أنّ هذا التقسيم للكواكب إلى صغيره وكبير إنما يستند إلى رؤيتنا، وإلا فإنّ أغلب هذه الكواكب الصغيره قد تكون عظيمه الكبر حتى أنّها لتكبر شمسا

ص: ٥٢

١-١) سورة فصلت/٣٧. [١]

٢-٢) «مناقل» جمع «منقل» من ماده «نقل» بمعنى الطريق.

٣-٣) سورة يونس / ٥. [٢]

٤-٤) «ناط» من ماده «نوط» على وزن موت توقف الشئ على آخر.

٥-٥) «درارى» جمع «درى» من الدر الكواكب والقمار.

التي تعتبر إحدى الكواكب السماويه المتوسطه إلا أنها تبدو صغيره بسبب بعدها عن أبصارنا، وعلى العكس من ذلك بالنسبه للكواكب التي تبدو لنا كبيره (من قبيل كوكب الزهره) والذي يعدّ جزءاً من سيارات المنظومه الشمسيه، وبسبب قربه يبدو شديد الاشعاع، والحال ليست الزهره إلا كوكب صغير. على كل حال فإنّ هذه الكواكب السماويه لتزين الليل بما يجعله يخطف البصر، فضلاً عن دلالتها على عظمه الحق سبحانه وعدم تناهى قدرته وحكمته.

طبعاً تشكل الكواكب بدورها عالماً مستقلاً، ويرى أغلب العلماء أنّ معظمها قد يكون مأهولاً بالسكان وتسودها الحياه؛ غير أنّه يتعذر علينا تصور كيفيه الحياه عليها، على كل حال فإنّ دور هذه الكواكب في حياتنا لا يقتصر على تزيين السماء ليلاً فحسب، بل يمكن الاهتداء بها في البحار والصحارى؛ الأمر الذي أشار إليه القرآن الكريم: «وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالنَّجْمِ» (١) و بغض النظر عن ذلك فلعل الجاذبيه بين الكواكب و الأجرام السماويه هي التي ضمنت حفظ و بقاء الكره الأرضيه ثم أشار الإمام عليه السلام إلى ظاهره أخرى من الظواهر السماويه العجيبه وهي الشهب «ورمى مسترقى (٢) السمع بثواقب شهبها». تحدثنا سابقاً بالقدر الكافي عن الشهب وارجعنا القارئ إلى المصدر الذي اسهب في شرح هذا الموضوع، ولكن يبدو تكرارها في هذا الموضوع من كلام الإمام عليه السلام هو أنّها قد تبدو للنّاظر في الأرض أحياناً ككوكب متحرك، ومن هنا أشار إليها الإمام عليه السلام إلى جانب تقسيمه للكواكب. ثم تناول الإمام عليه السلام بعض خصائص هذه الكواكب فقال: «وأجراها على أذلال (٣)، تسخيرها من ثبات ثابتها، ومسير سائرها، وهبوطها وصعودها، ونحوسها وسعدها» وسنخوض في المباحث القادمه في موضوع الكواكب الثابته والسياره والهبوط والصعود وكيفيه نحسها وسعدها.

تأملات

١- الكواكب الثابته والسياره

نعلم أنّ الكواكب التي نراها في السماء تقسم من جهه إلى قسمين: ثابتة و سياره و سيار. والكواكب الثابته هي التي لا-تغير أوضاعها في السماء؛ فهي تطلع من جانب وتغيب في آخر دون أن يرى تغيير في مسافتها (طبعاً لها حركه، إلا أنّ هذه الحركه لا تؤثر في المسافات بسبب

ص: ٥٣

١-١) سورة الانعام/٩٧. [١]

٢-٢) «مسترقى» جمع «مسترق» بمعنى السارق ومنه استرق السمع، أى سماعه خفيه.

٣-٣) «أذلال» جمع «ذل» بكسر الذال المجرى والمسير.

بعدها الشاسع عنا) . أمّا الكواكب السياره فهى عدّه كواكب ضمن مجموعّه المنظومه الشمسيه التى تدور حول الشمس، ولما كانت مسافتها قليله جداً عن الكره الأرضيه بالنسبه لسائر الأجرام السماويه، فإنّ حركتها فى السماء واضحه تماماً، وهى فى تغيير مستمر لموضعها بالنسبه إلينا.

٢- خصائص الكواكب

هنالك مميزات أخرى للكواكب والنجوم ومنها الهبوط والصعود. فهى تتجه فى حركتها نحو الأعلى صاعده أحياناً وإلى الأسفل نازله أحياناً أخرى. وأوضح نموذج على ذلك الشمس التى تبدأ أوائل الشتاء متألقه فى مدارها لتشهد كل يوم فى موضع أعلى فى السماء، حتى تكون أحياناً فوق الرأس بالضبط وذلك حتى أوائل فصل الصيف حتى تبلغ ذروتها. ثم تبدأ مسيرتها التنازليه منذ شروع الصيف لتصل فى أول الشتاء إلى أدنى نقطه فى الأرض (طبعاً هذه التغييرات ليست مرتبطه فى الواقع بالشمس، بل ترتبط بتغيير وضع الأرض فى حركتها المداريه حول الشمس وانحراف محور الأرض بالنسبه لسطح المدار بنسبه ٢٣ درجه) . فهذه العبارات تدل على إحاطه الإمام عليه السلام بالمسائل الفلكيه، حيث أشار إلى هذه المسائل باروع بيان.

٣- سعد ونحو الكواكب

أمّا بشأن سعد هذه الكواكب ونحوها، فلو أردنا النظر إلى بدايه هذا الأمر فإنّها تعود إلى جمع من المنجمين القدماء. حيث كانوا يعتبرون بعضها نحساً، ويعتقدون بان طلوعها وتغيير أوضاعها يؤدى إلى وقوع بعض الحوادث فى الحياه الخاصه لبعض الأفراد (لأنهم يرون لكل فرد كوكباً)، وبالعكس فإنّ ظهور أو تغيير أوضاع البعض الآخر من الكواكب علامه على السعاده والتوفيق التى تصيب المجتمع أو الفرد؛ والحال نعلم أنّ الإسلام لا يرى من تأثير للكواكب على مصير الإنسان. ويعتبر ذلك نوعاً من الشرك. وقد مر علينا فى الخطبه ٧٩ من المجلد الثالث ما قاله أميرالمؤمنين على عليه السلام لذلك المنجم الذى قال له حين عزم على المسير

إلى الخوارج: إن سرت يا أمير المؤمنين في هذا الوقت خشيت ألا تظفر بمرادك من طريق علم النجوم. فغضب عليه السلام ورد كلامه وأن من صدقه فقد كذب القرآن الكريم واستغنى عن الاستعانه بالله في نيل المحبوب ودفع المكروه. ثم نهى الإمام عليه السلام الناس عن تعلم النجوم إلا ما يهتدى به في بر أو بحر. كما تظافت الروايات والأخبار التي وردتنا عن أئمة العصمة عليهم السلام بدم ذلك العلم من النجوم، لتجعل المنجم في مصاف الكاهن والساحر الذي عد كافراً. ومن ذلك ماورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: «من صدق كاهنا أو منجماً فهو كافر بما أنزل على محمد» (١)، وعده أحاديث بهذا الشأن، لاشك أن قدماء المنجمين كانوا على مذاهب بالنسبة لإرتباط الكواكب بمصير الإنسان والتي بينت بصورة تامه في شرح الخطبه ٧٩. ولعله يمكن القول أن هذه الروايات ناظره إلى الأفراد الذين يرون تدبير هذا العالم بيد هذه الكوكب وأن لها نوع من الألوهيه. نعم ليس من الكفر أن يقال للكواكب دلالة فقط على وقوع مثل هذه الحوادث (بأمرالله)؛ ولكن ليس هناك من دليل لاثبات هذا الأمر. فلهذه الكواكب عوالمها، كما للكرو الأرضيه وسكانها عالم. ولم يقم أى دليل علمى على الرباطه المذكوره، مثلاً طلوع الكوكب الفلانى وغروب الكوكب الفلانى أو إقتران هذا الكوكب مع ذاك مؤثر فى نشوب الحرب أو السلم؛ كما لايمكن فى نفس الوقت نفى هذا التأثير بصورة قاطعه وإن سمع ذلك من غير المعصوم. طبعاً لايسعنا التنكر لما ورد فى بعض الروايات التى صرحت بكراهيه الزواج والقمر فى العقرب، إلأننا أشرنا فى حينه إلى عدم وجود أى تضارب بهذا الخصوص. ومن هنا فان السعد والنحس الذى ورد فى الخطبه قد يكون إشاره إلى هذه الأمور. كما يحتمل أن تكون لاضاع الكواكب - ولا سيما سيارات المنظومه الشمسيه - فى مداراتها مقارنه مع بعضها البعض الآخر بعض التأثيرات الطبيعيه على الكره الأرضيه. فمثلاً- نعلم أن ظاهره المد والجزر التى تشهدها البحار إنما تنشأ بفعل تأثير جاذبيه القمر (إثر اقتراب الشمس من القمر أوائل الشهر وآخره) ولعل تأثيرها يتجاوز البحار لتؤثر حتى على سطح الأرض ممّا يؤدى إلى تشققها وحدوث بعض الزلازل. كما قد يسبب ذلك التأثير هطول بعض الأمطار الغزيره على الأرض وعليه فقد يكون السعد والنحس للكواكب إشاره إلى هذا التأثير الطبيعى الخاص.

ص: ٥٥

١-١) وسائل الشيعه ١٢/١٠٤. [١] للوقوف على سائر الأحاديث الوارده بهذا الشأن راجع الباب ٢٤ من أبواب ما يكتسب به.

«ثُمَّ خَلَقَ سُبْحَانَهُ لِإِسْكَانِ سَمَآوَاتِهِ، وَعِمَارَةِ الصَّفِيحِ الْأَعْلَى مِنْ مَلَكُوتِهِ، خَلَقًا بَدِيعًا مِنْ مَلَائِكَتِهِ، وَمَلَأَ بِهِمْ فُرُوجَ فِجَاجِهَا، وَحَشَا بِهِمْ فُتُوقَ أَجْوَائِهَا، وَبَيَّنَّ فَجَوَاتِ تَلَمَّكَ الْفُرُوجِ زَجْلُ الْمَسْبُوحِينَ مِنْهُمْ فِي حِطَائِرِ الْقُدْسِ، وَسُتْرَاتِ الْحُجُبِ، وَسِرَادِقَاتِ الْمَجِيدِ، وَوَرَاءَ ذَلِكَ الرَّجِيجِ الَّذِى تَسْتَكُّ مِنْهُ الْأَسْمَاعُ سُبُحَاتُ نُورٍ تَزْدَعُ الْأَبْصَارَ عَنْ بُلُوغِهَا، فَتَقِفُ خَاسِئَةً عَلَى حُدُودِهَا» .

الشرح والتفسير

خاض الإمام عليه السلام فى هذا القسم من الخطبه فى خلق الملائكه ومختلف المسؤوليات والوظائف التى يقومون بها، بعبارات تبطل فصاحه العرب وتجعل نسبه التراب إلى النضار الخالص كما صرح بذلك ابن أبى الحديد. فقال عليه السلام: «ثم خلق سبحانه السكان سمواته، وعماره الصفيح (1) الاعلى من ملكوته، خلقا بديعا من ملائكه، وملأ بهم فروج فجاجها، وحشاهم فتوق (2) أجوائها (3)». يمكن ان تكون (ثم) إشاره إلى خلق الملائكه بعد خلق الأرض وما عليها من كائنات، كما يمكن أن تكون وردت للتأخير فى البيان لا الزمان. ويبدو الاحتمال

ص: ٥٧

١- ١) «صفيح» من ماده «صفح» تعنى فى الأصل الانبساط والسعه، وعليه فهى تأتى بمعنى السطح الواسع، وقد وردت هنا بمعنى السماء الواسعه.

٢- ٢) «فتوق» جمع «فتق» بمعنى الشق فى الشى أو الفاصله بين شيئين، والفارق بين «الفروج» جمع فرج بمعنى الشق هو سعه الفتق، كما قد يكون إشاره إلى الشق الذى يفصل بين الشيئين، بينما ليس للفرج مثل هذا الفصل، ولا يعنى سوى الشق فى الشى.

٣- ٣) «أجواء» جمع «جو» بمعنى الهواء أو الفاصله بين السماء والأرض.

الأخير أنسب بالالتفات إلى الروايات التي صرحت بخلق السموات قبل خلق الكائنات الأرضية إلى جانب ما جاء في الخطبه الاولى من نهج البلاغه التي مّر شرحها. ثم صرح عليه السلام أنّ أصوات المسبحين قد ملأت أقطار السماء ودوت في حظائر القدس وسترات حجب العظمه: «وبين فجوات (1) تلك الفروج زجل (2) المسبحين منهم في حظائر (3) القدس، وسترات الحجب، وسرادقات (4) المجد». إلّا أن هذا لا يعنى ان الملائكه المقربين استطاعوا أن يبلغوا أوج معرفه سبحانه، ومن هنا أتبع الإمام عليه السلام ذلك بقوله أنّ وراء تلك الصيحات والتسيحات، سبحات النور التي تردع الأبصار وتوقفها عند حدها «وراء ذلك الرجيح (5) الذي تستك (6) منه الأسماع سبحات (7) نور تردع الأبصار عن بلوغها، فتقف خاسئه (8) على حدودها» .

طبعا لا تعنى هذه العبارة أنّ لله سبحانه وتعالى موضع في السموات وقد أحيط من كل جانب بطبقات من الأنوار الشديده، بل المراد أنّ هناك مراكز مقدسه في عالم الوجود تعجز عن مشاهدتها حتى الملائكه. كما يمكن ان يكون المراد من هذه العبارة أنّ ملائكه ورغم قربها من الله وغرقها في العباده والتسبيح، إلّا أنّها عاجزه عن إدراك كنه ذاته وصفاته سبحانه، وليس لها من نصيب سوى على قدر إدراكها.

بعبارة أخرى لو حملنا هذه العبارات وفسرناها على أساس ظاهرها فإنّها تفيد أنّ في السماء مواضع تتمتع بقديسه خاصه وهاله من النور (وهو المعنى الذي أشارت إليه بعض الروايات والأخبار) (9).

ص: ٥٨

١-١) «فجوات» جمع «فجوه» الموضع الواسع، كما تأتي بمعنى الفراغ بين الشيئين، وردت في قصه أصحاب الكهف في القرآن كإشاره لسعه غار أصحاب الكهف «وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ» .

٢-٢) «زجل» من ماده «زجل» على وزن حمل بمعنى قذف الشئ، وزجل على وزن عمل بمعنى الصوت المرتفع والمطرب، كما اطلقت على كل صوت مرتفع.

٣-٣) «حظائر» جمع «حظيره» المنطقه الممنوعه ومادتها «حظر» على وزن فرض بمعنى المنع.

٤-٤) «سرادقات» جمع «سرادق» الحجاب والخيمه العظيمه.

٥-٥) «رجيح» من ماده «رج» على وزن حج الزلزله والاضطراب.

٦-٦) «تستك» منه تصم منه الاذان لشدته.

٧-٧) «سبحات» جمع «سبحه» بمعنى النور والعظمه، وازافتها إلى النور في العبارة هي إضافيه بيانيه.

٨-٨) «خاسئه» من ماده «خسأ» على وزن مدح الدفع والطرده مع التحقير.

٩-٩) راجع بهذا الشأن بحار الأنوار، ج ٥٥ كتاب «السماء العالم» الباب ٥ (الحجب والاسرار والسرادقات) .

وعلى غرار ذلك فهناك على الأرض بعض المراكز التي تحظى بحرمه وقدسياه تفوق غيرها كالكعبه وبيت المقدس، دون ان تكون موضعا لذاته المقدسه سبحانه. وان حملناها على المعنى الكنائى، فأنها ستكون دليلاً على أن للملائكه حداً لا تتجاوزه رغم قربها و عبادتها و عبادتهم.

ص: ٥٩

«وَأَنْشَأَهُمْ عَلَى صُورٍ مُخْتَلِفَاتٍ، وَأَقْدَارٍ مُتَفَاوِتَاتٍ «أُولَى أَجْنَحِهِ» تُسَبِّحُ جَلَالَ عِزَّتِهِ، لَا يَنْتَحِلُونَ مَا ظَهَرَ فِي الْخَلْقِ مِنْ صُنْعِهِ، وَلَا يَدْعُونَ أَنْهُمْ يَخْلُقُونَ شَيْئاً مَعَهُ مِمَّا أَنْفَرَدَ بِهِ «بَيْلُ عِبَادٍ مُكْرَمُونَ» * لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ» جَعَلَهُمُ اللَّهُ فِيهَا هُنَالِكَ أَهْلَ الْأَمَانَةِ عَلَى وَحْيِهِ، وَحَمَلَهُمُ إِلَى الْمُرْسَلِينَ وَدَائِعِ أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ، وَعَصَى مَهُمْ مِنْ رَيْبِ الشُّبُهَاتِ، فَمَا مِنْهُمْ زَائِعٌ عَنْ سَبِيلِ مَرْضَاتِهِ، وَأَمَدَّهُمْ بِفَوَائِدِ الْمَعُونَةِ، وَأَشْعَرَ قُلُوبَهُمْ تَوَاضَعِ إِخْبَاتِ السَّكِينَةِ، وَفَتَحَ لَهُمْ أَبْوَاباً ذُلُلاً إِلَى تَمَاجِيدِهِ، وَنَصَبَ لَهُمْ مَنَاراً وَاضِحَةً عَلَى أَعْلَامِ تَوْحِيدِهِ» .

الشرح والتفسير

خاض الإمام عليه السلام هنا في بيان مختلف صور الملائكة وتقاسمها المسؤوليات و جانباً من منيراتها فقال عليه السلام: «وَأَنْشَأَهُمْ عَلَى صُورٍ مُخْتَلِفَاتٍ، وَأَقْدَارٍ مُتَفَاوِتَاتٍ «أُولَى أَجْنَحِهِ» تُسَبِّحُ جَلَالَ عِزَّتِهِ» (١).

حمل بعض شراح نهج البلاغة هذه العبارات على ظاهرها وقالوا: الملائكة أشكال مختلفه واقدار متفاوته ولها أجنحه وهى دائمه التسييح لله سبحانه. بينما ذهب البعض الآخر إلى أنّ هذه العبارات كناية عن تفاوت مقامات الملائكة ودرجات قوتها و قدرتها. ولما كانت

ص: ٦١

١ - ١) يمكن أن تكون العبارة «تسبح جلال عزته» إشارة إلى تسييح الملائكة أمام جلال الحق وعزته، والصيغه المؤنثه بسبب مفهومها الجمعى.

الأجنحة وسيله لدى الطيور للتخليق فى السماء وكيفيه تفاوتها فى التخليق تبعاً لكيفيه هذه الأجنحة، فإن هذه العبارة بشأن الملائكة إشاره إلى تفاوتها من حيث القوه والقدرة على القيام بالوظائف والمسؤوليات. صحيح أننا مكلفون بحمل جميع الفاظ القرآن الكريم وكلمات الأئمة المعصومين عليهم السلام على معانيها الحقيقه، دون حملها على الكنايه والمجاز ما لم تكن هناك قرينه واضحه فى الكلام، ولكن بالنظر إلى العبارات التى تواصل فيها كلام الخطبه بشأن أوصاف الملائكة، يبدو من المستبعد حمل هذه العبارات على معناها الظاهري، ومن ذلك: «ومنهم من قد خرقت أقدامهم تخوم الأرض السفلى. . .»، وكذلك العبارات التى وردت سابقاً بشأن الملائكة، كالذى ورد فيها فى الخطبه الاولى بشأن الملائكة: «ومنهم الثابتة فى الارضين السفلى أقدامهم، والمارقه من السماء العليا أعناقهم. . .» (١)، فهذه العبارات يمكن أن تكون قرينه واضحه على أن لمثل هذه الأوصاف بعد كنائى ومعنوى لا ظاهرى ومادى. ثم أشار عليه السلام فى مواصلة كلامه إلى بعض خصائص الملائكة وقال: «لا ينتحلون (٢) ما ظهر فى الخلق من صنعه، ولا يدعون أنهم يخلقون شيئاً معه ممّا انفرد به»، ثم اردف عليه السلام كلامه مباشره بما ورد فى القرآن الكريم بشأن التسليم المطلق للملائكة أمام إرادته الله سبحانه وتعالى فقال: «عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ * لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ» (٣)، نعم فهم آذان صاغيه لأوامره سبحانه وانقياد مطلق لإرادته، وهذه أولى خصائص الملائكة التى أشارت إليها الخطبه، كما تشير ضمناً إلى عصمه الملائكة وبعدها عن الذنب والمعصيه والخطأ والزلل، فهى تبطل كافه مزاعم مشركى العرب وغيرهم ممن قال بربوبيتها وألوهيتها، وتصفهم بأنهم عباد مطيعون منقادون وليس لهم أن يكونوا شركاء الله فى الخلق.

ثم أشار الإمام عليه السلام إلى وظيفه أخرى من وظائف الملائكة بصفتهم حملة الوحي فقال: «جعلهم الله فيما هنالك أهل الامانه على وحيه، وحملهم إلى المرسلين ودائع أمره وفهيه، وعصمهم من ريب الشبهات. فما منهم زائغ (٤) عن سبيل مرضاته» فالعبارة وإن

ص: ٦٢

١-١) راجع المجلد الأول من هذا الشرح / ١٥٩.

٢-٢) «ينتحلون» من ماده «انتحال» بمعنى إدعاء الشخص شيئاً لصالحه، وهو يتعلق بآخر.

٣-٣) سوره الأنبياء / ٢٦ - ٢٧. [١]

٤-٤) «زائغ» من ماده «زيغ» على وزن ميل بمعنى العدول عن الحق.

نسبت ابلاغ الوحي الإلهي إلى جميع الملائكة، إلّا أنّ المفروغ منه هو أنّ المراد طائفه منهم؛ الأمر الذي صرح به القرآن الكريم بقوله: «اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا». (١) كما صرح عليه السلام في الخطبه الاولى من نهج البلاغه بهذا المعنى قائلاً: «ومنهم أمنا على وحيه، وألسنه إلى رسله». و هذا تعبير متداول بشأن الأعمال المهمه التي تصدر من فئه معينه ضمن جماعه لتحسب على أساس تلك الجماعه.

على كل حال فإنّ العبارة تشير إلى مدى أمانه الملائكة في ابلاغ الوحي وايصاله على نحو الدقه دون نقيصه أو زياده والواقع هو أنّ الإمام عليه السلام أشار بالعبارتين الأخيرتين إلى عصمه الملائكة من الذنب والزلل، حيث أشارت العبارة الاولى إلى عصمتها عن الشبهه والشك والخطئ والثانيه إلى عصمتها عن الذنب والمعصيه وعدم مخالفه الأوامر الإلهيه. كما أشار عليه السلام باربعببارات إلى عناية سبحانه بملائكته الوحي من أجل قيامها بهذه الوظيفه بصوره صحيحه. قال في العبارة الاولى أنّه أمدهم سبحانه بلطفه وعنايته ليقوموا بهذه الوظيفه الخطيره على أكمل وجه «وأمدهم بفوائد المعونه». ثم قال في العبارة الثانيه «وأشعر قلوبهم تواضع إخبات السكينه» (٢) كما فتح لهم باب مدحه وتمجيديه وسهل لهم ذلك زياده في عصمتهم وعلو مقامهم. وهذا ما أورده في العبارة الثالثه «وفتح لهم أبواباً ذللاً (٣) إلى تماجيده (٤)». ثم قال في العبارة الرابعه «و نصب لهم منارا واضحه على أعلام توحيديه» فقد أوجز الإمام عليه السلام بهذه العبارات أشكال الملائكته وصورها والفوارق بينها في القوه و القدره، إلى جانب بيان إحدى أهم وظائفها في ابلاغ الوحي و صفات هذه الطائفه المبلّغه للوحي.

ص: ٦٣

١-١ (١) سورها الحج/٧٥. [١]

٢-٢ (٢) «إخبات» الخضوع والخشوع والتواضع.

٣-٣ (٣) «ذلل» جمع ذلول السهل.

٤-٤ (٤) «تماجيد» جمع «تمجيد» بيان المجد والشرف والعظمه الشخصيه.

نعلم أنّ الوحي يحصل بعده صور: فقد يكون أحياناً بواسطة الملك الذي يحمل رساله الله من قبيل نزول الوحي على نبي الإسلام بواسطة جبرئيل عليه السلام. كما يكون أحياناً أخرى عن طريق سماع الأمواج الصوتيه التي تحدثها القدره الإلهيه فى الفضاء كنزول الوحي على نبي الله موسى عليه السلام عن هذا الطريق. كما نزل على النبي صلى الله عليه و آله - طبق بعض الروايات - مثل هذا الوحي فى المعراج. كما يحصل عن طريق الالهام و الإلقاء فى الروح؛ الأمر الذى حصل للنبي صلى الله عليه و آله فى بعض المواقع الضروريه. وهنا يبرز هذا السؤال: مادام هناك طريق للوحي من خلال ايجاد الصوت أو الالهام، فما الضروره لأن تكون الملائكة واسطه للوحي؟

للإجابة على هذا السؤال المهم، يمكن القول أنّ لنزول الملائكة بعض المزايا منها:

١- لما كانت الملائكة موجودات مجردة، وللإنسان - كائناً من كان - بعد مادي وجسماني وروحاني فإنّ تلقى الوحي عن طريق الملائكة أهون وأسهل على الأنبياء من تلقى الوحي بصوره مباشره. بينما يكون أصعب و أثقل إن كان بصوره مباشره.

٢- أنّ نزول الملك يفيد الاطمئنان أكثر إلى الوحي، إلى جانب الأهميه الفائقه لهذا الأمر، لأنّ الله أمر أعظم ملائكته للقيام بوظيفه ابلاغ الوحي. والجدير بالذكر أنّ بعض الروايات والأخبار صرحت بتشيع فريق من الملائكة (يصل عددهم أحياناً إلى سبعين ألف ملك) لبعض السور القرآنيه حين نزول جبرئيل بها على النبي صلى الله عليه و آله لتتضح للجميع أهميه ذلك الموضوع، وبالطبع فإنّ هذا الأمر لا يتحقق فى ظل الالهام أو سماع الصوت. وإن كانت لهذه الأخيره خصائصها ومميزاتها.

«لَمْ تُثْقِلْهُمْ مَوْصِرَاتُ الْآثَامِ، وَلَمْ تَزِدْهُمْ عُقْبُ اللَّيَالِي وَالْأَيَّامِ، وَلَمْ تَزِمِ الشُّكُوكَ بِنَوَازِعِهَا، عَزِيمَةَ إِيمَانِهِمْ، وَلَمْ تَعْتَرِكِ الظُّنُونَ عَلَى مَعَاوِدِ يَقِينِهِمْ، وَلَا قَدَحَتْ قَادِحَهُ الْإِحْنَ فِيمَا بَيْنَهُمْ، وَلَا سَلَبَتْهُمْ الْحَيْرَةَ مَا لَاقَ مِنْ مَعْرِفَتِهِ بِضَمَائِرِهِمْ، وَمَا سَكَنَ مِنْ عَظَمَتِهِ وَهَيْبَةِ جَلَالَتِهِ فِي أَثْنَاءِ صُدُورِهِمْ، وَلَمْ تَطْمَعْ فِيهِمُ الْوَسَاوِسُ فَتَقْتَرِعَ بِرَيْنِهَا عَلَى فِكْرِهِمْ» .

الشرح والتفسير

ذكر الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الخطبه ما يكمل كلامه في صفات الملائكه - ولا سيما صفه العصمه عن الذنب والمعصيه - ليوضح ذلك بسبع عبارات قصيره عظيمه المعنى، قال فى الاولى أن ثقل الذنوب لم يعجزهم ويقعدهم فهم لا يقارون الذنب أبداً: «لم تثقلهم موصرات (1) الاثام»، فى إشاره إلى أن الذنب عاده ما يثقل كاهل الإنسان فى مسيره الطاعه، ولما كانت الملائكه لا ترتكب الذنب قط فهى خفيفه على الدوام ومتأهبه للطاعه، ولذلك لا يبدو صحيحاً ما احتمله بعض شراح نهج البلاغه فى تفسيرهم لهذه العباره من أن الذنوب التى يرتكبها الناس لاتجعلهم متقاعسين فى عملهم، وذلك لعدم انسجامه وسائر عبارات هذه الخطبه. ثم أشار عليه السلام فى العباره الثانيه إلى أن الذهاب والاياب وتعاقب الليل والنهار لم يسق هذه الملائكه إلى الموت (ليستولى عليها الضعف، فهى متأهبه دائماً للطاعه) «ولم ترتحلهم عقب (2) الليالى والأيام»، يحتمل أن يكون المراد عدم الانتقال من الحياه إلى الموت، بل الانتقال

ص: ٦٥

١- ١) «موصرات» من ماده «اصر» بمعنى الحفظ والسجن، ثم اطلق على كل فعل ثقيل يعيق الانسان عن العمل، وموصرات الأثام مثقلاتها.

٢- ٢) «عقب» جمع «عقبه» على وزن غرفه وجمعها غرف تعنى النوبه. إشاره إلى تعاقب الليل والنهار حسب نوبتهما.

من الطاعة إلى المعصية أى أنّ طول الزمان لم يرهقها قط ولم يبعدها عن طاعة الحق سبحانه وتعالى - وقال عليه السلام فى العبارة الثالثة أن سهام الشك لم تستطع أن ترم عزم إيمانهم: «ولم ترم الشكوك بنوازعها (١) عزيمة إيمانهم» ثم قال عليه السلام فى العبارة الرابعة «ولم تعترك (٢) الظنون على معاهد يقينهم» كما أشار عليه السلام إلى عدم وجود العوامل التى تدعوا إلى إثارة نيران الحقد والعداء والضغينه لديهم (لكى يجد الضعف من سبيل إلى وظائفهم - وعليه فالملائكة تعمل مع بعضها البعض الآخر بكل تنسيق وانسجام دون اختلاف فى القيام بالوظائف الإلهيه) «ولا قدحت قادحه الإحن (٣) فيما بينهم» ، ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه فى أنّ الحيره لم تسلبهم مالديهم من معرفه وانطوت عليه صدورهم من هيبه لله وعظمه: «ولاسلبتهم الحيره ما لاق من معرفته بضمائرهم، وما سكن عن عظمته وهيبه جلالته فى أثناء صدورهم» يمكن أن يكون المراد بالعبارة أن إيمان الملائكة ومعرفتها بالله وصفات جماله وجلاله على قدر من القوه بحيث لا تختزن أليه أوهام وحيره يمكنها إختراق تلك المعرفه أو الحد منها؛ والحال ليس الأمر كذلك لدى الإنسان، فقد يصطدم بعض المؤمنين ببعض الاوضاع التى تؤدى إلى ذهولهم وحيرتهم وزعزعه دعائم إيمانهم. كما يحتمل أن يكون المراد بالحيره هو عدم بلوغ كنه ذاته وصفاته، إلّا أنّها لا تصدهم عن ذلك الإدراك الإجمالى للذات والصفات فيضطر وعلى غرار بعض الناس وبفعل عدم إدراك كنه الذات إلى تعطيل صفاته. ثم قال فى الصفه الأخيره: «ولم تطمع فيهم الوسوس فتتقرع (٤) برينها (٥) على فكرهم» ، فالذى يستفاد من مجموع هذه الصفات هو عدم تسلل أدنى خطأ وشك وترديد وفتور وتقصير إلى أعمال أمناء الوحي من الملائكة، وهم جاهدون فى ابلاغها إلى الأنبياء والرسل. وضمنا فإنّ هذا الكلام الشريف رساله إلى جميع الأفراد - ولاسيما دعاه الإسلام والكتاب - إلى مراعاة الدقه والامانه والإيمان والتسامى والابتعاد عن كافه ألوان الوسوس وأمراض الحقد والبغضاء والعداء و الحسد والشك والترديد فى ابلاغ دعوه الأنبياء ورسالتهم بالشكل الصحيح.

ص: ٦٦

-
- ١- ١) «نوازع» جمع «نازعه» من ماده «نزع» على وزن وضع بمعنى سحبه أو رفعه من مكانه. و فى العبارة اعلاه، تطلق على السهم عند ما يراد اطلاقه من القوس فى حاله سحب وتر الاطلاق إلى الخلف.
- ٢- ٢) «تعترك» من ماده «عرك» الازدحام.
- ٣- ٣) «إحن» جمع «إحنه» بمعنى الحسد والكراهه.
- ٤- ٤) «تتقرع» من ماده «قرع» بمعنى الضرب.
- ٥- ٥) «الرين» بفتح الراء الدنس وما يطبع على القلب من حجب الجهاله.

«وَمِنْهُمْ مَنْ هُوَ فِي خُلُقِ الْغَمَامِ الدَّلْحِ، وَفِي عِظَمِ الْجِبَالِ الشَّمَخِ، وَفِي قَتْرِهِ الظَّلَامِ الْأَيْهِمْ، وَمِنْهُمْ مَنْ قَدْ خَرَقَتْ أَفْئِدَامُهُمْ تَخُومَ الْأَرْضِ السُّفْلَى، فَهِيَ كَرَايَاتٍ بِيضٍ قَدْ نَفَذَتْ فِي مَخَارِقِ الْهَوَاءِ، وَتَحْتَهَا رِيحٌ هَفَّافَةٌ تَحْسِبُهَا عَلَى حَيْثُ انْتَهَتْ مِنَ الْجُدُودِ الْمُتَنَاهِيَةِ، قَدْ اسْتَفْرَعَتْهُمْ أَشْغَالُ عِبَادَتِهِ، وَوَصَلَتْ حَقَائِقُ الْإِيمَانِ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَعْرِفَتِهِ، وَقَطَعَهُمُ الْإِيْقَانُ بِهِ إِلَى الْوَلَهِ إِلَيْهِ، وَلَمْ تُجَاوِزْ رَغَبَاتُهُمْ مَا عِنْدَهُ إِلَى مَا عِنْدَ غَيْرِهِ».

الشرح والتفسير

تطرق الإمام عليه السلام إلى سائر أصناف الملائكة بعد أن فرغ من صفه ملائكة الوحي، فقال عليه السلام: «ومنهم من هو في خلق الغمام الدلح (١) في عظم الجبال الشمخ (٢)، وفي قتره (٣) الظلام الأيهم (٤)»، الدلح جمع دلح تعني السحاب المثقل بالماء، وشمخ جمع شامخ بمعنى المرتفع، وقتره تعني هنا الخفاء والبطون، وأيهم بمعنى الليالي الدامسه التي لا يهتدى فيها. فالذي يبدو أن مراد الإمام عليه السلام الملائكة الموكله بالسحب الممطره والجبال المرتفعه والظلمات، حيث لكل منها سهم

ص: ٤٧

١-١) «الدلح» جمع «دلح» من ماده «دلوح» بمعنى السحب المليئه بالمطر، وكأنها تتحرك ببطئ لثقلها (لأن أصلها الغوى يعنى بطئ الحركة).

٢-٢) «شمخ» جمع «شامخ» من ماده «شموخ» بمعنى العلو والرفعه ومن هنا يطلق الشامخ على الجبل المرتفع.
٣-٣) «قتره» بمعنى ضيق وانضمام شىء إلى آخر، ولما كانت شدة الظلمه كذلك وكان الظلمات قد انضم بعضها الى بعض وتراكت، اطلق عليها هذه المفرده.

٤-٤) «أيهم» تعنى فى الأصل المجنون وناقص العقل ويقال للصحراء القاحله فلاه كما تطلق على الظلام فيقال «الظلام الأيهم» أى لا يرى فيه كوكباً.

فى تدبير هذا العالم، وهو ما أشار إليه القرآن الكريم فى الآيه الخامسه من سوره النازعات، حيث عبر عن هذه الملائكه بالقول «فَالْمِدْبَرَاتِ أَمْراً»، كما احتمال أن يكون لهذا الصنف من الملائكه دور فى ايجاد تلك السحب والجبال والظلمات - على كل حال فإنّ مأموريه هذا الصنف من الملائكه هى مأموريه تكوينيه - على الخلاف من ملائكه الوحي حيث لهم مأموريه تشريعيه. ثم تطرق عليه السلام إلى صنف آخر من الملائكه فقال عليه السلام: «ومنهم من قد خرفت أقدامهم تخوم (١) الأرض السفلى، فهى كرايات بيض قد نفذت فى مخارق (٢) الهواء، وتحتها ريح هفافه (٣)، تحبسها على حيث من انتهت من الحدود المتناهيه» وتشبه هذه العبارة ما أورده الإمام عليه السلام فى الخطبه الاولى من نهج البلاغه التى قال فيها: «ومنهم الثابتة فى الأرضين السفلى أقدامهم، والمارقة من السماء العليا أعناقهم»، طبعاً هذه العبارات إنّما تشير على سبيل الكنايه إلى رفعه هذا الصنف من الملائكه وسمو مكانته، واننا لاندرك سوى شبح عنها، وذلك لأننا لانمتلك المعلومات الكافيه عن خلقها. ولا يتسنى إدراك حقيقه هذه التعبيرات بصوره تامه سوى لعلى عليه السلام وسائر المعصومين عليهم السلام الذين رفعت عنهم الحجب، وما علينا إلّا القناعه والاكتفاء بهذا العلم الإجمالى. ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه فى وصف هؤلاء الملائكه فقال عليه السلام: «قد استفرغتهم أشغال عبادته، ووصلت حقائق الإيمان بينهم وبين معرفته، وقطعهم الايقان به إلى الوله (٤) إليه، ولم تجاوز رغباتهم ما عنده إلى ما عند غيره»، فالعبارات الأربع مرتبطه مع بعضها البعض الآخر قطعاً، فالاشتغال بالعباده سبب لتقويه الإيمان ورسوخه، كما أنّ قوه الإيمان تنتهى إلى الحب والعشق، فاذا ملأحبه كيان الإنسان أو الملك، لم يدعه يفكر فى غيره ولا يطمع إلى ما عند سواه. فقد ورد فى الخبر عن الإمام الصادق عليه السلام أنّ النبى الأكرم صلى الله عليه وآله قال: «أفضل الناس من عشق العباده فعانقها، وأحبها

ص: ٦٨

-
- ١-١) «تخوم» جمع «تخم» تعنى فى الأصل الحد، وتخوم الأرض اعماقها.
- ٢-٢) «مخارق» جمع «مخرق» من ماده «خرق» على وزن خلق. بمعنى موضع الخرق، ومخارق الهواء الشقوق بين طبقات الهواء.
- ٣-٣) «هفافه»، الريح التى تتحرك بسرعه. وقيل هفافه بمعنى الطيبه الساكنه، إلّا أنّ هذا المعنى لا يبدو مناسباً للعباره المذكوره، ولا يستبعد ادغام المعنيين فى مفهوم واحد وهو الريح السريعه المنتظمه.
- ٤-٤) «وله» تغنى الحيره من شده الحزن حتى يفقد صاحبها عقله، ثم اطلق على العشق المفرط الذى يسلب الإنسان استقراره.

بقليه، وباشرها؟ ، وتفرغ لها؛ فهو لا يبالى على ما أصبح من الدنيا على عسر، أم على يسر» (١)، وواضح أن عباده الملائكة لا تصدّهم عن مأموريتهم فى تدبير شؤون العالم - بأمر الله - ولا عباده أولياء الله تصدّهم عن تدبير دينهم و دنياهم و وظائفهم الفرديه و الإجتماعيه فكل أمورهم إنّما تنبعث من حبهم وعشقهم الحق سبحانه وتعالى و السير على طاعته.

ص: ٦٩

١-١) الكافي ٢/٨٣، ح ٣، باب العباده. [١]

«قَدْ ذَاقُوا حَلَاوَةَ مَعْرِفَتِهِ، وَشَرِبُوا بِالْكَأْسِ الرَّوِيَّةِ مِنْ مَحَبَّتِهِ، وَتَمَكَّنَتْ مِنْ سُوَيْدَاءِ قُلُوبِهِمْ وَشَيْجِهِ حَيْفَتِهِ، فَحَنُوا بِطَوْلِ الطَّاعَةِ اعْتِدَالَ ظُهُورِهِمْ، وَلَمْ يُنْفِذْ طَوْلُ الرَّغْبَةِ إِلَيْهِ مَادَّةَ تَضَرُّعِهِمْ، وَلَا أَطْلَقَ عَنْهُمْ عَظِيمَ الزُّلْفَةِ رَبِّقِ خُشُوعِهِمْ، وَلَمْ يَتَوَلَّهِمُ الْإِعْجَابُ فَيَسْتَكْثِرُوا مَا سَلَفَ مِنْهُمْ وَلَا تَرَكَتْ لَهُمْ أَسِيَّةٌ كَانَتْ لِلْإِجْلَالِ نَصِيبًا فِي تَعْظِيمِ حَسَنَاتِهِمْ، وَلَمْ تَجْرِ الْفُتْرَاتُ فِيهِمْ عَلَى طَوْلِ دُؤْبِهِمْ، وَلَمْ تَغْضُ رَغَبَاتُهُمْ فَيَخِذَ الْفُؤَاءُ عَنْ رَحِيَاءِ رَبِّهِمْ، وَلَمْ تَجِفَّ لِطَوْلِ الْمُنَاجَاهِ أَسِيَّاتُ أَلْسِنَتِهِمْ، وَلَا مَلَكَتْهُمْ الْأَشْغَالُ فَتَنْقَطِعَ بِهِمْسِ الْجُؤَارِ، إِلَيْهِ أَصْوَاتُهُمْ، وَلَمْ تَخْتَلِفْ فِي مَقَاوِمِ الطَّاعَةِ مَنَاجِبُهُمْ، وَلَمْ يَثْنُوا إِلَى رَاحَةِ التَّقْصِيرِ فِي أَمْرِهِ رَقَابَتُهُمْ، وَلَا تَعْدُو عَلَى عَزِيمِهِ جِدَّهُمْ بِلَادَةَ الْغَفَلَاتِ، وَلَا تَنْتَضِلُ فِي هِمَمِهِمْ خَدَائِعُ الشَّهَوَاتِ».

الشرح والتفسير

تحدث الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الخطبه بصوره أعمق عن صفات الملائكة ومقام معرفتهم وعشقهم لله سبحانه و درجات عبادتهم وخضوعهم وخشوعهم. فقد أشار في الواقع إلى ثلاث من الصفات بعبارات رائعه مختلفه، تعرض في العبارة الاولى إلى مقام الملائكة الرفيع في المعرفه وكأنها أسكرت عقولهم وجوارحهم فملأتها حبا وعشقا لله. كما تعرض في العبارة الثانيه إلى الطاعه المتواصله بفضلها الوليده الطبيعيه لهذه المعرفه وأخيراً العبارة الثالثه التي تفيد خلو هذه الطاعه المستمره من الكلل والملل والتعب والفتور والعجب. كأن الإمام عليه السلام دعا الناس للاقتداء بها واحتذاء طريقتها في المعرفه والعبوديه والاخلاص. فقال عليه السلام: «قد ذاقوا

حلاوه معرفته، وشربوا بالكأس الرويه (١) من محبته، وتمكنت من سويداء (٢) قلوبهم وشيجه (٣) خيفته» تفيد العبارة: «قد ذاقوا حلاوه معرفته، وشربوا بالكأس الرويه من محبته» أنّ الملائكة قد إنفتحت على معرفه الله وحبه بكل كيانه حتى نفذ إلى سويداء قلوبها، كما تفيد مفردته تمكنت أنّ خوف الله قد تجذر في أعماق قلوبها بحيث وظف هذا الخوف والرجاء كل قواها في سبيل طاعه الله؛ وذلك لأنّ الحب والأمل دون الخوف يسوق الإنسان إلى الغفله والغرور، كما أن الخوف دون الحب والأمل يقوده إلى اليأس والقنوط. من هنا قال الإمام عليه السلام عقب تلك الصفات: «فحنوا (٤) بطول الطاعه اعتدال ظهورهم» فهم دائما على أتم الخضوع وكمال التسليم لله. مع ذلك فإن رغبتهم المتفاقمه في عبادته وكثرتها لم تسلبهم حاله التضرع والخشوع (فلم يتطرق إليها التعب والارهاق) «ولم ينفذ طول الرغبه إليه ماده تضرعهم» لا كالأفراد من عديمي المعرفه الخالين من معاني الحب والعشق والخوف والرجاء الذين تتعبهم أدنى عباده وتسلبهم الرغبه والاقبال عليها. ثم أشار عليه السلام إلى نقطه مهمه أخرى: «ولا أطلق عنهم عظيم الزلفه (٥) ربق (٦) خشوعهم، ولم يتولهم الاعجاب فيستكثروا ما سلف منهم ولا تركت لهم استكانه (٧) الاجلال نصيبا في تعظيم حسناتهم»، فهناك نقطه لطيفه كامنه في هذه العبارة أشار إليها بعض شراح نهج البلاغه وهي أنّ من يقترب من الملوك والسلاطين والشخصيات التي تبدو رفيعه وعظيمه سرعان ما يكتشف أن قدرتهم وشوكتهم قاصره زائله مهما بدت كبيره، وبامكان مقربهم أن يبلغوا هذه القدره يوماً ما، بل حتى أعظم منها. وهذا ما يؤدي بدوره إلى الحد من تواضع الآخرين وخضوعهم وطاعتهم لهم، فإن اضطروا إلى تعظيمهم ظاهراً، لم يروا لهم مثل هذه العظمه باطناً. أمّا الملائكة فعلى العكس كلما اقتربت

ص: ٧٢

١- ١) «رويه» من ماده «رى» على وزن طى التي تروى منه العطش، وكأس رويه كناية عن الظرف المملوه الذي يروى العطشان بصوره تامه.

٢- ٢) «سويداء» تصغير «سوداء» من السواد، وهي حبه صغيره في القلب تشكل مركزه حب اعتقاد القدماء.

٣- ٣) «وشيجه» من ماده «وشج» أصلها عرق الشجره وإراد بها هنا بواعث الخوف من الله.

٤- ٤) «حنو» من ماده «حنو» على وزن حذف بمعنى الالتواء والانحناء.

٥- ٥) «زلفه» من ماده «زلف» على وزن ضعف بمعنى القربى، و«زلفه» و«زلفى» بمعنى المقام والمنزله والقرب.

٦- ٦) «ربق» جمع «ربقه» جبل فيه عده عرى تربط فيه البهم، ثم اطلقت على الرابطه المحكمه بين شىء وأخر، وقد وردت هنا بهذا المعنى.

٧- ٧) «إستكانه» من ماده «سكون» تأتي بمعنى الخضوع والتواضع في هذه الموارد. قيل من باب إفتعال من ماد هسكون، وقيل من باب استفعال من ماده كون وهي أيضاً بمعنى السكون في مكان مع الخضوع والخشوع.

فى مسيرتها من الله تكشف لها حقائق جديده عن عظمته المطلقه، فيروا فيه ملامح جديده من صفات الجمال والجلال. من هنا يزدادون له خضوعاً وخشوعاً وتواضعاً كل يوم، فلا يبقى أمامهم من مجال للاعجاب بالحسنات وإكبارها، بل يرون أنفسهم مقصرين على الداوم تجاهه. ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه باماطه اللثام عن هذه الحقيقه وهى عدم كلل الملائكه عن عبادته، وليس للفتور من سبيل إليها، كما ليس هناك ما يصددها عن مواصلة مسيرتها العباديه، بل هى دؤوبه على العباده بدافع من عشقها وإرادتها وعزمها، على غرار الإنسان الذى لا يكل عن استنشاق الهواء الطلق طيله عمره وإن امتد لآلاف السنين. ثم تناول الإمام عليه السلام هذه المسأله من مختلف الجوانب بثمان عبارات. فقال فى العباره الاولى: «ولم تجر الفترات فيهم على طول دؤوبهم» (١) كما قال سبحانه وتعالى فى محكم كتابه العزيز واصفاً الملائكه: «يَسْبُحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ» (٢) ثم قال عليه السلام فى العباره الثانيه: «ولم تغض (٣) رغباتهم فيخالفوا عن رجاء ربهم»، وذلك لأن عشقهم للكمال دائمي لا يتوقف، وعلمهم متزايد بربهم - وبناءً على هذا فليس هنالك ما يدعو إلى غفلتهم عن العباده، أو يقلل من أملهم. وقال فى العباره الثالثه أن طول مناجاتهم لم تجف ألسنتهم وتعجزها عن العباده: «ولم تجف لطول المناجاه أسلات (٤) ألسنتهم»، طبعاً ليس هنالك لساناً وفما للملائكه كما لدينا، بحيث تقل رطوبته بفعل كثره الذكر والمناجاه فيصيبه الجفاف واليبس، بل العباره كناية لطيفه عن عدم ضعفهم وفتورهم فى تسييحهم وتضرعهم لله سبحانه وتعالى، ثم قال عليه السلام فى العباره الرابعه: «ولاملكتهم الاشغال فتقطع بهمس (٥) الجوار (٦)، إليه أصواتهم»، فالواقع ليس لهؤلاء من عمل سوى العباده والطاعه والعبوديه، وهذه الأمور جزء لا يجترأ من ذواتهم ووجودهم وإيمانهم. وليس لهذه الأمور أن تخلق أى تعب أو ملل، كالقلب المعافى الذى لا يشعر بالتعب ولو عمل لسنين، وقال عليه السلام فى العباره الخامسه: «ولم تختلف فى مقاوم (٧) الطاعه

ص: ٧٣

١-١) «دؤوب» مصدر بمعنى الدوام والاستمرار والسعى والجهد إلى حد التعب والارهاق.

٢-٢) سورة الأنبياء/٢٠. [١]

٣-٣) «تغض» من ماده «غيض» بمعنى تنقص و تقل. و أشارت فى العباره إلى عدم قله رغبه الملائكه بطاعه الله و عبادته.

٤-٤) «أسلات» جمع «أسله» بمعنى طرف اللسان، وتطلق على من لا يكل عن الذكر ولا يجف لسانه.

٥-٥) «همس» على وزن لمس، الخفى من الصوت.

٦-٦) «جوار»، الصوت المرتفع، وقد ورد فى العباره بمعنى رفع صوت الملائكه بالتضرع وعدم الكف عن المناجاه.

٧-٧) «مقاوم»، قال شراح نهج البلاغه مقاوم جمع مقام بمعنى الصفوف وإن لم تعشر على مثل هذا الجمع فى المصادر اللغويه.

مناكبهم» ، ثم أردفها عليه السلام بالقول بعدم خلودهم إلى الراحة ليؤدي بهم ذلك إلى التقصير في القيام بمهامهم: «ولم يثنوا (١) إلى راحة التقصير في أمره رقابهم» فهم على أهبة الاستعداد للعبادة على الدوام. ثم اختتم ذلك بقوله عليه السلام: «ولاتعدوا على عزيمة جدهم بلاده الغفلات، ولاتنتضل (٢) في همهم خدائع الشهوات» ، حقاً أنّ وجودهم خال من أيه شهوه وغفله، ولهم إيمان وحب لخالقهم على درجه من القوه والرسوخ بحيث لايتسلل إليهم التعب والملل أبداً في مسيرتهم العباديه وطاعتهم لربهم.

تأمل: الناس والملائكة

هدف الإمام عليه السلام باختصار بيان حال الملائكة في طاعتها وعبوديتها لله سبحانه بعبارات مفعمه بالكنايات والتشبيهات المقرونة بروعه الدقه، و الجمال ليكون ذلك في الواقع درساً لكافه الأفراد في أنّ الإنسان إذا شق طريقه إلى الله وسار نحو مقام القرب الإلهي وذاق بروحه وأحاسيسه حلاوه معرفه الله وارتوى من حبه وعشقه، إلايستشعر التعب والفتور أبداً في مسيرته العبوديه وطاعته لربه، وعليه أن يكون أكثر جديه وعزماً كلما تقدم في هذه المسيره.

فقد ورد في سيره الاثمه ورواد الطريق من العلماء الأعلام ما يشير إلى أنّ الإنسان يمكنه أنّ يكون على غرار الملائكة في هذه الأمور، بل له أن يسبقهم ويتفوق عليهم، وذلك لأنّ الملائكة مجردة من الأهواء والشهوات والغفله، فإذا نال الإنسان تلك الصفات، كان حقاً أفضل من الملائكة. جاء في الخبر أنّ الإمام زين العابدين على بن الحسين عليه السلام لم ينقطع أربعين سنه عن صلاه الليل، حتى أنّه كان يصلي الصبح بوضوء المغرب: «إنّه عليه السلام صلى أربعين سنه صلاه الصبح بوضوء المغرب» (٣)، وقال الإمام الباقر عليه السلام في وصفه لعباده الإمام على عليه السلام: «ما أطاق أحد عمله وإن كان على بن الحسين لينظر في كتاب من كتب على

ص: ٧٤

١-١) «يثنوا» من ماده «ثنى» بمعنى الطي وأن أطلقت على المدح فلأنها تعدد صفات الشخص البارزه الواحدبعده الأخرى.

٢-٢) «تنتضل» من ماده «نضال» ترمى السهام.

٣-٣) روضه المتقين ١٣/٢٦٤.

فيضرب به الأرض ويقول من يطيق هذا» (١).

القسم السادس عشر: عودة على بدء في صفات الملائكة

إشارة

«قَدْ اتَّخَذُوا ذَا الْعَرْشِ ذَخِيرَةً لِيَوْمِ فَاقَتِهِمْ، وَيَمَّمُوهُ، عِنْدَ انْقِطَاعِ الْخَلْقِ إِلَى الْمَخْلُوقِينَ بِرَغْبَتِهِمْ، لَا يَقْطَعُونَ أَمَدَ غَايَةِ عِبَادَتِهِ وَلَا يَزْجَعُ بِهِمُ الْإِسْئِثْمَاتُ بِلُزُومِ طَاعَتِهِ، إِلَّا إِلَى مِرْوَادٍ مِنْ قُلُوبِهِمْ غَيْرِ مُنْقَطِعَةٍ مِنْ رَحَائِهِ وَمَخَافَتِهِ، لَمْ تَنْقَطِعْ أَسْبَابُ الشَّفَقَةِ مِنْهُمْ، فَبُنُوا فِي جَدِّهِمْ، وَلَمْ تَأْسِرْهُمْ الْأَطْمَاعُ فَيُؤَثِّرُوا وَشَيْكَ السَّعَى عَلَى اجْتِهَادِهِمْ. لَمْ يَسْتَعْظَمُوا مَا مَضَى مِنْ أَعْمَالِهِمْ، وَلَوْ اسْتَعْظَمُوا ذَلِكَ لَنَسِخَ الرَّجَاءُ مِنْهُمْ شَفَقَاتِ وَجَلِّهِمْ، وَلَمْ يَخْتَلِفُوا فِي رَبِّهِمْ بِاسْتِحْوَاذِ الشَّيْطَانِ عَلَيْهِمْ. وَلَمْ يُفَرِّقْهُمْ سُوءُ التَّقَاطِعِ، وَلَا تَوْلَاهُمْ غِلُّ التَّحَاسُدِ، وَلَا تَشَعَّبَتْهُمْ مَصَارِفُ الرَّيْبِ، وَلَا اقْتَسَمَتْهُمْ أَخْيَافُ الْهَمَمِ، فَهَمُّ أَسْرَاءِ إِيْمَانٍ لَمْ يَفْكَهُمْ مِنْ رَبِّقَتِهِ زَيْغٌ وَلَا عُدُولٌ وَلَا وَنَى وَلَا فُتُورٌ، وَلَيْسَ فِي أَطْيَاقِ السَّمَاءِ مَوْضِعٌ إِهْرَابٍ إِلَّا وَعَلَيْهِ مَلَكٌ سَاجِدٌ، أَوْ سَاعٍ حَافِدٌ، يَزْدَادُونَ عَلَى طَوْلِ الطَّاعَةِ بِرَبِّهِمْ عِلْمًا، وَتَزْدَادُ عِزَّهُ رَبِّهِمْ فِي قُلُوبِهِمْ عِظْمًا» .

الشرح والتفسير

تطرق الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الخطبة إلى صفات أخرى للملائكة (وكان الإمام عليه السلام يوصي الناس بأنكم إذا أردتم أن تصبحوا كالملائكة وتسلخوا سبيل القرب إلى الله، عليكم أن تتحلوا بهذه الصفات) فإشار عليه السلام بادية ذي بدء إلى مقامهم في توحيد الأفعال وتوجههم الخاص إلى ربهم وانصرافهم عن سواه فقال عليه السلام: إنهم جعلوا ذا العرش وحبته وطاعته ذخيره

ص: ٧٥

١- (١) موسوعه الإمام على بن أبي طالب ٩/٢٠٢؛ بحار الأنوار ٤٦/٧٥. [١]

ليوم الفاقة وقد خلوا بكل كياناتهم للخالق حين كرس الخلق أفكارهم في المخلوقات «قد اتخذوا ذا العرش ذخيره ليوم فاقتهم، ويمموه (١) عند انقطاع الخلق إلى المخلوقين برغبتهم» «ذا العرش» إحدى صفات الله التي تدل على ذروه عظمه ذاته سبحانه، وذلك لأن العرش أسمى موجودات عالم الخلق. وقد اقتبست هذه الصفة من الآيه الشريفه: «ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ» (٢). نعم فلم يتعلق قلب هؤلاء سوى بالله ولا يرون من مصدر غيره للخير والفضيله والبركه والنجاه في هذا العالم، ولا ينال المؤمن هدفه ما لم يسلك هذا السبيل لمعرفة الله، أما العبارة: «ذخيره ليوم فاقتهم» فتفيد وقوف الملائكه يوم القيامة للحساب وانتظارهم للآجر والثواب. ثم قال عليه السلام: «لا يقطعون أمد غايه عبادته ولا يرجع بهم الاستهتار (٣) بلزوم طاعته إلّا إلى مواد (٤) من قلوبهم غير منقطعه من رجائه ومخافته»، نعم فدوافع هؤلاء في الطاعه والعبوديه إنّما يستقونها من مصدر خوف الله ورجائه الذي يضاعف معرفتهم بالله وسلوك السبيل المؤدى إلى قربيه. ولذلك أكد الإمام عليه السلام في العبارة اللاحقه في أنّ أسباب خوف الله لم تنقطع عنهم ليهنوا في سعيهم وجدهم «لم تنقطع أسباب الشفقه منهم، فينوا (٥) في جدّهم» ثم أردفها عليه السلام بالقول بأنّ الاطماع لم تأسرهم وتستحوذ عليهم ليقدموا سرعه سعيهم في أمور الدنيا على جدّهم في أمور الآخره: «ولم تأسرهم الأطماع فيؤثروا وشيك (٦) السعى على اجتهادهم» أجل فالذي يضعف الإنسان في طريق عبوديته الحق هو السقوط في مخالبا الأهواء والأطماع التي تعطل قواه وتصده عن طاعه ربّه.

ثم قال عليه السلام: في صفة أخرى من صفات الملائكه «لم يستعظموا ما مضى من أعمالهم،

ص: ٧٦

١ - ١) «يمموا» من ماده «يم» قصدوه بالرغبه والرجاء عند ما انقطع الخلق سواهم إلى المخلوقين، ومنه «التييم» الذي يقصد فيه الإنسان ضرب يديه بالتراب ومسح ظاهرها وجبهته به.

٢ - ٢) سوره غافر/١٥. [١]

٣ - ٣) «الاستهتار» مصدر بمعنى اللامبالاه والحرص على المخالفه، واصله «الهنتر» على وزن الستر بمعنى الحماقه والجهل.

٤ - ٤) «مواد» جمع «ماده» أصلها من «مد» البحر إذ زاد، فالمواد تعنى الزيادة.

٥ - ٥) «ينوا» من ماده «ونى» على وزن رمى بمعنى الضعف والفتور.

٦ - ٦) «وشيك» من ماده «وشك» بمعنى السرعه.

ولو استعظموا ذلك لنسخ الرجاء منهم شفقات وجلهم» فالعبارة درس عظيم لكافة الأفراد في استصغار أعمالهم عند الله، وذلك أنهم إذا أكبروا هذه الأعمال تعلقوا بها وازداد أملهم بها فيفتروا في سعيهم؛ الأمر الذى يسلبهم خوف الله الذى يعتبر من أحد العوامل المهمة للحركة نحو الكمال. وبغض النظر عما سبق فما عسانا أن نكون وما أعمالنا التى تليق بساحة الربوبية المطلقة. كان الحديث فى بعض الصفات السابقة عن عدم اعجاب الملائكة بأعمالها ونفسها، وجرى الحديث هنا عن تأثير الاعجاب فى تغلب الرجاء على الخوف؛ الأمر الذى يصد أصحاب الحق عن مواصلة مسيرتهم و يمنعهم من التكامل، وذلك لأن الإنسان إذا شعر بكبر أعماله عند الله، راوده الشعور بأنه دائن، ومن رأى نفسه دائماً اكتفى بما أتى من أعمال وتخلف عن سلوك سبيل التكامل.

ثم واصل عليه السلام كلامه بالحديث عن سائر خصائص الملائكة التى يحتاجها الإنسان بشده، ومنها عدم اختلافهم فى ربهم، ثم يعزى الإمام عليه السلام هذا الاختلاف إلى الوسوس الشيطانية أحياناً، أو الرذائل الأخلاقية أحياناً أخرى. فقال عليه السلام: «لم يختلفوا فى ربهم باستحواذ الشيطان عليهم» فالعبارة تحمل رساله واضحه للجميع، وهى أنّ مصدر اختلاف المذاهب والأديان إنّما يعود بالدرجة الأساس إلى الوسوس الشيطانية، وذلك لأنّ الاختلاف - لاسيما إن كان عقائدياً - إنّما يفضى لأنواع النزاعات والحروب والاضطرابات؛ الأمر الذى يهدد مصير الإنسان ويقضى على سعادته. ثم أشار عليه السلام بعد ذلك إلى العوامل الداخليه والرذائل الأخلاقية التى تؤدى إلى الاختلاف، وإن التعامل السيء لم يفرق هذه الملائكة، ولم يبعدها الحسد عن بعضها، كما أن الشك والترديد لم يفرقها ويشتت أمرها: «ولم يفرقهم سوء التقاطع، ولا تولاهم عن التحاسد، ولا تشعبتهم مصادر الريب، ولا اقسمتهم أخياف (1) الهمم» فالواقع هو أنّ عمده عوامل الاختلاف قد بينت فى هذه العبارات القصيره. فلو تعامل الأفراد مع بعضهم البعض الآخر بشكل صحيح وفق معايير الادب، لحيل دون أغلب

ص: ٧٧

١ - ١) «أخياف» من ماده «خيف» على وزن هدف و هو فى الأصل ما انحدر من سفح الجبل، و اريد به هنا سواقط الهمم. و تعنى إختلاف العينين مثلاً واحده زرقاء و أخرى سوداء، ثم أطلقت على كل إختلاف.

الخلافات التي يفرزها سوء التعامل. وذا لم يحسد بعضهما البعض الآخر لاجتث العامل المهم الآخر من عوامل الخلاف والشقاق. وإن طرحوا عنهم الشكوك في مختلف المسائل وتعاملوا مع ما يواجههم استناداً إلى العلم والمعرفة لحد من نسبه الخلاف. وأخيراً لو أذعن الجميع لاختلاف الأفكار والتوجهات وتشعب الآذواق والآراء لقل حجم التقاطع والانفصال، فقد شاء الله أن يخلق الناس على أنواع واختلاف في الأفكار والتطلعات، ولو هم كل أحد بفرض آرائه على الآخرين، فمن اليقين لتعذر عيش شخصين إلى جانب بعضها دون بروز حاله من التوتر والاضطراب. صحيح أن ليس للملائكة من شهوات كما للإنسان، وأن أغلب دوافع الذنب والمعصية ليست متوفرة فيهم. إلا أنهم على كل حال قد زدوا بالعقل والشعور والاختيار وحب الذات والقدرة على المعصية والتمرد على الطاعة. إلا أن عرفان الملائكة بالله حال دون ارتكابها للذنب؛ وذلك أن مقارفتها للذنب والمعصية كلما كانت متعذره، كانت جديره بكل هذا المدح والتمجيد وجعلها أسوأ للاقتداء بها من قبل الناس. وبناء على هذا فإن الإنسان إذا بلغ هذه الدرجة من الكمال والمعرفة كان له أن يصون نفسه من التلوث بالذنب. ثم قال عليه السلام: في ختام الكلام على سبيل نتيجة قصيره بليغه «فهم اسراء ايمان لم يفكهم من ربقتة زيغ (١) ولا عدول ولا وني (٢) ولا فتور»، فالتعبير بالاسراء والربقه (الحبل ذو الحلقات المتعدده) يفيد مدى التزام الملائكة بالإيمان، فقد سبحوا في بحار معرفه الله وسلموا لذاته المطلقة وكأنهم لفوا أعناقهم بطوق محكم من الإيمان، ولا يستطيع أى عامل أن يرفع هذا الطوق من أعناقهم، ولو عاش الناس مثل هذا التسليم للحق والالتزام بالإيمان، لما وسع دوافع الذنب والمعصية أن تتسلل إلى وجودهم قط. ثم اختتم الإمام عليه السلام كلامه بهذا الشأن بالحديث عن مسأله أخرى وهى كثره الملائكة وسعه معرفتها، حيث يختتم هنا شرحه لصفات الملائكة، بحيث لا يوجد، أدنى موضع فى السماء إلا وقد شغل بملك ساجد، وآخر ساع حافد منهمك فى أداء مسؤوليته، ومن شأن هذه الطاعة أن تضاعف معرفتهم لربهم، كما تزداد عزه ربهم فى قلوبهم عظمه:

ص: ٧٨

١-١) «زيغ» من ماده «زيغ» على وزن فيض الاعوجاج.

٢-٢) «ونى» من ماده «ونى» بمعنى الضعف كما مر علينا سابقاً.

«وليس في أطباق السماء موضع إهاب (١) إلّا وعليه ملك ساجد أو ساع حافد (٢) يزدادون على طول الطاعة برّبهم علماً، وتزداد عزه ربّهم في قلوبهم عظماً» .

فالعبارات تفيد كثره عدد الملائكة من جانب بحيث ملأت جميع أقطار السموات بما فيها مدبرات الأمر وامناء الوحي والمنهمكين بالطاعة والعبودية. من جانب آخر فإن كلا الطائفتين من الملائكة لكثرة طاعتها لرّبها إنّما تزداد يوماً بعد آخر علماً ومعرفة فيصبحوا أكثر قرباً لله ومعرفة به. وهذا درس آخر للناس ليعلموا أنّ الطاعة والتقوى سبب ازدياد العلم والمعرفة والتعرف على صفات الله الجماليه والجلاليه. والواقع هو أنّ هنالك تأثير متبادل بين الطاعة والتقوى والمعرفة حيث تحكمهما علاقته طردية، فالمعرفة تقود إلى الطاعة، كما أنّ الطاعة تكون سبباً للعلم والمعرفة الأعمق والأشمل. فقد ورد في الحديث أنّ رجلاً سأل الإمام الصادق عليه السلام: هل الملائكة أكثر أم الناس؟ فاجاب عليه السلام: «والذى نفسى بيده لعدد ملائكة الله فى السموات أكثر من عدد التراب فى الأرض؛ وما فى السماء من موضع قدم إلّا وفيها ملك يسبحه ويقده» (٣).

تأمل: الناس والملائكة ثانيه

بين الإمام عليه السلام فى هذا الخطبه صفات الملائكة بصوره واسعه جداً، وبالطبع فإنّ هنالك هدفاً مهما كان ينشده الإمام عليه السلام من ذلك. ويبدو أنّ للإمام عليه السلام هدفان هما: ذلك المطلب الذى وردت من أجله الخطبه ويكمن فى معرفه الصفات بعيداً عن الشرك سواء عن طريق التشبيه أو التعطيل.

والآخر هو سوق الإنسان نحو الملائكة والتحلى بصفاتهما؛ ومنها أنّهما كها بالعباده والطاعة والتواضع والخضوع واتباع الأوامر؛ فلا يكلون ولا يتعبون ولا يفترتون، وليس بينهم من

ص: ٧٩

١-١) «أهاب» جلد الحيوان، أو الجلد المدبوغ.

٢-٢) «حافد» من ماده «حفد» السرعة فى العمل.

٣-٣) تفسير القمى ٢/٢٥٥. [١]

أحقاد وضغائن وحسد، كما ليس بينهم اختلاف وتفرق وتشتت، وأخيراً لا يكبرون أعمالهم ولا يتسلل إليهم اليأس والقنوط، ولا يفكرون سوى في الله وطاعته. صحيح أن خلق الإنسان يختلف تماماً وخلق الملائكة، فالعقل هو الذى يحكم الملائكة، بينما ركبت إلى جانبه الشهوة في الإنسان. إلّا أنّ هذا الإنسان الخليط من الصفات الحيوانية والعقلانية قد ينحدر حتى يكون كالحيوان الوحشى الكاسر «بَيْلُ هُمْ أَضَلُّ»، كما يمكنه أن يتسامى بفضل ما زود به من استعدادات ليقوى الملائكة فيبلغ مرتبه لا تتسنى لغيره «فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى»، ومن هنا يمكن للملائكة أن تكون قدوة للإنسان.

من جانب آخر فإن العلم. بحضور الملائكة في أرجاء العالم - بحيث ليس هنالك شبراً في هذا العالم المترامى الأطراف يخلو منها - دلالة مهمّة على فعالية التدبير الإلهي في هذا العالم؛ الأمر الذى لا يخفى دوره في المسائل التربوية. وناهيك عما سبق فإنّ هذه الصفات تحمل رساله مهمّة للإنسان وهى عدم الاغترار بالأعمال واستكثارها إذا ما وقف بين يدي ربّه للصلاه أو ناجى ربّه وتضرع إليه، بل إن نهض في جوف الليل وصلّى والناس نيام. فيطرد عن نفسه هذه الأفكار الشيطانية، فالذات الإلهية مطلقه غنيه ليست بحاجة إلى العباده، بغض النظر عن كثره عدد الملائكة التى تتقلب في طاعه الله ساجده وراكعه وقائمه. والحق أنّ قدراً من الدقه والتمعن في الصفات التى أوردها أمير المؤمنين على عليه السلام بشأن الملائكة لتأخذ بيد الإنسان إلى عالم النور والعرفان وتوقفه على صغر أعماله وطاعاته وتعرفه بسر القرب من الله والفوز برضوانه. وتكشف النقاب عن عدم عبثه شده قرب الملائكة من الله، إلى جانب عدم بلوغ الإنسان أهدافه المعنويه الرفيعه المرسومه له دون السعى والجد والاجتهاد والطاعه.

فقد ورد في الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام حين سأله أحد أصحابه وهو عبدالله بن سنان: أيهما أفضل الملائكة أم بنى آدم؟ قال عليه السلام أمير المؤمنين على عليه السلام: «إنّ الله ركب في الملائكة عقلاً بلا شهوه، وركب في البهائم شهوه بلا عقل، وركب في بنى آدم كليهما، فمن غلب عقله شهوته فهو خير من الملائكة ومن غلب شهوته عقله فهو شر من البهائم» (١).

ص: ٨٠

طبعاً لا يعنى هذا الحديث أنّ الملائكة لاتملك لنفسها اختياراً، أو أنّها تخلو من عوامل الذنب والمعصية، فعدم وجود الشهوة فى الملائكة إنّما يحول دونها ودون بعض دوافع الذنوب لا جميعها.

ص: ٨١

«كَبَسَ الْأَرْضَ عَلَى مَوْرٍ أَمْوَاجٍ مُسِيَّتَفَحَلِهِ، وَلَجَّجَ بَحَارٍ زَاخِرِهِ، تَلْتَطِمُ أَوَاذِي أَمْوَاجِهَا، وَتَضِي طَفِقُ مُتَقَاذِفَاتٍ أَتْبَاجِهَا، وَتَزْعَوُا زَيْدًا كَمَا لَفُحُولٍ عِنْدَ هَيَاجِهَا، فَخَضَعَ جَمِيحَ الْمَيَاءِ الْمُتَلَاطِمِ لِثِقَلِ حَمْلِهَا، وَسَيَكُنْ هَيِجُ ارْتِمَائِهِ إِذْ وَطِئَتْهُ بِكُلِّكَلِهَا، وَذَلَّ مُسِيَّتَفَحَلِهِ، إِذْ تَمَعَكَتْ عَلَيْهِ بِكَوَاهِلِهَا، فَأَصْبَحَ بَعْدَ اضْطِحَابِ أَمْوَاجِهِ، سَاجِيًا مَقْهُورًا، وَفِي حَكَمِهِ الدُّلُّ مُنْقَادًا أَسِيرًا، وَسَكَتِ الْأَرْضُ مَدْحُوَّةً فِي لُجَّةِ تَيَّارِهِ، وَرَدَّتْ مِنْ نَحْوِهِ بَأْوِهِ وَإِعْتِلَائِهِ، وَشَمُوخَ أَنْفِهِ وَسُمُوِّ غُلُوَائِهِ، وَكَعَمْتَهُ عَلَى كِظِهِ جَزَيْتِهِ، فَهَمَدَ بَعْدَ نَزَقَاتِهِ، وَلَبَدَ بَعْدَ زَيْفَانٍ وَثْبَاتِهِ» .

الشرح والتفسير

مرّ علينا في الخطبة الاولى من نهج البلاغه ما أورده الإمام عليه السلام بشأن خلق الأرض فقال: ثم أنشأ سبحانه فتق الأجواء، وشق الأرجاء، وسكائكك الهواء، فأجرى فيها ماء متلاطمًا تياره، متراكماً زخاره، حمله على متن الريح العاصفه، والزرع القاصفه، فأمرها برده، وسلطها على شده. . . فسوى منه سبع سموات.

وقد أشار الإمام عليه السلام هنا في هذا الموضع من الخطبه إلى ذلك الأمر الذي ذكره سابقاً في إطار عرضه لخلق الأرض بعبارات جديده رائعه فقال عليه السلام: «كبس (١) الأرض على مور (٢) أمواج

ص: ٨٣

١-١) «كبس» بالفتح من ماده «كبس» على وزن حبس بمعنى الأغلاق والضغط.

٢-٢) «مور» على وزن غور التحرك الشديد والهيجان والاضطراب.

مستفله (١)، ولجج بحار زاخره (٢) تلتطم أو اذى (٣) أمواجه، وتصطفق (٤) متقاذفات (٥) أثباجها (٦) وترغوا (٧) زبداً كالفحول عند هياجها، ولعل هذه العبارات من قبيل الأمواج والبحار وأمثال ذلك مما كان موجوداً قبل بدايه الخلق، أى فى ذلك الزمان الذى لم يكن فيه الماء، بل حتى الليل والنهار، إشاره إلى المواد المذابه التى كانت موجوده قبيل انبثاق الخليقه وقد تلاطمت وتلاشت إثر وقوع الانفجارات العظيمه، فظهرت الرغوات الواسعه على هذه المواد المذابه ثم قذفت فى الفضاء لتكون الأرض والكواكب والسيارات، ثم أشار الإمام عليه السلام إلى مرحله أخرى من مراحل ظهور العالم فقال: «فخضع جماح (٨) الماء المتلاطم لثقل حملها، وسكن هيج ارتمائيه إذ وطئته بكلكلها (٩)، وذل مستخذياً إذ تمعكت (١٠) عليه بكواهلها (١١)»، ثم أرف الإمام عليه السلام ذلك بقوله: «فاصبح بعد اصطخاب (١٢) أمواجه، ساجياً (١٣) مقهوراً، وفى حكمه (١٤) الذل منقاداً أسيراً»، فالذى يستفاد من هذه العبارات أن ظهور الأرض (وسائر

ص: ٨٤

- ١- ١) استفله من ماده استفحال الهائجه التى يصعب التغلب عليها.
- ٢- ٢) «زاخره» من ماده «زخر» على وزن فخر بمعنى المليء.
- ٣- ٣) «أو اذى» جمع اذى على وزن قاضى الموج أو أعلاه.
- ٤- ٤) «تصطفق» من ماده «صفق» على وزن سقف بمعنى ضرب الشىء بآخر مصحوباً بالصوت، واصطفقت الأشجار اهترت بالريح.
- ٥- ٥) «متقاذفات» من ماده «قذف» على وزن حذف النزاع وقذف شىء على آخر.
- ٦- ٦) «أثباج» جمع «ثبج» بالتحريك وهو فى الأصل ما بين الكاهل والظهر، استعاره لأعلى الموج، التى يقذف بعضها بعضها.
- ٧- ٧) «ترغو» من ماده «رغو» على وزن نقد ومنه الرغوه ما يطفو على اللبن وأريد بها هنا العناصر المكونه للأرض التى ظهرت عليها ماده مذابه فى البدايه.
- ٨- ٨) «جماح» طغيان الفرس ثم اطلق على كل شىء شبيه ذلك.
- ٩- ٩) «كلكل» يعنى الصدر.
- ١٠- ١٠) «تمعكت» من ماده «معك»، تمعكت الدابه تمرغت فى التراب.
- ١١- ١١) «كواهل» جمع «كاهل» أعلى الظهر وقرب العنق.
- ١٢- ١٢) «اصطخاب» من ماده «صخب» على وزن وهب بمعنى ارتفاع الصوت وتستعمل حين تختلط أصوات الطيور والضفادع مع بعضها، ووردت هنا بشأن اختلاط الأمواج مع بعضها.
- ١٣- ١٣) «ساجى» بمعنى ساكن من ماده «سجو» على وزن هجو.
- ١٤- ١٤) «حكمه» من ماده «حكم» على وزن حتم تعنى فى الأصل الاعاده والمنع وتطلق على ما أحاط بحنكى الفرس من لجامه. وتطلق الحكمه على العقل والعلم، لأنها تمنع الإنسان من السيئات والانحرافات.

الكرات السماويه) على ماده المذابه الاولى كان سببا لاستقرارها بالتدريج وكبح جماحها واضطرابها. كما يحتمل أن تكون هذه العبارات إشاره إلى الأمطار والسيول في بدايه ظهور الكره الأرضيه، بحيث شكلت محيطات متلاطمه، إلّا أنّ هذه الأمواج أخذت بالاستقرار نسبياً على سطح المحيطات بفعل الجاذبيه الأرضيه. حتى أخذت تظهر اليابسه، من هنا قال لاحقاً بان الأرض قرت وظهرت يبوستها شيئاً فشيئاً وحد من حركات الماء حتى سكن وقر في مكانه «وسكنت الأرض مدحوه (1) في لجه تياره، وردت من نخوه بأوه (2) واعتلائه، وشموخ (3) أنقه، وسمو غلوائه (4) وكعمته (5) على كظه (6) جريته (7) فهمد (8) بعد نزقاته (9)، ولبد (10) بعد زيفان (11) وثباته (12)»، وهكذا خمدت العواصف الاولى وقطعت الأمطار والسيول ثم هدأت تلك الامواج، فتأهبت الأرض لتقبل الحياه عليها، وهذا ما أشار إليه الإمام عليه السلام في المقطع القادم. وهنا لابدّ من القول بأنّ بعض شراح نهج البلاغه ذهبوا إلى أنّ الماء قد وجد قبل خلق الكره الأرضيه، إلّا أنّه كما أشير سابقاً أنّ التعبير بالماء يمكن أن يكون إشاره إلى المواد المذابه السيله التي وجدت قبل ظهور السماء والأرض.

ص: ٨٥

١-١) «مدحوه» من ماده «دحو» بمعنى مبسوطه.

٢-٢) «أوه» على وزن نحو الكبر والزهو والفخر.

٣-٣) «شموخ» بمعنى الكبر والغرور.

٤-٤) «غلواء» من ماده غلو النشاط و الطموح و تجاوز الحد.

٥-٥) «كعم» من ماده «كعم» على وزن طعم، كعم البعير شد فاه لثلا يعفى أو يأكل، وما يشد به كعام.

٦-٦) «كظه» بالكسر ما يعرض من امتلاء البطن بالطعام، ويراد بها هنا ما يشاهد في جرى الماء من ثقل الاندفاع.

٧-٧) «جريه» بمعنى الجريان.

٨-٨) «همد» من ماده «همود» بمعنى اخماد حراره النار.

٩-٩) «نَزَقَات» من ماده «نزق» الخفه والطيش.

١٠-١٠) «لبد» من ماده «لبود» الوقوف في مكان.

١١-١١) «زيفان» التبخر في المشيه.

١٢-١٢) «وثبات» جمع «وثبه» القفز وقد وردت في العبارة بمعنى حركه الأرض الشديده في الأيام الاولى.

«فَلَمَّا سَكَنَ هَيْجُ الْمَاءِ مِنْ تَحْتِ أَكْتافِهَا، وَحَمَلِ شَوَاهِقِ الْجِبَالِ الشُّمَخِ الْبُدْخِ عَلَى أَكْتافِهَا، فَجَرَ يَنَابِيعِ الْعُيُونِ مِنْ عَرَائِينِ أَنْوْفِهَا، وَفَرَّقَهَا فِي سُهُوبِ بَيْدِهَا وَأَخَادِيدِهَا، وَعَدَّلَ حَرَكَاتِهَا بِالرَّسَائِمَاتِ مِنْ جَلَامِيدِهَا، وَذَوَاتِ الشَّنَاحِبِ الشُّمِّ مِنْ صَيِّخِيدِهَا، فَسَيَّ كَنْتَ مِنَ الْمَيْدَانِ لِرُشُوبِ الْجِبَالِ فِي قِطْعِ أَدِيمِهَا، وَتَغْلُغْلِهَا مُتَسَرِّبَةً فِي جُوبَاتِ حَيَاثِيئِهَا، وَرُكُوبِهَا أَعْنَاقِ سُهُولِ الْأَرْضِينَ وَجَرَائِمِهَا، وَفَسَخَ بَيْنَ الْجَوِّ وَبَيْنِهَا، وَأَعَدَّ الْهَوَاءَ مُتَنَسِّمًا لِسَاكِنِهَا، وَأَخْرَجَ إِلَيْهَا أَهْلَهَا عَلَى تَمَامِ مَرَاقِهَا» .

الشرح والتفسير

أشار الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الخطبه - بعد أن شرح كيفية ظهور الأرض - إلى مسأله ظهور العيون والآثار المهمه للجبال في استقرار الأرض ومن عليها، فتطرق إلى أهم أسباب الحياه على الأرض وفي مقدمتها الماء والسكون والاستقرار فقال عليه السلام: «فلما سكن هيج الماء من تحت أكتافها، وحمل شواهِق (١) الجبال الشمخ (٢) البدخ (٣) على أكتافها، فجر ينابيع العيون من عرائين (٤) أنوفها وفرقها في سهوب (٥) بيدها (٦) وأخاديدها (٧)» فالعبارة تفيد أن أول

ص: ٨٧

١-١ «شواهِق» جمع «شاهق» العالى والمرتفع.

٢-٢ «شمخ» جمع «شامخ» و «بدخ» جمع «بادخ» العال والرفيع.

٣-٣ شمخ جمع شامخ وبدخ جمع بادخ العال والرفيع.

٤-٤ «عرائين» جمع «عرنين» على وزن عشرين وهو ما صلب من عظم الأنف.

٥-٥ «سهوب» جمع «سهب» على وزن فهم الفلاه.

٦-٦ «بيد» جمع «بيداء» بمعنى الأرض الفلاه.

٧-٧ «أخاديد» جمع «أخدود» الحفره الكبيره.

ما ظهر على الأرض الجبال ثم تبعثها العيون؛ الأمر الذى أيدته أبحاث علم طبقات الأرض حيث تشققت القشره الأرضيه فى البدايه إثر البروده، فكان فى تلك الشقوق حفر عظيمه استوعبت الماء النازل من السماء ثم جرى بشكل عيون و ينابيع. والعباره «عرانين أنوفها» التى تعنى ما صلب من عظم الانف، هى كناية راعه عن قمم الجبال، بل أن تشبيه نتوءات الجبال بالانف تشبيه رائع يدل على أن جوف الجبل ليس مملوءاً، بل فيها المزيد من الأجزاء الخاليه بحيث تبدوا أحياناً للعيان على هيئه غيران وكهوف ومصادر لادخار المياه.

ثم اشار عليه السلام إلى سكون الأرض والسيطره على حركتها بالجبال، فقال: «وعدل حركاتها بالراسيات (1) من جلاميدها (2) وذوات الشناخيب (3) الشم (4) من صياخيدها (5)» .

وهكذا سكنت حركات الأرض بفعل نفوذ الجبال فى سطحها ورسوخها فى الأعماق واستقرارها على الفلاسه فحالت دون اضطرابها: «فسكنت من الميدان (6) لرسوب الجبال فى قطع أديمها (7) وتغلغها (8) متسربه (9) فى جوبات (10) خياشيمها (11)، وركوبها أعناق سهول الأرضين وجراثيمها (12)» .

والحق أن ما أورده الإمام عليه السلام فى هذا المقطع من الخطبه هو ذات ما أثبتته العلم الطبيعى؛ الأمر الذى أشار إليه القرآن الكريم فى أن الجبال بمثابه مسامير الأرض: «وَالجِبَالِ

ص: ٨٨

- ١-١) «الراسيات» جمع «راسيه» بمعنى الثقيل والمحكم.
- ٢-٢) «جلاميد» جمع «جلمود» الحجر الصلد.
- ٣-٣) «شناخيب» جمع «شخوب» رأس الجبل.
- ٤-٤) «الشم» جمع «أشم» بمعنى العالى والمرتفع.
- ٥-٥) «صياخيد» جمع «صيخود» على وزن محمود الصخره الشديده.
- ٦-٦) «ميدان» بالتحريك الاضطراب.
- ٧-٧) «أديم» يعنى فى الأصل الجلد المدبوغ ثم اطلق على سطح الأرض.
- ٨-٨) «تغلغل» المبالغه فى الدخول.
- ٩-٩) «متسربه» من ماده «تسرب» الدخول خفيه.
- ١٠-١٠) «جوبات» «جوبه» على وزن توبه الحفره.
- ١١-١١) «خياشيم» جمع «خيشوم» على وزن زيتون وهو منفذ الأنف إلى الرأس.
- ١٢-١٢) «جراثيم» جمع «جرثومه» المراد هنا ما سفلى عن السطوح من الطبقات الترابيه.

أوتاداً» (١)، كما صرح القرآن قائلاً: «وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَواسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ» (٢). طبعاً هناك عدة فوائد أخرى للجبال؛ ومنها خزن المياه التي تخرج منها أحياناً كعيون، وأحياناً أخرى على هيئة صقيع كثير ذاب ماءً فشكّل الأنهار، ناهيك عن سائر فوائد التي ذكرناها في شرح الخطبه الأولى في المجلد الأول من هذا الكتاب. ثم أشار عليه السلام إلى أمور مهمّة أخرى لاعداد الأرض بغيه عيش الإنسان وممارسه حياته عليها، في أنّ الله جعل فاصله بين الأرض والجو، وأعد الهواء والنسيم إلى جانب توفير كافه ما يحتاج إليه سكنه الأرض: «وفسح بين الجو وبينهما، وأعد الهواء متنسماً (٣) لسكانها، وأخرج إليها أهلها على تمام مرافقها (٤)»، فقد ضمنت هذه العبارة أشاره إلى الأركان الأصلية للحياه ومعيشه الإنسان والحيوان، وفي مقدمتها الهواء، أو بعبارة أخرى الاوكسجين الذي لا يستغنى عنه الإنسان لبضع (دقائق) حيث يموت إذا قطع عنه. إلّا أنّ الحق سبحانه وتعالى خلقه بكميه كافيه وفي جميع الاماكن بحيث يحصل عليه الإنسان دون أدنى جهد أو تعب. كما يحصل عليه الجميع على السواسيه غنيهم وفقيرهم وكبيرهم وصغيرهم وعجوزهم وفتاهم وعاجزهم وناشطهم. ثم أشار على نحو الاجمال إلى كل ما يلزم الإنسان والحيوان للمعيشه على الأرض بعبارة قصيره أوجزها في المفرده «المرافق». أمّا ما المراد بالجو في العبارة الذي فصله الله عن الأرض، فقد قال البعض المراد به الفضاء، ولما لم يكن الفضاء جسماً أو ماده فلا يبدو التعبير بايجاد الفاصله بينه وبين الأرض مناسباً. و يمكن أن يكون المراد بالجو الطبقات التي وراء الهواء، كطبقة الأوزون التي لا يمكنها تلبية الحاجه التنفسيه للإنسان لو كانت فاصلتها مع الأرض قليله، وكانت الطبقة الجويه رقيقه. أضف إلى ذلك فانها تدعو إلى اضطراب سائر شرائط حياه الإنسان وكافه الأحياء على الأرض.

تأمل: أسرار خلق الجبال

ص: ٨٩

١-١) سورة النبأ/٧.

٢-٢) سورة النحل/١٥. [١]

٣-٣) «متنسم» من ماده «نسيم» هبوب الرياح المعتدله. وعليه متنسم (بصيغه اسم مفعول) بمعنى الهواء الصالح للتنفس.

٤-٤) «مرافق» جمع «مرفق» على وزن مكتب كل ما يحتاج الإنسان ويستفيد منه، وهذا هو المعنى المراد في الخطبه. كما ورد بمعنى مرفق اليد.

لقد أعد الحكيم سبحانه بمقتضى قدرته وعلمه كافة أسباب الحياه ومتطلبات العيش والوسائل التي يحتاجها الإنسان قبل خلقه؛ الأمر الذي أشارت الخطبه إلى جانب منه، ومن ذلك استقرار الأرض، فلو كانت القشره الأرضيه فى حاله حركه لتعدرت الحياه عليها، و الآخر توفير الهواء بهذه الصوره الواسعه حيث يعتبر ماده الحياه فى السفر والحضر وفى البيت وخارجه وفى اليقظه والمناخ وهو معه أينما كان، وتوفير المياه والعيون وجعلها تحت تصرف الإنسان، إلى جانب نزول الأمطار التى تروى كافة المواضع المرتفعه والعاليه وترويه بالمياه، وهذا ما سيأتى ذكره فى الأقسام القادمه من الخطبه.

وظهور الجبال التى تلعب دوراً مهماً فى حياه الإنسان، بل يمكن القول أنّ الحياه البشرىه مهدده بالاطار لولا- هذه الجبال للأسباب التاليه.

أولاً: دورها فى الحيلولة دون اضطراب الأرض بفعل الضغط الداخلى.

ثانياً: الحيلولة دون عدم استقرار الأرض إثر الضغط الخارجى الناجم عن جاذبيه الشمس والقمر وظاهره المد والجزر الناشئه عنهما.

ثالثاً: كونها الملجأ الأمان ازاء العواصف التى تهدد كل مقومات وعناصر حياه الإنسان.

رابعاً: وسيله لايقاف السحب ونزول الأمطار.

خامساً: عامل مهم لادخار المياه بصوره صقيع متراكم فى سطحها الخارجى بحيث تتحول بالتدريج إلى ماء طيله السنه.

سادساً: موضع للآبار الجوفيه التى تختزن فى حفر عظيمه داخلها وتجرى كعيون.

سابعاً: تمنع الاضطدام الشديد للهواء بطبقه الأرض.

ثامناً: تجعل الأرض قابله للاستفاده العمليه، وبالنظر لاختلاف درجات حراره وسط الجبال ونقاطها العلويه والسفليه فانها توفر مناخاً مناسباً لنمو مختلف النباتات والمحاصيل.

تاسعاً: انها مراكز للمعادن العظيمه التى تلعب دوراً مهماً فى حياه الإنسان.

عاشراً: يستخرج منها بعض المواد المهمه فى البناء ولاسيما الحجر.

ومن هنا عدها القرآن الكريم من النعم العظيمه ذات الفوائد الكثيره، فقال «وَهُوَ الَّذِى مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَواسِيَ وَأَنْهَاراً وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا رَوَجِينَ أُثْنَيْنِ» (١).

ص: ٩٠

«ثُمَّ لَمْ يَدْعُ جُرْزَ الْأَرْضِ الَّتِي تَقْصُرُ مِيَاهُ الْعُيُونِ عَنْ رَوَائِبِهَا، وَلَا تَجِدُ جَدَاوِلَ الْأَنْهَارِ ذَرِيعَةً إِلَى بُلُوغِهَا، حَتَّى أَنْشَأَهَا نَاشِئَةَ سَحَابٍ تُحْيِي مَوَاتِنَهَا، وَتَنْشِئُ تَخْرُجُ نَبَاتُهَا أَلْفَ عَمَامَةٍ بَعِيدِ افْتِرَاقٍ لِمَعِهِ، وَتَبْرَأِينَ فَرْعِهِ، حَتَّى إِذَا تَمَخَضَتْ لُجَّةُ الْمُرْنِ فِيهِ، وَالتَّمَعَ بَرُوقُهُ فِي كُفِّهِ، وَلَمْ يَنْمِ وَمِيضُهُ فِي كَنْهَوْرِ رَبَابِهِ، وَمَتْرَاكِمِ سَحَابِهِ، أَرْسَلَهُ سَيْحًا مُتِدَارِكًا، قَدْ أَسْفَى هَيْدَبُهُ، تَمْرِيهِ الْجُنُوبِ دَرَرَ أَهَاضِيْبِهِ، وَدَفَعَ شَأْبِيْبِهِ. فَلَمَّا أَلْقَتِ السَّحَابُ بَرْكَ بَوَائِنِهَا، وَبَعَّاعَ مَا اسْتَقَلَّتْ بِهِ مِنَ الْعَبءِ الْمَحْمُولِ عَلَيْهَا، أَخْرَجَ بِهِ مِنْ هَوَامِدِ الْأَرْضِ النَّبَاتَ، وَمِنْ زُغْرِ الْجِبَالِ الْأَغْشَابَ، فَهِيَ تَبْهَجُ بَرِيْنِهِ رِيَاضَةً هَا وَتَرْدُهِى بِمَا أَلْبَسَتْهُ مِنْ رِيْطٍ، أَزَاهِيْرَهَا، وَجَلِيْهِ مَا سُمِطَتْ بِهِ مِنْ نَاضِرِ أَنْوَارِهَا، وَجَعَلَ ذَلِكُ بَلَاغًا لِلْأَنَامِ، وَرِزْقًا لِلْأَنْعَامِ، وَخَرَقَ الْفِجَاجَ فِي آفَاقِهَا، وَأَقَامَ الْمَنَارَ لِلسَّالِكِيْنَ عَلَى جَوَادِّ طُرُقِهَا» .

الشرح والتفسير

أشار الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الخطبه إلى نعمه مهمه أخرى لا تتم الحياه بدونها على سطح الأرض، حيث شرحها بعبارات لطيفه رائعته، فقال عليه السلام: «ثم لم يدع جرز (1) الأرض التي تقصر مياه العيون عن روايبها (2)، ولا تجد جداول الأنهار ذريعه إلى بلوغها، حتى أنشأ لها

ص: ٩١

١- ١) «جرز» ؛ تطلق على الأرض التي تمر عليها مياه العيون فتنبت.

٢- ٢) «روابي» جمع «رايبه» من ماده «ربو» على وزن غلو مرتفعات الأرض.

ناشئه السحاب تحيى، مواتها وتستخرج نباتها» .

الجدير بالذكر أنّ الإمام عليه السلام أشار بصوره عابره إلى الاقسام الثلاثة للرى والسقى: السقى الطبيعى بواسطه العيون المليئه بالمياه، والسقى عن طريق الجدوال والآبار وتوجيه مياه الأنهار الطبيعىه، والسقى عن طريق الأمطار الأهم من كل ذلك، وذلك لوجود بعض المناطق فى الأرض التى يتعذر سقيها بغير الأمطار، وهى المناطق الكثيره، فلولا مياه الأمطار لماتت أجزاء واسعه من الأرض. اضيف إلى ذلك فما لاشك فيه أنّ الأنهار والعيون إنّما تكتسب مياهها من الأمطار. على كل حال فإنّ السحب وبالتالى الأمطار تقوم بهذه المهمه فى السقى و التى كلفها بها الله فقال عليه السلام: «الف غمامها بعد افتراق لمعه (١)، وتباين قزعه (٢)، حتى إذا تمخضت (٣) لجه المزن (٤) فيه والتمع برقه فى كفه (٥)، ولم ينم وميضه (٦) فى كنهور (٧) ربابه (٨)، متراكم سحابه، أرسله سحاً (٩) متاركاً، قد أسف (١٠) هيدبه (١١)، تمريره (١٢) الجنوب درر (١٣) أهاضيبه (١٤)، ودفع شايبيه (١٥)»، فقد استبطنت هذه العبارات عدّه مواضع علميه مهمه: ومنها الإشاره إلى مهمّه

ص: ٩٢

- ١-١ «لمع» جمع «لمعه» على وزن لقمه بمعنى قطعه من السحاب أو شىء آخر.
- ٢-٢ «قزع» جمع «قزعه» على وزن ثمره القطعه من الغيم.
- ٣-٣ «تمخضت» من ماده «مخض» على وزن فرض، بمعنى الحركه الشديده، مثل حركه الشكويه - و هو الوسيله التى يخض فيها اللبن لفصل الزبد عنه - عند ما نريد فصل الزبد عن اللبن. و المخاض: يطلق على حركه الطفل الشديده فى بطن أمه فى حاله الطلق و الوضع.
- ٤-٤ «مزن» السحب الماطره.
- ٥-٥ «كفف» جمع «كفه» على وزن قبه حاشيه شىء و اطرافه.
- ٦-٦ «مبيض» من ماده ومض على وزن رمز التشعشع.
- ٧-٧ «كنهور» القطع العظيمه من السحاب.
- ٨-٨ «رباب» جمع «ربابه» السحاب الابيض.
- ٩-٩ «سح» متلاحق متواصل.
- ١٠-١٠ «أسف» من ماده إسفاف الدنو من الأرض.
- ١١-١١ «هيدب» السحاب المتدلى الذى يقترب من الأرض.
- ١٢-١٢ «تمرى» من ماده «مرى» من مرى الناقه مسح على ضرعها ليحلب لبنها.
- ١٣-١٣ «درر» جمع «دره» اللبن.
- ١٤-١٤ «أهاضيب» جمع «أهضوبه» الحلب المتواصل.
- ١٥-١٥ «شاييب» جمع «شؤبوب» ما ينزل من المطر بشده.

الرياح التي تولف بين السحب المتفرقة المنبعثه من البحار لتتكون منها الأمطار الغزيره. ثم تطرق عليه السلام إلى تجمع السحب والغيوم والضغط الذي تسلطه كل واحده على الأرض تأهباً لهطول الأمطار إلى جانب دور البرق في ذلك الهطول، لاننا نعلم أنّ البرق إنّما يحصل من خلال الكهربائيه الموجبه والسالبه، فيجذب إليه مقداراً كبيراً من الهواء ويقلل من ضغطه فاذا قلّ ضغط الهواء تمهدت الظروف لسقوط الأمطار. ثم واصل الإمام عليه السلام الكلام في دور الرياح وأنها بمثابة الأصابع التي تستخرج الحليب من ضرع الثدي، فتفصل السحب والغيوم عن الهواء وتبعث بمياه الأمطار هنا وهناك. فكل هذه الأمور تشير إلى أن الخالق الحكيم قد أعدّ جميع المقدمات ودبر كافة الاسباب من أجل رى الاراضى المرتفعه والجافه. ثم أشار الإمام عليه السلام إلى آثار المطر على الأرض وما ينطوى عليه من بركات وفوائد فقال: «فلما أَلقت السحاب برك (1) بوانيها (2) وبعا (3) ما أستقلت (4) به من العبث (5) المحمول عليه، أخرج به من هوامد (6) الأرض النبات، ومن زعر (7) الجبال الأعشاب»، فقد أشارت هذه العبارات الرائعه إلى مسأله وهي أنّ السحب كأنها جبلى فاذا هطلت الأمطار الثقليه وضعت حملها؛ الحمل الذي يفيض الحياه والبركه والجمال لكى تشمل الصحارى الجرداء أطراف قمم و سفوح الجبال - التى يصعب على الإنسان سقيها - فتخرج منها النباتات التى تعود بالفائده على الناس. ثم واصل عليه السلام حديثه برسم صورته رائعه عن الطبيعه التى تتمخض عن ذلك المطر، فقال «فهى تبهج (8) بزينه رياضها، وتزدهى (9) بما البسته من ريط (10) أزاهيرها (11) وحيله ما سمطت (12) به من ناضر (13) أنوارها (14)» .

ص: ٩٣

- ١- ١) «برك» بالفتح مايلى الأرض من جلد صدر العبير.
- ٢- ٢) «بوانى» مثنى «بوان» على وزن لسان عمود الخيمه.
- ٣- ٣) «بعا» بالفتح ثقل السحاب من الماء.
- ٤- ٤) «استقل» من ماده «استقلال» الحمل.
- ٥- ٥) «عبء» الحمل.
- ٦- ٦) «هوامد» جمع «هامده» من ماده «همود» انطفاء النار والهوامد من الأرض ما لم يكن بها نبات.
- ٧- ٧) «زعر» جمع «أزعر» الموضع القليل النبات.
- ٨- ٨) «تبهج» من ماده «بهجت» سر وفرح.
- ٩- ٩) «تزدهى» من الأزدهاء العجب.
- ١٠- ١٠) «ريط» جمع «ريطه» الثوب الرقيق.
- ١١- ١١) «أزاهير» جمع «زهرة» النبات.
- ١٢- ١٢) «سمطت» من ماده «سمط» التعليق.
- ١٣- ١٣) «ناضر» من ماده «نضاره» النشاط، ولا سيما الحاصل من وفور النعمه.
- ١٤- ١٤) «أنوار» جمع «نور» البرعم والزهر.

ومن الواضع جداً دور الطبيعى وجمالها فى صفاء روح الإنسان وإزالته لتعبه وارهاقه إلى جانب تفعيل قوته وطاقته؛ وعليه فالحديث لا يقتصر على مسأله الجمال، وإن كان هذا الجمال يمثل جانباً من جمال الحق سبحانه وجلاله؛ بل إن هذا الجمال يعد أحد عوامل بقاء الحياه وديمومتها، بل ذهب بعض العلماء إلى أهميه دروه حتى فى نشاط الحيوانات. ثم قال عليه السلام بأن كل ذلك زاد ومتاع للإنسان ورزق للانعام: «وجعل ذلك بلاغاً (١) للأنام، ورزقاً للانعام»، فالإنسان لا يستفيد من نعم الطبيعى على مستوى الغذاء فحسب، بل يؤمن عن طريقها لباسه ومسكنه ومركبه، وبصوره عامه كافه حاجاته ومتطلباته. قال القرآن الكريم بهذا الشأن: «أَنَا صَدَقْنَا الْمَاءَ صَبًّا * ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا * فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا * وَعِنَبًا وَقَضْبًا * وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا * وَحَدَائِقَ غُلْبًا * وَفَاكِهَةً وَأَبًّا * مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ» (٢).

نعم فالإنسان لا يتغذى على النباتات وثمارها، وينسبح مفروشاتة من مختلف أليافها فحسب، بل يبنى بيوته من خشبها وينصب الخيام من أليافها، كما يغطى أغلب حاجاته ومتطلباته عن طريق منتجات الحيوانات التى تتغذى على النباتات. ثم اختتم خطبته عليه السلام بالإشاره إلى مسأله مهمه أخرى خلقها الله فى الأرض من أجل الإنسان: «وخرق الفجاج (٣) فى آفاقها وأقام المنار للسالكين على جواد (٤) طرقها». فادنى نظره إلى الأرض وكل بقعه من هذه الكره الأرضيه يتضح من خلالها بأن الجبال لم تحول دون الحركة على الأرض أو بفصل بعض بقاعها عن البعض الآخر فحسب، بل جعل فى كافه مواضعها الاوديه والشقوق لا يصلها مع بعضها عن طريق السبل والجادات وما إلى ذلك: وقلما يلتفت الإنسان أنه لولا وجود هذه الجادات و الجبال العملاقه المتصله مع بعضها و التى تشكل جدارا لمنع عبور الناس و الحيوانات و تقسم الأرض إلى إقسام متناثره لتعرض لعظيم البلاء و عاش أشد الفاقه: «وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ

ص: ٩٤

١- ١) «بلاغ» من ماده «بلوغ» الوصول إلى الشىء وهو هنا ما يتبلغ به من قوت.

٢- ٢) سوره عبس/ ٢٥ - ٣٢. [١]

٣- ٣) «فجاج» جمع «فج» بمعنى الوادى بين الجبلين.

٤- ٤) «جواد» جمع «جاده» الطريق الواسع الواضح.

يَهْتَدُونَ» (١)، وقال: «وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ» (٢).

تأمل: سعه قاعده اللطف فى التكوين والتشريع

جرت عادة أهل التدبير والحكمه على توفير كافه المقدمات والأسباب التى توصل إلى الهدف، ويتجلى هذا الأمر بأعظم أبعاده فى الخالق الحكيم سواء فى عالم التشريع والتكليف، أم فى عالم العينية والواقعية، فقد أعد كافه الشرائط ومهد جميع السبل فى عالم التكليف من أجل الطاعه، حيث زود الإنسان بالعقل والذكاء والفطره السليمه وانزل الكتب السماويه وبعث الرسل والأنبياء ليتسنى للعباد اتخاذ سبيل الطاعه؛ الأمر الذى اصطلح عليه باللطف فى علم الكلام. وفى عالم الخلق فإن الله سبحانه أعد كافه وسائل الحياه قبل أن يضع الإنسان قدمه على هذا العالم، فقد أقر سطح الأرض وحال دون حركاتها الطائشه بواسطه الجبال، وشق فيها الآبار والأنهار التى تعتبر ماده الحياه، وسخر السحب لرى المرتفعات، كما خلق مختلف النباتات التى يتغذى عليها الناس والحيوانات كما أوجد الجواد وسط الجبال لعبور الناس ومشيهم، وسهل للناس روابطهم الاجتماعيه، بل منح أرواحهم السكينه والهدوء بما زين به الطبيعه من ورود وأزهار. نعم هذا هو معنى الحكمه والتدبير والربوبيه الذى أشار إليه أميرالمؤمنين على عليه السلام فى هذا الموضع من الخطبه، والذى يعرف الإنسان بعلم الله وقدرته وحكمته من جانب، كما تثير لديه حس الشكر - ماده الطاعه والعبوديه -، وهو الأمر الذى ورد كراراً فى القرآن ومن ذلك فى سوره النحل بعد ذكره لخلق السموات والأرض والانعام ونزول الأمطار من السماء و خروج الاشجار و نمو الزرع و أنواع الثمار و الفاكهه و حركه الشمس و القمر و خلق البحار على أنها من نعمه التى لاتعد و لا تحصى. حيث قال: «وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَواسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَ أَنْهَاراً وَ سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ * وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ» (٣).

ص: ٩٥

١- ١) سوره الأنبياء/٣١. [١]

٢- ٢) سوره فاطر/٢٧. [٢]

٣- ٣) سوره النحل/١٦ - ١٥. [٣]

«فَلَمَّا مَهَّدَ أَرْضَهُ، وَأَنْفَذَ أَمْرَهُ، اخْتَارَ آدَمَ، عَلَيْهِ السَّلَامُ، خَيْرَهُ مِنْ خَلْقِهِ وَجَعَلَهُ أَوَّلَ جِبَلَّتِهِ وَأَسْوَأَ كُنْهَ جَنَّتِهِ، وَأَرْغَدَ فِيهَا أُكْلَهُ، وَأَوْ عَزَّ إِلَيْهِ فِيمَا نَهَاهُ عَنْهُ، وَأَعْلَمَهُ أَنَّ فِي الإِقْدَامِ عَلَيْهِ التَّعَرُّضَ لِمَعْصِيَّتِهِ، وَالْمُخَاطَرَةَ بِمَنْزِلَتِهِ؛ فَأَقْدَمَ عَلَى مَا نَهَاهُ عَنْهُ - مُوَافَاةً لِسَابِقِ عِلْمِهِ - فَأَهْبَطَهُ بَعْدَ التَّوْبَةِ لِيَعْمُرَ أَرْضَهُ بِنَسْلِهِ، وَلِيُقِيمَ الْحُجَّةَ رُبُوبِيَّتِهِ، وَيَصِلَ بَيْنَهُمْ وَيَبَيِّنَ مَعْرِفَتِهِ، بَلَّ تَعَاهُدَهُمْ بِالْحُجَجِ عَلَى أَلْسِنِ الْخَيْرِ مِنْ أَنْبِيَائِهِ، وَمُتَحَمِّلِي وَدَائِعِ رِسَالَاتِهِ، قَرْنَا فَقَرْنَا؛ حَتَّى تَمَّتْ بِنَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ حُجَّتُهُ، وَبَلَغَ الْمَقْطَعُ عُذْرَهُ وَنُذْرَهُ» .

الشرح والتفسير

خاض الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الخطبة في قضية خلق آدم بعد خلق الأرض وإعدادها من جميع النواحي، وأن الله سبحانه قد أعد الأرض وانهض فيها أمره ثم اصطفى آدم عليه السلام من بين جميع خلقه: «فلما مهد أرضه، وأنفذ أمره، اختار آدم عليه السلام، خيره من خلقه، وجعله أول جبلته» (1)، والعبارة «أول جبلته» (أول مخلوقاته) يمكن أن يكون المراد بها الإنسان الأول من حيث الترتيب الزمني، أو أول مخلوق من حيث الموقع.

والمقام، أو كلاهما.

ص: ٩٧

١- ١) «جبله» بمعنى الطبيعة و الفطره الإنسانيه (وقد اشتقت هذه الكلمه من ماده «جبل» حيث تابى هذه الفطره التغير). .

ثم قال عليه السلام بأن الله سبحانه أسكن آدم جنته وزوده بمختلف الأَطعمه والأشريه، ثم حذرَه ما حذرَه عليه والعاقبه الخطيره لتجاوز أمره ونهيه على مقامه وكرامته: «وأسكنه جنته، وأرغد فيها أكله، وأوعز (١) إليه فيما نهاه عنه، وأعلمه أن في الأقدام عليه التعرض لمعصيته، والمخاطره بمنزلته» .

نعم فقد أسكن الله آدم عليه السلام في جنته أرضيه (جنته غناء بالفاكهه من جنان الأرض، والشاهد على ذلك قوله: «فلما مهد أرضه» ، ثم بين لآدم عليه السلام تكليفه وأصدر له وأوامره ونواهيهِ وحذرَه من معصيته وعدم طاعه أوامره، والعبارات وان لم تصرح بالشجره المنهيه، غير أنها بينت بصوره عامه؛ الأمر الذى ورد كراراً فى عدّه آيات قرآنيه ومنها الآيه: «وَلَقَدْ عَاهَدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَنَسَى وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً» (٢) والآيه «وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ» (٣).

ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه بأن آدم وقع فى ما حذر منه: «فأقدم على ما نهاه عنه، موافاه لسابق علمه» .

قد يبدو فى البدايه أن العبارة: «موافاه لسابق علمه» ، أن آدم عليه السلام - قد أجبر على المعصيه وذلك لأن علم الله سبق فى هذا الأمر (وهذه هى الشبهه المعروفه لدى المجبره فى مسأله العلم الأزلى لله سبحانه) ، ولكن كما ذكرنا ذلك سابقاً فى بحث الجبر والتفويض، أن العلم الانزلى ليس سبباً الاجبار على فعل قط! لأن الله كان يعلم أن آدم عليه السلام سيقارف هذا العمل باختياره، بالضبط كالاستاذ الذى يعرف تلميذه سيسقط فى الامتحان النهائى بسبب إهماله وكسله فى الدروس. فمثل هذا العلم من قبل الاستاذ ليس له أيه صله برسوب ذلك التلميذ أو اجباره عليه. فهو يعلم أن تلميذه اختار طريقاً خاطئاً بمحض إرادته، وقد اعتاد الكسل والتقاعس دون الجد والمطالعه والمثابره (٤) ومن هنا آخذَه الله وخاطبه: «أَلَمْ أَنهَكُمَا عَنْ تِلْكَمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلُّ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ» (٥).

ص: ٩٨

١- ١) «أوعز» من ماده «وعز» على وزن وعظ اقتراح عمل على آخر.

٢- ٢) سوره طه/١١٥. [١]

٣- ٣) سوره البقره/٣٥. [٢]

٤- ٤) للوقوف على تفاصيل هذا الموضوع راجع كتاب «معرفه الله» .

٥- ٥) سوره الاعراف/٢٢. [٣]

فلو كان آدم عليه السلام مجبوراً كيف يؤاخذة الحكيم سبحانه على فعل لم يكن مختاراً في ارتكابه، كذلك لماذا يندم آدم عليه السلام على ذلك الفعل ويتوب منه، أم كيف يخرج الله سبحانه من الجنة بذلك الفعل؟ كل هذه الأمور تدل على عدم وجود أى تضارب بين العلم الأزلى لله سبحانه مع اختيار آدم وسائر أفراد البشر، ثم قال عليه السلام: «فأهبطه (١) بعد التوبه ليعمر الأرض بنسله، وليقيم الحججه به على عباده» .

فبالنظر للعباره السابقه «أسكنه جنته» يفهم أنّ هبوط آدم ونزوله لم يكن هبوطاً مكانياً، بل مقامياً، أى أنّ الله أهبط آدم من ذلك المقام الرفيع الذى كان عليه لتركه ذلك الاولى.

والعباره: «ليعمر أرضه بنسله» تفيد أنّ هدف كافة الأفراد لابد أن يكون إعمار الأرض لا اضرارها بالحروب والقتال والنزاعات والخلافات أو الخمول والكسل والتقاعد عن العمل أو حتى تلوّث البيئه السالمه! والطريف أنّ هذا الاعمار جاء بعد التوبه، فما لم يتب الإنسان من أخطائه وزلله لا يوفق لهذا البناء والاعمار، فقد جاء فى القرآن الكريم «هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَإِنَّكُمْ فِيهَا فَاسْتَعْفِرُوهُ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ» (٢).

كما يستفاد من العباره: «فأهبطه بعد التوبه» بأنّ ذلك الهبوط قد حصل بعد التوبه.

النقطه المهمه الأخرى فى العباره والتي أشير إليها مراراً فى القرآن مسأله اتمام الحججه على العباد. فالله سبحانه وإن زود الإنسان بالعقل، إلّا أنّه لم يكتف بذلك فواتر إليه كتبه ورسله وأنبيائه والدعاه إلى طاعته - فى كل عصر ومصر - ليتم الحججه على العباد، وهذا ما أورده الإمام عليه السلام فى حديثه بين بنى آدم وواتر إليهم الأنبياء ليؤدوا رسالات ربهم ويسيروا عليهم الحجج: «ولم يخلهم بعد أن قبضه، ممّا يؤكد عليهم حججه ربوبيته، ويصل بينهم وبين معرفته، بل تعاهدهم بالحجج على ألسن الخيره من أنبيائه، ومحتملى ودائع رسالاته، قرناً (٣) فقرناً؛ حتى تمت بنينا محمد صلى الله عليه و آله حجته، وبلغ المقطع (٤) عذره ونذره (٥)»، تفيد بعض

ص: ٩٩

١-١) «أهبط» من ماده «هبوط» النزول.

٢-٢) سورة هود/٦١. [١]

٣-٣) «قرن» الزمان الطويل الذى قد يمتد الى مئه عام، كما يطلق الجماعه التى تعيش مع بعضها فى عصر.

٤-٤) «مقطع» النهايه.

٥-٥) «عذره» و «نذره»، «العذر» هنا اتمام الحججه على العباد بحيث لا يبقى لهم عذرا للمخالفه، و «النذر» جمع النذير بمعنى الانذار، ذكر العواقب السيئه للشئ.

الآيات القرآنية وجود التوبه سابقاً، كما تفيد آيات أخرى وجودها لاحقاً، ويمكن الجمع بينهما، في أن آدم عليه السلام تاب مرات من خطيئته من قبل الهبوط وبعده، وما أكثر ما يخطئ الإنسان ويكثر من الاستغفار كلما عرض له ذلك الخطاء. العبارة «لم يخلهم بعد أن قبضه» (1)، تفيد أن آدم عليه السلام هو أحد أنبياء الله وحججه، وأن الله واطر أنبيائه بعد آدم عليه السلام حتى ختمهم بالنبي الأكرم صلى الله عليه وآله، وهنا يبرز هذا السؤال: إذا كان اتمام الحجج ضروره في كل زمان ومكان / لم ختمت النبوه بالرسول الأكرم صلى الله عليه وآله فكان صلى الله عليه وآله خاتم الأنبياء؟ وتتضح الاجابه على هذا السؤال من خلال التفات إلى هذه النقطه وهى أن الله أنزل آخر أوامره وأحكامه وأكمل قوانينه وتعاليمه على نبي الإسلام، فكانت شريعته أكمل الشرائع وأشملها، بحيث يمكن للبشرية برمتها أن تحتديها فى مسيرتها إلى السعاده والفلاح، ولا سيما أن نسل الأوصياء عليه السلام الامتداد الحقيقى للنبي صلى الله عليه وآله مائل إلى يوم القيامة، ومن أراد المزيد فليراجع المجلد الثامن من كتاب نفحات القرآن بحث الخاتمية.

ص: ١٠٠

١ - ١) جمله «ليقيم الحجج به على عباده» «فى حاله عود الضمير «به» على آدم عليه السلام أيضاً يمثل دليلاً آخرأ على نبوه آدم عليه السلام. و تعبير «عباده» يشير إلى حواء و أولاد آدم، بالاضافه إلى مصير آدم و زوجته بعد الخروج من الجنة بعد ارتكاب الخطأ، وهى حججه على بنى آدم كافه إلى يوم القيامة.

«وَقَدَّرَ الْأَرْزَاقَ فَكَثَّرَهَا وَقَلَّلَهَا، وَقَسَمَهَا عَلَى الضَّيْقِ وَالسَّعَةِ فَعَدَلَ فِيهَا لِيَبْتَلِيَ مَنْ أَرَادَ بِمَيْسُورِهَا وَمَعْسُورِهَا، وَيَخْتَبِرَ بِذَلِكَ الشُّكْرَ وَالصَّبْرَ مِنْ غَنِيِّهَا وَفَقِيرِهَا. ثُمَّ قَرَنَ بِسَيِّئَاتِهَا عَقَابِيْلَ فَاقْتَبَلَهَا، وَبَسِيْلَامَتِهَا طَوَارِقَ آفَاتِهَا، وَبِفَرَجِ أَفْرَجِهَا غُصَصَ أَتْرَاحِهَا، وَخَلَقَ الْأَجَالَ فَأَطَالَهَا وَقَصَّرَهَا، وَقَدَّمَهَا وَأَخَّرَهَا، وَوَصَلَ بِالْمَوْتِ أَسْبَابَهَا، وَجَعَلَهُ خَالِجًا لِأَشْطَانِهَا، وَقَاطِعًا لِمَرَائِرِ أَقْرَانِهَا» .

الشرح والتفسير

واصل الإمام عليه السلام كلامه بالأدله الدامغه و الواضحه بشأن اتمام الله سبحانه للحجه على العباد من خلال إنزال الكتب السماويه وبعث الأنبياء والرسل بالحديث هنا عن وسيلتين للامتحان الإلهى للعباد فى مختلف مراحل تكليفهم، فأشار فى الاولى إلى مسأله الرزق التى قدرها وتعرضها للزياده والنقيصه: «وقدر الارزاق فكثرها وقللها، وقسمها على الضيق والسعه» وبغيه الحيوله دون التصور بأن هذا التفاوت فى الرزق بين العباد يتناقض والعداله، بادر الإمام عليه السلام إلى القول بتقسيمها على ضوء العدل «فعدل فيها» فى إشاره إلى أن العداله لاتعنى المساواه والتكافى، بل العداله تعنى الايصال على ضوء مصلحه الشخص، فقد ورد فى الحديث عن النبى الأكرم صلى الله عليه وآله أن الله سبحانه وتعالى قال: «إن من عبادى من لا يصلحه إلا الفاقه ولو أغنيته لأفسده ذلك، وإن من عبادى من لا يصلحه إلا الصحه ولو أمرضته

لأفسده ذلك» (١)، ثم تعرض عليه السلام بصورة أعمق لهذا الأمر قائلاً: «ليبتلى من أراد بميسورها ومعسورها، وليختبر بذلك الشكر والصبر من غنيها وفقيرها»، يمكن أن يكون هذا التفاوت في الأشخاص مختلفاً؛ فتمتع فئه بنعمه جمه لترى في ميدان الاختبار هل أدت شكر هذه النعمة وأفاضت بعضها على المحرومين، ووضعت الأموال مواضعها الصحيحة، أم بالعكس فإن زياده الثروه أبعدها تماماً عن الخالق والمخلوق وجعلها تسيح في بحر من الغرور والغفله. أم أن ضيق الرزق حطم صبر هذه الجماعه وقضى على استقامتها واضطراها إلى مقارفة الحرام وجحود النعمة والأعراض عن الله سبحانه وتعالى.

بل إن هاتين الحالتين قد تتحققان في نفس الشخص، فقد يكون غنياً أحياناً، كما قد يكون فقيراً أحياناً أخرى، وهو ممتحن في الحالتين في شكره وصبره وجحوده وجزعه ثم يواصل الإمام عليه السلام كلامه بالإشارة إلى هذه النقطة في أن الغنى والفقير والصحة والمرض ليست من الأمور المنفصلة عن بعضها ليستند الإنسان على واحده منها، بل هي قريبه متداخله مع بعضها، في أن الباريء سبحانه خلط سعه الرزق بما يتبقى من الفقر والفاقة، والصحة والعافيه والسلامه بالحوادث الإلهيّه، والسرور والافراح بالأحزان والأتراح: «ثم قرن بسعتها عقابيل فاقتها، وبسلامتها طوارق آفاتها، وبفرج أفرانها غصص أترانها (٢)»، حتى لا يغتر أحد بغناه وعافيته وفرحه وسروره، ويعلم الجميع بان هذه الأمور معرضه للزوال والتبدل والعدم على الدوام وفي كل مكان ولدى كائن من كان و أنها تنقلب يوماً إلى ما يضادها. وسالمتك الليالي فاغتررت بها وعند صفو الليل يحدث الكدر

و بالنظر إلى أن «عقابيل» جمع عقبوله على وزن جرثومه تعنى الشدائد وبقايا الأمراض والمشاكل التي تتمثل بقروح صغيره تخرج يالشفه: فإن العبارة المذكوره تفيد أن المشاكل

ص: ١٠٢

١ - ١) بحار الأنوار ٦٨/١٤٠، [١] وقد ورد شبه هذا المعنى في الغنى والفقر والصحة والمرض والتوفيق للعباده من عدمه في بحار الأنوار ٥/٢٨٤ [٢] عن النبي صلى الله عليه و آله عن الله سبحانه.

٢ - ٢) «أتراح» جمع «ترح» على وزن فرح بمعنى الغم والهم، وفسر ضد الفرح كما فسر أيضاً بالهلاك وقطع الخير والاحسان.

والمصائب وآثارها وبقاياها تلازم دائما الراحة والهدوء ولا تفارقهما أبداً، والعبارة: «يفرج أفرأحها غصص أترأحها» تأكيد آخر لهذا المعنى؛ لأنَّ أترأح جمع ترح على وزن فرح بمعنى الحزن والغم والهم. فبالنتيجة ذكر الإمام عليه السلام أنَّ هذه الأفرأح والسرور مقرونه با لهم والحزن، النقطة الأخرى التي أشار إليها الإمام عليه السلام هي الوقت المحدد. للحياه، فلها نهايه حتميه عاجلا- أم آجلاً والشىء الذى ليس للإنسان منه وسيله للهرب هو الموت: «وخلق الاجال فأطالها وقصرها، وقدمها وأخرها». فالموت موصول بالحياه (وجعل الأمراض وسيله لانتهاء الحياه) من شأنه القضاء عليها «و وصل بالموت أسبابها، وجعله خالجا (١) لأشطانها (٢)، وقاطعا لمرائر (٣) أقرانها»، فقد أشار الإمام عليه السلام فى هذه العبارة القصيره إلى عدّه نقاط، منها أنَّ البعض يعمر كثيراً بصوره طبيعيه، والبعض الآخر يعمر قليلاً، كما قد يقصر ذلك العمر الطويل بفعل بعض الأعمال الشائنه أو الذنوب والمعاصى، بينما قد يطال فى ذلك العمر القصير إثر رعايه القضايا المرتبطه بالصحه والسلامه، أو بفعل الأعمال الطيبه والخير والاحسان. كما أشار عليه السلام إلى أنَّ للموت عدّه أسباب، إذا هرب الإنسان من بعضها وقع فى مخالط الآخر، بل لاينجو من الموت أقوى الأقوياء. وعليه لاينبغى لأحد أن يغتر بصحته وسلامته وشبابه وقوته، ولابدّ لكل أحد أن يتأهب للموت ويعد له الزاد المطلوب متوقفاً الموت فى أى وقت. (٤) كما احتمل بعض شراح نهج البلاغه أنَّ المراد بالتقديم والتأخير، هو أنَّ الله سبحانه وتعالى خلق البعض فى الأزمنه الماضيه والبعض الآخر فى الأزمنه اللاحقه على ضوء المصالح، إلّا أنَّ المعنى الأول أنسب.

تأمل: هل رزق كل إنسان مقدر؟

لا يستفاد من عبارات هذه الخطبه تقدير رزق الإنسان فحسب، بل يستفاد ذلك من

ص: ١٠٣

١- ١) «خالج» من ماده «خلج» بمعنى الجذب، والخلجان شىء فى ذهن الإنسان يعنى انجذابه أمام الشىء، ومن هنا اطلق الخليج لجذبه ماءً كثيراً من البحر.

٢- ٢) «أشطان» جمع «شطن» على وزن وطن وهو الجبل الطويل، كما وردت هذه المفرده بمعنى العبد، ومنه «الشيطان» لبعده عن الهدايه والرحمه.

٣- ٣) «مرائر» جمع «مرير» الجبل المحكم.

٤- ٤) اوردنا بحثاً مفصلاً فى الخطبه ٦٢ من المجلد الثالث بشأن الأجل ونهايه عمر الإنسان.

أغلب الآيات القرآنية الواردة بهذا الشأن، فقد طالعتنا مختلف المصادر الإسلامية بأن سعه الرزق أوضيحه إنما هي خاضعة لإرادة الله ومشيته بغية اختبار العباد وتمحيصهم. بعبارة أخرى: لقد منح الإنسان ما يوافق مصلحته. وهذا الأمر يثير عدّه أسئلة منها: أولاً: إذا كان الأمر كذلك، فما معنى السعي والجهد من أجل الرزق.

ثانياً: إن مثل هذا الاستنتاج يؤدي إلى سكون الأنشطة الاجتماعية وتخلف المجتمعات البشرية؛ المجتمعات التي ينبغي أن تعيش حالة النشاط والمثابرة بغية عدم تخلفها عن سائر المجتمعات ولاسيما غير الإسلامية، فقد صرح القرآن الكريم بهذا الشأن قائلاً: «نَحْنُ قَسِيْمًا بَيْنَهُمْ مَعِيْشَتُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ» (١)، إلّا أنّ الإجابة على السؤال المذكور وردت في الروايات الإسلامية، بحيث لا يبقى من مجال للغموض إذا تأملناها بأجمعها، فقد جاء في كلمات أمير المؤمنين على عليه السلام في نهج البلاغة: «إنّ الرزق رزقان؛ رزق تطلبه، ورزق يطلبك، فان أنت لم تاته أتاك» (٢).

والواقع كذلك فالقسم الأعظم من الرزق يتطلب سعي الإنسان وجهده وتوظيفه لكافة إمكانياته واستعداداته وطاقاته وليس له الظفر به دون ذلك، إلّا أنّ القسم الآخر من الرزق يأتي إلى الإنسان دون السعي إليه، ليدل الإنسان على أن السعي والجهد وإن كان أصلاً مسلماً إلّا أنّ رازقيه الله لا تقتصر على ذلك، فلا بد من التوجه إلى الله وطلب الرزق منه.

من جانب آخر جاء في الخبر أن من بين الأدعية التي لا تستجاب دعاء الإنسان الصحيح الذي لزم بيته وقعد عن السعي وهو يدعو الله: اللهم إرزقني فتناديه الملائكة بان دعائك ليس بمستجاب، قم وإعمل. فقد ورد في الرواية أن الإمام الصادق عليه السلام قال: «أربع لا يستجاب لهم دعاء: الرجل جالس في بيته، يقول: يارب ارزقني! فيقول له: ألم آمرك بالطلب» (٣).

أضف إلى ذلك فإنّ التقديرات الإلهية في أغلب الموارد إنّما تنسجم وتديبرنا وتخططنا، أي أنّ الله قدر سهما وخيرا لمن سعى وبذل جهده، بينما قدر أقل من ذلك لمن تقاعس وكسل. فهذا

ص: ١٠٤

١-١ (١) سورة الزخرف/٣٢. [١]

٢-٢ (٢) نهج البلاغة، الرسالة ٣١. [٢]

٣-٣ (٣) ميزان الحكمه ٢ / ح ٥٧٠١.

الانسجام بين التقدير والتدبير يعد اجابه واضحه لاولئك الذين يستسلمون للكسل والخنوع والخمول، ويفرون من الواقع تحت ذريعه التقدير.

وناهيك عما تقدم فمما لا شك فيه أن الناس ليست سواسيه فى الاستعداد البدنى والفكرى والإداره الاقتصاديه والقدره على العمل وتوظيف الإمكانيات المتاحة؛ وهذا بدوره ما أدى إلى تفاوت الأرزاق. وعليه فليس من الصواب بعد كل هذا التصور أن يتساوى الرزق على كافة الأفراد بغض النظر عما سبق، فهذا من قبيل توقع تساوى جميع أعضاء البدن و العظام و العضلات، فى حين لكل عضو وظيفته فى هذا البدن و قدرته بقدر نشاطه، فعالم البشرىه كالبدن يختلف فى رزقه على أساس إختلافه فى سعيه و جهده. والنتيجه التى نخلص إليها: هو أن تقدير الرزق الذى ورد فى هذا الخطبه، إنّما هو إشاره لما استعرضناه آنفا؛ الأمر الذى لايتنافى قط ومفهوم العداله، بل هو عين العداله والحكمه.

ص: ١٠٥

«عَالَمِ السَّرِّ مِنْ ضَمَائِرِ الْمُضْمَرِينَ، وَنَجْوَى الْمُتَخَفِّتِينَ، وَخَوَاطِرِ رَجْمِ الظُّنُونِ، وَعُقَدَ عَزِيمَاتِ اليَقِينِ، وَمَسَارِقِ إِيْمَاضِ الجُفُونِ، وَمَا ضَمِنَتْهُ أَكْنَانُ القُلُوبِ، وَعَيَابَاتُ العُيُوبِ، وَمَا أَضِيغَتْ لِاسْتِرَاقِهِ مَصَائِحُ الأَسْمَاعِ، وَمَصَائِفُ الذَّرِّ، وَمَشَاتِي الهَوَامِّ، وَرَجْعِ الحَنِينِ مِنَ المَوْلَهَاتِ، وَهَمْسِ الأَقْدَامِ، وَمُنْفَسِحِ الثَّمَرِهِ مِنْ وَلايَجِ غُلْفِ الأَكْمَامِ، وَمُنْقَمَعِ الوحوشِ مِنْ غَيْرَانِ الجِبَالِ وَأُودِيَّتَيْهَا وَمُخْتَبَاءِ البُعُوضِ بَيْنَ سُوقِ الأشجارِ وَالجِيتِيَّاءِ، وَمَغْرَزِ الأُورَاقِ مِنَ الأَفْنَانِ، وَمَحِطِّ الأَمْشَاجِ مِنْ مَسَارِبِ الأَصْبَالِ، وَنَاشِئَةِ العُيُومِ وَمُتَلَاحِمِيَّهَا، وَدُرُورِ قَطْرِ السَّحَابِ فِي مُتْرَاكِمِيَّهَا، وَمَا تَسِفِي، الأَعَاصِيرُ بِذُيُولِهَا، وَتَعْفُوا الأَمْطَارُ بِسُيُولِهَا، وَعَوْمِ بَنَاتِ الأَرْضِ فِي كُتْبَانِ الأَعَاصِيرُ بِذُيُولِهَا، وَتَعْفُوا الأَمْطَارُ بِسُيُولِهَا، وَعَوْمِ بَنَاتِ الأَرْضِ فِي كُتْبَانِ الرَّمَالِ» .

الشرح والتفسير

يتضح من خلال تأمل الأقسام المختلفه لهذه الخطبه العجيبه أنّ الإمام عليه السلام قد اختط مساراً دقيقاً في معرفه الله، ومن ثم التعرف على هذا العالم مرورا بمعرفه الإنسان وتربيته، بعبارات رائعه تأخذ بيد الإنسان نحو هذا المسار الطويل و تقوده نحو الهدف، يعنى يسلك به سبيل السمو والتكامل.

فقد تحدث الإمام عليه السلام في السابق عن خلق الأرض ومصادر الحياه ومن ثم خلق آدم

وقصته مع الجنه و ما تضمنته من عبر ومن ثم هبوطه إلى الأرض، وتقسيم الأرزاق وتعيين الاجال. ولما فرغ من ذلك واصل حديثه في هذا المقطع من الخطبه عن علم الله سبحانه بكل شىء وكل شخص وفي كل زمان ومكان، والعالم بكافه الخفايا والاسرار. فقد أورد الإمام عليه السلام ذلك بعبارات دقيقه رائعه، مؤكداً على تفاصيل هذه الأمور، بحيث يشعر الإنسان بكل كيانه أن العالم برمته حاضر لدى الله بكل حركاته وسكناته؛ و هو الشعور الذى يلعب دوراً، حيويًا فى تربيته الإنسان وسوقه نحو الخير والاحسان.

فقال عليه السلام: «عالم السر من ضمائر المضميرين، ونجوى المتخافتين وخواطر رجم الظنون، وعقد عزيماات اليقين» .

فالعبارة تفيد علمه سبحانه بكل شىء: ما يقتدح فى الأذهان، وما يمثل فى الواقع، وما يجرى فى الأوهام والظنون، والشك والترديد، وما يجول فى باطنه ونجواه وهمسه مع الآخرين، ثم قال عليه السلام: «ومسارق (١) إيماض (٢) الجفون، (٣) وما ضمنته أكنان القلوب، وغيابات الغيوب، وما أصغت لاستراقه مصائخ (٤) الأسماع»، ولما كانت أهم مصادر علم الإنسان تكمن فى قلبه (عقله) وعينه واذنه، كما صرح بذلك القرآن الكريم: «وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ» (٥) والله محيط بجميع هذه المصادر؛ فهو عليم بكافه خفايا الإنسان وأسراره. ثم تجاوز عليه السلام خفايا الإنسان وما تنطوى عليه جوانحه ليتجه صوب أصغر الكائنات، ليكشف عن علمه سبحانه وتعالى بخفايا وأوكار الهوام والحشرات وآهات الالم واصوات الحزن ووقع الاقدام: «ومصائف (٦) الذر،

ص: ١٠٨

١-١ «مسارق» جمع «مسرق» من ماده «سرقه» النظر خلسه.

٢-٢ «إيماض» من ماده «ومض» على وزن رمز اللمعان القصير والمخفى.

٣-٣ «جفون» جمع «جفن» على وزن جفت، بمعنى جفن العين.

٤-٤ «مصائخ» جمع «مصيخه» من ماده «صوخ» على وزن صوت الشق، والمراد هنا شق الاذان الذى يسمع به الإنسان الأصوات.

٥-٥ سورة النحل/٧٨. [١]

٦-٦ «مصائف» جمع «مصيف» موضع اقامتها فى الصيف.

ومشاتي (١) الهوام (٢) ورجع الحنين (٣) من المولهاات (٤) وهَمَسِ (٥) الأقدام» .

ثم واصل عليه السلام كلامه بالاشارة إلى أمور أخرى لطيفة وظيفه وظيفه وخفيه ومكتومه، ليكشف النقاب عن إحاطه العلم الإلهي المطلق بها من خلال عبارات غايه فى الروعه والدقه فقال عليه السلام: «ومنفسح (٦) الثمره من ولائج (٧) غلف (٨) الاكمام (٩)، ومنقمع (١٠) الوحوش من غيران (١١) الجبال وأوديتها، مختباء البعوض بين سوق (١٢) الاشجار والحيثها (١٣)، ومغرز (١٤) الاوراق من الافنان (١٥)، ومحط الامشاج (١٦) من مسارب (١٧) الأصلاب»، العبارة «لامنفسح» بمعنى المكان الفسيح الواسع إشاره إلى أنّ الله سبحانه خلق مكاناً واسعاً فى جوف البراعم لنمو الثمار. والعبارة: «منقمع الوحوش» تفيد لجوء الحيوانات الصحراويه إلى الغيران والكهوف بغيه حفظ أنفسها من سائر الحيوانات الوحشيه المفترسه و تخرج حين الحاجه أو صيد سائر الحيوانات. و التعبير «مغرز الأوراق..» لا إشاره إلى الأوراق و لا الأغصان، بل إشاره إلى

ص: ١٠٩

- ١- ١) «مشاتي» جمع «مشتى» موضع اقامتها فى الشتاء.
- ٢- ٢) «هوام» جمع «هامه» الحشرات (الخطيره)، كما تطلق على مطلق الحشرات.
- ٣- ٣) «حنين» الألم من ماده «حنان» ورجع الحنين ترديده.
- ٤- ٤) «مولهاات» الحزينات من ماده «وله» على وزن فرح.
- ٥- ٥) «همس» على وزن لمس، بمعنى الصوت الهادىء الخفى، يطلق أحيانا على صوت الاقدام الحافيه.
- ٦- ٦) «منفسح» المكان الواسع من ماده «فسح» على وزن مسح.
- ٧- ٧) «ولائج» جمع «وليجه» البطانه الداخليه.
- ٨- ٨) غلف جمع غلاف معروف المعنى.
- ٩- ٩) «الأكمام»، جمع «كم» غطاء النوار ولايبعد اضافه الغلف إليها أنّها إضافه بيانیه.
- ١٠- ١٠) «منقمع» موضع الاختفاء من ماده «الانقماع» بمعنى الاختفاء.
- ١١- ١١) «غيران» جمع «غار»، والواسع منها يطلق عليه الكهف.
- ١٢- ١٢) «سوق» جمع «ساقه» أسفل الشجره.
- ١٣- ١٣) «ألحيه» جمع «لحاء» قشر الشجره.
- ١٤- ١٤) «مغرز» موضع جذور الشىء.
- ١٥- ١٥) «أفنان» جمع «فئن» على وزن قلم بمعنى الغصون.
- ١٦- ١٦) «أمشاج» جمع «مشج» على وزن سبب الشىء المخلوط.
- ١٧- ١٧) «مسارب» جمع «مسرب» على وزن مركب وهى ما يتسرب المعنى فيها عند نزوله أو عند تكونه.

موضع خاص تلتصق فيه الورقه بالغصن و تنطلق جذورها فى أعماقه فتحفظه من الريح و العواصف.

و التعبير «محط الأمشاج. . .» إشاره إلى حركه نطفه الرجل من غدده الداخليه و تختلط مع نطفه المرأه حين نزولها فى الرحم حتى تنمو و تتحول إلى إنسان كامل. فالله سبحانه يعلم بهذا المسار و كيفيه التركب و موضع النزول، و يمكن أن تكون «أمشاج» إشاره إلى تركيب نطفه الرجل من مياه مختلفه و الذى أثبتته العلم الحديث، حيث لكل منها هدف معين عند إختلاطه مع الآخر و التى تشكل نطفه الرجل، ثم تتحرك نحو الرحم. ثم تطرق الإمام عليه السلام إلى تفاصيل دقيقه لعالم الخلقه و الحوادث المبرمج، ليكشف عن علمه سبحانه برقيق السحب التى تظهر فى السماء و تتصل مع بعضها البعض الآخر، إلى جانب هطول قطرات المطر من تلك السحب و الرياح التى تحيط بها و تبعث بها هنا وهناك: «وناشره الغيوم و متلاحمها، و درور قطر السحاب فى متراكمها، و ما تسفى (١) الأعاصير (٢) بذبولها، و تعفو (٣) الأمطار بسبولها، و عوم (٤) بنات الأرض فى كثنان (٥) الرمال» .

نعم فهو عالم بتمام دقائق عالم الوجود و جزئيات الكائنات الحيه و الجمادات فى السموات و الأرض؛ وهو محيط بظهورها و حرركاتها و سكناتها. فكيف بنا وهو الخبير بما فى أعماقنا و يجول فى أذهاننا و خواطرنا.

تأمل: نوع الكائنات

رغم تركز الكلام فى هذا المقطع من الخطبه على علم الله الواسع بكافه الأشياء و جميع الكائنات، إلّا أنّ هناك إشاره ضمنيه لنقطه مهمه أخرى، إلّا وهى التنوع العجيب للكائنات، من المسائل الفكرية و الذهنيه للإنسان إلى الاجزاء المختلفه للعين و الاذن، و الكائنات الصغيره

ص: ١١٠

١-١ «تسفى» من ماده «سفى» على وزن نفى الرياح التى تثير الغبار و التراب.

٢-٢ «أعاصير» جمع «إعصار» على وزن إجبار الريح التى تثير السحاب.

٣-٣ «تعفو» من ماده «عفو» بمعنى المحو و تستعمل هذه المفرده فى الذنوب بمعنى محوها، و من هنا يقال العافيه بمعنى محو المرض.

٤-٤ «عوم» على وزن قوم السباحه و الطوفان.

٥-٥ «كثنان» جمع «كثيب» التل و المرتفع.

والكبيره للعالم من قبيل الهوام ومصائفها والحشرات ومشايتها، مروراً بتشكيل نطفه الإنسان المركبه من ماء الرجل والمرأه، وظهور السحب والغيوم وتراكمها وسقوط حبات المطر وهبوب الرياح والأعاصير وجريان السيول واختفاء الحشرات في المرتفعات والتلال وما إلى ذلك من الأمور التي سنتطرق إليها في البحث القادم. والخلاصه فانّ كل أمر دلالة على علمه سبحانه وقدرته وابداعه، وكلما تعمق الإنسان في تأمل هذه الأمور تعرف أكثر على عظمه الحق سبحانه وعلمه، ويسمع باذن البصيره تسبيح هذه الكائنات وحمدها، ويشعر بتوحيدها وتوجهها لخالقها. الأشياء التي لا يدركها سوى من تحسسها و إنطلق منها لما وراءها.

ص: ١١١

«وَمُسَيِّتَقَرَّ ذَوَاتِ الْأَجْنِحَةِ بِذُرًّا شَنَاخِيْبِ الْجِبَالِ، وَتَغْرِيدِ ذَوَاتِ الْمَنْطِقِ فِي دِيَاغِيرِ الْأَوْكَارِ، وَمَا أَوْعَيْتُهُ الْأَصْدَافُ، وَحَضَنْتَ عَلَيْهِ أَمْوَاجَ الْبِحَارِ، وَمَا غَشِيَتْهُ سُدُفُهُ لَيْلٍ، أَوْ ذَرَّ عَلَيْهِ شَارِقُ نَهَارٍ، وَمَا اعْتَقَبْتَ عَلَيْهِ أَطْبَاقَ الدِّيَاغِيرِ، وَسُبُحَاتُ النُّورِ؛ وَأَثَرِ كُلِّ خَطْوَةٍ، وَحِسِّ كُلِّ حَرَكَهٍ، وَرَجْعِ كُلِّ كَلِمَةٍ، وَتَحْرِيكِ كُلِّ شَيْءٍ، وَمُسْتَقَرِّ كُلِّ نَسَمَةٍ، وَمِثْقَالِ كُلِّ ذَرَّةٍ، وَهَمَاهِمِ كُلِّ نَفْسٍ هَامَةٍ، وَمَا عَلَيْهَا مِنْ ثَمَرِ شَجَرَةٍ، أَوْ سَاقِطِ وَرَقَةٍ؛ أَوْ قَرَارِهِ نُطْفَةٍ، أَوْ نُقَاعِهِ دَمٍ وَمُضْغَةٍ، أَوْ نَاشِئِهِ خَلْقٍ وَسَلَالَةٍ؛ لَمْ يَلْحَقْهُ فِي ذَلِكَ كُفْلَةٌ، وَلَا اعْتَرَضَتْهُ فِي حِفْظِ مَا ابْتَدَعَ مِنْ خَلْقِهِ عَارِضَةٌ، وَلَا اعْتَوَرَتْهُ فِي تَنْفِيذِ الْأُمُورِ وَتَدَايِيرِ الْمَخْلُوقِينَ مَلَالَةٌ وَلَا فَتْرَةٌ، بَلْ نَفَذَهُمْ عِلْمُهُ، وَأَحْصَاهُمْ عَدْدَهُ، وَوَسَعَهُمْ عَدْلُهُ، وَغَمَّرَهُمْ فَضْلُهُ، مَعَ تَقْصِيرِهِمْ عَنْ كُنْهِ مَا هُوَ أَهْلُهُ» .

الشرح والتفسير

واصل الإمام عليه السلام كلامه السابق بالحديث عن علم الله سبحانه وتعالى بكافة جزئيات عالم الوجود، حيث يتعرض إلى ذلك بعبارات رائعة غايه في الدقه والجمال، والحق أنّ كلام الإمام عليه السلام يفيد بما لا يقبل الشك أنّه يستند إلى ارتباطه بما وراء هذه الطبيعيه بحيث لا يضاويه كلام، وان علمه عليه السلام إنّما يتصل بمصادر العلم الإلهي فقد تطرق بادىء بدء إلى الطيور العائمه في

السماء: «ومستقر ذوات الأجنحة بذراً (١) شناخيب (٢) الجبال، وتغريد (٣) ذوات المنطق في دياجير (٤) الأوكار (٥)» .

فنحن نعلم أنّ كل طائر يصنع لنفسه ما يناسبه من عش، بحيث تتنوع حسب أصناف الطيور، كما نعلم أنّ أنغام الطيور على أقسام، كل واحد منها يبيّن موضوعاً، الأهم من كل ذلك هو علم الله بتمام جزئياتها.

ثم يغوص الإمام عليه السلام في أعماق البحار ليتحدث عن الاصداف واللؤلؤ والأمواج: «وما أوعبته (٦) الاصداف، وحضنت عليه أمواج البحار»، ثم خاض عليه السلام في نظام النور والظلمة في عالم الخلق وحياه الإنسان فقال: «وما غشيته سدفة (٧) ليل أو ذر (٨) عليه شارق نهار، وما اعتقت عليه أطباق الدياتجير، سبحات (٩) النور» ثم إتجه صوب مختلف حركات الإنسان قال عليه السلام: «وأثر كل خطوه، وحس كل حركه، ورجع كل كلمه، وتحريك كل شفه، ومستقر كل نسمة» .

ثم تناول عليه السلام أصغر الذرات وأخفى الأصوات في أنّ الله عالم بها: «ومثقال كل ذره، وهماهم (١٠) كل نفس هامه (١١)» ثم ينتقل إلى الأشجار و الثمار و الناس و النطف التي

ص: ١١٤

١-١ «ذرا» جمع «ذروه» المكان المرتفع و أعلى الشىء.

٢-٢ «شناخيب» جمع «شنخوب» على وزن بهلول رؤوس الجبال.

٣-٣ «تغريد» أصوات الطيور.

٤-٤ «دياجير» جمع «ديجور» الظلمه.

٥-٥ «أوكار» جمع «وكر» على وزن مكر العش.

٦-٦ «أوغبت» من ماده «وعب» على وزن صعب جمعت.

٧-٧ «سدفة» ظلمه.

٨-٨ «ذر» بمعنى نثر و تأتي ايضاً بمعنى انتشار ضوء الشمس.

٩-٩ «سبحات» جمع «سبحه» على وزن لقمه بمعنى شعاع النور، و «سبحات النور» فى الجمله أعلاه جاءت بمعنى اشعه النور.

١٠-١٠ «هماهم» جمع همهمه مجاز من المهمه تريد الصوت فى الصدر من الهم.

١١-١١ «هامه» قال بعض شراح نهج البلاغه من له همه عاليه، كما يراد بها الهموم من الهم والغم وهذا ما أريد بها فى العبارة.

تشبه إلى حد كبير بعضها البعض فقال «وما عليها من ثمر شجره، أو ساقط ورقه، أو قراره نطفه، أو نقاعه (1) دم ومضغه، أو ناشئه خلق وسلاله» .

ويشير الإمام عليه السلام في آخر الخطبه إلى نقطه مهمه أخرى وهي أنّ تلك الأمور بتلك السعه والشموليه التي أشار إليها الإمام عليه السلام ما يجعل التبادر إلى الذهن صعوبه حسابها والاحاطه بها، بعبارة أخرى قد يقتدح في الأذهان هذا السؤال: هل علم الله سبحانه تعالى بهذه الأمور لا يوجد من مشكله لذاته المطهره؟ فالإنسان يصاب بالتعب والأعياء من جراء احاطته بقسم غايه في الصغر بالنسبه لحوادث هذا العالم وأسراره إلّا أنّ الإمام عليه السلام يعلن بكل صراحه أن ليس هناك أدنى مشقه على الله بهذا الشأن (ليس فقط من ناحيه العلم والاحاطه بها بل) في حفظ ما أبدع من مخلوقات، كما ليس هنالك من ملل أو فتور عرض له سبحانه في انفاذ أمره وتديبر شؤون خلقه: «لم يلحقه في ذلك كلفه، ولا-اعترضته في حفظ ما ابتدع من خلقه عارضه، ولا اعتورته (2) في تنفيذ الأمور وتدابير المخلوقين ملاله ولافتره» ، بل نفذ فيها علمه واحصاها عددا بقدرته وضمها جميعا تحت لواء عدالته، كما عم المقصرين منهم بفضله وعفوه ولطفه: «بل نفذهم علمه، وأحصاهم عدده، ووسعهم عدله، وغمرهم فضله، مع تقصيرهم عن كنه ما هو أهله» ، فقد أكد الإمام عليه السلام بهذه العبارات على عدّه أمور:

الأول: أنّ احاطه لله سبحانه العلميه بجزئيات جميع عالم الوجود لا تنطوي على أيه مشكله بالنسبه له (وذلك لأنّ علم الله علم حضوري وليس علم حصولي، كما سيأتي شرح ذلك في البحث القادم) .

الثاني: اضافته إلى الاحاطه العلميه فهو حافظها جميعاً؛ الأمر الارتفاع من العلم؛ وهذا أيضاً لا يسبب أيه مشكله لذاته المطلقه سبحانه (لأنّ الكل متوقف على وجوده سبحانه) .

الثالث: اضافته إلى العلم والحفظ فهو مدبرها وهاديها إلى السمو والكمال؛ الأمر الذي لا ينطوي على أي ملل أو فتور لذاته المطلقه، وبعبداً عن معرفه الخلائق وأدائها للشكر، فإنّ فضله ولطفه شامل للجميع عدله فيهم نافذ شامل، نعم فعلمه ليس بمحدود وقدرته مطلقه لامتناهيه وفضله مطلق شامل، ولا يرتجى منه سوى ذلك.

ص: ١١٥

١-١) «نقاعه» من ماده «نقع» على وزن نفع جمع الماء و «نقاعه دم» الحفره التي يجمع فيها الدم، وهي هنا ٢ إشارة إلى رحم (الأم) وقال البعض أريد بها هنا العلقه.

٢-٢) اعتورت من ماده اعتوار تداولته وتناولته.

١ - العلم الكامل

كلماته عليه السلام في هذا المقطع من الخطبه بشأن سعه علمه سبحانه واحاطته الشامله بكافه دقائق الأمور، لتذكر الإنسان بالآيه الشريفه التي وردت في سوره لقمان: «وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ» (١).

وهنا لا بد أن نلتفت إلى نقطه مهمه وهى أن ما أورده أمير المؤمنين على عليه السلام إنما يرتبط بالكره الأرضيه ومخلوقاتهما، والحال يغص هذا الفضاء العظيم بملايين، بل مليارات الكرات السماويه العجيبه والتي تخضع برمتها لعلم الله واحاطته، كما لا بد من الالتفات إلى أن هذا العالم قد وجد قبل ملايين السنوات قبل خلقنا، ولا يعلم إلى متى سيستمر، فاحصاء الحوادث التي تقع طيله هذا الزمان إنما تتعذر على كائن من كان سوى الحق سبحانه مع ذلك لا ينبغي أن ننسى بأن هدف الإمام عليه السلام من بيان هذه الحقائق مضاعفه معرفه الله من جانب، ومن جانب آخر تهذيب النفوس البشريه وأنها حاضره عند الله وأنه محيط بنياتها وكوامنها. وشاهد ذلك ما قاله الإمام عليه السلام فى الخطبه ١٩٨ من نهج البلاغه: «يعلم عجيج الوحوش فى الفلوات، ومعاصى العباد فى الخلوات، واختلاف النيان فى البحار الغامرات، وتلاطم الماء بالرياح العاصفات».

٢ - علم الله بكافه الخفايا

يرى جمع من قدماء الفلاسفه أن الله لا يسعه أن يكون عالماً فهم يعتقدون أن الجزئيات متعدده ومتكثره وليس للمتعدد من سبيل إلى ذاته الواحده من جميع الجهات. فهذا الكلام واضح البطلان وأساسه أنهم يرون أن علمه سبحانه وتعالى حصولياً، ويعتقدون بأن الصور الخارجيه تنتقل إلى ذاته المقدسه، والحال كلنا نعلم أن علمه سبحانه بالموجودات ليس عن

ص: ١١٤

طريق انتقال صورتها الذهنيه لديه، كما هو الحال عند الإنسان، بل علمه علم حضوري، أى أنه حاضر في كل مكان، والموجودات برمتها حاضره عنده، وهو محيط بها جميعاً، دون الحاجه لصورها؛ بالضبط كحضور الصور الذهنيه للإنسان أمام روحه، لأنّ الصور الذهنيه حاضره بذاتها في روح الإنسان لاصورتها، واحاطه الإنسان بها نوع من الاحاطه الحضوريه. فتأكيد الإمام عليه السلام في هذه الخطبه على علم الله سبحانه بجميع جزئيات الوجود إنّما يبطل هذا الاعتقاد الفاسد لبعض الفلاسفه بشأن نفى علم الله بالجزئيات.

٣ - ابن أبي الحديد في شرح هذه الخطبه.

حين بلغ هذا العالم المشهور - شارح نهج البلاغه - هذا الموضوع من الخطبه بشأن علم الله قال: لوسمع النضر بن كنانه هذا الكلام لقال لقائله ما قاله على بن العباس بن جريح لاسماعيل بن بلبل: جريح لاسماعيل بن بلبل

إذ كان يفخر به على عدنان وقحطان، بل كان يقر به عين أبيه إبراهيم خليل الرحمن، ويقول له: أنه لم يعف ما شيدت من معالم التوحيد، بل أخرج الله تعالى لك من ظهري ولدا ابتدع من علوم التوحيد في جاهليه العرب ما لم تتدعه أنت في جاهليه النبط. بل لو سمع هذا الكلام أرسطو طاليس، القائل بانه تعالى لا يعلم الجزئيات، لخشع قلبه و وقف شعره، واضطرب فكره، ألا ترى ما عليه من الرواء والمهابه، والعظمه والفخامه، والمتانه والجزاله! مع ما قد أشرب من الحلاوه والطلاوه واللفظ والسلاسه، لا أرى كلاماً يشبه هذا إلا أن يكون كلام الخالق سبحانه، فإنّ هذا الكلام نبعه من تلك الشجره، وجدول من ذلك البحر، وجدوه من تلك النار؛ وشرح لآيات الخالق سبحانه (١).

ص: ١١٧

(١-١) شرح نهج البلاغه لابن أبي الحديد ٧/٢٣ [١] بتصرف طفيف.

«اللَّهُمَّ أَنْتَ أَهْلُ الْوَصْفِ الْجَمِيلِ، وَالتَّعْدَادِ الْكَثِيرِ، إِنْ تُوَمِّلْ فَخَيْرٌ مَأْمُولٍ، وَإِنْ تُرْجِ فَخَيْرٌ مَرْجُوٌّ. اللَّهُمَّ وَقَدْ بَسَطْتَ لِي فِيمَا لَا أَمْدَحُ بِهِ غَيْرَكَ، وَلَا أَثْنِي بِهِ عَلَى أَحَدٍ سِوَاكَ، وَلَا أُوَجِّهُهُ إِلَى مَعَادِنِ الْحَيِّهِ وَمَوَاضِعِ الرَّبِّيهِ، وَعَدَلْتَ بِلِسَانِي عَنْ مَدَائِحِ الْأَدَمِيِّينَ؛ وَالشَّاءِ عَلَى الْمَرْبُوبِينَ الْمَخْلُوقِينَ. اللَّهُمَّ وَلِكُلِّ مَثْنٍ عَلَى مَنْ أَثْنِي عَلَيْهِ مَثُوبَةٌ مِنْ جَزَاءٍ أَوْ عَارِفَةٍ مِنْ عَطَاءٍ، وَقَدْ رَجَوْتُكَ دَلِيلًا عَلَى ذَخَائِرِ الرَّحْمَةِ وَكُنُوزِ الْمَغْفِرَةِ. اللَّهُمَّ وَهَذَا مَقَامٌ مَنْ أَرَدَكَ بِالتَّوْحِيدِ الَّذِي هُوَ لَكَ، وَلَمْ يَزِ مُسْتَحِقًّا لِهَذِهِ الْمَحَامِدِ وَالْمَمَادِحِ غَيْرَكَ؛ وَبِي فَاقَهُ إِلَيْكَ لَا يَجْبُرُ مَسِيئَتَهَا إِلَّا فَضْلُكَ، وَلَا يَنْعَسُ مِنْ خَلَّتْهَا إِلَّا مُنْكَ وَجُودُكَ، فَهَبْ لَنَا فِي الْمَقَامِ رِضَاكَ، وَأَغْنِنَا عَنْ مَدِّ الْأَيْدِي إِلَى سِوَاكَ؛ «إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ!».

الشرح والتفسير

لاننسى أن الإمام عليه السلام أورد هذه الخطبه الجامعه والمفصله رداً على من سأله الحديث عن صفات الله، فخاض الإمام عليه السلام في البدايه بأدق العبارات وأظرفها في بحث صفات الله الجماليه والكماليه، ثم تطرق إلى فعله من قبيل خلق الملائكه والسماء والأرض، ثم خلق الإنسان وما أفاض عليه من النعم، وأخيراً علمه سبحانه وتعالى بجمع جزئيات عالم الوجود و كلياته.

ثم يختتم الخطبه بهذا القسم الذي يطرق فيه باب الله متضرعاً إليه بالدعاء، فيصف الله سبحانه بأفضل صفاته التي لا تنجوز على أحد سواه، كما تدل على التوحيد في مقام الدعاء

«اللهم أنت أهل الوصف الجميل، والتعداد (١) الكثير»، نعم فقد جمعت كافة الصفات العظيمة في ذاته القدسيه، فهو الكريم والرحيم وأهل الفضل والثناء، ومن هنا فإن أمله الإنسان فهو خير مأمول، وان رجاءه فهو خير مرجو لا يقطع رجاء من رجاء: «إن تؤمل فخير مأمول، وإن ترج فخير مرجو»، ثم قال عليه السلام: «اللهم وقد بسطت لى فيما لا أمدح به غيرك، و أثنى به على أحد سواك ولا أوجهه إلى معادن الخيبه ومواضع الريبه، وعدلت بلسانى عن مدائح الادميين؛ والثناء على المربويين المخلوقين» .

الجدير بالذكر أن الإمام مزج مدح الله وثنائه بالشكر، وقد أعرب عليه السلام عن سروره أن وفقه الله سبحانه ففتح لسانه بمدحه سبحانه، وهل يليق هذا المدح والثناء بأحد سواه، و أى عمل أفضل من أن يغض الإنسان طرفه عن عالم الأسباب و لا يتطلع سوى إلى «مسبب الأسباب» فيمطره بحمده و ثنائه. ثم أردف ذلك بقوله: «اللهم ولكل مثن على من أثنى عليه مثوبه من جزاء أو عارفه من عطاء؛ وقد رجوتك دليلاً على ذخائر الرحمه وكنوز المغفره»، يمكن أن تكون العبارة بمعنى طلب المزيد من رحمته سبحانه ومغفرته، أو بمعنى طلب التوفيق والاستعداد لكسب هذه الرحمه. والفرق بين «جزاء» و «عارفه» قد يكون فى أنّ الجزاء هو ثواب العمل، والعارفه بمعنى الفضل والرحمه إلى جانب الثواب. و لما كان الله معروفاً بالفضل و العطاء فقد عبر بعارفه (فالعارفه فى الواقع وردت هنا بمعنى المعروف) .

ثم إختتم هذه الخطبه الفريده و العظيمة بدعائين جامعين عميقى المعنى قال عليه السلام: «اللهم وهذا مقام من أفردك بالتوحيد الذى الذى هو لك، ولم ير مستحقاً لهذه المحامد والممادح غيرك؛ وبى فاقه إليك لا يجبر مسكنتها إلا فضلك، ولا ينعش (٢) من خلتها (٣) إلا منك وجودك»، فالواقع هو أنّ الإمام عليه السلام أراد أن يطرح هذه الحقيقه وهى أنى لا أثنى الا عليك ولا أو مل سواك،

ص: ١٢٠

١- ١) «تعداد» بفتح التاء له كما صرح بذلك أرباب اللغه، ويعنى عد الشيء (واعتبره البعض مصدر ثلاثى مجرد، وقيل من باب تفعيل، كان تعديداً ثم بدلت ياء، بالف وتلفظ تعداد بكسر التاء قليل جداً) .

٢- ٢) «ينعش» من ماده «نعش» وهى فى الاصل بمعنى رفعه و أقامه، ويقال لجسد الانسان اذا خرجت منه الروح نعشاً، و كذلك للآله التى يرفع فيها الميت بالنعش، و الذى يرفع لينقل إلى مكان مناسب.

٣- ٣) «خله» الحاجه والفقر، كما وردت بمعنى الضعف.

وليس هناك قادر على طلبتي غيرك، وهذه هي حقيقته توحيد الصفات وتوحيد الأفعال، ثم يختتم الخطبه: «فهب لنا في هذا المقام رضاك، وأغننا عن مد الايدي إلى سواك، إنك على كل شيء قدير»، ما أروع هذا الرجل العظيم الذي فاض كل هذه الفصاحه والبلاغه والعلم والمعرفه، ثم يختتم عباراته بهذا الدعاء العظيم الذي يكشف عن مدى تواضعه وتذللته لله فيسأله رضاه ولا يلتفت إلى أحد سواه.

تأمل: في اعجاز البيان.

كما أنّ القرآن الكريم من المعاجز الخالده لنبي الإسلام صلى الله عليه وآله فإن بعض خطب نهج البلاغه حقاً لفي حد الاعجاز! أى لا يمكن أن تصدر سوى عن المعصوم، وليس ذلك لاحد سواه. ومن ذلك هذه الخطبه المسماه بالاشباح. التي نعرض لشرحها.

فقد انطوت هذه الخطبه على عبارات غايه في الفصاحه والبلاغه، إلى جانب رقتها وحلاوتها وعذوبه الفاظها بحيث تتسلل إلى أعماق روح الإنسان فتملأها معنويه ونوراً وانفتاحاً على الله سبحانه، أما المفردات التي استعملها الإمام عليه السلام فهي غايه في العمق والرصانه بحيث لا يمكن (الوقوف عليها دون الرجوع إلى مصادر العربيه وآدابها. أما مضمونها فهو الآخر (رصين) عميق لا يمكن تصور مثيله بشأن صفات الله وعلمه واحاطته بكل شئ؛ الأمر الذي يكشف عن حقيقه ما أورده الإمام عليه السلام في الخطبه الثالثه المعروفه بالشقشقيه: «ينحدر عنى السيل ولا يرقى الا الطير» .

وأما من ناحيه الآثار التربويه، فقد تطرق عليه السلام إلى نعم الله سبحانه بأدق تفاصيلها بما يثير حس الشكر لأى إنسان يتأملها ويرى نفسه مقصراً أمام كل هذه النعم التي أفاضها عليه سبحانه، وإذا تأمل سعه علمه سبحانه وحضوره يدرك بكل كيانه معنى هذه العبارة «أنّ العالم حاضر عند الله، وعليه فلا ينبغي معصيته والتمرد عليه» أما الأدعيه العرفانيه آخر الخطبه والتواضع التام للإمام عليه السلام بعد كل هذا البيان فهو الآخر درس لكافه الأفراد في عدم الغفله والغرور والتوجه إلى الله وطلب الحاجات منه، كيف لا وهو الكريم، الرحيم، المنعم والغفور الودود.

ومن كلام له عليه السلام

لما أرادہ الناس على البيعه بعد قتل عثمان

نظره إلى الخطبه

قال المرحوم العلامة الخوئي - أحد شراح نهج البلاغه -: اعلم أنّ المستفاد من الروايات الآتية وغيرها في سبب هذا الكلام هو أنّ خلفاء الجور بعد ما غيروا سنه رسول الله صلى الله عليه وآله وسيرته التي كان يسيرها من العدل بالقسمه والمساواه بين الرعيه، ففضلوا العرب على العجم، والموالي على العبيد، والرؤساء على السفله، وآثر عثمان أقاربه من بنى اميه على سائر الناس وجرى على ذلك ديدنهم سنين عديده، واعتاد الناس ذلك أزمه متطاوله حتى نسوا سيره الرسول صلى الله عليه وآله وكان غرض الطالبين لبيعه عليه السلام أن يسير فيهم مثل سيره من سبق عليه من المتخلفين من تفضيل الشريف على الوضيع، وكان عليه السلام تفرس ذلك منهم وعرفه من وجنات حالهم فخطبهم بهذا الكلام اتماماً للحجه واعلاماً لهم بأنه عليه السلام ان قام فيهم بالأمر لا يجيبهم إلى

ص: ١٢٣

١-١) سند الخطبه: قال صاحب مصادر نهج البلاغه في ذيل هذه الخطبه. رواه الطبري وابن الأثير في حوادث ٣٥ هـ بتفاوت يسير جدا وكلام هذا نسجه لا سبيل إلى انكاره، ولذا ترى الناس اختلفوا في توجيهه بعد أن لم يسعهم رده. ويستفاد من المصدرين المذكورين أنّ الإمام عليه السلام لم يرد هذه العبارات لخطبه واحده، بل حدث كلام بينه عليه السلام وبين الناس في الخلافه، فحذف السيد الرضى كلام الناس وذكر الإمام عليه السلام. فالمعروف ان مصدرين من مصادر العامه ذكرت هذه الخطبه قبل السيد الرضى (تاريخ طبري ٣/٤٥٦، تاريخ الكامل لابن أثير ٣/١٩٠) والشيخ المفيد في الجمل ٤٨/ وابن الجوزي في تذكره الخواص ٥٧/.

ما طمعوا فيه من الترجيح والتفضيل فقال عليه السلام: «دعوني والتمسوا غيري» للبيعه، «فانا مستقبلون أمراً له وجوه وألوان» وهو إنذار لهم بالحرب وإخبار عن ظهور الفتن واختلاف الكلمات وتشتت الآراء وتفرق الأهواء (١)، كما أشار ضمناً إلى زهده عليه السلام بالخلافه والمقامات الظاهرية. وقد رفض بيعه القوم، حتى لا يتصور أحد أن قبول الإمام عليه السلام بيعه الناس كانت لرغبته بالخلافه.

ص: ١٢٤

١-١) منهاج البراعه ٧/٦٢.

«دَعُونِي وَالتَّمَسُّوا غَيْرِي؛ فَإِنَّا مُسْتَقْبِلُونَ أَمْرًا لَهُ وَجُوهٌ وَأَلْوَانٌ؛ لَا تَقُومُ لَهُ الْقُلُوبُ، وَلَا تَثْبُتُ عَلَيْهِ الْعُقُولُ. وَإِنَّ الْأَفَاقَ قَدْ أَغَامَتْ، وَالْمَحَجَّةَ قَدْ تَنَكَّرَتْ. وَاعْلَمُوا أَنِّي إِنْ أَجَبْتُكُمْ رَكِبْتُ بِكُمْ مَا أَعْلَمُ، وَلَمْ أَضْغِ إِلَى قَوْلِ الْقَائِلِ وَعَتَبِ الْعَاتِبِ، وَإِنْ تَرَكْتُمُونِي فَأَنَا كَأَحَدِكُمْ؛ وَلَعَلِّي أَسْمَعُكُمْ وَأَطُوعُكُمْ لِمَنْ وَلَّيْتُمُوهُ أَمْرَكُمْ، وَأَنَا لَكُمْ وَزِيرًا، خَيْرٌ لَكُمْ مِنِّي أَمِيرًا!» .

الشرح والتفسير

دعوني والتمسوا غيري

أورد شراح نهج البلاغه أبحاثاً مسهبه بشأن هذه الخطبه، وقد خاضوا بصوره مفصله فى الإشكالات ذات الصله بمسأله الإمامه. غير أن البعض منهم لم يتعرض لشرح هذه الخطبه واتجه مباشره للرد على الإشكالات. ونرى من الضرورى أن نخوض فى البدايه فى شرح الخطبه، ثم نسلط الضوء على بعض الاسئله والاستفسارات فى آخر البحث.

فقد رد الإمام عليه السلام على أولئك الذين بسطوا إليه يدهم بالبيعه وانها لوا عليه من كل جانب، ظانين أن الإمام عليه السلام سيواصل سياسته التمييز فى العطاء من بيت مال المسلمين، إلى جانب إغداق المناصب والمقامات بالقول: «دعوني والتمسوا غيري»، ثم أشار عليه السلام إلى الدليل على ذلك بقوله: «فانا مستقبلون أمرا له وجوه وألوان؛ لا تقوم له القلوب، ولا تثبت عليه العقول»، فقد فقدت الأمة وحدتها إثر الأفعال الباهته التى مارسها الخلفاء ولا سيما عثمان، فكان لكل رأى، فأصبح الأعم الأغلب منهم كالصياد الذى يبحث عن صيده، ليجدوا فى البحث عن الأموال والمناصب الدنيويه، وعليه فإن القضاء على هذه الفرقه والتشتت وإعادة الأئمه إلى سابق عزها ووحدتها على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله كان يبدوا أمراً فى غايه الصعوبه والتعقيد

ص: ١٢٥

ولا يمكن توقعه فضلاً عن تحققه على الواقع العملي.

ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه بالحديث عن الآفاق المظلمة التي تلوح في الآفاق وعدم التعرف على الحق وصراطه المستقيم في ظل هذه الأوضاع المضطربة: «وإن الآفاق قد أغامت (١)، والمحج (٢) قد تنكرت»، وذلك لأنَّ الأهواء الشيطانية والاطماع الدنيوية قد قلبت الموازين الفكرية للمجتمع بحيث يصعب عليه تمييز الصحيح من السقيم، وكيف يتخلص من المطبات التي تواجهه في حياته.

ثم أكد الإمام عليه السلام هذا الموضوع بأنَّي إذا تقلدت هذه المسؤولية فسوف لن أنتهج السياسه الخاطئه التي كانت سائده سابقاً، بل سأقتدى بهدى رسول الله صلى الله عليه وآله في بسط الحق والعدل: «اعلموا أني إن أجبتمكم ركبت بكم ما أعلم، ولم أصغ إلى قول القائل وعتب (٣) العاتب» - حيث لم يكن الطمع الذي عاشه الناس على عهد عثمان يدعهم يتساوون مع الآخرين فكانوا يهربون من عداله على عليه السلام و يثيرون الفتن - فلم يكن أمام الإمام عليه السلام من سبيل سوى مخالفه الشرع و مواصله الظلم أو السير فيهم بالعدل الذي نشده من قام ضد عثمان، فلما سار بهم بعدله حدثت تلك الفتن التي توقعها الإمام عليه السلام. (٤)

في إشاره إلى أنَّ الإمام عليه السلام كان يعلم بأنَّ طلاب الدنيا من أهل المطامع والمصالح سيقفون حجره عثره في طريقه من أجل اشاعه الحق وإجراء العدل وبسط القسط، وسيؤلبون الآخرين عليه ويهبوا لمعارضته والوقوف بوجهه، وكأنَّ المبادئ السياسه لتلك المرحله كانت تتطلب مواصله الفوضى التي كانت سائده والتطاول على بيت المال واغداق المناصب والمهام على أصحاب النفوذ والسطوه دون أى إستحقاق، وإنَّ إنعكس ذلك سلباً على الأُمَّه وهضمها حقوقها؛ الأمر الذي كان في مقدمه أهداف الأنبياء والرسل القضاء عليه: «لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا

ص: ١٢٤

-
- ١- ١) «أغامت» من ماده «غيم» غطيت بالغيم، كناية عن اضطراب الأوضاع السياسيه والاجتماعيه للمسلمين في ذلك الزمان.
 - ٢- ٢) «محج» الطريق المستقيمه والواضحه سواء الظاهريه أم المعنويه، وقد اقتبست في الأصل من ماده «حج» بمعنى القصد، لأنَّ الإنسان يقصد دائماً المشى على الطريق المستقيم ليصل إلى الهدف.
 - ٣- ٣) «عتب» مصدر بمعنى اللوم والتأنيب و التوبيخ.
 - ٤- ٤) شرح نهج البلاغه للشيخ محمد عبده، ذيل الخطبه ٩٢/٢٣٣.

بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ» (١).

ثم ناشدهم عليه السلام تماماً لحجه وإثبات مدى زهده بمقامات الدنيا ومظاهرها، تركه ليكون كاحدهم في الأئمة: «وإن تركتموني فانا كأحدكم؛ ولعلى أسمعكم وأطوعكم لمن وليتموه أمركم» .

فالعبارة تشير إلى أنّ الإمام عليه السلام كان يعيش عالماً آخر غير ذلك الذى تكالب عليه أهل المصالح من الذين ركنوا إلى الدنيا، هو لم يفكر لحظه قط فى أن تكون الخلافه لقمه سائعه، بقدر ما كان يراها مسؤوليه ثقله تهدف أول ما تهدف إليه إحياء القيم والمفاهيم الإسلاميه. وإلا فهى لاتعدل عنده أكثر من عفته عنز. ثم عاد القول عليه السلام على أولئك الجماعه المتكالبه على الدنيا والتي تطمع إلى المزيد «وأنا لكم وزيراً، خير لكم منى أميراً» .

وذلك إنى ان كنت أميراً لحيل بينكم وبين العلو والاستبداد والتطاول على حقوق المحرومين، أمياً أن أكون وزيراً فلکم أن تشيروا علىّ وتنتفعون بما أرىکم من الحق، دون أن أتحمّل مسؤوليه أعمالکم. والحق أثبت التاريخ كل ما تكهن به الإمام عليه السلام فى هذه الكلمات الشريفه، وخلافاً لما يزعمه البعض من أصحاب النظره الضيقه فإنّ الإمام عليه السلام كان عالماً بكافه الظروف والملابسات التى أحاطت بخلافته، كما كان على علم تام بردود الفعل التى سيمارسها الخصوم ضده، وعليه فلم يقع ما لم يكن يتحسبه الإمام عليه السلام، إلا أنّ الإمام عليه السلام كان ينتمى إلى مدرسه تملى عليه القيام بالمسؤوليه وإحياء الدين ومفاهيمه الساميه وتعاليمه الحقه وإن كلفه ذلك حياته، على العكس من المدارس الماديه التى ترى فى الحكومه هدفاً وكل ما سواها وسيله يمكن التضحيه بها وقد مارس الإمام عليه السلام ما كان يقوله عملياً، كيف لا وهو الذى اشتاط غضباً حين سأله عقيل ما لا يستحقه من بيت المال فعامله بتلك الشده والصرامه، ليثبت أنه يسير فى الناس بما يعلم ولا يابه بعتب العاتب كائناً من كان. لم يكن أسلوبه أسلوب من سبقه من الخلفاء قط، وهو الذى لم يجمع لنفسه شيئاً من حطام الدنيا، حتى خاطب الأئمة قائلاً: «دخلت بلادكم با شمالي هذه ورحلتى، وراحتى، ها هي فان أنا خرجت من بلادكم بغير ما دخلت فإننى من الخائنين» ،
(٢)والعجيب أنّ الإمام عليه السلام قد سلك سبيلاً يتناقض تماماً وما

ص: ١٢٧

١- ١) سورة الحديد/٢٥. [١]

٢- ٢) بحار الانوار ٤٠/٣٢٥. [٢]

ينتهجه اليوم الحكام والرؤساء حين شروع الحملات الانتخابيه، حيث يبذلون قصارى جهدهم لتقديم الوعود المعسوله للأمة والشعارات المزيفه الفارغه، بل لايتورعون عن ارتكاب أى خلاف من أجل كسب ود الناس والحصول على آرائهم. فالإمام عليه السلام يعلن بكل وضوح أهدافه، وان تعارضت هذه الأهداف مع الكثير منهم ولم تنسجم مع طموحاتهم ورجباتهم. وبغيه التنبيه إلى عدم الغفله والخداع، فإنه يكشف النقاب عن جسامه الأوضاع فى المستقبل؛ الأمر الذى لايرى له مثيلاً على مدى التأريخ بالنسبه للخلفاء والحكام.

تأملات

١ - لم قال دعونى؟

استغرق شراح نهج البلاغه وسائر علماء الإسلام كثيراً فى كلام أمير المؤمنين على عليه السلام: دعونى والتمسوا غيرى. فذهب البعض إلى أنه قال ذلك لعدم وجود النص على الإمامه والولاية، فهبت طائفه من مثقفى العصر لترى فى ذلك الكلام انه يشكل الدليل على إصالة رأى الامه فى الحكومه واختيار القائد، ونرى من الضروره بمكان أن نسلط الضوء على الشرائط الزمانيه والمكانيه التى كانت سائده آنذاك والتي دفعت بالإمام عليه السلام إلى هذا الكلام قبل أن نعلن عن رأينا بهذا الشأن بغيه تفادى الزلل والانحراف عن حقيقه الأمر:

١ - إنما صدر هذا الكلام من الإمام عليه السلام إثر مقتل عثمان بفعل ذلك البذخ والتطاؤل على بيت المال المسلمين وتسليط بنى أميه على رقاب المسلمين، وظهور حاله الاستياء العامه فى أغلب مناطق البلاد الإسلاميه آنذاك، ممّا دفع بالأمة إلى الهجوم على الإمام عليه السلام وبسط يدها إليه بالبيعه. فقد اعتاد كبار الأمة سياسه عثمان ليتوقعوا من الإمام تحقيق رغباتهم وتقسيم بيت المال بينهم حسبما يحلو لهم، إلى جانب أولئك الذين كانوا يحلمون بأن يمنحهم الإمام عليه السلام مقابل بيعتهم بعض المناصب الحساسه فى البلاد ليكونوا عماله وولاته على بعض الأمصار فيحكموا سيطرتهم على البلاد.

أضف إلى ذلك فإنّ الأمة قد ابتعدت عن قيمها الإسلاميه، وقد دفعتها الفتوحات وما جرتها عليها من غنائم وثروات إلى الاقبال على الدنيا وزخارفها وتفشى الأفكار الجاهليه

ونسيان حياتها التي شهدتها على عهد النبي صلى الله عليه وآله بفعل عدم التفات الخلفاء لهذا الأمر. ومن هنا رأى الإمام عليه السلام نفسه أمام مفترق طرق؛ إمّا الاستسلام للبيعه فى تلك الظروف العصيه والتأهب لتلك الحوادث والأزمات، وأمّا رفض البيعه وترك الأُمّة وشأنها.

٢ - لم يكن الإمام عليه السلام كساسة الدنيا ليخفى أهدافه الحقيقيه التى سيسعى إلى تطبيقها فيما لو تولى الخلافه والحكومه الإسلاميه، فيجر الأُمّة بوعوده المعسوله إلى البيعه، ثم يكشف عن برامجه وخططه بعد أن يتربع على عرش السلطه وتستتب له الأمور ويحكم قبضته على الناس! نعم هيهات أن يفكر الإمام عليه السلام بمثل هذه المراوغات والأساليب المظلمه. ومن هنا حذر الأُمّة من عظم المسؤليه التى ينبغى أن تنهض بها فيما لو لبي بيعتها وتولى زعامتها. فمن الطبيعى الا- يكون هناك من مبرر لخداع الأُمّة بغيه حصول الأهداف الإسلاميه واشاعه المفاهيم السماويه.

٣ - لاشك أنّ الإمام عليه السلام أجدر أفراد الأُمّة على الخلافه ليس فى ذلك الزمان فحسب، بل فى الزمان الذى سبقه حيث ولا يقتصر الإعتراف بذلك على الإمام صرح قائلاً: «إنّه ليعلم أن محلى منها محك القطب من الرحا» (١)، وحين جعله عمر أحد أعضاء الشورى فقال: «متى إعترض الريب فى مع الأول منهم حتى صرت أقرن إلى هذه النظائر» (٢)، ولما أرادت الأُمّة أن تبايعه بعد عثمان إذ قال: «ولقد علمتم أنى أحق الناس بها من غيرى» (٣)، بل كان يراه كذلك حتى خصومه (وإن لم تشهد السياسه مثل هذا الأمر) ومن ذلك ما قاله عمر حين انتخاب الشورى: «أمّا والله لئن وليتهم لتحملنهم على الحق الواضح والمحجبه البيضاء» (٤)، كما ذكر الطبرى أنّ أبابكر حين ولى الخلافه، تطرق لعدم أحقيته فيها طبق أغلب الروايات فقال: «أيها الناس! فأنى وليت عليكم ولست بخيركم» (٥).

ص: ١٢٩

١-١ (١ نهج البلاغه، الخطبه ٣. [١]

١-٢ (٢ نهج البلاغه، الخطبه ٣. [٢]

١-٣ (٣ نهج البلاغه، الخطبه ٧٤. [٣]

١-٤ (٤ شرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد ١/١٨٦؛ [٤] وقد نقل هذا المضمون الطبرى فى ٣/٢٩٤ حوادث عام ٢٣ هـ باختلاف طفيف.

١-٥ (٥ تاريخ الطبرى ٢/٤٠٥. [٥]

بل ورد في بعض الروايات أنّ أبابكر قال: «أقبلوني! فلست بخيركم وعلى فيكم» (١)، فبالنظر إلى ما أوردنا من محكمات التأريخ والأخبار، يمكن القول بأنّ الإمام عليه السلام أراد أن ينفى عن نفسه في هذه الخطبه رغبته بمسأله الخلافه، ويكشف عن ذروه تواضعه في هذا الأمر، كما أراد أن يفهم الأّمه التي أصرت على البيعه انه ان ولي أمرها فسوف لن يسير بتلك الأساليب الخاطئه، وليس أمامه سوى سلوك سبيل الحق واحياء عصر النبي صلى الله عليه و آله، وأنّ آثار ذلك حفيظه البعض وأدى إلى إنزعاجه، ليؤدّي به ذلك إلى رفع رايه المعارضه والوقوف بوجه الإمام عليه السلام. وعلى هذا الضوء لانرى هناك من حاجه لأن نبحت في هذه المسأله، هل الخطبه دليل على عدم النص على الإمامه، أو القول بأنّ معيار الإمامه والخلافه إنّما يكمن في آراء الأّمه لاغير. وذلك لأنّ هذا القول إنّما يصدر ممن اكتفى بالنظر إلى ظاهر الخطبه، واغمض عينيه عن جميع القرائن التاريخيه وسائر كلمات الإمام عليه السلام في نهج البلاغه.

٢ - لم لا يتحملوا عداله على عليه السلام؟

لاشك أن بيعه على عليه السلام - وطبق أقوال جميع المؤرخين - كانت الأعظم والأكمل بيعه، ولاسيما مقارنه ببيعه السقيفه التي لم تتجاوز بضعه أشخاص، وقد استندت بيعه عمر إلى وصيه الخليفه الأول، كما تمت البيعه لعثمان بثلاثه آراء من تلك الشورى المؤلفه من سته أعضاء، أمّا البيعه لعلى عليه السلام فقد تمت من قبل جميع أبناء الأّمه، مع ذلك كان الإمام عليه السلام مكرها على قبولها بسبب تلك الظروف الصعبه والملابسات التي عاشها المجتمع الإسلامى من جراء سياسه الخلفاء، فقد أورد المؤرخ المعروف ابن أثير فى الكامل بهذا الشأن قائلاً: أتى المصريون علياً عليه السلام بعد مقتل عثمان وقال بعضهم لبعض لئن رجع الناس إلى أمصارهم بغير إمام لم نأمن الاختلاف وفساد الأّمه. فغشى الناس علياً عليه السلام بعد أن باعدهم وقالوا له: نبايعك فقد ترى ما نزل بالإسلام وما ابتلينا به من بين القرى. فقال على عليه السلام: «دعوني والتمسوا غيرى فانا مستقبلون أمرا له وجوه وله ألوان لا تقوم به القلوب ولا تثبت عليه العقول». فقالوا:

ص: ١٣٠

ننشدك الله! ألا ترى ما نحن فيه؟ ألا ترى الإسلام؟ ألا ترى الفتنة؟ ألا تخاف الله؟ فقال: «قد أجبتكم، واعلموا أنى إن اجبتكم ركبت بكم ما أعلم، وإن تركتموني فانما أنا كاحدكم، إلا أنى أسمعكم وأطوعكم لمن وليتموه»، ثم افترقوا على ذلك واتعدوا الغد. وتشاور الناس فيما بينهم وقالوا: إن دخل طلحه والزبير فقد استقامت، فبعث البصريون إلى الزبير حكيم بن جبلة وقالوا: احذر تحابه ومعه نفر، فجاؤوا به يحدونه بالسيف، فبايع، وبعثوا إلى طلحه الأشتر ومعه نفر، فأتى طلحه، فقال: دعونى أنظر ما يصنع الناس، فلم يدعه، فجاء به يتله تلاً عنيفاً، وصعد المنبر فبايع - ثم خاض ابن أثير فى تفاصيل بيعه عامه الأتمه. (١)

فالحق أنّ علياً عليه السلام كان يعلم مدى صعوبه السير على الحق وبسط العدل فى ربوع هذه الجماعه التى تربت على مفردات الظلم والجور، مع ذلك لم يكن يتوانى عليه السلام من التضحية حتى بنفسه من أجل حفظ المبادئ الإسلامية فلم يكن هدف الإمام عليه السلام الاستيلاء على الخلافة مهما كان الثمن، بل كان يرى الحكومه وسليه لحفظ القيم الإسلامية؛ الأمر الذى يصعب إدراكه على من ليس له علم بفحوى رساله الأنبياء والاولياء، فقد نقل ابن أبى الحديد عبارته راعه عن بعض العلماء بهذا الشأن إذ قال: وبهذا ونحوه استدلل أصحابنا المتكلمون على حسن سياسته وصحة تدبيره، لأنّ من منى بهذه الرعيه المختلفه الأهواء، وهذا الجيش العاصى له، المتمرد عليه، ثم كسر بهم الأعداء، فليس يبلغ أحد فى حسن السياسة وصحة التدبير مبلغه. إنّ سياسته عليه السلام إذا تأملها المنصف متدبراً لها بالاضافه إلى احواله التى دفع إليها مع أصحابه، جرت مجرى المعجزات لصعوبه الأمر وتعذره. (٢)

٣ - لم وزارتة عليه السلام خير من إمارته؟

إضافه إلى إمكانية حمل عبارته الإمام عليه السلام «أنا لكم وزيراً، خير لكم منى أميراً»، على نوع من التواضع واتمام الحججه، فإنه يمكن توجيهها بشكل آخر، وهو أنّ علياً عليه السلام لو أصبح أميراً لكانت معارضته والوقوف بوجهه مدعاه إلى الكفر، وذلك لأنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال له كما روى

ص: ١٣١

١- (١) الكامل لابن أثير ٣/١٩٣. [١]

٢- (٢) شرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد ٧/٧٣. [٢]

فى الخبر المعروف «حربك حربى» (١)، ولما كانت حرب رسول الله صلى الله عليه وآله كفرةً، فان حرب على عليه السلام كفرةً. أما لو كان عليه السلام وزيراً فان الخروج على تلك الحكومه لا يودى إلى الكفر.

وزبده الكلام فان بعض المغرضين حاول استغلال هذه الخطبه وتفسيرها خلافاً لأصول وعقائد التشيع، والحال ليس فيها ما يدعوا إلى هذا الأمر، لأن الإمام عليه السلام أراد أن يبين زهده بهذا المقام الظاهرى من جانب وأن الآخرين يفقدون صوابهم لأدنى من هذا الأمر. ومن جانب آخر فقد كشف الإمام عليه السلام قمه تواضعه بهذه العبارات للمؤمنين من أبناء الأُمَّه. كما حذر فيها واتم الحججه بأنى إذا نهضت بالأمر فلن أعمل سوى بالكتاب والسنة والحق والعدل ورضى الله، ولا تتوقعوا أن أوصل ما شهدتم من سياسه، وترسيخ دعائم الحكم على الظلم والجور.

وأخيراً لا تعتقدوا بأنى غافل عن عواصف المستقبل وأنى متطلع إلى الخلافه لأراها سهله ذلول، فأنى لعلى يقين من أن الخلافه فى هذه الظروف خطيره كركوب الدابه الجموح كالمركب الجموح ولا اقبلها إلا بفضلها وظيفه وتكليف إلهى، وبخلافه فلا قيمه لها عندى.

ص: ١٣٢

١- ١) روى ابن المغازلى أحد علماء العامه فى مناقبه عن ابن عباس أن النبى صلى الله عليه وآله قال لعلى عليه السلام: «سلمك سلمى وحربك حربى» (مناقب ابن المغازلى/ ٥٠).

ومن خطبه له عليه السلام

وفيها يتبّه أمير المؤمنين عليه السلام على فضله وعلمه ويبيّن فتنه بنى أميه

أشار عليه السلام نظره إلى الخطبه فى هذا الخطبه إلى فتنه بنى أميه وقد تبّه إلى عظم خطورتها، لأنّ الناس كلهم كانوا يهابون قتال أهل القبله، ولا يعلمون كيف يقاتلونهم، هل يتبعون موليتهم أم لا؟ وهل يجهزون على جريحتهم أم لا؟ واستعظموا أيضاً حرب عاشته وحرب طلحه والزبير، لمكانهم فى الإسلام، فلولا أنّ الإمام عليه السلام اجترأ على سل سيفه فيها. ما أقدم أحد عليها حتى الحسن عليه السلام. ثم قال عليه السلام سلونى قبل أن تفقدونى. فقد روى صاحب كتاب الاستيعاب بن عبد البر عن جماعه من الرواه والمحدثين، قالوا لم يقل أحد من الصحابه «سلونى» إلّاعلى بن أبى طالب. (٢)

ص: ١٣٣

١-١) سند الخطبه: قال ابن أبى الحديد هذه الخطبه ذكرها جماعه من أصحاب السيره، وهى متداوله منقوله مستفيضه، خطب بها على عليه السلام بعد انقضاء أمر النهروان، وفيها ألفاظ لم يروها الرضى (ره) (شرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد ٧/٥٧) [١] كما ورد فى مصادر نهج البلاغه [٢] أنّ من رواها ابن واضح فى تاريخه (تاريخ اليعقوبى ٢/١٩٣) وأبو نعيم فى حليه الأولياء وابن أثير فى النهايه. كما رواها العلّامه المجلسى عن كتاب الغارات الثقفى (مصادر نهج البلاغه ٢/١٧٨) [٣] فالذى يستفاد من هذه النقول أنّ هذه الخطبه من الخطب المعروفة التى ذكرت فى عده مصادر.

٢-٢) شرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد ٧/٤٦ و ١٣/١٠٦. [٤]

«أَمَا بَعْدَ حَمْدِ اللَّهِ وَالثَّنَاءِ عَلَيْهِ، أَيُّهَا النَّاسُ فَإِنِّي فَقَأْتُ عَيْنَ الْفِتْنَةِ، وَلَمْ يَكُنْ لِيَجْتَرِيَءَ عَلَيْهَا أَحَدٌ غَيْرِي بَعْدَ أَنْ مَاجَ غَيْبُهَا وَاشْتَدَّ كَلْبُهَا. فَاسْأَلُونِي قَبْلَ أَنْ تَفْقِدُونِي، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا تَسْأَلُونِي عَنْ شَيْءٍ فِيمَا بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ السَّاعَةِ، وَلَا عَنْ فِتْنَةٍ تَهْدِي مِثْلَ مِثْلٍ مِثْلَ الْإِلَاءِ. أَنِّي أَنْتُمْ بِنَاعِقِهَا وَقَائِدِهَا وَسَائِقِهَا، وَمَنَاخِ رِكَابِهَا، وَمَحَطِّ رِحَالِهَا، وَمَنْ يُقْتَلُ مِنْ أَهْلِهَا قَتْلًا، وَمَنْ يَمُوتُ مِنْهُمْ مَوْتًا. وَلَوْ قَدْ فَقَدْتُ تُمُونِي وَنَزَلَتْ بِكُمْ كَرَائِهِ الْأُمُورِ، وَحَيَاةِ الْخُطُوبِ، وَلَا طَرَقَ كَثِيرٌ مِنَ السَّائِلِينَ، وَفَشَلَّ كَثِيرٌ مِنَ الْمَسْئُولِينَ، وَذَلِكَ إِذَا قَلَصَتْ حَزْبُكُمْ، وَشَمَّرَتْ عَنْ سِيَاقِ، وَضَمَّتِ الدُّنْيَا عَلَيْكُمْ ضَمِيمًا، تَسْتَطِيلُونَ مَعَهُ أَيَّامَ الْبَلَاءِ عَلَيْكُمْ، حَتَّى يَفْتَحَ اللَّهُ لِبَقِيَّةِ الْأَبْرَارِ مِنْكُمْ» .

الشرح والتفسير

بعد أن حمد الإمام عليه السلام الله وأثنى عليه خاطب الناس قائلاً: « أَمَا بَعْدَ حَمْدِ اللَّهِ، وَالثَّنَاءِ عَلَيْهِ، أَيُّهَا النَّاسُ! فَإِنِّي فَقَأْتُ (١) عَيْنَ الْفِتْنَةِ، وَلَمْ يَكُنْ لِيَجْتَرِيَءَ عَلَيْهَا أَحَدٌ غَيْرِي بَعْدَ أَنْ مَاجَ غَيْبُهَا (٢) وَاشْتَدَّ كَلْبُهَا (٣) » .

ص: ١٣٥

١- ١) «فقأت» من مادة «فقا» على وزن فقر القلع بمعنى تغلبه عليها.

٢- ٢) «غيهب» من مادة «غهب» على وزن وهب الظلمه وشده السواد، وتستعمل في الليالي الدامسه الظلام، كما تعنى في الأصل الغفله والنسيان المناسب للظلمه.

٣- ٣) «كلب» على وزن طلب من مادة «كلب» على وزن قلب داء معروف يصيب الكلاب، فكل من عضته ٢ أصيب به فجن ومات إن لم يبادر بالدواء. ومن هنا يستعمل في الحوادث الأليمه والحروب الطاحنه وهجوم الحيوانات الوحشيه المفترسه.

وقد اختلفت أقوال الشراح في المراد بهذه الفتنة، فقد ذهب البعض إلى أنّ المراد بها وقعه الجمل، حيث أصابت فيه الحيره السذج من الأفراد وحتى من لم يكن يمتلك الإيمان والعلم العادي، في أنّه هل يجوز قتال فئه تنتحل الإسلام ظاهرا و هي من أهل القبلة؟ كيف وفيها بعض كبار الصحابه كطلحه والزبير، وكذلك زوج رسول الله صلى الله عليه وآله عائشه، وناهيك عما سبق فاذا تمت الحججه ونشبت الحرب، فهل يمكن السيطرة على أموالهم كغنائم؟ وكيف سيعامل أسراهم؟ إلمأ أنّ الإمام عليه السلام كان يعلم بأنّ هذا النقص لليهود والمواثيق، وشق عصا الأئمة وتمزيق وحدتها، إذا استمر فإنّ الفتنة ستعم كافة البلاد الإسلاميه حتى لا يبقى من الإسلام إلّا اسمه، ومن القرآن إلّارسمه وستطمس معالم الدين. فبذل الإمام عليه السلام بادية الأمر قصارى جهده من أجل اتمام الحججه محذرا الطرف المقابل من العواقب الوخيمه وذلك من خلال الكتب والرسل التي كان يبعث بها إليهم، فلما لم يستجيبوا، لم يكن أمام الإمام عليه السلام من سبيل إلا القتال، ومن هنا واجههم الإمام عليه السلام بتلك الشده والصرامه حتى أخدم فتنه الجمل، بينهما ذهب البعض الآخر إلى أنّ المراد بها فتنه الخوارج من النهروان لأنّ ظاهر الخوارج كان يتصف بنوع من الصلاح والقدسيه، رغم انحرافهم الباطني وحمقتهم وجهلهم بالتعاليم الإسلاميه، بينما كانوا يولون عنايه فائقه لأذني المستحبات والمندوبات، ولذلك تردد الكثير من السذج في قتالهم، بينما نهض الإمام عليه السلام بالأمر ليواجه هذه الفتنة ويفقأ عينها، كما ذهب بعض الشراح إلى أنّ المراد بها الفتنة بمفهومها العام، حيث يعتقدون أنّ هذه الفتن قد بدأت على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله في موقعه بدر واستمرت في سائر الغزوات، ثم استفحلت وتفاقم خطرها بعد رسول الله صلى الله عليه وآله، ثم امتدت لتشتد في زمان عثمان، فلما قتل وبايع الناس الإمام عليه السلام تجذرت هذه الفتنة لتتخذ أشكالا أخرى، ليواجهها الإمام عليه السلام بالسيف أحيانا، وبالصبر والتحمل والتحذير والنذير أحيانا أخرى ولكن يبدو تفسيرها بالجمل أنسب من غيره أمّا التعبير: «عين الفتنة» فيفيد أنّ الإمام عليه السلام قد شبه الفتنة بشبح وحشى كاسر، وإذا فقأت عينه سلبت قدرته وحيويته، كما تشير إلى أنّ الإمام عليه السلام كان يتجه في مجابهته للفتنة إلى مراكزها الأصليه ورموزها الأساس،

ولا يقصد العناصر الثانويه هنا وهناك، فالفتنه تزول إذا مازال مركزها؛ وهذا هو الطريق الافضل الذى ينبغى اتخاذه فى مواجهه الفتن والدسائس. ثم تطرق الإمام عليه السلام إلى مسأله ذات أهميه بالغه جدا فقال عليه السلام: «فاسألونى قبل أن تفقدونى». كما ذكر سابقا فقد قال المحققون لم يكن ليقول هذا الكلام غير على بن أبى طالب، و ذلك لأنه كان واسع العلم بأحداث الماضى و الحاضر و المستقبل بحيث يجب يرد على كل سؤال بشأن المعارف و الأحكام، و هو العلم الذى تعلمه من رسول الله صلى الله عليه و آله الذى أخذه عن الوحى.

قال الشارح المعتزلى روى صاحب كتاب الاستيعاب عن جماعه من الرواه والمحدثين قالوا لم يقل أحد من الصحابه عنهم سلونى إلماعلى بن أبى طالب، وقال أبو جعفر الاسكافى فى كتاب نقض العثمانيه: ليس لأحد من الناس أن يقول على المنبر سلونى إلماعلى بن أبى طالب عليه السلام.

وقيل إن ابن الجوزى قال يوماً على منبره: سلونى قبل أن تفقدونى، فسألته أمراه عما روى أن علياً سارفى ليله إلى سلمان فجهزه ورجع، فقال: روى ذلك، قالت: فعثمان ثم ثلاثه أيام منبوزاً فى المزابل وعلى عليه السلام حاضر، قال: نعم، فقالت: قد لزم الخطاء لأحدهما، فقال: ان كنت خرجت من بيتك بغير اذن زوجك فعليك لعنه الله وإلاً فعليه، فقالت: خرجت عائشه لحرب على باذن النبى صلى الله عليه و آله أم لا؟ فانقطع ولم يحر جواباً (١) ثم قال عليه السلام: «فو الذى نفسى بيده! لاتسألونى عن شىء فيما بينكم وبين الساعه، ولا عن فئه تهدى منه وتضل منه إلا أنأتكم بناعقها (٢) وقائدها وسائقها، ومناخ (٣) ركابها، ومحط رحالها، ومن يقتل من أهلها قتلاً، ومن يموت منهم موتاً» ربّما يتكهن الكثير من الناس بصوره كليه ومبهمه عن بعض حوادث المستقبل، وهذا ما نلمسه بوضوح لدى الساسه الذين يتكهنون ببعض الأمور التى قد تصيب وقد تخطىء. إلا أن أحداً لم يتمكن بالتكهن بدقائق الأمور وأدنى التفصيلات وبالنسبه

ص: ١٣٧

١- ١) منهاج البراعه ٧/٧٤.

٢- ٢) «ناعق» من ماده «نق» على وزن ضرب من نقق بغنمه صاح بها لتجتمع وتستعمل فى الافراد السذج الذين يتحركون بواعر من المفسدين.

٣- ٣) «مناخ» من ماده «نوخ» بمعنى أقام، و «مناخ» يطلق على المكان الذى يبرك فيه البعير، وتستعمل بشكل واسع ككنايه عن محل الإقامه.

لتلك الأزمان البعيدة، إلّا لمن ارتبط بمصادر الوحي واستند إلى المدد الإلهي والعلم المطلق.

والعجيب في الأمر أنّ الإمام عليه السلام أكد في هذه العبارة أنني أستطيع أن أخبركم بكافه الحوادث القادمة إلى يوم القيامة من جانب، ومن جانب آخر أشار إلى جزئيات هذه الحوادث وتفصيلها. الأمر الذي لا يتيسر إلّا للنبي ومن يستقى علومه ومعارفه منه، وهنا يبرز هذا السؤال: هل للنبي أو الإمام العلم بالغيب، وبهذه السعه والشموليه، والحال هذا القرآن يصرح: «قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ» (١)، وتبدو الاجابه واضحه ومعروفه على هذا السؤال، على ضوء ما ورد في الآيات القرآنيه، وكلمات الائمه عليه السلام ولاسيما الإمام عليه السلام في أن علم الغيب بالذات مختص بالله سبحانه، والله سبحانه يطلع من يشاء من أوليائه على ذلك العلم، كما ورد ذلك في الآيه ٢٦ - ٢٧ من سوره الجن: «عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا * إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ»، وسيأتى عما قريب أنّ الإمام عليه السلام حين أخبر عن بعض الحوادث، فتبادر هذا السؤال إلى ذهن أحد الأفراد بشأن علم الإمام عليه السلام للغيب، ردّ عليه عليه السلام بالقول: «ليس هو بعلم غيب، وإنّما هو تعلم من ذى علم»، في إشاره واضحه إلى أنّ الغيب الذاتى لله، وعلم الإمام عليه السلام إكتسابى، فقد تعلم جميع هذه الأمور من رسول الله صلى الله عليه وآله الذى تعلمها من الله سبحانه وتعالى (وسيمر علينا فى البحث القادم شرح هذا الكلام). على كل حال، لم يقل مثل هذا الكلام بعد رسول الله أحد سوى أمير المؤمنين، إلّا أنّ الإمام أورد ذلك كراراً ومراراً ليقع عين ما كان يخبر به عليه السلام. وقد أفرد ابن أبى الحديد فى شرحه لنهج البلاغه فصلاً أسماه الأمور الغيبه التى أخبر عنها الإمام عليه السلام أورده فى ذيل هذه الخطبه، وسنشير إليه فى البحث القادم.

والعبارة: «ولاعن فنه تهدى مئه. . .» إشاره إلى أنّ الإمام عليه السلام لا يخبر عن الجماعات الكثيره والوقائع الخطيره فحسب، بل يستطيع الأخبار عن صغائر الحوادث ببركه ذلك التعليم الإلهي. ثم أشار عليه السلام إلى نقطتين بهذا الشأن:

الاولى: لتشجيع أولئك على السؤال عن المسائل المصيريه، حذراً من ندمهم يوماً حين

ص: ١٣٨

١-١) سوره النمل/٦٥ ([١] كما ورد شبيه هذا المضمون فى آيات متعدده أخرى).

تضطرب عليهم الأمور فيحل مشاكلهم: «ولو فقدتموني ونزلت بكم كرائه (١) الأمور، وحوازب (٢) الخطوب، لأطرق كثير من السائلين، وفشل كثير من المسؤولين» أى أسألوني مادمت بينكم، فليس لأحد بعدى أن يرد على ما يدور فى أذهانكم، آنذاك ليس لكم سوى الندم.

الثانية: إشاره إلى الأزمات والخطوب المرتقبه، ليستعدوا لها، كما تبشر من جانب آخر الأخيار والصالحين بالفتح «وذلك إذا قلصت (٣) حربكم، وشمرت (٤) عن ساق، وضافت الدنيا عليكم ضيقاً، تستطيلون معه أيام البلاء عليكم، حتى يفتح الله لبقية الأبرار منكم»، فالإمام عليه السلام أشار - إلى سيطره الجناه من حكام بنى أميه وسيطرتهم على مقدرات الأمه الإسلاميه وغصب أموالها، وليس لمن يقف بوجههم سوى الضربات الماحقه الشديده، والحق أن جرائمهم وجنایاتهم لتفوق الخيال والتصور، وما أروع عباره الإمام عليه السلام بهذا الشأن حين قال: «ضاقت الدنيا عليكم ضيقاً» لتصور بعض الفضائع التى ارتكبها بنى أميه بحق الناس.

أمّا قوله عليه السلام: «حتى يفتح الله لبقية الأبرار منكم»، فيمكن أن يكون إشاره إلى زوال حكومه بنى أميه، ليتنفس المسلمون بعدها الصعداء، حيث سיתربص بهم العباسيون الذين لم تشتد قوتهم آنذاك. كما يمكن أن تكون إشاره إلى الحكومه العالميه للإمام المهدي عليه السلام التى تقتلع جذور الظلم والجور وتنهى كافة أشكال التسلط والهيمنه وترسى قواعد العدل والقسط، وإليك طائفه من الأمور الغيبية التى أخبر عنها الإمام عليه السلام ثم تحققت، تأمل نبوءات الإمام عليه السلام أفرد ابن أبى الحديد فصلاً بهذا الشأن فقال: واعلم أنه عليه السلام قد أقسم فى هذا الفصل بالله الذى نفسه بيده أنهم لا يسألونه عن أمر يحدث بينهم وبين القيامه إلا أخبرهم به، وأنه ما صحّ من طائفه من الناس يهتدى بها مائه وتضلّ بها مائه، إلا هو مخبر لهم - إن سألوه - برعاتها وقائدها وسائقها ومواضع نزول ركابها وخيولها؛ ومن يقتل منها قتلاً، ومن يموت منها

ص: ١٣٩

١-١) كرائه جمع كريبه.

٢-٢) حوازب جمع حازب من ماده حزب على وزن جذب الأمر الشديد.

٣-٣) «قلص» من ماده «قلوص» بتشديد اللام تمارت واستمرت.

٤-٤) «شمر» من ماده «تشمير» ويطلق على عمليه رفع الثوب عن الساقين و التهيؤ والاستعداد للقيام بعمل ما. و «شمر» تطلق على الاشخاص ذوى الجد و التجربه، وكذلك تطلق على الاشرار.

موتاً؛ وهذه الدعوى ليست منه عليه السلام ادّعا الزّبييه، ولا إدّعاء النبوه؛ ولكنه كان يقول: إنّ رسول صلى الله عليه وآله أخبره بذلك؛ ولقد امتحنّا إخباره فوجدناه موافقاً، فاستدللنا بذلك على صدق الدعوى المذكوره، كإخباره عن الضربه التي يضرب بها فى رأسه فتخضب لحيته، وإخباره عن قتل الحسين ابنه عليهما السلام؛ وما قاله فى كربلاء حيث مرّ بها، وإخباره بملك معاويه الأمر من بعده، وإخباره عن الحجاج؛ وعن يوسف بن عمر؛ وما أخبر به من أمر الخوارج بالنهروان، وما قدمه إلى صحابه من إخباره بقتل من يقتل منهم وصلب من يصلب وإخباره بقتال الناكثين والقاسطين والمارقين، وإخباره بعدّه الجيش الوارد إليه من الكوفه لما شخص عليه السلام إلى البصره لحرب أهلها، هذه شهاده ضد من لا يعتقد بإمامته عليه السلام على أنه الإمام المعصوم؛ بينما المسأله واضحه لنا تماما. فالائمه ورثه علوم النّبى صلى الله عليه وآله إلى جانب إدراكهم للحقائق القرآنيه التي يعجز عن دركها الاخرون، مع مالهم من إلهامات غيبية و سنبحت فى حينه فى ذيل بعض الخطب بشأن سعه علم الإمام.

«إِنَّ الْفِتْنَ إِذَا أَقْبَلَتْ شَبَّهَتْ، وَإِذَا أَدْبَرَتْ نَبَّهَتْ؛ يُنْكَرُونَ مُقْبِلَاتِ، وَيُعْرِفُونَ مُدْبِرَاتِ، يُحْمَنَ حَوْمَ الرِّيَّاحِ، يُصَيَّبُ بِنَ بَلْدًا وَيُخْطِئُنَ بَلْدًا. أَلَا- وَإِنَّ أَوْفَ الْفِتَنِ عِنْدِي عَلَيْكُمْ فِتْنُهُ بِنِي أُمِّيهِ، فَإِنَّهَا فِتْنُهُ عَمِيَاءُ مُظْلِمَةٌ: عَمَّتْ خُطَّتْهَا، وَخَصَّتْ بِلَيْتِهَا، وَأَصَابَ الْبَلَاءُ مَنْ أَبْصَرَ فِيهَا، وَأَخْطَأَ الْبَلَاءُ مَنْ عَمِيَ عَنْهَا، وَإِيمَ اللَّهُ لَتَجِدَنَّ بِنِي أُمِّيهِ لَكُمْ أَرْبَابَ سُوءٍ بَعْدِي، كَالنَّابِ الضَّرُوسِ، تَعْدُمُ بِفِيهَا، وَتَخْبِطُ بِيَدِهَا، وَتَزِينُ بِرِجْلِهَا، وَتَمْنَعُ دَرَّهَا، لَا يَزَالُونَ بِلَاؤُهُمْ عَنْكُمْ حَتَّى لَا يَكُونَ انْتِصَارُ أَحَدِكُمْ مِنْهُمْ إِلَّا كَانَتْصَارِ الْعَيْدِ مِنْ رَبِّهِ، وَالصَّاحِبِ مِنْ مُسْتَضْحِيهِ، تَرُدُّ عَلَيْكُمْ فِتْنَتَهُمْ شَوْهَاءَ مَخْشِيَةٍ، وَقِطْعًا جَاهِلِيَّةٍ، لَيْسَ فِيهَا مَنَارٌ هُدًى، وَلَا عِلْمٌ يُرَى» .

الشرح والتفسير

أخبر الإمام عليه السلام في القسم الأول من هذه الخطبه عن جانب من الحوادث المستقبلية والفتن التي ستصيب المسلمين، ثم واصل هنا الكلام عن أولاً: الإشاره إلى القانون العام ذات الصله بالفتن؛ القانون الذي يؤدي العلم به إلى الحد من خطر هذه الفتن، ثانياً: الحديث عن فتنه خاصه - وهي في الواقع من أهم الفتن - وتحذير الناس منها، وهي فتنه بنى أميه التي تطرق الإمام عليه السلام إلى أغلب مميزاتها. فقد قال عليه السلام بادية ذى بدء، أن الفتن عاده ما تتلبس بلباس الحق إذا أقبلت، فاذا أدبرت نبهت الناس إلى ما هيها «إن الفتن إذا أقبلت شبهت، وإذا أدبرت نبهت» .

ثم أشار عليه السلام إلى نقطه في الحقيقه هي عله هذا الأمر، وهي أنّ هذه الفتن مجهوله عند الاقبال، معروفه عند الإدبار «ينكرن مقبلات ويعرفن مدبرات»، فهذه نقطه اجتماعيه سياسيه غايه في الأهميه، وهي أنّ أصحاب الفتنه والانحراف إنّما يحاولون تنميق ظاهرهم ليخفون صورتهم الكريهه في إطار الحق ليستقطبوا الناس إليهم، فاذا استتب لهم الأمر كشفوا عن أنيابهم الكريهه حتى يطاح بهم.

ومن هنا فإنّ دعاه الحق مطالبون على الدوام بالنظر بمنتهى الحيطه والحذر إلى الأحداث والوقائع خشيه الانخداع والاغترار، فحسن الظن والنظره السطحيه في مثل هذه الأمور لن تؤدي سوى إلى الضرر والخسران.

ثم أشار عليه السلام إلى نقطه مهمه وهي أنّ الفتن ليست شامله، بل هي كالرياح التي تصيب موضعا وتترك آخر: «يُحْمَنُ (١) حوم الرياح، يصبن بلداً ويخطئن بلداً» .

لأنّ أرضيه كافه المدن والامصار ليست واحده لتحتضن الفتن، بل هناك عده عوامل متوفره هنا وليست متوفره هناك، وبناء على هذا فلا ينبغي الاغترار إذا لم تشاهد بعض آثار الفتن في موضع دون آخر.

ثم يتطرق عليه السلام إلى فتنه بنى أميه ليحذر من خطورتها فيقول: «ألا وإنّ أخوف الفتن عندى عليكم فتنه بنى أميه، فإنّها فتنه عمياء مظلمه» .

فتنه عمياء مظلمه لاتبقى أمامها من قيم ومفاهيم ومثل، وتتجاوز كافه الأشخاص دون الالتفات إلى سوابقهم ومواقفهم، والحق أنّ فتنه بنى أميه كانت كذلك! فقد استعادت أعراف الجاهليه حياتها على عهدهم وفي ظل حكومتهم، حيث تمكنت حالات رجالهم من التسلط على رقاب المسلمين وإشغال المواقع الحساسه في الحكومه، فتحت تلك الشخصيات الصالحه وأقصيت عن الميدان، بينما مورست أبشع أنواع البطش والتعذيب بحق أولئك الذين رفعوا أصواتهم بوجه هذه الحكومه. ثم أشار عليه السلام إلى بعض خصائص هذه الفتنه في أنّ حكومتها عامه شامله بحيث يخضع الجميع لهذه السلطه الغاشمه، غير أنّ بلائها يختص بطائفه وجماعه؛

ص: ١٤٢

(١-١) «يُحْمَنُ» من ماده «حوم» على وزن قوم بمعنى الدوران.

فمن كان بصيراً في تلك الفتنة (ووقف بوجهها) شمله ذلك البلاء، بينما يسلم منها من كان أعمى «عمت خطتها» (١) وخست بليتها، وأصاب البلاء من أبصر فيها، وأخطأ البلاء من عمى عنها» .

طبعاً أنّ آثار الفتنة ستعم بالتالي كافة القوم، ولعل هذا هو المعنى الذي أشارت إليه العبارة «عمت خطتها» ؛ إلّا أنّ شدتها وحدتها إنّما تطيل المجاهدين الأشداء، بينما يكون الجهال من عديمي الشعور بالمسؤولية في أمان من ذلك البلاء ثم تطرق عليه السلام إلى خاصيه أخرى من خصائص حكومه بنى أميه، ليقسم قائلاً: «وأيّم الله (٢) لتجدن بنى أميه لكم أرباب سوء بعدى كالناب (٣) الضروس (٤) تعذب (٥) بفيها، وتخبط (٦) بيدها وتزبن (٧) برجلها، وتمنع درها (٨)» .

ياله من تشبيه رائع في الإنسان يتوقع أن يستفيد من لبن ناقته ويركبها ليصل إلى المكان الذي يريد، كما أنّ الإنسان ينتظر من الحكومه أن تساعده وتحل مشاكله وأن تكون سنده في مسيره الرقى والتقدم الفردي والاجتماعي. أمّا الحكام الظلمه الذين يفتقرون إلى المنطق والرحمه - والذين لا يفكرون إلّا في تحقيق منافعهم - ليس فقط لا يحلون مشاكل المجتمع فحسب، بل يجعلونه يعيش في خضم هاله من المصاعب والمشاكل ويوجهون له الضربات الماحقه الموجهه وهذه المعامله الجافه العنيفه، و يالها من نبوءه صحيحه حيث كان عليه السلام يرى ببصيرته كل تلك الأحداث و عظم البلاء الذي صبته هذه الفئه القاسيه على المسلمين. حتى لا يبقى منكم إلّا من ينفعهم أو لا يضرهم: «لا يزالون بكم حتى لا يتركوا منكم إلّا نافعهم، أو غير ضائر بهم» .

ص: ١٤٣

- ١- (١) «خطه» من ماده «خط» به معنى وضع العلامه، ولفظ «خطه» يأتي أحياناً بمعنى حاله أو موضوع.
- ٢- (٢) «أيّم» يرى بعض الأدباء أن أصلها (أيمن) أسقطت نونها، فان قيل وأيّم الله تفيد القسم (ومن أراد المزيد فليراجع شرح نهج البلاغه لابن أبي الحديد ٧/٥٤) . [١]
- ٣- (٣) «الناب» الناقه المسنه.
- ٤- (٤) «ضروس» الحيوان السئ الخلق يعفى حباله.
- ٥- (٥) «تعذب» من ماده «عذب» من عذب الفرس إذا أكل بحفاء أو عض.
- ٦- (٦) «تخبط» من ماده «خبط» الضرب باليد.
- ٧- (٧) «تزين» من ماده «زين» على وزن دفن تضرب.
- ٨- (٨) «در» جريان اللبن توفير، كما يطلق على كل خير وبركه.

فهم يخنقون أصوات دعاه الحق فى حناجرهم ويلتقطون من يعارضهم أينما كان ولا يرون لأى أحد من حق فى الحياه سوى من يقوم على خدمتهم، أو لا يشكل أى خطر على مصالحهم، ولا يفرق لديهم أن يكون داع الحق هذا وطالب العدل ابن رسول الله صلى الله عليه وآله أو من صحابته أم كان من كبار علماء الأئمه وأعلامها وهكذا تتضح عموميه الفتنة وشموليتها التى أشار إليها الإمام عليه السلام. كما أشار فى الخاصيه الرابعه إلى نقطه وهى أن المشكله العظيمه فى هذه الحكومه تكمن فى عدم وجود أى ملاذ من شأنه توفير الأمن للآخرين والنجاه من ظلم هؤلاء الظلمه، وليس هنالك من يسمع شكواهم، الأمر الذى يضطرهم إلى شكوى ظلم الظلمه إلى أنفسهم ومعلوم بالطبع نتيجه مثل هذه الشكوى: «ولا يزال بلاؤهم عنكم حتى لا يكون انتصار أحدكم منهم إلا كانتصار العبد من ربّه، والصاحب من مستصحبه» .

والحق هذا هو مصير الأئمه التى تقوم حكومتها الجائره والظالمه بقطع ألسن كافه دعاه الحق وتحاصر العلماء وتفرض عليهم الاقامه فى بيوتهم، وتعز الذليل وتذل العزيز وتحطم عناصر القوه فى الأئمه وتسخرها من أجل منافعتها. ثم أشار فى الخاصيه الخامسه والأخيره - التى تؤكد فى الواقع الخصائص السابقه - إلى تتابع هذه الفتنة وهى عماء وصماء خاليه من الأدله وسبل النجاه: «ترد عليكم فتنهم شوهاً (١) مخشيه (٢) وقطعاً جاهليه، ليس فيها منار هدى، ولا علم يرى» ، وهكذا يكون الإمام عليه السلام قد رسم بهذه الخصائص الصوره القاتمه لظروف وأوضاع حكومه بنى أميه، كما أشار إلى نهايتها؛ وكأنه كان قد عاش تلك الفتره المظلمه التى دامت ثمانين سنه، وكان يرى تفاصيلها رأى العين. فقد كانت حكومه لا تقيم وزناً للقيم والمثل الإسلاميه ولا تعترف بالقوانين الإسلاميه، بل هى حكومه مستبده طاغيه تفتقر إلى المنطق والموازن مليئه بالفتن الحاكيه عن عصر الجاهليه، الحكومه التى قد لا تفكر حتى فى مصالحها، لتمارس أقصى درجات الظلم والجور فترتكب ما قل نظيره فى التأريخ البشرى. والعبارة: «أرباب سوء بعدى» ، إشاره لطيفه إلى هذه الحقيقه وهى أنكم لم تستجيبوا لحكومتى الإسلاميه والإنسانيه العادله، فليس أمامكم سوى الحكام الظلمه وأرباب السوء. وقد أورد

ص: ١٤٤

١- ١) «شوهاً» من ماده «شوه» على وزن قوم قبيحه المنظر.

٢- ٢) «مخشيه» من الخشيه مخوفه مرعبه.

بعض شراح نهج البلاغه أنّ بنى أميه كانت تعامل طائفه من الناس كعبيد. حتى جاء فى شرح نهج البلاغه للعلامة التستري أنّهم كانوا يأخذون الجزية ممن أسلم من أهل الذمه ويقولون فروا من الجزية، ويأخذون الصدقه من الخيل، وكانوا يختمون فى أعناق المسلمين كما توسم الخيل، وينقشون فى أكفهم علامه لاسترقاقهم كما يصنع بالعلوج من الروم والحبشه. (١)

تأملات

١- مميزات الفتنه

الفتنه مفرده يخشاها الجميع، ويرون نتيجهها هى الشؤم والألم، ولكن هنا يطرح هذا السؤال: ما هى الفتنه؟ وما هى علامتها وملامحها؟ فالإمام عليه السلام بين فى هذه الخطبه علامات الفتنه، كما عرفها على أساس هذه العلامات والملاحح. فالفتنه إنّما تطلق على الحوادث المعقده التى لاتضح ماهيتها؛ لها ظاهر براق وباطن مملوء بالفساد؛ تؤدى بالمجتمعات البشرىه إلى الفوضى والعداوه والتناحر والاقتيال وسفك الدماء ونهب الأموال وهتك الاعراض - والأنكى من كل ذلك تعذر السيطره عليها.

غالباً ما تتلبس بلباس الحق لتجذب اليها السذج من الناس ولا يلتفتون إليها، إلّا بعد أن تسدد إليهم سهام حقدتها. والفتن لاتعرف القانون، فقد تأتى على منطقه لتحرقها عن بكره أبيها، بينما لاتشهد منطقه أخرى أثراً لهذه الفتنه وهى تعيش فى أمن وأمان منها، وقد شبهها الإمام عليه السلام فى الخطبه بالريح التى تصيب منطقه وتخطىء منطقه أخرى، وقد تلف هذه الريح كل شىء معها من قبيل الناس والسيارات لتقذف بهم هنا وهناك حسب سرعتها وشدتها! وهذا ما تفعله الفتن بكبار الشخصيات الدينيه والاجتماعيه السياسيه، إلى جانب فعلها بأموال الأممه وثروات المجتمع والحرب التى وقعت على عهد أمير المؤمنين على عليه السلام تعد كل واحده منها نموذجاً بارزاً للفتنه؛ فقد شهدت واقعه الجمل حضور زوج النبى صلى الله عليه وآله عائشه التى ركبت الجمل، وإلى جانبها طلحه والزبير وهما من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله - ومن أهل السابقه

ص: ١٤٥

الحسنه فى الإسلام، بحسب الظاهر - حتى بثوا أولى بذور النفاق والفرقه والشقاق فى صفوف الأّمه الإسلاميه، ولم تضع الحرب أوزارها إلّا بعد مقتل أكثر من عشرين ألف من المسلمين، حتى تم الأمر لعلّى عليه السلام فأحمد نيران تلك الفتنة. قضيه أهل الشام وموقعه صفين والمطالبه بدم عثمان ورفع المصاحف على أسنه الرماح نموذج بارز آخر لهذه الفتنة، ولم تنطفئ نيرانها طائفه من الجهال المتنسكين وهم يرفعون شعار «لا حكم إلّا لله» ليشعلوا فتيل موقعه النهروان فالواقع أنّ تأمل هذه النماذج العينيه يمكنه أن يعلم الإنسان بصوره علميه كافه مميزات الفتنة ومدخلاتها كما بينها الإمام عليه السلام فى هذه الخطبه.

٢ - حكومه بنى أميه

بناءً على ما أورده الإمام عليه السلام فى هذه الخطبه فإنّ حكومه بنى أميه كانت من أعظم وأعقد الفتن التى عصفت بالمسلمين منذ انبثاق الدعوه الإسلاميه حيث قلبت الحضاره الإسلاميه رأساً على عقب وصبغت الحكومه الإسلاميه بصبغه الاستبداد والتسلط والغطرسه، تنتمى طائفه بنى أميه إلى أميه بن عبد شمس بن عبد مناف. ومنها أبو سفيان أعدى أعداء الإسلام الذى أثار أغلب الحروب ضد رسول الله صلى الله عليه وآله وقد بذل قصارى جهده من أجل القضاء على الإسلام، إلّا أنّ إرادته وقدرته حالت دون ذلك، حتى استسلم أخيراً بجحافل الإسلام بينهما أسر الكفر وظل يخطط من أجل كسر شوكة الدين، بينما صفتح النبى صلى الله عليه وآله عن جرائمه. روى ابن أبى الحديد عن الشعبي أنّ عثمان لما ولى الخلفه، اجتمع بنو أميه فى داره فاغلقوا الباب، وكان حينها أبو سفيان قد كف بصره فالتفت إليهم وسألهم: هل فيكم غيركم؟ قالوا: لا، فقال عبارته المشهوره: «يا بنى أميه تلقفوها تلقف الكره! فوالذى يحلف به أبو سفيان! ما من عذاب ولا حساب ولا جنّه ولا نار ولا بعث ولا قيامه» (١).

وهى ذات العبارة التى أطلقها معاويه بعد ان سسمع مقاله المغيره، كما وردت مثلها فى الأشعار المعروفه ليزيد حين جاءوا إليه برأس الإمام الحسين عليه السلام. هذا وقد ألف علماء الفريقين عده

ص: ١٤٦

(١-١) شرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد ٩/٥٣. [١]

كتب ومقالات بشأن الجنايات والجرائم التي ارتكبتها حكومه بنى أميه، والتي تدل على عمق الحقيقه التي صرحت بها الروايات الإسلاميه قبل استيلاء بنى أميه على دفة الحكم، وأنهم آفه هذه الأُمَّه.

ص: ١٤٧

«نَحْنُ أَهْلُ الْبَيْتِ مِنْهَا بِمَنْحَاهِ، وَلَسْنَا فِيهَا بِدُعَاةٍ، ثُمَّ يُفَرِّجُهَا اللَّهُ عَنْكُمْ كَتَفْرِيجِ الْمَادِيمِ: بِمَنْ يَسِيْرُهُمْ خَسِيْفًا، وَيَسُوْقُهُمْ عُنْفًا، وَيَسِيْقِيْهِمْ بِكَأْسٍ مُّصَبَّرَةٍ لَّا يُعْطِيْهِمْ إِلَّا السَّيْفَ، وَلَا يُحْلِسِيْهِمْ إِلَّا الْخَوْفَ، فَعِنْدَ ذَلِكَ تَوَدُّ قُرَيْشٌ - بِالْأَدْنِيَا وَمَا فِيهَا - لَوْ يَرَوْنَنِي مَقَامًا وَاحِدًا، وَلَوْ قَدَّرَ جَزْرٌ جَزُورًا، لَأَقْبَلَ مِنْهُمْ مَا أَطْلَبَ الْيَوْمَ بَعْضُهُ فَلَا يُعْطُونِيهِ!» .

الشرح والتفسير

إختتم الإمام عليه السلام الخطبه بالأخبار عن بعض الحوادث المستقبلية الحلوه والمريره، حيث يلفت النظر إلى أن أهل البيت عليهم السلام بمنجاه من هذه الفتنة وأنهم ليسوا دعاه حكومه آنذاك: «نحن أهل البيت منها بمنجاه (1)، ولسنا فيها بدعاه» .

يبدو أن هناك إختلاف بين شراح نهج البلاغه في تفسير هذه العبارة، لأن الفتنة من حيث العينيه الخارجيه قد شملت أهل البيت، ونموذج ذلك شهاده الإمام الحسين عليه السلام وصحبه الكرام. وعليه فنجاه أهل البيت من تلك الفتنة بمعنى عدم مسؤوليتهم في هذه الفتنة، وتقع مسؤوليتها على الأمه التي ولت ظهورها عن أهل البيت والتحققت بسليبي الكفر والشرك والجاهليه. والعباره «ولسنا فيها بدعاه» قرينه على هذا المعنى، لأن أهل البيت حين اجبروا على

ص: ١٤٩

١-١) «منجاه» من ماده «نجاه» الأرض المرتفعه التي لا يصلها السيل، ثم اطلقت على كل موضع يكون سبباً للنجاه، إلا أنها وردت أيضاً بمعنى الاقصاء عن التدخل في أمر، وقد جاءت بهذا المعنى في العبارة؛ أي ليس هنالك أي دور لأهل البيت في حكومه بنى أميه، وعلى بنى أميه وزرها خاصه.

السكوت ولم تندفع الأُمَّه خلفهم، بات من الطبيعي عدم تحملهم لأية مسؤوليه. ثم بشرهم الإمام عليه السلام بعدم استمرار هذه الفتنة وأن الله سيكشفها عن الأُمَّه كما يكشف الجلد عن اللحم: «ثم يفرجها (١) الله عنكم كتفريج الأديم». (٢) فهذا التشبيه يشير إلى اخماد فتنة أميه بصوره تامه في ذلك الزمان، لأن الجلد حين يفصل عن اللحم لا تبقى ذره منه على اللحم بحيث يتغير شكل الحيوان المذبوح تماماً.

والسؤال المطروح من الذى ينهى هذه الفتنة ويقضى على حكمومه بنى أميه وكيف؟

قال عليه السلام: فى مواصله كلامه بشكل عام «بمن يسومهم خسفاً (٣)، ويسوقهم عنفاً، ويسقيهم بكأس مصبره لا يعطيهم إلا السيف، ولا يحلسم (٤) إلا الخوف» .

العباره «مصبره» من ماده صبر على وزن خشن نبات شديد المراره، إشاره إلى مراره الحياه التى سيعيشها بنى أميه فى ظل حكمومه بنى العباس، والعباره «لا يعطيهم. . .» تأكيد لهذا المعنى فى ابتلاء بنى أميه ببنى العباس، الذين يضعون السيف فى أعناقهم، ومن حالفه الحظ فى الهرب فليس له إلا الخوف والرعب.

ثم قال عليه السلام آنذاك تود قريش (إشاره إلى طائفه من بنى أميه) أن تعطى الدنيا وما فيها، لترانى مره أخرى (وتدعن لامرتى) ولو لمدته وجيزه بقدر ذبح الناقه، لأقبل منها ما تمنعنى اليوم بعضه: «فعند ذلك تود قريش بالدنيا وما فيها، لو يرونى مقاماً واحداً، ولو قدر جزر جزور (٥)، لا قبل منهم ما أطلب اليوم بعضه فلا يعطونيه» فالعبارات وان أشارت إلى تكهن الإمام عليه السلام بشأن زوال سلطه بنى أميه على يد بنى العباس، إلا أن بعض شراح نهج البلاغه احتملوا أن هذه العبارات وردت بخصوص حكمومه الإمام المهدي عليه السلام حيث سيؤدى.

إلى إجتثاث جذور الظلم والطغيان، إلا أن هذا الاحتمال يبدو بعيداً، وذلك لأنه أولاً: سوف

ص: ١٥٠

١-١) «يفرج» من ماده «فرج» بمعنى السلخ ورد هنا، كما يعنى حل المشاكل.

٢-٢) «أديم» بمعنى الجلد.

٣-٣) «خسف» بمعنى الاخفاء، وورد فى الخطبه بمعنى الذل.

٤-٤) «يحلس» من ماده «حلس» على وزن فلس بمعنى الكساء الذى يوضع على ظهر البعير.

٥-٥) «جزور» من ماده «جزر» على وزن جذب الناقه المجزوره، كما وردت هذه المفرده بمعنى انخاض ماء البحر وما شاكل ذلك.

لن يكون بنى أميه آنذاك طائفه خاصه. ثانياً: ليس هنالك من مجال لأن يتمنوا حكومه الإمام على عليه السلام حين ظهور الإمام المهدي عليه السلام وتطبيق كافة تعاليم السماء.

وبعبارة أخرى: فإن هذه الأُميه ستكون من قبيل تحصيل الحاصل. وهذا الكلام إخبار عن ظهور المسوده، وانقراض ملك بنى أميه، ووقع الأمر بموجب إخباره عليه السلام؛ حتى لقد صدق قوله: «لقد تود قريش...»، فإن أرباب السير كلهم نقلوا أنّ مروان بن محمد قال يوم الزاب لما شاهد عبدالله ابن علي بن عبدالله بن العباس بازائه في صف خراسان: لوددت أنّ علي بن أبي طالب تحت هذه الرايه بدلاً من هذا الفتى؛ والقصه طويله وهى مشهوره. (١)

والأعجب من ذلك حين ولى أبو العباس السفاح الخلافه - وهو أول خليفه عباسى أمر بقتل كافه بنى أميه، كما أمر بنبش قبورهم وأخراج الأموات منها واحراقها، ولم ينج منهم إلّا من هرب إلى الأندلس - وقيل أنّ السفاح أمر بطرح موتى بنى أميه أمام الكلاب لتنهش لحومهم. (٢)

بل لقب أبو العباس بالسفاح لكثرة قتله من بنى أميه. (٣)

ويتضح ممّا مر معنا أنّ الفرج الذى بشر به الإمام عليه السلام إنّما يقتصر على الفتره الممتده بين حكومه بنى أميه وبنى العباس، أو بعبارة أخرى يرتبط بالمدّه التى لم تقو فيها قدره بنى العباس إلى الحد المطلوب، وذلك لأنهم حين توطدت دعائم حكومتهم وقويت شوكتهم، غاصوا فى هاله من الظلم والاضطهاد ليجعلوا المسلمين يعيشون فتره مظلمه أخرى.

تأملان

١ - ضريبه الفرار من الحق

شحن التاريخ بهذه التجربه فى أنّ من يهرب من الحق والعزه والكرامه، إنّما يعيش حياته فى ظل الذل والباطل. وأفضل نموذج على ذلك أهل العراق على عهد على عليه السلام الذين لم يستجيبوا

ص: ١٥١

١- ١) شرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد ٧/٥٧. [١]

٢- ٢) تتمه المنتهى / ١٥٦.

٣- ٣) دائره المعارف الاعلمى ١٠/٤٠٥.

لعلّى عليه السلام المعروف بعدالته ورحمته حتى فى ساحات الوغى ومع الخصوم والاعداء، فكانوا يختلقون مختلف الذرائع ليتمردوا عليه، فملأوا قلبه دما وشحنوا صدره غيضاً وجرعوه الهم والغم. إلاّ أنّه لم تمض عليهم مده حتى دفعوا ثمن ذلك باهضاً ليدوقوا ألوان الذله والهوان. فقد سلط عليهم زمره من الجفاه الطفاه القساه الذين لم يرعوا إلاّ ولاذمه فى كبير أو صغير. وقد نهبوا أموالهم وانتهكوا حرمانهم وجرعوه الموت غصه غصه، وأحالوا حياتهم ظلاماً دامساً، حتى تمنوا لحظه من لحظات حكمه على عليه السلام ولكن هيهات.

نعم هذا ما صرح به الإمام عليه السلام فى الخطبه ٢٨: «ألا وإنّه من لا ينفعه الحق يضره الباطل، ومن لا يستقيم به الهدى، يجربه الضلال إلى الردى».

حقاً أن هذا الفصل من تاريخ الإسلام ملئ بالدروس والعبر، فمصير أولئك الذين غدروا بأمر المؤمنين على عليه السلام ينطوى على الدروس والعبر من جانب، ومن جانب آخر فإنّ قصه بنى أميه بعد على عليه السلام هى الأخرى عبره لمن اعتبر.

روى المؤرخ المشهور المسعودى أنّ الحجاج حكم الكوفه والبصره على عهد عبد الملك بن مروان عشرين سنه، واحصى من قتله صبراً سوى من قتل فى عساكره وحروبه فوجد مائه وعشرين ألفاً، ومات فى حبسه خمسون ألف رجل، وثلاثون ألف أمراه، منهن سته عشر ألفاً مجردة، وكان يحبس النساء والرجال فى موضع واحد، ولم يكن للحبس سترىستر الناس من الشمس فى الصيف ولا من البرد والمطر فى الشتاء، وكان له غير ذلك من العذاب. (١)

وذكر ابن قتيبه فى الامامه والسياسه أن الحجاج دخل مسجد البصره مع مئتى نفر يحملون سيوفهم ثم أمرهم بالهجوم على الناس إن خلع عمامته إذا رموه، فجعلون يضربون أعناق من فى المسجد حتى إمتلأ بدمائهم. ولم يكن ذلك سوى جانباً من مصير من تمرد على الإمام عليه السلام.

٢- عاقبه بنى أميه

عاقبه بنى أميه كانت هى الأخرى أسوأ من عاقبه أهل العراق فى حكمه بنى العباس

ص: ١٥٢

حتى قيل أنّ أحد خلفاء بني العباس أحضر في مجلسه تسعين من زعماء بني أميه فأمر بضرب رؤوسهم بأعمده الحديد والقوا وسط المجلس، ثم وضعت مائده الطعام عليهم فجعل يتناول مع صحبه الطعام. (١)

بل لم يرحموا حتى صغار بني أميه فضلاً عن موتاهم. فقد عمد عبدالله بن على أيام أول خليفه عباسى السفاح إلى نبش قبورهم، فأخرج جسد هشام بن عبدالملك وأضرم فيه النار، كما أخرج جسد الوليد بن عبدالملك ويزيد بن معاويه - ولم يبق منهما إلّا العظام - وسائر أجساد بني أميه وأمر باحراقها. (٢)

ثم اتجه صوب قبر معاويه، فلم يكن فيه سوى حفنه من التراب. (٣)

ص: ١٥٣

١-١) الكامل لابن أثير ٥/٤٣٠.

٢-٢) مروج الذهب ٣/٢٠٧.

٣-٣) الكامل لابن أثير ٥/٤٣٠.

ومن خطبه له عليه السلام

وفيها يصف الله تعالى ثم يبين فضل الرسول الكريم صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام ثم يعظ الناس

نظره إلى الخطبه

تشتمل الخطبه على أربعة محاور: الأول: بيان بعض صفات الله سبحانه، الثاني: خلق الأنبياء من صلب آدم عليه السلام.

الثالث: خلق النبي الأكرم صلى الله عليه وآله من النسل الطاهر، وشرح بعض فضائله ومناقبه ومدح عترته عليهم السلام.

الرابع: النصيح والوعظ بعبارات قصيره عظيمه التأثير.

ص: ١٥٥

١-١) سند الخطبه: قال صاحب مصادر نهج البلاغه مانقله الرضى (ره) فى هذا الموضوع مأخوذ من خطبه له عليه السلام مشهوره أولها: الحمد لله الواحد الأحد الصمد، المتفرد. . . وقال الكلينى فى الكافى عن هذه الخطبه بعد أن أخذ غرضه، منها فى الكتاب التوحيد: وهذه الخطبه من مشهورات خطبه عليه السلام حتى لقد ابتدلتها العامه (الكافى ١/١٣٤) [١] وقال المرحوم الصدوق، قال الإمام الصادق عليه السلام أن أمير المؤمنين عليه السلام خطب بهذه الخطبه لما استنهض الناس لحرب معاويه فى المره الثانيه. (توحيد الصدوق، ٤١/، باب التوحيد ونفى التشبيه، الحديث ٣). رواها ابن عبد ربه المالكى فى العقد الفريد ٤/٧٤ بتفاوت مع روايه الرضى تحت عنوان خطبته الفراء. وقال صاحب المصادر: ويلاحظ أن روايه العقد خلت من ذكر أهل البيت فى الخطبه فلعل يداً أمينه! حذف ذلك، كما حذف الخطبه الشقشقيه من العقد (مصادر نهج البلاغه ٢/١٨٥). [٢]

«فَتَبَارَكَ اللَّهُ الَّذِي لَا يَبْلُغُهُ بُعْدُ أَلْهَمِهِمْ، وَلَا يَنَالُهُ حَدْسُ الْفِطَنِ، الْأَوَّلُ الَّذِي لَا غَايَةَ لَهُ فَيَنْتَهِي، وَلَا آخِرَ لَهُ فَيَنْقُضِي» .

الشرح والتفسير

استهل الإمام عليه السلام خطبته - كسائر خطبه - بحمد الله والثناء عليه، أفضل انطلاقه في الحديث واعداد القلوب لسماع الوعظ. فقد بين عليه السلام بهذه العبارات أربع صفات من صفات الله التي تعود في الحقيقة إلى صفة واحده (وقد ورد شبيه ذلك في الخطبه الاولى من نهج البلاغه في المجلد الأول من هذا الكتاب) . فقال عليه السلام: «فتبارك الله الذي لا يبلغه بعد الهمم، ولا يناله حدس الفطن» .

فهو سبحانه الأول الذي لانهايه له ليتمكن الوصول إليه، ولا- آخر له لتكون له نهايه «الأول الذي لا غاية له فينتهي، ولا آخر له فينقضي» فجميع هذه الصفات إنما تشير إلى عدم تناهى ذاته في كل جهه. الذات التي لا تعرف الحدود من حيث العظمه والعلم والقدرة والاوليه والآخريه. فهو ليس محدود في الفكر الإنساني، ولا- يدرك بالظنون، ليس له أول، كما ليس له آخر، ليس هنالك من هدف لذاته ولا غاية، وذلك لأنه كمال مطلق ووجود لا حدود له ولانهايه.

وفي ذات الوقت فإنّ هذه الصفات الأربع تعالج هذه الحقيقة من جوانب مختلفه:

في العبارة الاولى: أنّ الأفكار البشريه والإرادات القويه ومهما بلغت جهودها ومساعدتها لا يسعها أن تبلغ معرفه كنهه سبحانه.

والعبارة الثانيه: إشاره إلى الحدس والظن والانتقالات الدفعيه والسريعه الفكرية التي يمكنها أن تدلل أغلب قضايا الحياه، حيث يقول الإمام عليه السلام ليست لها من فاعليه هنا.

العبارة الثالثه: تشير إلى أنّ الله سبحانه، على خلاف الموجودات الإمكانية التي لها هدف ومقصد لهذا الوجود، فهي تنتهي حين تبلغ هدفها وتقوم برسالتها؛ فليس هناك وجود ليبلغه.

العبارة الأخيره: تشير إلى أنه آخر لانهايه له - بعبارة أخرى: هو أول الوجود وآخره، ولكن ليس بمعنى الأول الذي ينتهي ولا الآخر الذين ينقضي؛ فهذه الصفات تعني أزليته وابدئته ومطلقيته.

قد لا يكون المعنى الأخير كذلك للوهله الأولى، ولكن يبدو ذلك صحيحاً من خلال الالتفات إلى العبارة السابقه، ونظيراتها في نهج البلاغه، كما ورد في الخطبه ٨٥.

على كل حال فإنّ الأفكار البشريه المحدوده لاتصل أبداً إلى كنه ذلك الكمال المطلق، وليس لنا سوى معرفه إجماليه، يمكنها أن تتكامل كلما طهرت روح الإنسان أكثر وأصبح فكره أقوى وأكمل، وأن تعذر بلوغ المعرفه التفصيليه البتة.

القسم الثاني: (ومنها في وصف الأنبياء): المكانة الرفيعة للأنبياء

«فَاسْتَوْدَعَهُمْ فِي أَفْضَلِ مَسْتَوْدَعٍ، وَأَقْرَهُمْ فِي خَيْرِ مُسْتَقَرٍّ، تَنَاسَخَتْهُمْ كَرَائِمُ الْأَصْلَابِ إِلَى مُطَهَّرَاتِ الْأَرْحَامِ؛ كُلَّمَا مَضَى مِنْهُمْ سَلْفٌ، قَامَ مِنْهُمْ بِدِينِ اللَّهِ خَلْفٌ» .

الشرح والتفسير

أشار الإمام عليه السلام في هذه الخطبة إلى الأنبياء الذين بعثهم الله طيله تاريخ البشرية، ليكمل بحث التوحيد ببحث النبوه. وتفيد القرائن أن هناك مقاطع محذوفه بين هذا القسم وذلك الذي سبقه، فالأقسام مقتطفات من خطبه طويله للإمام عليه السلام.

على كل حال فان الخطبه أشارت في الواقع إلى الأمور المهمه التاليه.

الأول: أن الأنبياء قد غطوا جميع التاريخ البشرى وقد نهضوا الواحد تلوا الآخر بمهمتهم في الوعظ والإرشاد.

الثاني: أنهم ينشدون جميعاً هدفاً واحداً.

الثالث: أنهم تربوا في أصلاب شامخه وأرحام مطهره.

فقال عليه السلام: «فاستودعهم في أفضل مستودع، وأقرهم في خير مستقر»، ثم خاض عليه السلام في شرح هذا المجمل بأن الله قد قلبهم في الأصلاب الكريمة والأرحام المطهره. فقال عليه السلام بهذا الشأن: «تناسختهم (1) كرائم الأصلاب إلى مطهرات الأرحام» .

ص: ١٥٩

(١- ١) «تناسخ» من ماده «نسخ» بمعنى الازاله وانتقال الشيء، وتعنى هنا انتقال نطفه الآباء إلى أرحام الأمهات.

فالواقع هو أنّ «أفضل مستودع» يراد به أصلاب كرام الآباء من أهل الفضل و «خير مستقر» يراد به الأرحام الطاهره للامهات.

ثم أشار عليه السلام إلى استمرار رساله الأنبياء وامتدادها، وكلما رحل منهم أحد، خلفه آخر ليواصل سبيله: «كلما مضى منهم سلف، قام منهم بدين الله خلف». .

فالواقع هو أنّ حديقه الحياه الإنسانيه لم تخل قط من شجره الأنبياء الطيبه، لتغذى البشريه على الدوام على ثمارها المعطاء: «تَوْتِي أَكَلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا» (١) فترتوى من فيضها وتزدان قوه فى روحها وبدنها.

أمّا قضيه طهاره أصلاب الأنبياء وأرحامها فمن الأمور المهمه التى أسهبت فى ذكرها الروايات الإسلاميه والزيارات، وذلك لاهميتها من جانبين: الأول من ناحيه قانون الوراثة الذى ينطوى على آثار عميقه والثانى: من الناحيه الاجتماعيه وثقه الأئمه بالأنبياء، إلى جانب الرابطه بين الأمم والأنبياء بما لا يمكن انكار دوره.

ومن هنا صرحت الروايات التى وردت بشأن انتخاب الزوجه بأن تكون من أسره دينيه مشهوره بعفتها وطهارتها وورعها وتقواها، والعكس صحيح فى اجتناب الأسره الوضيعه وان كانت هناك بعض الصفات فى المرأه. فقد جاء فى الحديث عن النبى الأكرم صلى الله عليه وآله أنه قال: «أيها الناس إياكم وخضراء الدمن! قيل: يا رسول الله وما خضراء الدمن؟ قال: المرأه الحسناء فى منبت السوء». (٢)

والنقطه الجديره بالذكر أنّ العبارة: «كلما مضى منهم سلف، قام منهم بدين الله خلف»، إشارة إلى هذه الحقيقه هى أنّ الأنبياء وبمصادق «لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ» (٣)، لهم برامج واحده، وأصول مشتركه، وإن كان هناك بعض الاختلاف فى الفروع بسبب تفاوت الزمان والمكان؛ فكانوا يدعون جميعاً إلى التوحيد والعدل والمعاد، حتى أنّهم كانوا سواسيه فى اصول المسائل الفرعيه؛ فهم يدعون إلى التضرع والعبوديه ويحثون على الفضائل ومكارم الأخلاق ويحذرون من الصفات الرذيله، وبالتالي احترام القانون ورعايه النظام.

ص: ١٦٠

١-١) سورة ابراهيم/٢٥. [١]

٢-٢) وسائل الشيعه ١٤/٢٩ ح ٤. [٢]

٣-٣) سورة البقره/٢٨٥. [٣]

«حَتَّى أَفْضَتْ كَرَامَهُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إِلَى مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فَأَخْرَجَهُ مِنْ أَفْضَلِ الْمَعَادِنِ مُنْبِتًا، وَأَعَزَّ الْأُرُومَاتِ مَغْرَسًا؛ مِنْ الشَّجَرَةِ الَّتِي صَدَعَ مِنْهَا أَنْبِيَاءُهُ، وَانْتَجَبَ مِنْهَا أَمْنَاءُهُ. عِثْرَتُهُ خَيْرُ الْعِثْرِ، وَأُسْرَتُهُ خَيْرُ الْأُسْرِ، وَشَجَرَتُهُ خَيْرُ الشَّجَرِ؛ نَبَتْ فِي حَرَمٍ، وَبَسَيْتْ فِي كَرَمٍ؛ لَهَا فُرُوعٌ طَوَالٌ؛ وَثَمَرٌ لَائِنَالٌ؛ فَهُوَ إِمَامٌ مِنَ اتَّقَى، وَبَصِيْرَةٌ مِنَ اهْتَدَى، سِرَاجٌ لَمَعَ ضَوْؤُهُ، وَشَهَابٌ سَطَعَ نُورُهُ، وَزَنْدٌ بَرَقَ لَمْعُهُ، سَيِّرَتُهُ الْقَضِيْدُ، وَسَيِّئَتُهُ الرُّشْدُ، وَكَلَامُهُ الْفَضِيْلُ، وَحُكْمُهُ الْعَيْدُلُ؛ أَرْسَلَهُ عَلَى حِينٍ فَتْرِهِمِنَ الرُّسُلِ، وَهَفْوِهِ عَنِ الْعَمَلِ، وَغَبَاوِهِ مِنَ الْأُمَّمِ» .

الشرح والتفسير

ركز الإمام عليه السلام في إطار حديثه عن أنبياء الله ورسله على خاتم الأنبياء والمرسلين محمد صلى الله عليه وآله وفضائله وكمالاته وأعظم صفاته من جميع الجهات. فقد تطرق في بادئ الأمر إلى أجداده الطاهرين وعظم فضيله ونسبه صلى الله عليه وآله ثم خاض في فروع هذه الشجرة المباركة من عترته وأهل بيته. ثم تناول في المرحلة الأخرى صلاحيته في زعامه الأمة، كما تحدث عن انبثاق دعوته وقيامه بالامر، ومن شأن كل بعد من هذه الابعاد أن يكشف عن عظمتة صلى الله عليه وآله. فقد قال عليه السلام بأن الله وأصل عنايته ولطفه ببعث الأنبياء إلى أن ختمهم بالنبي الأكرم صلى الله عليه وآله: «حتى أفضت كرامه الله سبحانه وتعالى إلى محمد صلى الله عليه وآله» .

حيث استخرجه من أطيب المعادن وأفضلها ومن أطيب التراب وأعزها، وجعل فرع

وجوده من شجرة الأنبياء، تلك الشجرة الطيبة التي اصطفى منها أمنا رسالاته: «فأخرجه من أفضل المعادن منبتاً، وأعز الارومات (١) مغرساً: من الشجرة التي صدع منها أنبياءه، وانتجب منها أمناه» .

قطعاً أنّ أحد الابعاد المهمة في شخصيه الإنسان انما يبلوره البعد الوراثي، حيث يكتسب الأبناء القدسيه من جراء الآباء من أهل الورع والتقوى والصالح، والأمهات من ذوى الطهر والنجابه والعفاف. وبالطبع كل ذلك دون حصول الاجبار. والنبى صلى الله عليه وآله كان نموذجاً بارزاً في هذا الأمر؛ فهو ينتهى لآل ابراهيم عليه السلام والأنبياء الذين إنحدروا من نسله، من صلب بنى هاشم المعروفون بالشجاعه والكرم والاثره، من ولد عبدالمطلب المشهور بإيمانه وعدله وشجاعته. فقد انفرد صلى الله عليه وآله بكل هذه الصفات.

الحقيقه الأخرى التي لا غبار عليها هي أنّ الأبناء من ذوى الشخصيات والأحفاد من أهل الفضائل دليل آخر على شخصيه كل إنسان وقد يما قيل (الظرف ينضح بما فيه) .

ومن هنا ذكر الإمام عليه السلام بأنّ عترته من أهل بيته من أفضل العتر وأطيبها، واسرته صلى الله عليه وآله من خير الاسر، وشجرته المباركه من أحسن الشجر: «عترته (٢) خير العتر، وأسرته خير الأسر، وشجرته خير الشجر» الشجرة التي نبتت في حرم الله الأيمن، وبسقت في سماء الكرامه والفضيله: «نبتت في حرم، وبسقت في كرم» .

وتمتاز هذه الشجرة بفروعها الطويله وثمارها الطيبه القيمه التي لا تبلغها أيادى السفله: «لها فروع طوال، وثمر لاينال» .

فالحق أنّ الإمام عليه السلام أدى حق الكلام بهذه العبارات اللطيفه الرائعه بشأن النبى الأكرم صلى الله عليه وآله وعترته الطاهره عليهم السلام، واماط اللثام عن عظمه وبركه هذه الشجرة الطيبه، ليبيّن بتشبيهات وعبارات جميله فضائله ومناقبه صلى الله عليه وآله وأهل بيته.

وقد ذهب بعض شراح نهج البلاغه إلى أنّ المراد بالحرم في قوله: «نبتت في حرم» الحرم

ص: ١٦٢

١-١) «أرومات» جمع «ارومه» بمعنى أصل الشىء وأساسه، كما تطلق على جذر الشجره.

٢-٢) «عتره» من ماده «عتر» على وزن سطر آل بيت الرجل ونسله ورهطه الأقربون، والعشيره. ومعناها الأصلي هو الأصل.

المكى، الذى نمت فيه شجره النبى صلى الله عليه وآله، وترعرعت ونمت فى ظله، بينما ذهب البعض الآخر إلى أنّ المراد بالحرم هنا العتره والحرمه؛ أى أن شجرته صلى الله عليه وآله نبتت فى غايه الحرمة والعزه، ولكن يبدو المعنى الأول أنسب.

والعبارة «بسقت فى كرم» إشاره إلى أنّ النبى صلى الله عليه وآله لم يلد فى أرض وأسرته عزيزه كريمه فحسب، بل ترعرع وتربى فى بيئته مفعمه بالكرامه والشموخ (لأن البسوق فى الأصل تعنى ارتفاع وطول فروع وأغصان النخل).

والعبارة «ثمر لاينال» لا تعنى أن يد أحد لاتصل إلى ثمار هذه الشجره المباركه؛ لأن هذه ليست فضيله، بل كما ذكرنا سابقاً إمّا ان يكون المراد أنّه لاتبلغ يد الطالحين ثمار هذه الشجره الفاضله، وإمّا أن يكون المراد أنّ ثمار هذه الشجره المباركه إلى درجه من الفضل والكرامه بحيث لايمكن أن يضافها أحد.

ويتبين ممّا ذكرنا أنّ الشجره فى العبارة الاولى إشاره إلى إبراهيم عليه السلام والأنبياء السابقين، وفى العبارة الأخرى إشاره إلى شجره وجود النبى صلى الله عليه وآله وعترته فروعها.

ثم أشار بعد ذلك بتسع عبارات فصار إلى سائر الخصال المهمه الحميده للنبى الأكرم صلى الله عليه وآله، فقال عليه السلام: «فهو إمام من اتقى وبصيره من اهتدى، سراج لمع ضؤوه، وشهاب سطع نوره، وزند [\(١\)](#) برق لمعه، سيرته القصد، وسنته الرشد، وكلامه الفصل، وحكمه العدل» فالعبارة: «إمام من اتقى...» شبيهه «هدى للمتقين» بشأن القرآن التى وردت فى الآيه الثانيه من سوره البقره. والمراد إمّا يستضيئ بنور هذا السراج الهادى والزعيم الاوحد من كانت له عين باصره وقلب واع ينشد الحقيقه والفضيله، بعبارة أخرى يتحلون بالتقوى التى تجعلهم مستعدين لقبول الحق؛ ولذلك فليس من العجيب ألايهتدى بهديه أهل التعصب والعناد والأحقاد والضغان من عمى البصائر، على غرار مكفوفى البصر الذين لا يرون الشمس فى رابعه النهار فلا يستفيدون من ضيائها، والعبارة: «سيرته القصد» شبيهه ما ورد فى القرآن الكريم: «وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا» [\(٢\)](#)، فهى إشاره إلى اعتدال سيره النبى صلى الله عليه وآله وابتعاده عن كل

ص: ١٤٣

١-١) «زند» ما تشعل به النار مثل الكبريت، أو الوسائل القديمه التى كانت توقد منها النار.

٢-٢) سوره البقره/١٤٢. [١]

افراط وتفريط في كافة الشؤون العباديه والاخلاقيه والسياسيه والاقتصاديه.

ولعل هناك من يتصور أن هناك تضاد بين العبارة «وحكمه العدل» وما ورد في الحديث الشريف عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: «إنما أفضى بينكم بالبينات والإيمان، وبعضكم ألحن بحجته من بعض؛ فأيا رجل قطعت من مال أخيه شيئاً، فإنما قطعت له به قطعه من النار». (١)

وذلك لأن النبي صلى الله عليه وآله قد يحكم بخلاف الواقع على ضوء مفهوم هذا الحديث. إلا أن الجواب على هذا الإشكال يبدو واضحاً، وهو أن النبي صلى الله عليه وآله لم يستعن في إصداره للأحكام على الوحي والغيب، وإنما يصدر أحكامه دائماً على ضوء الأدلة والمدارك المتعارفه الموجوده، وهذا بحد ذاته عين العدالة، في أن يستند القاضي إلى المدارك الموجوده في إصداره للأحكام والقضاء، فإذا كان هناك من يضعف عن بيان الحق، أو لا يستطيع أن يقدم المدارك المطلوبه فيتعرض إلى نوع من الاجحاف فإن ذلك لا يחדش البتة في عداله القاضي، ولو كان غير ذلك لما أمكن تسميته عادلاً.

ثم اختتم الإمام عليه السلام كلامه بالإشاره إلى الظروف الصعبه والملابسات التي رافقت ظهور النبي صلى الله عليه وآله ليكشف النقاب عن عظمه دعوه النبي صلى الله عليه وآله والجهود الجباره التي بذلها في هذا الشأن، فقد بعثه الله بعد مده طويله من الرسل (ومن هنا) ابتعد الناس عن العمل الصالح وعاشوا الانحراف، وساروا نحو الجهل والظلام: «أرسله على حين فتره من الرسل، وهفوه (٢) عن العمل، وغباوه (٣) من الأمم» وتتضح حقيقه هذه العبارات من خلال التأريخ البشرى إبان ظهور الدعوه الإسلاميه، ولاسيما أوضاع عرب الجاهليه. (٤)

ومن الطبيعي أن تكون وظيفه أولياء الله والمصلحين الربانيين ودعاه العدل والحق والاخلاق والفضيله أصعب وأعقد كلما كانت الظروف السائده قاسيه تدعو إلى الجهل

ص: ١٦٤

١-١) وسائل الشيعه ١٨/١٦٩ ح ١. [١]

٢-٢) «هفوه» من ماده «هفو» الزلل.

٣-٣) «غباوه» من الغباء وعدم الفهم.

٤-٤) راجع شرح الخطبه الاولى ١/٢٢٨.

والبلاذ والفساد والانحراف، ومن هنا نكتشف عظمه النبي صلى الله عليه وآله وعظم جهوده في تغيير ذلك المجتمع.

تأملان

١ - منزله النبي صلى الله عليه وآله لدى الآخرين

لا يقتصر ماورد في هذه الخطبه من صفات عاليات وكرامات شامخات للنبي صلى الله عليه وآله على عليه السلام واتباعه، بل اننا لنرى حتى كبار الشخصيات الغربيه من غير المسلمين ليقفون وقفه إجلال وإكبار لنبي الإسلام صلى الله عليه وآله.

فهذا الفيلسوف والكاتب الانجليزى برناردشو يقول: إن دين محمد هو الدين الوحيد الذى يلوح لى أنه حائز على أهليه الهضم لأطوار الحياه المختلفه بحيث يستطيع أن يكون جاذباً لكل جيل... أن محمداً يجب أن يدعى منقذ الإنسانية، وأعتقد أنه لو تولى رجل مثله زعامه العالم الحديث لنجح فى حل مشاكله بطريقه تجلب إلى العالم السعاده والسلام، أن محمداً أكمل البشر من السابقين والحاضرين، ولا يتصور وجود مثله فى الآتين. (١)

٢ - أسره النبي صلى الله عليه وآله

لم يقتصر الحديث عن شرف نسب النبي صلى الله عليه وآله وعظمه طائفته وأسرته على ماورد فى كلام أميرالمومنين على عليه السلام فى هذه الخطبه، بل تضافرت أحاديث النبي صلى الله عليه وآله فى مصادر الفريقين بهذا الشأن. ومن ذلك أنه صلى الله عليه وآله قال: «إن جبرائيل عليه السلام قال لى: يا محمد! قد طفت الأرض شرقاً وغرباً، فلم أجد فيها أكرم منك، ولا بيتاً أكرم من بنى هاشم» (٢). وجاء فى حديث آخر: «ساده أهل المحشر ساده أهل الدنيا: أنا وعلى وحسن وحسين وحمزه وجعفر» (٣). وورد فى الحديث أيضاً: «أنه لايبغض أحد أهلى إلّا حرمه الله الجنه» (٤). وروى عن عائشه أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «قال لى جبرائيل: يا محمد! طفت شرق الأرض وغربها فلم أر أكرم من بنى هاشم» (٥)، وجاء فى صحيح مسلم - وهو من المصادر المشهوره لدى العامه - فى بحث

ص: ١٦٥

١-١) محمد جواد مغنيه، فى ظلال نهج البلاغه ١/٦٣. [١]

٢-٢) شرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد ٧/٦٣. [٢]

٣-٣) شرح نهج البلاغه، لابن أبى الحديد ٧/٦٣. [٣]

٤-٤) شرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد ٧/٦٤. [٤]

٥-٥) ورد الحديث فى عمده ابن بطريق ٢٧٣؛ فضائل الصحابه لأحمد بن حنبل ٢/٦٢٨.

فضائل الصحابه فى قضيه الغدير أن النبى صلى الله عليه وآله قال فى خطبته ثلاثاً: «اذكر كم الله فى أهل بيتى» (١).

والطريف فى الأمر أنّ الإمام الحافظ أبو العباس أحمد بن عمر بن إبراهيم القرطبى - من مشاهير علماء العامه - صرح فى كتابه المفهم الذى شرح فيه صحيح مسلم حين بلغ هذا الحديث قائلاً: من العجب أن يخالف بنى أميه أهل بيت النبى صلى الله عليه وآله ويضيعوا حقهم رغم وصايا النبى صلى الله عليه وآله بهم، حتى أراقوا دمائهم وسبوا نساءهم وأخربوا بيوتهم وسنوا لعنهم. فويل لهم يوم القيامة. (٢)

والأعجب من ذلك دفاع البعض عن معاويه رغم فضائح بنى أميه ومدى سعه ظلمهم وجورهم.

على كل حال فإنّ شجره النبى صلى الله عليه وآله وفروعها المباركه مصداق واضح للآيه ٢٤ و ٢٥ من سوره ابراهيم: «كَشَجَرِهِ طَيْبِهِ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ* تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا» .

ونختتم حديثنا هذا بهذه الأبيات الرائعه (٣): يا حبذا دوحه فى الخلد نابته

ص: ١٦٦

١-١) صحيح مسلم ٤/١٨٧٣ (كتاب فضائل الصحابه، ح ٣٦) .

٢-٢) المفهم ٦/٣٠٤ .

٣-٣) منهاج البراعه ٧/١١٠ .

«اعْمَلُوا رَحِمَكُمُ اللَّهُ، عَلَى أَعْلَامٍ بَيْنَهُ، فَالطَّرِيقُ نَهْجٌ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ، وَأَنْتُمْ فِي دَارٍ مُسْتَعْتَبٍ عَلَى مَهْلٍ وَفَرَاغٍ، وَالصُّحُفُ مَنْشُورَةٌ، وَالْأَقْلَامُ جَارِيَةٌ، وَالْأَبْدَانُ صَحِيحَةٌ، وَالْأَلْسُنُ مُطْلَقَةٌ، وَالتَّوْبَةُ مَسْمُوعَةٌ، وَالْأَعْمَالُ مَقْبُولَةٌ» .

الشرح والتفسير

خاض الإمام عليه السلام في المقطع الأخير من الخطبه بالنتيجه الأخلاقيه والعملية، ليبيّن بعض الأمور المفيده والمهمه بعبارات قصيره، عظيمه المعنى. فقال عليه السلام: «اعملوا رحمكم الله»، ثم أشار عليه السلام إلى المسير الذي ينبغي سلوكه في العمل وهو الاستناد إلى الكتاب والسنة «على أعلام بينه» .

ثم أشار عليه السلام إلى أنّ تشخيص هذا المسير ليس بالشىء الصعب فالسبيل واضح يدعو إلى الأمن والأمان والسعاده الخالده في الجنّة: «فالطريق نهج يدعو إلى دار السلام» .

ثم تطرق عليه السلام إلى الفرص الثمينه التي زود بها الإنسان، وغالباً ما يهملها، ليوضحها عليه السلام بثمان عبارات ويكشف جميع جوانبها، أشار في العبارة الاولى إلى أنّكم في دار يمكنكم فيها تلافى ما يفرط منكم: «وأنتم في دار مستعتب» . (1)

ولديكم الفرصه الكافيه والمهله الوافيه للقيام بالصالحات من الأعمال: «على مهل وفراغ» .

ص: ١٤٧

١-١) مستعتب من ماله عتب على وزن حتم طلب العتبي، أى طلب الرضى من الله بالأعمال النافعه.

وصحيفه الأعمال مفتوحه والقلم مشرع للكتابه: «والصحف منشوره والاقلام جاريه» .

وانتم فى صحه وعافيه والسن حاكيه: «والأبدان صحيفه والألسن مطلقه» . ومن ثم: «التوبه مسموعه، والأعمال مقبوله» .

فوسائل السعاده وأسبابها متوفره من جانب، وموانع الطريق يمكن ازالتها من جانب آخر؛ فاذا لم تستثمر هذه الفرص. فإن الأمر يدعو للآسى والأسف حقاً. ولاسيما ليس هنالك من ضمانه باستمرار هذه الفرض. فلعل جميعها تنتهى بلحظه، فتغلق أبواب التوبه وتختتم صحيفه الأعمال، وتتوقف الأقلام عن الكتابه، ويعتل البدن، ويعقد اللسان دون أن يكون هناك أى سبيل إلى الرجعه؛ الأمر الذى حذر منه القرآن أن ليس للندم من جدوى بعد الموت ولا سبيل لسؤال الرجعه: «وَأَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ» فيأتى الجواب: «وَلَنْ يُؤَخَّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجْلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ» . (١)

ص: ١٤٨

ومن خطبه له عليه السلام

يقرر فضيله الرسول الكريم صلى الله عليه و آله

نظره إلى الخطبه

الهدف من هذه الخطبه ذكر عظمه الإسلام من جانب، وعظمه من حمل رسالته من جانب آخر. وذلك لأن الخطبه اشتملت على مقارنه لاوضاع الناس قبل الإسلام وبعده؛ ويفهم من هذه المقارنه عظمه جهود النبي صلى الله عليه و آله التي استطاعت أن تنهض بذلك المجتمع الجاهلى المنحط وتجعله مجتمعاً راقياً متطوراً.

ص: ١٦٩

١-١) سند الخطبه: لم يذكر صاحب مصادر نهج البلاغه مصدراً آخر نقل هذه الخطبه، وقال فى نقل ابن أبى الحديد اختلاف وهذا دليل على أنه قرأها فى غير نهج البلاغه، لأن الرضى (ره) لم يشر إلى ذلك (مصادر نهج البلاغه ٢/١٨٦). [١]

«بَعَثَهُ وَالنَّاسُ ضَلَّالًا فِي حَيْرِهِ، وَحَاطِبُونَ فِي فِتْنِهِ، قَدْ اسْتَهْوَتْهُمْ الْأَهْوَاءُ، وَاسْتَزَلَّتْهُمْ الْكِبْرِيَاءُ، وَاسْتَخَفَّتْهُمْ الْجَاهِلِيَّةُ الْجَهْلَاءُ؛ حَيَارَى فِي زَلْزَالٍ مِنَ الْأَمْرِ، وَبَلَاءٍ مِنَ الْجَهْلِ، فَبَالَغَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فِي النَّصِيحَةِ، وَمَضَى عَلَى الطَّرِيقَةِ، وَدَعَا إِلَى الْحِكْمَةِ، وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ» .

الشرح والتفسير

النور الذي كشف الظلمه

خاض الإمام عليه السلام كراماً في خطبه في نهج البلاغه بشأن أوضاع الجاهليه التي كانت عليها العرب، حيث رسم صورته واضحه عن دقائق تلك الفتره، ليلتفت الناس في عصر الإمام عليه السلام ممن لم يدرك ذلك العهد إلى عظمه الدعوه الإسلاميه، وليعلموا حجم التغيير الذي حدث في المجتمع، فيتعرفوا أكثر على منزله النبي صلى الله عليه وآله وعظم قدره؛ وذلك لأن مثل هذا العمل الجبار إنما يتطلب إرادته حديديه وعزماً راسخاً وتديباً عالياً وبرامج وخطط واضحه، جمعت كلها في شخص النبي صلى الله عليه وآله. فقد بين الإمام عليه السلام وضع العصر الجاهلي بسبع عبارات، أشار في العبارة الاولى والثانيه إلى أن الله بعث النبي صلى الله عليه وآله حين كان الناس يعيشون الحيره والضلال ويسبحون في بحر من الفتن: «بعثه والناس ضلال في حيره، وحاطبون في فتنه» .

لا- شك أن الإنسان يمكنه أن ينقذ نفسه من الضلاله ما لم تكن مقرونه بالحيره والتخبط كالذي ضل الطريق ثم اكتشفه من خلال بعض القرائن والعلامات؛ إلا أن المشكله تبدو معقده إذا اقترنت الضلاله بالحيره، وهذا هو الوضع الذي كان عليه الناس في الجاهليه. والحاطب تطلق على من يجمع الحطب. فالناس في عصر الجاهليه وفي ذات الوقت الذي يعيشون فيه الفتن، كان يزيدون من حطب نيران هذه الفتن.

ثم قال عليه السلام في العبارة الثالثه والرابعه: «قد استهوتهم الأهواء، واستنزلتهم الكبرياء» .

فمن البديهي أن تقود الأهواء المجتمع إلى مستنقع الضلاله، فاذا رافقها العجب والخيلاء لسقط في ذلك المستنقع.

ثم قال عليه السلام: «واستخفتهم الجاهليه الجهلاء، حيارى في زلزال من الأمر، وبلاء من الجهل» .

وهكذا يتجسم بؤس هؤلاء القوم وشقائهم في الجهل والضلال والأهواء والافتتان والتكبر؛ الرذائل التي تكفى كل واحده منها في سقوط المجتمع، فضلا عن جمعها مع بعضها فيه. ومن هنا يتبين مدى حجم مشاكل عصر الجاهليه وتعقيدها وتهديدها للمجتمع، كما يتضح على سبيل اليقين أنّ من يتغلب عليها، إنّما استند إلى التأييد الإلهي والغيب والامداد.

ثم أشار عليه السلام في آخر الخطبه إلى جهود النبي صلى الله عليه وآله ومدى نصحه للقوم بذلك الأسلوب الروحي الذي يستند إلى الوحي السماوي حتى نفذ إلى القلوب: «فبالغ في النصيحه، ومضى على الطريقه، ودعا إلى الحكمه والموعظه الحسنه» .

فالواقع أن عناصر تقدم البعثه النبويه والتطور الذي أحرزه النبي صلى الله عليه وآله على صعيد الرساله إنّما يكمن في أربع: الأول: النصح وإرادته الخير، بحيث أيقن الناس أنه يسعى جاهداً من أجل نجاتهم. الثاني: كان ممن قرن القول بالعمل، فيأتمربما يأمر وينتهى عما ينهى.

الثالث: قد دعا اولئك الناس الذين أصيبوا بالجهل والخرافه والحيره والضلال إلى العلم والمعرفه. وأخيراً كان يدعوا إلى ربّه بالحكمه والموعظه الحسنه والكلمات الرقيقه التي تخترق القلوب.

وقد ذكر البعض من شراح نهج البلاغه تفسيراً آخر للعبارتين الأخيرتين، وهو أنّ النبي صلى الله عليه وآله كان يدعو الناس إلى الله بالحكمه والموعظه الحسنه، كما ورد ذلك في الآيه الشريفه: «أُدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ» (١)(٢).

إلّا أنّ التفسير الأول يبدو أنسب من خلال الالتفات إلى العبارات السابقه التي اعتبر

ص: ١٧٢

١-١ (١) سورة النحل/١٢٥. [١]

٢-٢ (٢) بحسب هذا التفسير فان «إلى» جاءت بمعنى «به»، أو أن الذي يأتي بعد «إلى» يجب ان يكون مقدراً، «إلى ربه بالحكمه» .

الإمام عليه السلام عامل بؤسهم يكمن في: «الجاهلية الجهلاء» و «بلاء من الجهل» .

على كل حال فإن ماورد في هذه الخطبه بشأن الأوضاع المأساويه والظروف الشائكه والفضائع التي سادت العصر الجاهلي، تدعو الإنسان إلى التفكير والتأمل، حيث يمكنه الوقوف على عمق هذه المسأله من خلال الرجوع إلى التواريخ والروايات والأخبار التي تناولت تلك الفتره، فهناك المصادر الكافيه التي أشارت إلى هذا الأمر. ولما كانت مقارنه تلك الاوضاع والظروف بما حدث بعد انبثاق الدعوه الإسلاميه ونهوض رسول الله صلى الله عليه وآله بالأمر والتي تعدّ من معاجز التأريخ الإسلامى، يبدو من الضرورى تسليط الضوء أكثر على هذا الموضوع ودراسته من قبل الجميع، ولا سيما من قبل شريحه الشباب.

هذا وقد قدمنا شرحاً مفصلاً بهذا الشأن فى الخطبه الاولى من المجلد الأول، والخطبه ٣٦ و٣٣ من المجلد الثانى، ولا نرى هنا من ضروره للتكرار، إلّا أنا نوصى القراء الأعزاء بالرجوع مره أخرى إلى هذه الخطب.

ص: ١٧٣

ومن خطبه له عليه السلام

فى الله وفى الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله

نظره إلى الخطبه

بحث الإمام عليه السلام بصوره رئيسيه فى هذه الخطبه أمرين:

الأول: إشاره إلى بعض أسماء الله الحسنى والثناء عليه بها.

الثانى: بيان بعض مناقب النبى الأكرم صلى الله عليه و آله وفضائله، إلى جانب الحديث عن نسبه الشريف ومن ثم نهضته الباسله التى قبرت الفتنة وأطفأت نيران الأحقاد وحصدت الضغائن من القلوب.

ص: ١٧٥

١-١) سند الخطبه: لم نعثر على سند لهذه الخطبه سوى أنّها وردت فى نهج البلاغه.

«الْحَمْدُ لِلَّهِ الْأَوَّلِ فَلَاشِيءَ قَبْلَهُ، وَالْآخِرِ فَلَاشِيءَ بَعْدَهُ، وَالظَّاهِرِ فَلَاشِيءَ فَوْقَهُ، وَالْبَاطِنِ فَلَاشِيءَ دُونَهُ» .

الشرح والتفسير

كما ذكر سابقاً فإنَّ الإمام عليه السلام أشار في هذا المقطع من الخطبه إلى بعض صفات الله وأسمائه الحسنی، وقدر كز على كونه أول وآخر وظاهر وباطن، فحمد الله وأثنى عليه في أنه أول الوجود الذي لم يسبقه شيء، والآخِر الذين لا شيء بعده: «الحمد لله الأول فلا شيء قبله، والآخِر فلا شيء بعده» .

وهو الظاهر الذي لا يوجد أظهر منه، والباطن الذي لا يوجد أخفى منه: «والظاهر فلا شيء فوقه، والباطن فلا شيء دونه» .

فأوليه وآخريه الحق سبحانه وتعالى تعنى أزليه الذات المطهره و أبديتها؛ لأن أوليته لا تعنى الابتداء الزمانى، حيث لو كان الأمر كذلك لحصر فى دائره الزمان، كما ليس كذلك من حيث المكان، لأنه لو كان كذلك لحد بدائره المكان، بل أوليته تعنى أن ذاته الأزليه القدسيه مصدر جميع الوجودات، وقد نشأت منها كافه الموجودات. وهكذا تكون آخريته منزّهه عن الأخرويه الزمانيه والمكانيه، والمراد منها أنّ ذاته سبحانه أبديّه، وبقاء الموجودات متوقف على بقاءه، ومن ثم بقاءه حين فناء كل شيء: «كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَإِنَّ * وَيَبْقَى وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ» (١).

ص: ١٧٧

وزبده الكلام فهو أول عالم الوجود وهو الباقي بعد فناء العالم.

أمّا وصفه بالظاهر والباطن فهو تعبير عن إحاطته المطلقة بجميع الأشياء، فهو أظهر من كل شيء، لأن آثاره ملأت أركان كل شيء وغص بها العالم، وهو أخفى من كل شيء، لأن كنه ذاته ليس بمعروف!

وقد أورد بعض الشراح تفاسير أخرى للظاهر والباطن، منها أنّ المراد بالظاهر الغالب على كل شيء ولا يغلبه شيء، كما قيل المراد بالظاهر أفضليته على جميع الأشياء؛ لكن على ضوء هذين التفسيرين لا يبدو تفسير مفهوم الباطن بقرينه المقابلة واضحاً مستقيماً، ومن هنا فإنّ التفسير الأول أنسب. في أنّه ظاهر جلي من حيث آثاره الوجودية بحيث لا يضاهيه شيء؛ فقد ملأت آثاره الأرض والسماء والنبات والحيوانات والناس والبحار والقفار، مع ذلك فإن كنه ذاته على درجه من الخفاء بحيث لا يبلغ أحداً معرفه تلك الذات، فالإنسان متناه وذاته سبحانه ليست متناهيه، فأنّى للمتناهى أن يحيط باللامتناهى.

فقد ورد في الدعا المعروف للإمام الحسين عليه السلام المعروف بدعاء عرفه: «متى غبت حتى تحتاج إلى دليل يدل عليك ومتى بعدت حتى تكون الآثار هي التي توصل إليك، عميت عين لا تراك عليها رقيباً».

ص: ١٧٨

القسم الثاني: كلامه بيان وصمته لسان

ومنها: في ذكر الرسول صلى الله عليه وآله

«مُسْتَقَرُّهُ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا، وَمَنْبَتُهُ أَشْرَفُ مَنْبَتٍ، فِي مَعَادِنِ الْكِرَامِ، وَمَمَاهِدِ السَّلَامِ؛ قَدْ صُرِفَتْ نَحْوُهُ أَفْنِدَهُ الْأَبْرَارِ، وَتُبِيَتْ إِلَيْهِ أَرْزَمَةُ الْأَبْصَارِ، دَفِنَ اللَّهُ بِهِ الضَّعَائِنَ، وَأَطْفَأَ بِهِ النَّوَائِرَ، أَلْفَ بِهِ إِخْوَانًا، وَفَرَّقَ بِهِ أَقْرَانًا، أَعَزَّ بِهِ الذُّلَّةَ، وَأَذَلَّ بِهِ الْعِزَّةَ، كَلَامُهُ بَيَانٌ، وَصِيْمَتُهُ لِسَانٌ» .

الشرح والتفسير

بين الإمام عليه السلام في هذا الكلام بعض صفات رسول الله صلى الله عليه وآله كل واحده منها أعمق من سابقتها. وقد انطلق في البدايه من جذوره العريقه وموقع ولادته، ليصف مستقره بأنه خير مستقر ومكان ترعرعه أفضل مكان: «مستقره خير مستقر، ومنبته أشرف منبت، في معادن الكرامه، ومماهد (1) السلامه» .

والمراد بالمستقر والمنبت الأرحام المطهره للامهات والاصلاب الموحده والمؤمنه للآباء؛ الأمر الذي ورد في زياره المعصومين عليهم السلام، ومنها زياره الإمام الحسين عليه السلام المعروفه بزياره وارث: «أشهد أنك كنت نورا في الاصلاب الشامخه، والأرحام المطهره» .

وقد ورد مثل هذا المعنى في رسول الله صلى الله عليه وآله عنه، حيث روى الفخر الرازي في تفسير الآيه

ص: ١٧٩

١- ١) «مماهد» جمع «ممهده» على وزن مكتب اقتبست في الأصل من «مهده»، ثم اطلقت على كل مكان يستريح فيه الإنسان أو تسكن إليه روحه.

«وَتَقَلَّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ» (١) أنه صلى الله عليه وآله قال: «لم أزل أنقل من أصلاب الطاهرين إلى أرحام الطاهرات» (٢). «معادن الكرامه» و «مماهد السلامه» تأكيد لهذا المعنى، أو إشاره إلى أن آباء النبي صلى الله عليه وآله وأمهاته إضافه إلى الطهر والإيمان، يتحلون بالفضائل الإنسانيه والنزاهه من المعايير الأخلاقيه.

كما قيل المراد بالمستقر المدينه موضع إقامه النبي صلى الله عليه وآله والمنبت مكه مكان ولادته.

إلا أن التفسير الأول أنسب، ولا سيما بالالتفات إلى العبارة: «في معادن الكرامه، ومماهد السلامه» .

ثم خاض عليه السلام في خلقه الجذاب صلى الله عليه وآله الذي استقطب القلوب وخطف الأبصار وشدها إليه: «قد صرفت نحوه أفنده الأبرار، وثبتت (٣) إليه أزمه الأبصار» .

حقاً كان رسول الله صلى الله عليه وآله كذلك فقد استطاع بخلقته وتواضعه وشفقته وعفوه وصفحه المقرون بشجاعته وشهامته أن يستقطب إليه القلوب كما استطاع أن يشد إليه الأبصار بجهوده المضنيه في سبيل هدايه الأمه والأخذ بيدها إلى السعاده والصلاح.

ثم أشار عليه السلام في هذه المرحله إلى بعض الأنشطة الاجتماعيه للنبي الأكرم صلى الله عليه وآله ومنها ازالة الاضغان الاحقاد، وأطفا به نيران الفتن والعدوان: «دفن الله به الضغائن (٤)، وأطفا به الثوائر (٥)» .

أضف إلى ذلك فقد ألف به القلوب وآخى به الناس، كما فرق البعض بسبب التعارض بين الإيمان والكفر: «ألف به إخوانا، وفرق به أقراناً» ، كما صرح بذلك القرآن الكريم في الآيه ٦٢ و٦٣ من سورة انفال: «هُوَ الَّذِي أُيِّدَكَ بِنَصِيرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ * وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ» ،

ص: ١٨٠

١- ١) سورة الشعراء/٢١٩. [١]

٢- ٢) تفسير الفخر الرازي ٢٤/١٧٤، [٢] كما نقل المرحوم العلامة الأميني عده روايات بهذا الشأن في بحار الانوار ١٥/٣. [٣]

٣- ٣) «ثبتت» من ماده «ثنى» بمعنى الاعاده ووردت هنا بمعنى الانتباه.

٤- ٤) «ضغائن» جمع «ضغينه» البغض والعداء.

٥- ٥) «ثوائر» جمع «ثائره» الفتنه والعداء.

وقال فى الآيه ١٠٣ من سوره آل عمران «وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً» .

ثم أشار عليه السلام إلى لطف آخر من الألفاظ الإلهيه ببركه وجود النبى صلى الله عليه و آله: «أعز به الذله، وأذل به العزه» .

فقد أعز الله ببركه نبيه صلى الله عليه و آله تلك الثله المؤمنه التى وقعت فى مخالاب الكفر، وفوض اليهم إرادته شؤون المجتمع الإسلامى، وأقصى تلك العناصر الفاسده عن الساحه، ثم اختتم كلامه عليه السلام بالاشاره إلى أبرز صفاته صلى الله عليه و آله: «كلامه بيان، وصمته لسان» .

فاذا نطق صلى الله عليه و آله تفتق لسانه باسرار الحكمه وبيان حقائق الوحى، وكشف النقاب عن سبيل النجاه، ومهوى الردى ومستنقع السقوط، وأن سكت وصمت، فكان سكوته يختزن المعنى والمفهوم ولم يكن صمناً طبيعياً.

نعم كان سكوته أحياناً تعبيراً عن انزعاجه وقلقه وعدم رضاه ببعض الأفعال، كما كان يرد بهذا السكوت على بعض الأسئلة غير الموجهه والخاطئه. وأخيراً كان يستعين بهذا الصمت تجاه سوء ألسنه الجهال. كما لانسى أن سكوته أحياناً (ومن خلال بعض القرائن الحاليه) كان يعنى تقرير بعض الأعمال والمواقفه عليها) .

ومن خطبه له عليه السلام

في اصحابه، واصحاب رسول الله صلى الله عليه و آله

نظره إلى الخطبه

قيل في الخطبه أنّها وردت - كما ذكر شرّاح نهج البلاغه - حين تمرد جيش الكوفه على أوامر الإمام عليه السلام بمجابهه أهل الشام بعد واقعه النهروان، فقد عرض عليه السلام في القسم الأول من هذه الخطبه بالذم لأهل الكوفه وعنّفهم أشدّ التعنيف أملاً في إثارة حميتهم وغيرتهم ليتأهبوا للقاء العدو، بعد إفاقتهم من نوم الغفله والالتفات إلى مقدراتهم خشيّه نهبها من قبل الظلمه.

ثم دعاهم في القسم الثاني من الخطبه إلى إقتفاء آثار أهل البيت واتباعهم بفضلهم سبل النجاه، والواقع هو أنّه عليه السلام قد ذكرهم بمضمون ومحتوى حديث الثقلين.

ثم اختتم عليه السلام الخطبه بالمقارنه بين أهل الكوفه وأصحاب رسول الله صلى الله عليه و آله، حيث وضح عليه السلام من خلال هذه المقارنه عمق الهوه بين هؤلاء وأصحاب النبي صلى الله عليه و آله من حيث الإيمان والورع والتقوى والعباره والجهاد والاستقامه والصمود والشجاعه، ومن الواضح أنّ الخطبه بجميع أقسامها إنّما تنشده هدفاً واحداً، وهو تعبئه جيش الكوفه لمواجهة العدو؛ العدو الذي لا يابه بالدين والدنيا ولا يقيم وزناً لأي شيء.

ص: ١٨٣

١ - ١) سند الخطبه: ما أورده المرحوم السيد الرضى (ره) في هذه الخطبه جزءاً من خطبه طويله نقلت بصوره متفرقه في عده مصادر، ومن ذلك في كتاب سليم بن قيس الهلالي والكافي للمرحوم الكليني والإرشاد للمفيد والتذكرة للسبط ابن الجوزي وتاريخ دمشق لابن عساكر والبيان والتبيين للجاحظ (مصادر نهج البلاغه ٢/١٩٢). ونهج البلاغه طبعه جماعه مدرسي الحوزه ذيل الخطبه).

«وَلَيْتَنَّا مَهَلَّ الظَّالِمَ فَلَن يَفُوتَ أَخْذَهُ، وَهُوَ لَهُ بِالْمَرْصَادِ عَلَى مَجَازِ طَرِيقِهِ، وَيَمَوْضِعِ الشَّجَا مِنْ مَسَاغِ رِيقِهِ. أَمَا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَيُظْهِرَنَّ هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ عَلَيْكُمْ، لَيْسَ لِأَتْنَهُمْ أَوْلَى بِالْحَقِّ مِنْكُمْ، وَلَكِنْ لِأَسِيرَاعِهِمْ إِلَى بَاطِلِ صِدَاجِهِمْ، وَإِطْطَائِكُمْ عَنْ حَقِّي. وَلَقَدْ أَصِيبَتْ الأُمَّمُ تَخَافُ ظُلْمَ رُعَاتِيهَا، وَأَصِيبَتْ أَخَافُ ظُلْمَ رَعِيَّتِي. اسْتَنْفَرْتُكُمْ لِلْجِهَادِ فَلَمَّ تَنْفَرُوا، وَأَسِيبَتْكُمْ فَلَمَّ تَسْمَعُوا، وَدَعَوْتُكُمْ سِرًّا وَجَهْرًا فَلَمَّ تَسْتَجِيبُوا، وَنَصَيْتُكُمْ لَكُمْ فَلَمَّ تَقْبَلُوا، أَشْهُودُ كَعِيَابِ، وَعَبِيدُ كَأَرْبَابِ! أَتَلُوا عَلَيْكُمْ الْحِكْمَ فَتَنْفَرُونَ مِنْهَا، وَأَعْظُمُكُمْ بِالْمَوْعِظَةِ الْبَالِغَةِ فَتَنْفَرُونَ عَنْهَا، وَأَحْشُكُمْ عَلَى جِهَادِ أَهْلِ الْبَغْيِ فَمَا آتَى عَلَى آخِرِ قَوْلِي حَتَّى أَرَكُمْ مُتَفَرِّقِينَ أَيَادِي سَبَا. تَرْجِعُونَ إِلَى مَجَالِسِكُمْ، وَتَتَّخِذُونَ عَنْ مَوَاعِظِكُمْ، أَقْوَمُكُمْ غُدْوَةً، وَتَرْجِعُونَ إِلَيَّ عَشِيَّةً، كَظَهْرِ الْحَيْثِيَّةِ، عَجَزَ الْمُقَوْمُ، وَأَعْضَلَ الْمُقَوْمُ» .

الشرح والتفسير

كما أشرنا في السابق - نظره إلى الخطبه - إلى أنّ الهدف من هذه الخطبه هو حث أهل العراق لمواجهه معاويه وأهل الشام. فقد استهل الإمام عليه السلام خطبته بأنّ إمهال الظالم مده من الزمان لا يعنى خلاصه من المؤاخذه والعقاب: «ولئن أمهل الظالم فلن يفوت أخذه» .

فقد كمن له سبحانه بالمرصاد، وإذا شاء منعه ابتلاع ريقه: «وهو له بالمرصاد على مجاز

طريقه، وبموضع الشجاء (١) من مساع (٢) ريقه (٣) لعل هذه العبارات إشارة إلى معاويه وأهل الشام، حذراً من تسرب الشك والريب إلى قلوب أصحابه بسبب إمهال الله لهم، كما لا يشكوا بأحقية الإمام عليه السلام وبطلان معاويه، فالواقع أن الإمام عليه السلام رام رافع معنويات جيشه بالفات نظره إلى هذه الحقائق. كما يحتمل أن يكون المراد بالظالم ذلك الجيش المتمرد، فالواقع عبارته تهديد لهم بأنكم إن أمهلتهم عدّه أيام فلا يغرنكم ذلك أنكم ستفوتون من العذاب والمؤاخذة بسبب هذا العصيان والتمرد، ويبدو التفسير الأول أنسب.

على كل حال، هذا هو الأمر الذي أشار إليه القرآن الكريم كراراً بقوله: «وَلَا يَحْسِبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُثَمِّلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُثَمِّلِي لَهُمْ لِيُزِدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ» (٤). وقال في موضع آخر «إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ» (٥).

ولا يصدق هذا الموضوع أو يقتصر على ظلمه الشام أو مرده العراق فحسب، بل هو درس وعبره لنا جميعاً، بأن المهله الإلهيه لا ينبغي أن تقود إلى الغفله والغرور.

ورد في حديث عن الإمام الصادق عليه السلام قال: أن الله تبارك وتعالى أهبط ملكاً إلى الأرض، فلبث فيها دهرًا طويلاً، ثم عرج إلى السماء، فقيل له: ما رأيت؟ قال: رأيت عجائب كثيرة، وأعجب ما رأيت أنى رأيت عبداً مثقلاً في نعمتك، يأكل رزقك، ويدعى الربوبيه، فعجبت من جرئته عليك ومن حلمك عنه. فقال الله جل جلاله: فمن حلمى عجبت؟ قال: نعم.

قال: قد أمهلته أربعمائ سنه لا يضرب عليه عرق، ولا يريد من الدنيا شيئاً إلاناله، ولا يتغير عليه فيها مطعم ولا مشرب. (٦)

ص: ١٨٦

١-١) «الشجاء» ما يعترض في الحلق من عظم وغيره.

٢-٢) «مساع» من ماده «سوغ» على وزن فوق العذب

٣-٣) «ريق» ماء الفم.

٤-٤) سوره آل عمران/١٧٨. [١]

٥-٥) سوره الفجر/١٤. [٢]

٦-٦) بحار الانوار ٧٠/٣٨١. [٣]

وبالطبع فإن كل ذلك اختبار له وللعباد.

ثم تكهن الإمام عليه السلام بمستقبل هؤلاء القوم إزاء عدوهم الطامع قائلاً: «أما والذي نفسى بيده، ليظهرن هؤلاء القوم عليكم، ليس لأنهم أولى بالحق منكم، ولكن لاسراعهم إلى باطل صاحبهم، وإبطائكم عن حقي» .

فالواقع هو أن الإمام عليه السلام أشار إلى نقطه مهمه هنا وهي أن هؤلاء القوم سيتغلبون عليكم آخر الأمر، ولكن لاتظنوا أن هذه الغلبة نابعه من كونهم على الحق. فلا ينبغي أن يعتقد أحد بأنهم على الحق فيؤدى به ذلك إلى الضلال. قطعاً أنهم على باطل، إلّا أنهم راسخون فى هذا الباطل عاقدون العزم عليه وهم آذان صاغية لمعاويه؛ أما أنتم وإن كنتم على حق، إلّا أنكم ضعفاء، ليس لكم من عزم أو اراده، ولا تعيرون زعيمكم اذناً صاغية، فدرجتم على التمرد والعصيان، فاذا جمعت هذه الصفات فى شخص أو أمه مهما كانت فسوف لن يكون مصيرها سوى الهزيمة والفشل.

فقد روى أبو مخنف فى قصه يوم الحره: أن مسلم بن عقبه ركب فرساً فأخذ يسير فى أهل الشام ويحرضهم ويقول: يا أهل الشام أنكم لستم بأفضل العرب فى أحسابها ولا أنسابها، ولا أكثرها عدداً ولا أوسعها بلداً، ولم يخصصكم الله بالذى خصكم به من النصر على أعدائكم، وحسن المنزله عند أئمتكم إلباطاعتكم واستقامتكم. (١)

ثم أشار عليه السلام إلى نقطه مهمه بهذا الشأن: «ولقد أصبحت الأمم تخاف ظلم رعاتها، وأصبحت أخاف ظلم رعيتي» .

فالأمم والشعوب طيله التاريخ إنما تشكو ظلم وجور حكوماتها المستبده الطاغية، بحيث أصبح هذا أمراً طبيعياً، بينما انقلبت هذه المسأله بالنسبه للإمام عليه السلام فهى على العكس تماماً! لم يكن هناك من يخشى ظلمه عليه السلام، فلم يكن للظلم والجور من سبيل إلى وجوده عليه السلام، فى حين كان هو عليه السلام يعيش حاله القلق والاضطراب من غدر أصحابه ومكائدهم وما شاكل ذلك؛ والحق أن مثل هؤلاء الأفراد إنما يتلون عاقبه الأمر بالطغاه فيذيقوهم أنواع الظلم، وهذا ماحدث بالفعل، ثم تطرق عليه السلام إلى نقاط ضعف أهل الكوفه والعراق آنذاك فقال: «استنفرتكم للجهاد فلم تنفروا، واسمعتكم فلم تسمعوا، ودعوتكم سرا وجهراً فلم تستجيبوا، ونصحت لكم فلم تقبلوا» .

ص: ١٨٧

(١-١) أبو مخنف، طبق نقل شرح نهج البلاغه للمرحوم التستري ١٠/٥٩٦.

والسؤال المطروح: هل كان جيش العراق يشعر بالخطر، إلّا أنّ الضعف والتقاعس يثبطه بعدم مواجهه العدو؟ أم أنه لم يكن يشعر بخطر من معاويه وأهل الشام؟ الاحتمالان قائمان، إلى جانب الخوف والجبن والجهل والاختلافات القبليه.

انذاك خاطبهم عليه السلام بعبارات عنيفه - تشير غيره من كان له أدنى غيره ورجوله - بغيه آثارتهم ودفعتهم للنهوض والحركه، فقال عليه السلام: «أشهود كغياب، وعبيد كأرياب، أتلو عليكم الحكم فتنفرون منها، وأعظكم بالموعظه البالغه فتتفرقون عنها، وأحثكم على جهاد أهل البغي فما أتى على آخر قولى حتى أراكم متفرقين أيادى سبا» .

«أيادى سبا» وبعبارة أخرى «مثل أيادى سبا» إشاره إلى مثل معروف بين العرب يضرب للمتفرقين، وقيل أنّ سباً هو أبو عرب اليمن كان له عشره أولاد، جعل منهم سته يميناً له، وأربعة شمالاً تشبها لهم باليدين، ثم تفرق أولئك الأولاد أشد التفرق. (١)

على كل حال فإنّ عبارات الإمام عليه السلام تفيد أنه عليه السلام نصحهم بأدنى الأمر بكلمات حكيمة ومواعظ حسنه، وقد بالغ فى مداراتهم، وما ورد من كلمات عنيفه وحاده تضمنتها بعض عبارات الخطبه فإنّما كانت عقب تلك الكلمات التى تضمنت الوعظ والنصح، هذا فى الوقت الذى كان الطرف الآخر يمتاز بالفضاذه واللجاجه بحيث لا تجعلهم يفيقون من غفلتهم إلّا كلمات الذم والتوبيخ والعتاب.

ثم قال عليه السلام: «ترجعون إلى مجالسكم، وتتخادعون عن مواعظكم، أقومكم غدوه، وترجعون إلى عشيه، كظهر الحنيه (٢)، عجز المقوم، وأعضل (٣) المقوم» .

فالعباره تنطوى على نقطه مهمه وهى كثره المنافقين آنذاك بين أهل العراق، وكانوا يسعون للالتفاف على كلام الإمام عليه السلام، فكانوا يتأثرون بأخلاق الإمام عليه السلام ومواعظه حين يأتوه، ويقتنعون بضروره الاستعداد والتأهب لقتال العدو، فاذا رجعوا إلى مجالسهم الخاصه والعامه نفثوا سمومهم الشيطانيه وشوشوا الأفكار وسعوا لاضعاف الارادات وتصديق عرى الاتحاد والاخوه وبث بذور الشقاق والفرقه.

ص: ١٨٨

١-١) «أيادى» جمع «أيدى» وهذه الاخيره جمع يد، كما تستعمل الأيدى فى معانى أخرى.

٢-٢) «الحنيه» بمعنى القوس وذلك بسبب انحناؤه.

٣-٣) «أعضل» من ماده «الاعضال» بمعنى الشده والتعقيد.

قال نافع بن كليب: دخلت الكوفه للتسليم على علي عليه السلام فاني لجالس تحت منبره وعليه عمامه سوداء - إلى أن قال - ثم نزل تدمع عيناه فقال (إنالله وإنإليه راجعون) أقومهم والله غدوه ويرجعون إلى عشيه مثل ظهر الحنيه، حتى متى وإلى متى (1)؟

ص: ١٨٩

١-١) العقد الفريد، ج ٤، ص ١٦٢ ([١] مطابق نقل شرح نهج البلاغه للتستري) .

القسم الثاني: شهود الابدان وغياب العقول

«أَيُّهَا الْقَوْمُ الشَّاهِدَةُ أَيْدَانُهُمْ، الْغَائِبَةُ عَنْهُمْ عُقُولُهُمْ، الْمُخْتَلِفَةُ أَهْوَاؤُهُمْ، الْمُبْتَلَى بِهِمْ أَمْرَاؤُهُمْ. صَاحِبِكُمْ يُطِيعُ اللَّهَ وَأَنْتُمْ تَعْصُونَ، وَصَاحِبُ أَهْلِ الشَّامِ يَعِصِي اللَّهَ وَهُمْ يُطِيعُونَهُ. لَوَدِدْتُ وَاللَّهِ أَنْ مُعَاوِيَةَ صَيَّرَنِي بِكُمْ صَيْرَفَ الدِّينَارِ بِالدَّرْهَمِ، فَأَخَذَ مِنِّي عَشْرَةَ مِنْكُمْ وَأَعْطَانِي رَجُلًا مِنْهُمْ!» .

الشرح والتفسير

شدد الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الخطبه من تقريره وصب جام غضبه على أولئك القوم، على أمل انبثاق حركه في خضم سكونهم المدهش وإرادتهم الخاويه، ليهبوا قبل بروز الخطر فقال عليه السلام: «أيها القوم الشاهده أبدانهم، الغائبه عنهم عقولهم، المختلفه أهواؤهم، المبتلى بهم أمراؤهم» .

فقد ركز الإمام عليه السلام في هذه العبارة على ثلاث نقاط ضعف: الاولى: غياب العقول، وكأن عقولهم فارقت أبدانهم فأصبح وجودهم كبلد ليس له من مدير ومدبر. الثانيه: عدم وجود عرى التواصل بينهم أبداً، حيث لكل منهم طلباته على ضوء اهوائهم وعقولهم القاصره. وبالبداهه سوف لن تتمكن محل هذه الفئه من حل مشاكلها، فضلاً عن مشاكل الآخرين.

الثالثه: نقطه ضعفهم تكمن في اضطرار زعمائهم للتاقلم معهم. وقد أدت بهم هذه الصفات إلى الخواء في ميدان قتال العدو، ثم قال عليه السلام: «صاحبكم يطيع الله وأنتم تعصونه، وصاحب أهل الشام يعصى الله وهم يطيعونه» .

ياللعجب! فمن أطاع الله أحق بان يطاع، ومن عصاه لا بدّ من معصيته والوقوف بوجهه، بينما انعكست القضية هنا؛ فقد عومل مطيع الله بالجفاء، وعاصيه بالحب والاحترام!!

ثم تطالعنا عبارته لامثيل لها في نهج البلاغه، حيث قال عليه السلام: «لوددت والله أن معاوية صار فني بكم صرف الدينار بالدرهم، فأخذ مني عشره منكم، وأعطاني رجلاً منهم»، فالتأكيدات المتعدده في هذه العبارة تفيد جديده الإمام عليه السلام دون أدنى مبالغه، وكأنّ أهل الشام بمنزله سكه ذهبه وأهل العراق فضيه. كما تفيد العبارة مدى انضباط أهل الشام آنذاك حيث وقفوا بكل صلابه خلف معاوية رفم خداعه لهم؛ بينما لم يكن هناك أدنى انضباط لأهل العراق فلم يكن قيمه عشره منهم تعدل قيمه واحد من أهل الشام!

ص: ١٩٢

«يَا أَهْلَ الْكُوفَةِ، مُنِيَتْ مِنْكُمْ بِنَاتٍ وَاثْنَتَيْنِ: صُمُّ ذَوْوِ أَسْمَاعٍ، وَبُكْمٌ ذَوْوِ كَلَامٍ، وَعُمَى ذَوْوِ أَبْصَارٍ، لَأَاحْرَارٌ صَدَقَ عِنْدَ اللَّقَاءِ، وَلَا إِخْوَانٌ ثَقَّهِ عِنْدَ الْبَلَاءِ! تَرِبَتْ أَيْدِيكُمْ! يَا أَشْبَاهَ الْإِبِلِ غَابَ عَنْهَا رُعَاتُهَا! كُلَّمَا جُمِعَتْ مِنْ جَانِبٍ تَفَرَّقَتْ مِنْ آخَرَ، وَاللَّهِ لَكَأَنِّي بِكُمْ فِيمَا إِخْمَالِكُمْ: أَنْ لَوْ حَمَسَ الْوَعَى، وَحَمَى الضَّرَابُ، قَدِ انْفَرَجْتُمْ عَنِ ابْنِ أَبِي طَالِبٍ انْفِرَاجَ الْمَرَاهِ عَنْ قُبَيْلَتِهَا. وَإِنِّي لَعَلَى بَيْنِهِ مِنْ رَبِّي، وَمِنْهَاجٍ مِنْ نَبِيِّ، وَإِنِّي لَعَلَى الطَّرِيقِ الْوَاضِحِ الْقُطْبُ لَقَطًّا» .

الشرح والتفسير

صعد الإمام عليه السلام هنا من حده كلامه وامطار أرواح القوم بوابل تقريره ولومه، مع بيان نقاط ضعفهم، علمهم يفيقون من غفلتهم ويجدوا في اصلاح أنفسهم، فقال عليه السلام: «يا أهل الكوفه منيت منكم بنات واثنتين صم ذوو أسماع، و بكم ذوو كلام، وعمى ذوو أبصار» .

فالإمام عليه السلام يشير إلى عجزهم عن مشاهدته الأحداث والافتقار إلى تحليلها الصحيح وعدم السعي للعثور على الحلول، فقد قبعوا في مخادعهم ينتظرون العدو الذي لا يابه بشيء، دون أن تتحرك لهم قصبه، أو يسمعوا رعيده ووعيده فيستعدوا لمجابهته.

إلى جانب ذلك فهناك خصلتان لم تكن فيهم «لا أحرار صدق عند اللقاء، ولا إخوان ثقه عند البلاء» .

لا شك أنّ الحياه مليئه بالأحداث الساخنه والطبيعيه: فأحياناً الحرب والقتال والأخرى

الصلح والسلام، وتاره الراحة والأمان وأخرى التعب والبلاء. والأصدقاء الأوفياء والاخوه الثقاه لا يعرفون عند الراحة والاستقرار، وميدان معرفتهم إنما يكمن فى الصعوبات والمعضلات والتزاعات والبلايا والأحداث الأليمه، ومما يؤسف له أهل الكوفه لم ينجحوا آنذاك فى الامتحان، وقد كشفوا مراراً عن غدرهم وضعفهم وعدم صمودهم وثباتهم.

ومن هنا دعا عليهم الإمام عليه السلام فى العبارات القادمه، ثم اختتم كلامه بتشبيهين رائعين لاوضاعهم النفسيه فقال: «تربت (١)أيديكم»، ثم اتبعها بالقول: «يا أشباه الابل غاب عنها رعاتها» .

فالتشبيه تعبير واضح عن جهل القوم وعدم انضباطهم. فقد شبههم فى البدايه بالحيوانات ومن ثم بعدم وجود الراعى النافذ الكلام.

ثم قال عليه السلام بعد أن أقسم أنهم لو حمى الوطيس ونشبت الحرب لتركوا الإمام عليه السلام وحده فى الساحه وانفجوا عنه انفراج المرأه عن وليدها حين وضعها لحملها: «والله لكأنى بكم فيما إخالكم: أن لو حمس (٢)الوغى (٣)، وحمى (٤)الضراب، قد انفرجتم عن ابن أبى طالب انفراج المرأه عن قبلها» .

هذا وقد ذكرت عدّه تفاسير للعباره «انفرجتم. . .» إلّا أن ما أوردناه سابقا هو الأنسب لمقام أميرالمؤمنين على عليه السلام إلى جانب رعايه الفصاحه والتناسب فى مقام التشبيه. فالمرأه حين الوضع ترجو أن تضع حملها كل لحظه لما تعانيه من الأم وأوجاع، والإمام عليه السلام شبه أهل الكوفه بهذه المرأه التى تعد اللحظات أملا فى وضع الحمل، فكانوا يعيشون حاله من الجزع فى ميدان القتال بحيث ينتظرون بفارغ الصبر الفرصه المؤتاه للهروب من ساحه المعركه، وهو الهروب الذى لاعوده فيه، كالوليد الذى ينسلخ عن رحم أمه فلا يعود إليه. وللإمام عليه السلام تشبيه رائع

ص: ١٩٤

١-١) «تربت» من ماده «تراب»، تستعمل فى الخساره والفقر، وكأنّ الفقير قد صرع وخالط التراب يده.

٢-٢) «حمس» بالفتح من ماده «حمس» على وزن قفص بمعنى الشده و «الحماسه» و «التحمس» يعنى التشديدولا سيما فى المعركه.

٣-٣) «وغى» يعنى فى الأصل اصوات المقاتلين فى المعركه، كما تطلق على نفس المعركه، وقد وردت عنا بهذا المعنى.

٤-٤) «حمى» من ماده «حمى» على وزن سعى شده الحراره، و «الضراب» بمعنى الاشتياك والمناوشه والقتال.

بهذا الشأن ورد في الخطبه ٣٤ حيث قال عليه السلام: «وأيم الله إننى لأظن بكم أن لو حمس الوغى، واستحر الموت، قد انفرجتم عن ابن أبي طالب انفراج الرأس» .

وفي الختام يكشف عن موقفه في هذه الأحداث فقال عليه السلام: «وإني لعلى بينه من ربي، ومنهاج من نبي، وإني لعلى الطريق الواضح ألقطه لقطاً (١)». فمن الطبيعي أن لا يكون هناك من شعور بالفشل أو الهزيمة لمن انطلق في حركته على هدى من الله ونور من رسوله صلى الله عليه وآله، ولا يرى في كل ما يحدث سوى الغلبه والنصر وأداء التكليف والوظيفه. والعبارة «ألقطه لقطاً» تعنى جمع الأشياء من نقاط مختلفه، الأمر الذى يحتاج إلى الدقه والفظنه، ومراد الإمام عليه السلام من هذه العبارة أتى أجد في الاختيار من أجل التقدم في مسار الحق وانتخب أفضل السبل من أجل بلوغ الهدف.

تأمل: مقارنة بين أهل العراق والشام

لقد أورد الإمام عليه السلام عبارته عجيبة في إطار مقارنته بين أهل العراق والشام لم يرمثلها حيث قال: لوددت والله أن معاوية صرفنى بكم صرف الدينار بالدرهم، فأخذ منى عشره منكم وأعطانى رجلاً منهم. والحال كان ينبغى أن تكون القضية معكوسه، فقد عقد القرآن الكريم مثل هذه المقارنه بين المؤمنين والكفار فقال: «إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ» (٢)، ترى لم انقلب هذا المعيار القرآنى بشأن أهل العراق والشام؟

يبدو أن التحليلات الدقيقه من شأنها ايقافنا على ماورد فى كلام أمير المؤمنين عليه السلام بهذا الشأن.

فالكوفه منطقته حربيته حديثه، وأن أهلها الذين كانوا يمثلون القسم الأعظم من جيش الإمام عليه السلام قد قدموا هناك من عدّه مناطق وهم ينحدرون من مختلف القبائل بحيث لم يكن يسودهم الانسجام والانضباط المطلوب. فكان لكل واحد منهم أهدافه وطموحاته

ص: ١٩٥

١-١) «لقط» أخذ الشيء من الأرض، وتطلق «القطه» على الأشياء المفقوده، لأنها عادة ماتلتقط من الأرض.

٢-٢) سورة الانفال/٦٥. [١]

وطروحاته الفكرية، بينما كانوا أهل الشام كتله واحده عاشت هناك ليتحلوا بكافه عناصر الوحده والانسجام ووحده الفكر والثقافه. هذا أولاً.

وثانياً: كان فى جيش الإمام عليه السلام من قدم بغيه الحصول على الغنائم، فان كانت هناك غنيمه سارعوا لميادين القتال، بينما يقبعون فى بيوتهم حيث التضحيه والفداء والشهاده.

ثالثاً: كان أهل الشام ينظرون إلى منطقتهم كوطن لا بدّ من الدفاع عنه والذود عن حياضه، بينما كان لأغلب أهل الكوفه وطن آخر خارج الكوفه، وكلما ضاقت عليهم السبل فى الكوفه عادوا إلى أوطانهم.

أضف إلى ذلك فإنّ ضعف إرادتهم وسرعه خداعهم وانفعالهم بالأعيب العدو، ومن ذلك خديعتهم فى صفين، وعدم معرفتهم بمقام الإمام عليه السلام ومنزلته، والاعماض عن الحوادث المستقبلية، كل هذه الأمور كانت تفعل فعلها فيهم فى ميدان القتال.

ومن هنا كانوا يخلتقون مختلف الذرائع للهروب من ساحه الحرب، ولايتوانون فى اغتنام أيه فرصه تسنح لهم من أجل الفرار، منهم يتذرعون تاره بحراره الجو، وأخرى ببرودته والحال يصرخ فيهم الإمام عليه السلام: «فاذا كنتم من الحر والقر تفرون، فأنتم والله من السيف أفر». (١)

وكانّ القتال لا بدّ أن ينشب فى فصل الربيع؛ على ظلال الأشجار وسط الحقول الخضراء والمياه المتدفقه وتغريد العصافير والطيور.

العنصر الآخر الذى أدى إلى ضعف جيش الكوفه وعدم تحليه بالانضباط هو أنّ أشرافهم كانوا مرفهين على عهد عثمان، حيث كان يقسم أموال بيت المال دون حساب بين الناس، وكانت الحصه العظيمه تمنح للزعماء والأشراف والبطانه والأقرباء. فلما تسلّم الإمام عليه السلام زمام الأمور تغيرت الأوضاع ليعيشوا مراره العداله بعد أن أنسوا بالظالم والجور، ومن هنا كانوا لا ينفكون عن الشكوى، هذا من جانب ومن جانب آخر فإنّ معاويه كان يسعى جاهداً لتحقيق أهدافه دون الاكتراث لدين الله والقيم الإسلاميه والموازين الشرعيه،

ص: ١٩٦

فكان يبذل الآف الدنانير لشراء هذا الفرد أو ذاك من أجل ترسيخ دعائم حكمه، فان لم يسعفه ذلك عمد إلى التهديد والارهاب والقتل.

ومن هنا نقف على عمق حكمه الإمام عليه السلام وبعد أفقه وتدييره في كيفية تمكنه من زج هؤلاء القوم في الجمل وصفين والنهروان، وإن شهدت هذه الوقائع بعض الانكسارات بسبب تمرد البعض وعدم طاعتهم لأوامر الإمام عليه السلام.

وهنا نكتشف عمق مقاله ابن أبي الحديد: إن سياسة علي عليه السلام إذا تأملها المنصف متديراً لها بالاضافه إلى أحواله التي دفع إليها مع أصحابه، حرت مجرى المعجزات، لصعوبه الأمر وتعذره ثم كسريهم الأعداء، وقتل بهم الرؤساء، فليس يبلغ أحد في حسن السياسة وصحة التدبير مبلغه (١).

والحق إننا إذا أردنا أن نصدر حكماً على سياسة أمير المؤمنين عليه السلام ونعلن رأينا بهذا الشأن، كان علينا أن نأخذ هذه الأمور بنظر الاعتبار. وناهيك عن كل ما سبق فإن الإمام عليه السلام لم يكن ليعتمد أيه وسيله من أجل بلوغ الهدف، حيث يمنعه دينه وعدله وورعه وتقواه عن ذلك.

ص: ١٩٧

١-١) شرح نهج البلاغه لابن أبي الحديد ٧/٧٣. [١]

«انظروا أهل بيت نبيكم فالزموا سببهم، واتبعوا أثرهم فلن يخرجوكم من هدى، ولن يعيدوكم في ردى، فإن لبذوا فالبذوا، وإن نهضوا فانهضوا. ولا تسبقوهم فتضلوا، ولا تتأخروا عنهم فتهلكوا. لقد رأيت أصحاب محمد صلى الله عليه وآله، فما أرى أحداً يشبههم منكم! لقد كانوا يصبحون شعثاً غبراً، وقد باتوا سجداً وقياماً، يراوون بين أعينهم ركب المعزى من طول سجودهم! إذا ذكر الله هملت أعينهم حتى تبل جيوبهم، ومادوا كما يمد الشجر يوم الريح العاصف، خوفاً من العقاب، ورجاءاً للثواب!».

الشرح والتفسير

أشار الإمام عليه السلام - في المقطع الأخير من هذه الخطبه - إلى نقطتين مهمتين؛ الأولى: تعريفه بالقاده الذين لا يضلون أبداً، بهدف تمسك الأمة بهم وعدم الانفراج عنهم والتماس الهدايه عن طريقهم بغيه الفوز بالفلاح والسعاده - والثانيه: يتحدث عن صفات أصحاب النبي صلى الله عليه وآله لتكون نموذجاً للاخرين، فيكونوا مصداقاً لمضمون الآيه الشريفه: «وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ يَأْخِصَانِ» (١)، فيجدوا ويجتهدوا في هذا السبيل ويسعوا لأن يتحلوا بصفاتهم. فقال عليه السلام: «انظروا أهل بيت نبيكم فالزموا سببهم، واتبعوا أثرهم، فلن يخرجوكم من هدى، ولن يعيدوكم في ردى».

فهذا الكلام في الواقع إشاره إلى حديث الثقلين الذي يعتبر من الأحاديث المتواتره والذي

ص: ١٩٩

أوصى بالتمسك بالقرآن وأهل البيت اللذان لن يفترقا حتى يردا الحوض، ولن تضل الامه أبدا إن تمسكت بهما.

ومن الواضح طبعاً أنّ المراد بأهل البيت، هم أئمة العصمه عليهم السلام الذين قال فيهم الحق سبحانه وتعالى: «إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً» (١).

ثم أمرهم عليه السلام بالحركه خلفهم أن تحركوا ونهضوا، والقعود أن جلسوا وصمتوا: «فان لبدوا فالبدوا (٢)، وإن نهضوا فانهمضوا» .

فالحق أن الشرائط والظروف الزمانيه والمكانيه فى تغير مستمر؛ فان كانت الظروف تقتضى القيام والنهضه وخوض غمار الجهاد، فان السكوت يقود قطعاً إلى البؤس والشقاء، وان كانت الظروف لاتسمح بالقيام، فان النهضه لاتنطوى سوى على الخيبه والخسران وهدر الطاقات. وأئمة العصمه من أهل البيت عليهم السلام أعلم من غيرهم بهذه الظروف والشرائط وينطلقون فى حركتهم وسكونهم من خلالها، وعليه فعدم الاقتداء بهذا الأسلوب إنما يؤدى إلى الخسران.

ومن هنا قال عليه السلام: «ولاتسبقوهم فتصلوا، ولاتأخروا عنهم فتهلكوا»، فالمجتمعات لاتخلو على الدوام من الأفراد الذين يعيشون حاله الافراط والتفريط. فالمفراطون يحكمون ببطىء حركه الزعماء الحق فيتقدموا عليهم، ليقودوا المجتمع إلى الهاويه. والمفراطين على العكس يرون حركتهم مستعجله فيتأخرون عنهم بذريعه الحزم والاحتياط وإجالة الفكر؛ الأمر الذى يؤدى إلى هلاكهم واختلال حركه المجتمع.

والواقع هو أنّ عباره الإمام عليه السلام تنسجم والحديث النبوى المشهور: «مثل أهل بيتى فكيم، مثل سفينه نوح من ركيها نجى ومن تخلف عنها هلك»، وقد ورد هذا الحديث بعبارات مختلفه فى مصادر الفريقين، وهو يكشف عن علم أهل بيت النبى عليهم السلام المستقى من القرآن الكريم والسنة النبويه المطهره، كونهم السفينه الوحيده للنجاه فى هذه البحار العاصفه؛ على غرار الطوفان الذى لم يكن فيه من وسليه للنجاه سوى سفينه نبى الله نوح عليه السلام (٣).

ص: ٢٠٠

١-١) سورة الاحزاب/٣٣. [١]

٢-٢) «لبدوا» من ماده «لبود» الإقامه فى المكان.

٣-٣) نقل هذا الحديث المرحوم السيد حامد حسين الهندى فى كتاب عبقات الأنوار عن ٩٢ كتاب من ٩٢ عالم من علماء العامه.

والجدير ذكره ماورد شبيه هذه العبارة فى الخطبه ٨٧ بشأن القرآن فى وصفه خلص عباد الله الذين جعلوه محوراً فى حياتهم «فهو قائده وإمامه، يحل حيث حل ثقله، وينزل حيث كان منزله» .

وهذا تأكيد آخر لحديث الثقلين.

ثم تطرق عليه السلام إلى خصائص طائفه معينه من صحب النبى الأكرم صلى الله عليه وآله ليقتدى بها صحبه، فقال عليه السلام: «لقد رأيت أصحاب محمد صلى الله عليه وآله، فما أرى أحداً يشبههم منكم لقد كانوا يصبحون شعثاً (١) غبراً» . (٢)

ثم قال فى صفتهم الثانيه: «وقد باتوا سجداً وقياماً، يراوحون (٣) بين جباههم وخدودهم (٤)» .

وقال أيضاً: «ويقفون على مثل الجمر (٥) من ذكر معادهم» .

نعم فقد شعروا بعظم العذاب الإلهى بكل كيانهم، فلم يهدأ بالهم ويسكن روعهم: «كأنّ بين أعينهم ركب (٦) المعزى (٧) من طول سجودهم» ، فقد ذاقوا حلاوه العبوديه، فتراهم يطيلون سجودهم، حتى بدت آثار السجود على جباههم.

«إذا ذكر الله هملت (٨) أعينهم حتى تبل جيوبهم» .

فقد تنهمر دموعهم حياً لله تاره، وخوفاً من العقاب وخشيه الفراق تاره أخرى: «ومادوا (٩) كما يמיד الشجر يوم الريح العاصف، خوفاً من العقاب، ورجاءاً للثواب» .

والتشبيه بالشجر الذى يמיד من جراء الريح العاصف، هو تشبيه رائع، وقد أشار عليه السلام إلى

ص: ٢٠١

١-١) «لشعث» جمع «أشعث» وهو المغير الرأس وهى كناية عن الفقر أو الزهد.

٢-٢) غير جمع أغير بمعنى الغبار.

٣-٣) «يراوحون» من ماده «تراوح» القيام بالأعمال الواحد بعد الآخر.

٤-٤) «خدود» جمع «خد» طرفا الوجه.

٥-٥) «جمر» جمع «جمره» قطعه من النار، وتطلق الجمرة وجمعها جمرات.

٦-٦) «ركب» جمع «ركبه» موصل الساق من الرجل بالفخذ.

٧-٧) «معزى» و «معز» معروف.

٨-٨) «هملت» من ماده «همول» الجريان والنزول.

٩-٩) مادوا من ماده ميدان الحركة والاضطراب.

دليل ذلك والذي يكمن في خوف العقاب تاره ورجاء الثواب تاره أخرى.

فهم سيكون بعين شوقا إلى لقاء ربهم، بينما تهمل الأخرى خشية من عقاب ربهم! وهذا هو ديدن الصالحين من عباد الله الذين يعيشون بين الخوف والرجاء.

تأملات

١ - ولاية أهل البيت وعصمتهم

تتضح عصمه أهل البيت عليه السلام بجلاء من خلال عبارات الإمام عليه السلام وذلك أنه عليه السلام: «انظروا أهل بيت نبيكم والزمو سمتهم، واتبعوا أثرهم، فلن يخرجوكم من هدى، ولن يعيدوكم في ردى، فان لبدوا فالبدوا، وإن نهضوا فانهضوا، ولا تسبقوهم فتضلوا، ولا تتأخروا عنهم فتهلكوا» .

فالعبارات من أوضح الأدلة على مقام عصمتهم عليهم السلام؛ لأن مثل هذه الوصايا لا تصح في غير المعصومين من الذنب والخطأ.

كما تدل من جانب آخر على أنّ امامه المسلمين دائما في أهل البيت وذلك لأنّ الإمام عليه السلام لم يقيد وصاياه بزمان معين.

كما تدل من جهة أخرى على أنّ مفهوم الولايه لا ينسجم وانتقاء أوامر أهل البيت عليهم السلام، بل الولايه الحقيقيه في امتثال أوامرهم في كل شيء وعلى أى حال. أما من يتبع أهل البيت على مستوى اللسان والقول أو بعض التصرفات الفرديه والاجتماعيه، فلا يمكن اعتباره من الموالين الواقعيين، بل ذلك زعم وإدعاء فقط. ومن البديهي أنّ مراد الإمام عليه السلام لا يقتصر على عصره أو زمانه؛ لأنّه يعرف بأهل البيت بصفتهم أئمه وولاه وليس فقط شخصه والشاهد الحى على هذا الكلام ما ورد في الحديث النبوى الشريف أنّ النبى صلى الله عليه و آله قال: «انى وأهل بيتى مطهرون، فلا تسبقوهم فتضلوا، ولا تتخلفوا عنهم فتزلوا، ولا تخالفوهم فتجهلوا، ولا تعلموهم فانهم أعلم منكم. هم أعلم الناس كباراً، وأحلم الناس صغاراً؛ فاتبعوا الحق وأهله حيث كان»

(١)

ص: ٢٠٢

(١ - ١) تفسير القمى [١] نقلاً عن بحار الانوار ٢٣/١٣٠ ح ١٢. [٢]

٢ - مميزات أهل الكوفة والشام

هناك رابطة لطيفة بين القسم الأخير من هذه الخطبة، الذي يدعو الناس من جانب إلى اتباع أهل البيت، ومن جانب آخر إلى بيان خصائص أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله، والاقسام السابقة من الخطبة التي عرضت بالذم الشديد لأهل العراق والكوفة. وذلك لأنها تفهمهم من جانب أن ليس لكم من عذر عند الله، لأن قادتكم أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وآله، الذين ما انفك رسول الله صلى الله عليه وآله يوصي الأمة بالتمسك بهم وعدم مفارقتهم، فهم عدل القرآن وسفن النجاه، والحال زعيم أهل الشام معروف بالظلم والانحراف والسلب والنهب، وعليه فقد تمت عليكم الحجج.

والآخر أن ضعفكم وهو أنكم ليس لعدم قدرتكم البدنية، بل لضعف ارتباطكم بالله وخواؤكم الروحي وانعدام معنوياتكم، ومن هنا دعاهم لاقتفاء آثار تلك الثلة من صحب رسول الله صلى الله عليه وآله بصوره عمليه حيث كانت لها أعظم رابطة بالله سبحانه وتعالى.

ثم تطرق عليه السلام إلى بيان صفاتهم التي تدعوا إلى الغلبه والنصر فقال: لقد كانوا يصبحون شعثاً غبراً، وقد باتوا سجداً وقياماً، يراوون بين جباههم وخدودهم، ويقفون على مثل الجمر من ذكر معادهم. إذا ذكر الله هملت أعينهم حتى تبل جيوبهم، ومادوا كما يמיד الشجر يوم الرياح العاصف، خوفاً من العقاب، ورجاء للثواب. وقد كان هذا التبعيد والإلتزام هو سر إنتصارهم على خصومهم.

٣ - حقيقه الصحابه

لعل هناك من يفهم من اطلاق كلام أمير المؤمنين على عليه السلام أن هذه الخصائص قد جمعت في كافة أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله، وعليه فهو دليل على ما ذهبوا إليه من نظريتهم المعروفة في تنزيه الصحابه، والحال أن هذه الخصائص إنما تتصف بها فئة خاصه من اصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله كسلمان وأبي ذر وعمار والمقداد ومن كان على شاكلتهم، لا جميع الصحابه. وذلك لأنه أولاً: أن هذا الموضوع يخالف السير والتواريخ، حيث لم تدون لهم كل هذه الصفات، ثانياً: تفيد أغلب آيات القرآن الكريم أن بينهم من عرف بالنفاق والذنوب والخطايا والمعاصي. ومن

ذلك أن بعضهم قد خان رسول الله صلى الله عليه وآله وجيش المسلمين، وقد تابوا بعد أن افتضح أمرهم؛ كحاطب بن أبي بلتعنه وأبي لبابه، وقصتهم معروفه، وعمود التوبه فى مسجد النبى صلى الله عليه وآله شاهد حى على هذه الحقيقه.

وفيهم من اعترض على رسول الله صلى الله عليه وآله فى حكم الزكوه، والمال و منهم من عاهد الله بالانفاق أن آتاهم من فضله ومنهم ثعلبه بن حاطب الانصارى الذى وردت قصته فى الآيات ٧٥ - ٧٧ من سوره التوبه.

وفيهم من تخلف عن غزوه تبوك وتمرد على أوامر رسول الله صلى الله عليه وآله، وقد وردت قصتهم فى ذيل الآيه ١١٨ من سوره التوبه.

وفيهم الحواسيس الذين وصفتهم الآيه ٤٧ من سوره التوبه: «وَفِيكُمْ سَمَاعُونَ لَهُمْ» .

وفيهم من بنى مسجد ضرار بهدف ايجاد الفرقه والاختلاف بين صفوف المؤمنين، وقد وردت قصتهم فى الآيات ١٠٧ - ١١٠ من سوره التوبه.

وفيهم من سار على الصراط على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله ثم انقلبوا بعده فاثاروا الفتن واشعلوا نيران الحروب وسفكوا دماء المسلمين، كطلحه والزبير الذين أججا نار الجمل وخرجا على إمام المسلمين، ومعاويه الذى آثار الفتن ومنها فتنه صفين.

وعليه يبدو من السداجه أن نتغاضى عن هذه الحقائق والوقائع التاريخيه وصريح الآيات القرآنيه، لنعتبر الصحابه منزهين جميعاً يتصفون بالطهر والعفاف والورع والتقوى.

وبناءً على ما تقدم فإن أمير المؤمنين على عليه السلام إذا مدح الصحابه وأثنى عليهم - فى هذه الخطبه أو سائر الخطب - فالمفروغ منه أن مراده خاصه صحب رسول الله صلى الله عليه وآله لاجميعهم.

وهم ثله معدوده من صحابه كانت تقتفى آثار رسول الله صلى الله عليه وآله وتلتحق به فى كافه المعارك والغزوات، حتى استشهد أغلبهم على عهده صلى الله عليه وآله.

على كل حال فإنّ هذه الثله من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله التى انطوت على أعظم دروس العبوديه والاستقامه والصمود والتضحيه فى سبيل الله والإسلام، وتعلمتها من معلم البشريه الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله لجديره بان تكون قدوه للمسلمين فى كل عصر وزمان.

وهم الذين قال قيهم المؤرخون أنّهم كانوا يتلون لبعضهم البعض الآخر سوره العصر حين

يفترقون، ليوصى كل منهم الآخر بالايان والعمل الصالح والتحلّى بالحق والصبر. (١)

وصفهم القرآن بقوله: «سِيْمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ». (٢)

وهم المعروفون بشدّتهم وصلابتهم تجاه الاعداء، واللين والرحمة تجاه الأصدقاء: «وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ» (٣).

ص: ٢٠٥

١-١) اسد الغايه ٣/١٤٤.

٢-٢) سوره الفتح/٢٩. [١]

٣-٣) سوره الفتح/٢٩. [٢]

ومن كلام له عليه السلام

يشير فيه إلى ظلم بنى أميه

نظره إلى الخطبه

تحدث الإمام عليه السلام في هذه الخطبه بعبارات قصار عن فجائع حكومه بنى أميه وظلمهم وانحرافهم، بحيث صور جميع مظالمهم وفضائحهم في هذه الكلمات المختصره، وهى تفيد وخامه العواقب التى تنتظر المجتمع الإسلامى إذا ضعفت إرادته فى المجابهه والتصدى.

التأريخ من جانبه أشار إلى تحقق كافه تكهينات الإمام عليه السلام، وأنّ عدم الالتفات إلى تحذيراته عليه السلام فساد ذلك الظلم والجور الذى عم المسلمين بما لم يشهد له التأريخ مثيلاً.

والخطبه ضمناً رد قاطع على أولئك الذين يترددون فى قتال الإمام عليه السلام لبنى أميه، على أنّه قتال المسلمين للمسلمين.

ص: ٢٠٧

١ - ١) سند الخطبه: قال صاحب مصادر نهج البلاغه، روى هذه الخطبه ابن قتيبه فى كتاب الإمامه والسياسه، والذى يفهم من عباراته أنّ الإمام على عليه السلام خطبها بعد الخطبه ١٢٣ (مصادر نهج البلاغه ٢/١٩٣).

«وَاللّٰهِ لَا يَزَالُونَ حَتَّىٰ لَا يَدْعُوا لِلّٰهِ مُحَرِّمًا إِلَّا اسْتَحَلُّوهُ، وَلَا عَقْدًا إِلَّا حَلَّوهُ، وَحَتَّىٰ لَا يَبْقَىٰ بَيْتٌ مِّدْرٍ وَلَا وَبَرٍ إِلَّا دَخَلَهُ ظُلْمُهُمْ وَنَبَأَ بِهِ سُوءَ رَعِيَّتِهِمْ، وَحَتَّىٰ يَقُومَ الْبَاكِانِ يَبْكِيَانِ: بَاكِ يَبْكِي لِدِينِهِ، وَبَاكِ يَبْكِي لِذُنْيَاهُ، وَحَتَّىٰ تَكُونَ نُصَيْرَةٌ أَحَدِكُمْ مِنْ أَحَدِهِمْ كُنْصَرَهُ الْعَبْدِ مَنْ سَيِّدِهِ، إِذَا شَهِدَ أَطَاعَهُ، وَإِذَا غَابَ اغْتَابَهُ، وَحَتَّىٰ يَكُونَ أَعْمَكُمْ فِيهَا عَنَاءٌ أَحْسَنُ نِكْمٍ بِاللّٰهِ ظَنًّا، فَإِنْ آتَاكُمْ اللّٰهُ بِعَافِيَةٍ فَاَقْبِلُوهَا، وَإِنْ ابْتَلَيْتُمْ فَاصْبِرُوا، فَإِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ» .

الشرح والتفسير

مظالم بنى أمية

أشار الإمام عليه السلام بهذه العبارات القصار إلى مصير بنى أمية، كما يشير إلى الفجائع التي ارتكبتها هذه الطغمة الفاسدة. حيث أقسم على امتداد حكومتهم حتى تستحل كل حرام وتنتهك كافة المواثيق والعهود: «والله لا يزالون (1) حتى لا يدعوا لله محرماً إلا استحلوه، ولا عقداً إلا حلوه» .

وقد قام بعض الأعلام باحصاء بدع بنى أمية والمحارم التي انتهكوها واستحلوها، والعهود التي نقضوها، سنستعرضها في الأبحاث القادمة. ويتضح من خلالها عمق الفجائع التي جروها على العالم الإسلامي.

ثم أشار عليه السلام إلى الفضائح التي ارتكبوها بحق المسلمين وعموم ظلمهم وشموله بحيث لا يفلت منه بيتاً من البيوت: «وحتى لا يبقى بيت مدر، ولا وبر إلا دخله ظلمهم ونبا به سوء رعيهم» ، والمراد بيوت المدر المبنية من الطوب والحجر ونحوهما وهي بيوت المدينة عادة. أمّا

ص: ٢٠٩

١ - ١) قال بعض شراح نهج البلاغة ان عبارته «لا يزالون» فيها محذوف تقديره «لا يزالون ظالمين» ، والظاهر الأنسب أن يكون تقديره لا يزالون حاكمين، ولا سيما بالنظر إلى العبارات اللاحقة.

الوبر فيرادبه صوف الناقه، فالمراد بيت الوبر الخيام التي كانت تقام في القرى والبودى، والحق أنّ هذا أروع تعبير لشموليه الظلم بحيث لايسع أحد النجاه من ذلك الظلم. وهو الظلم الذي قد يدفع بالبعض إلى الفرار من بيوتهم.

ثم تطرق عليه السلام إلى أنّ الناس آنذاك على طائفتين؛ طائفه تبكى دينها، وأخرى تبكى دنياها: فى تصويره للفاجعه الثالثه «وحتى يقوم الباكيان يبكيان: باك يبكى لدينه، وباك يبكى لدنياه» .

نعم فالمتدينون سيكون خشيه على دينهم من الأخطار التي تهدده من هذه الطغمه سليله الجاهليه، بينما يبكى أصحاب الدنيا على دنياهم، فالظلمه قد ساموا الناس الظلم فى دينهم ودنياهم.

ثم قال عليه السلام: فى بيانه للفاجعه الرابعه «وحتى تكون نصره أحدكم من أحدهم كنصره العبد من سيده، إذا شهد أطاعه، وإذا غاب اغتابه» .

فى أشاره إلى أنّهم يستعبدون الناس، وليتها كانت من نوع العبوديه التي تسودها علاقه الحب والرفاه بين العابد والمعبود، بل العبوديه التي تختزن كل معانى الظلم والتحقير والاستخفاف؛ وكأنّهم قيدوا أعناق الناس وسحبوهم بالاتجاه الذي يريدون.

ذهب بعض شراح نهج البلاغه إلى أنّ المراد بالعباره طلب الناس العون من هؤلاء، لاعون الناس لهم بمعنى نصرتهم (فالإضافه إلى المفعول لا إلى الفاعل): وعليه مفهوم العباره أنّكم إذا طلبتم عونهم فإنّ ذلك كطلب الغلام العون من سيده الظالم، لا طلب الرفيق من رفيقه. إلّا أنّ عبارتي: «إذا شهد أطاعه، وإذا غاب اغتابه» تؤيدان المعنى الأول.

ثم وصف فاجعتهم الأخيره بأنّها أشد وأعظم على ذلك الأقرب لله والأكثر عبوديه له: «وحتى يكون أعظمكم فيها عناء أحسنكم بالله ظناً» .

وهل ينتظر غير هذا من حكومه ظالمه مستبده مجرمه، لادين لها ولا أخلاق، قطعاً محنه العبد فى ظل هذه الحكومه تكون أعقد وأصعب كلما كان لربه أطوع وأقرب.

ثم اختتم عليه السلام كلامه بتسليه أصحابه وأنصاره لما ينتظرهم من أحداث أليمه: «فان أتاكم الله بعافيه فاقبلوا، وإن ابتليتكم فاصبروا فان العاقبه للمتقين» .

فالذى يفهم من هذه العبارة أنّ حكومه بنى أميه وإن مارست ظلمها وضغوطها بحق الأمّة، فجرعتها أنواع العذاب، إلّا أنّ هناك البعض الذى نجى من هذه الحوادث الخطيره والمؤطه، وقد أوصى الإمام عليه السلام الطائفه الاولى بالصبر والتحمل وانتظار الفرغ، بينما أوصى الثانيه بالحمد والشكر.

تأمل: بدع بنى أميه

لقد حصلت كافه تكهنات الإمام عليه السلام التى أوردها فى هذه الخطبه بشأن شموليه فجائع بنى أميه، حيث لم تأل هذه الحكومه المستبده جهدوا عن مقارفه أنواع الظلم والجور، كما سفكت بحاراً من الدماء من أجل ترسيخ دعائم سلطتها الغاشمه، إلى جانب ملئ السجون بالأبرياء من المومنين وسومهم سوء العذاب، وممارسه أقصى درجات العنف والبطش، فعم الخوف والرعب كافه أبناء الأمّه، بما فيهم مقربى هذه الحكومه وبطانتها. وقد قام المرحوم العلامة الأمينى بجمع كافه الانتهاكات والبدع التى ارتكبتها بنى أميه، مع ذكر اسنادها فى كتابه الغدير، نورد طائفه منها، ونترك للقارىء العزيز الوقوف على تفاصيلها فى المجلد الحادى عشر من كتاب الغدير أنّ معاويه:

أول من أحدث الاذان فى صلاه العيدين؟!

أول من رأى الجميع بين الأختين إحياء لما ذهب إليه عثمان؟!

أول من غير السنّه فى الديات وأدخل فيها ما ليس منها؟!

أول من ترك التكبير فى الصلوات عند كل هوى وانتصاب وهى سنّه ثابتة؟!

أول من ترك التلبيه وأمر به خلافاً لعلّى أمير المؤمنين عليه السلام العامل بسنّه الله ورسوله؟!

أول من قدم الخطبه على الصلاه فى العيد لإسماع الناس سبّ على عليه السلام؟! وقد صحّ عن نبى الإسلام: «من سبّ علياً فقد سبّه، ومن سبّه فقد سبّه الله».

أول من عصى ربّه بترك حدوده وإقامه سنّته؟! «وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَاراً خَالِداً فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ».

أول من نقض حكم العاهر، وأحیی طقوس الجاهلیة، وخالف دین محمد صلی الله علیه و آله: «الولد للفراش وللعاهر الحجر»؟!

أول من تختم بالسیار؟ فأخذ المروانیة بذلك إلى أن نقله السفاح إلى الیمین فبقی إلى أيام الرشید فنقله إلى الیسار.

أول من سنّ سبّ علیّ وقت به وجعله سنّه جاریه فی خلفه الذین أضاعوا الصلاة وأتبعوا الشهوات، وشوّه خطب المنابر بذلك الحادث النخري؟!

أول من بغی علیّ إمام وقته وحاربه وقتله وقتل أمّه كبیرة من صلحاء الصحابة البدریین وأهل بیعه الشجرة الذین رضی الله عنهم ورضوا عنه؟!

أول من أعطی المال لوضع الحدیث وتحریف كتاب الله وكلمته الطیبه عن مواضعها؟!

أول من اشترط البراءة من علیّ علیه السلام من بايعه فی خلافته الغاشمه أو فی ملكه العضوض؟!

أول من حُمل إليه رأس الصحابيّ العادل عمرو بن الحمق وأدير به فی البلاد؟!

أول من قتل عدول الصحابه الأولین والتابعین لهم بإحسان من عیون الأمه وعبادها ونساکها لمحض ولائهم سید العتره، وقد جعله الله أجر رساله نبیه الخاتم صلی الله علیه و آله؟!

أول من قتل نساء كلّ وإلى أهل بیت النبی وذبح صبیانهم ونهب أموالهم، ومثّل بقتلهم وشتّت شملهم، وفرق جمعهم، واستأصل شأفتهم، ونفاهم عن عقر دورهم، وأبادهم تحت كلّ حجر ومدّر؟!

أول من عبثت به رعیته، وسنّ العمل بالشهادات المزوّره، وسلط ورجال الشرّ والغیّ والجور علی صلحاء أمه محمد صلی الله علیه و آله.

أول من همّ بنقل منبر رسول الله صلی الله علیه و آله عن المدينه المشرفه إلى الشام؟! ولما حرّك المنبر خسفت الشمس فترك.

أول من بدّل الخلافة الإسلامیة إلى شرّ ملك وسلطه سوء؟!

أول من ملك وتجبّر فی الإسلام بلبس الحریر والديباج، وشرب فی آنيه الذهب والفضّه، وركب السروج المحلّاه بهما؟!

أول من سمع الغناء وطرب علیه وأعطی ووصل إليه وهو یرى نفسه أميرالمؤمنین؟!

أول من هتك دين الله باستخلاف جروه الفاجر المستهتر التارك الصلاة؟!!

أول من شنَّ الغارة على مدينة الرسول صلى الله عليه وآله حرم أمن الله، وأخاف أهلها، وما رعى حرمة ذلك الجوار المقدس؟!

إلى جرائم وبوائق تجر الرجل فيها هو السابق الأول إليها.

أصحيح أن مثل هذا الطاغية تصدر فيه كلمة إطراء من مصدر النبوة؟ أو يأتي عن نبي العدل والحق والصدق ما يوهم الثناء عليه؟ لا، لا يمكن ذلك؛

٢ - غيظ من فيض فضائع بنى أميه

ذكر أبو الفرج الاصفهاني وهو من مشاهير علماء القرن الرابع الهجري في كتابه المعروف «الآغانى» بعض الأمور العجيبة بشأن بنى أميه، نورد طائفه منها:

١- خالد بن عبدالله القسرى و الى هشام بن عبدالملك على الكوفه كان زنديقا و أمه نصرانيه و كان يؤلى النصرارى و المجوس على المسلمين. (١)

٢- بنى كنيسه لأمه خلف قبله مسجد الكوفه فكان يضرب فيها الناقوس حين يرتفع صوت الأذان (٢).

٣- كان يقول - و العياذ بالله - بأفضليه الخليفه هشام على رسول الله صلى الله عليه وآله و كان يقول بكل وقاحه: و الله لو أمرنى الخليفه لهدمت الكعبه و نقلت حجرها إلى الشام. (٣) و العجيب عزله هشام بعد مدته إثر تعرضه لبنى أميه. (٤)

روى ابن أبى الحديد المعتزلى (٥) فى شرح نهج البلاغه عن أبى عثمان الجاحظ أن بنى هاشم كانوا يفخرون على بنى أميه أنا لم نقم بهذه الأعمال:

أ هدم الكعبه (إشاره لما فعله الحجاج على عهد عبد الملك)

ب - تغيير القبلة (إشاره لصلاه الوليد لغير القبلة ثملا و هو يقول أينما تولوا فثم وجه الله)

ص: ٢١٣

١- ١) الآغانى ٢٢/٢٣. [١]

٢- ٢) الآغانى ٢٢/٢٢. [٢]

٣- ٣) الآغانى ٢٢/٢٥. [٣]

٤- ٤) الآغانى ٢٢/٣٣. [٤]

ج - لم يجعلوا الخليفة أفضل شأنًا من النبي صلى الله عليه وآله (إشاره لما ورد في كتاب الأغاني)

ع - لم يختموا رقاب المسلمين (إشاره إلى ختم بنى أميه لرقاب المسلمين كعييد كما كانوا يختمون الخيل).

ه - لم ينهبوا حرم النبي صلى الله عليه وآله و ينتهكوا حرمة المسلمات (إشاره إلى قصه مسلم بن عقبه الذى إستباح المدينه بأمر يزيد فارتكب فيها من الجرائم ما يعجز القلم عن وصفها).

و قد وجّه معاويه قبل ذلك يسر بن أرتاه ليهجم على المدينه و يطوف فى مسجد النبي صلى الله عليه وآله دعيا الناس لبيعته و قتل من تخلف و هدم بيته و مصادره أمواله.

و نختمت الكلام بما ذكره ابن عساكر - المؤرخ السننى المعروف - فى كتابه تأريخ دمشق أن عبد الله بن حنظله - و أبوه غسيل الملائكه من كبار صحابه النبي صلى الله عليه وآله - خاطب الناس حين أمر يزيد مسلم بن عقبه بالهجوم على المدينه فقال: يا قوم اتقوا الله وحده لا شريك له، فوالله ماخرجنا على يزيد حتى خفنا أن نرمى بالحجاره من السماء - إن رجلا ينكح الأمهات و البنات و الأخوات و يشرب الخمر و يدع الصلاه - و الله لو لم يكن معى أحد من الناس لأبليت لله فيه بلاء حسناً. (١)

و هنا نقف على عمق كلام أمير المؤمنين عليه السلام «لكل أمه آفه، و آفه هذه الأمه بنو أميه» (٢) و يالهم من جهال أولئك الذين يطرون معاويه و يتغنون بأمجاد بنى أميه رغم هذه الفجائع.

ص: ٢١٤

١-١) تاريخ دمشق لابن عساكر ١٢/١٢٧.

٢-٢) كتر العمال ١١/٣٦٤ ح ٣١٧٥٥.

ومن خطبه له عليه السلام

فى التهيد من الدنيا

نظرة إلى الخطبة

تفيد بعض الروايات أنّ الإمام عليه السلام خطب بهذه الخطبة فى صلاه الجمعة، فأوصى فيها الناس بالزهد فى الدنيا، وقد صور غدرها وتقلب أحوالها بالشكل الذى جعل طلابها يمجونها ولا يركنون إليها؛ ولا سيما أنّه تحدث عن أولئك الذين يذرفون الدمع حزناً على فقد أعزتهم، وآخرين يعزونهم، وطائفه من الناس قد رقدت على فراش المرض تنتظر الموت، بهدف إيقاظهم من غفلتهم وسيطره أهوائهم وهوسهم. فالخطبة موعظه لمرضى القلب من عبده الدنيا.

ص: ٢١٥

١ - ١) سند الخطبة: رواها قبل السيد الرضى (ره) جامع نهج البلاغه زيد بن وهب (وهو من أصحاب أمير المؤمنين على عليه السلام الذى نقل جانباً من خطبه عليه السلام فى كتابه خطب أمير المؤمنين على المنابر فى الجمع والأعياد وغيرهما، وهو أول كتاب صنفه بهذا الشأن) ونقلها عنه المرحوم المحدث النورى فى مستدرک الوسائل باختلاف قليل، ورواها المرحوم الصدوق فى كتابيه معانى الأخبار ومن لا يحضره الفقيه. كما رواها عدد آخر ممن عاش بعد السيد الرضى (ره). (مصادر نهج البلاغه

[١]. (٣/١٩٦)

«نَحْمَدُهُ عَلَى مَا كَانَ، وَنَسْتَعِينُهُ مِنْ أَمْرِنَا عَلَى مَا يَكُونُ، وَنَسْأَلُهُ الْمُعَافَاةَ فِي الْأَدْيَانِ، كَمَا نَسْأَلُهُ الْمُعَافَاةَ فِي الْأَبْدَانِ» .

الشرح والتفسير

إستهل الإمام عليه السلام خطبته بحمد الله والثناء عليه لتتهى القلوب لسماع الكلمات القادمة فى الوعظ والنصح، فقال عليه السلام: «نحمده على ما كان» فمفهوم هذه العبارة واسع شامل، حيث تشمل النعم التى يفيضها الله سبحانه وتعالى على العباد، كما تشمل الحوادث المريره والأليمه. وذلك لأنَّ خاصه عباد الله تعد كل ما صدر من الله نعمه ورحمه، فترى عليها شكره على كل حال.

ثم قال عليه السلام: «ونستعينه من أمرنا على ما يكون»، فمن الطبيعى أن يكون الحمد والثناء على الماضى، والاستعانه على المستقبل، وهذا هو ديدن العباد المخلصين الذى يكمن فى شكر البارئ على ما كان والاستعانه به على ما يكون.

ثم قال عليه السلام: «ونسأله المعافاه فى الأديان، كما نسأله المعافاه فى الأبدان»، فالعبارة إشاره إلى نقطه لطيفه وهى أنَّ الناس لو أولوا سلامه دينهم ذات الأهميه التى يولونها لسلامه ابدانهم ودنياهم، لأخذوا العافيه بطرفيها ونجوا. إلَّا أنَّ المؤسف له أنَّ الإنسان قد يتعرض إلى مرض بسيط فتراه يراجع عدداً من الأحياء، بينما لا يتجه إلى طبيب واحد حتى لو أصابته عشرات الأمراض الروحيه والأخلاقية الخطيره.

هذا وقد أورد بعض شراح نهج البلاغه عن بعض المفكرين قوله لو سكبت عشر هذه الدموع التى تسكب على البطون الجائعه والأبدان العاريه على الأرواح الجائعه للمعرفه

والعاريه من الفضائل لزال كل هذا الجوع والعري البدني، كما زال كل هذا الجوع والعري المعنوي. (١)

جدير بالذكر أن الأديان بصيغه الجمع إشاره إلى تدين أفراد البشر، لامختلف الأديان، على غرار الأبدان جمع البدن.

ص: ٢١٨

١-١ شرح نهج البلاغه العلامة الجعفرى ١٨/٩.

«عِبَادَ اللَّهِ، أَوْصِيَكُمْ بِالرَّفْضِ لِهَذِهِ الدُّنْيَا التَّارِكَةِ لَكُمْ وَإِنْ لَمْ تُحِبُّوا تَرْكَهَا، وَالْمُئْتَبِرِ لِأَجْسَامِكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ تَحْبُونَ تَجْدِيدَهَا، فَإِنَّمَا مَثَلُكُمْ وَمَثَلُهَا كَسَيْفٍ سَلِكُوا سَبِيلًا فَكَأَنَّهُمْ قَدْ قَطَعُوهُ، وَأُمُّوا عَلِمًا فَكَأَنَّهُمْ قَدْ بَلَّغُوهُ. وَكَمْ عَسَى الْمُجْرِي إِلَى الْغَايَةِ أَنْ يَجْرِيَ إِلَيْهَا حَتَّى يَبْلُغَهَا! وَمَا عَسَى أَنْ يَكُونَ بَقَاءٌ مَنْ لَهُ يَوْمٌ لَا يَعِيدُوهُ، وَطَالِبٌ حَيْثُ مِنَ الْمَوْتِ يَحِيدُوهُ وَمُزْعِجٌ فِي الدُّنْيَا حَتَّى يُفَارِقَهَا رَغْمًا! فَلَمَّا تَنَافَسُوا فِي عِزِّ الدُّنْيَا وَفَخَّرَهَا، وَلَا تَعْجَبُوا بِزَيْنَتِهَا وَنَعِيمِهَا، وَلَا تَعْزَعُوا مَنْ ضَرَّائِهَا وَبُؤْسِهَا، فَإِنَّ عِزَّهَا وَفَخْرَهَا إِلَى انْقِطَاعٍ، وَإِنَّ زَيْنَتَهَا وَنَعِيمَهَا إِلَى زَوَالٍ، وَضَرَاءَهَا وَبُؤْسَهَا إِلَى نَفَادٍ، وَكُلُّ مُدَّةٍ فِيهَا إِلَى انْتِهَاءٍ، وَكُلُّ حَيٍّ فِيهَا إِلَى فَنَاءٍ» .

الشرح والتفسير

بعد أن حمد الإمام عليه السلام الله وأثنى عليه شرع في هذا المقطع من الخطبة حث الناس على الزهد في هذه الدنيا بعبارات نافذة مؤثره، إلى جانب تصويره لتفاهه هذه الدنيا فقال عليه السلام: «عباد الله أوصيكم بالرفض (١) لهذه الدنيا التاركة لكم وان لم تحبوا تركها» .

ويالها من فاجعه ان يسعى الإنسان بكل كيانه وذاته نحو معشوق يسعى بكل ما أوتي من قوه للهروب منه! فقد قال عليه السلام: إذا كانت الدنيا تاركة لكم فاتركوها، وان شق ذلك على

ص: ٢١٩

١- ١) «رفض» تعنى فى الأصل ترك الشىء، ومن هنا سميت الشيعة بالرافضة لتركها الخلفاء الثلاثة، وقيل استعملت هذه المفردة لأول مره على عهد زيد بن على، حيث نهاهم زيد عن سب الشيخين، ولهذا تركوه.

أهوائكم ورغباتكم، وذلك امتثالاً لقوله سبحانه: «وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ» (١)، فلعل هناك بعض الأمور التي تبدو حسنة الظاهر يجيها الإنسان، بينما تستبطن السم الزعاف.

ثم قال عليه السلام: «والمبليه (٢) لأجسامكم وإن كنتم تحبون تجديدها» .

فكل فرد يلاحظ على نفسه آثار العجز والتعب بمرور الزمان من قبيل ذهاب النشاط والحيوية وذبول الجلد وضعف العظام وضعف البصر وتقل السمع وتمتمه اللسان وانحناء الظهر وضعف العضلات والاعصاب وما إلى ذلك من الأمور التي تؤرق الإنسان وتجعله يشعر بالاسى والحزن. ومن هنا يسعى أحيانا وبشتى الوسائل لا استعاده حيويته ولكن هل يصلح العطار ما أفسد الدهر، طبعاً قد يحقق بعض النجاحات الطفيفة في هذا المجال، إلّا أنّ هناك مسيره لا بدّ له من اجتيازها والوصول إلى مصيره المحتوم، فهل من الصحيح أن يولى الإنسان ظهره لكل هذه الأمور ويتعلق بالدنيا؟! الجدير بالذكر أن الدنيا لا تبلى الكائنات الحيه ولاسيما بدن الإنسان فحسب، بل يشمل هذا القانون عالم المادة برتمه من المجرات حتى الذرات. بل حتى هذه الشمس المشرقة التي تبعث بأشعتها إلى كل مكان إنّما تبلى بالتدرّج حتى تنتهى يوماً إلى الزوال؛ الأمر الذي أشار إليه القرآن الكريم «تكوير الشمس» وأيده العلم الحديث.

ثم قال عليه السلام: «فانما مثلكم ومثلها كسفر (٣) سلكوا سبيلاً فكأنّهم قد قطعوه، وأموا (٤) علماً فكأنّهم قد بلغوه، وكم عسى المجرى (٥) إلى الغايه أن يجرى إليها حتى يبلغها» .

ثم أكد ذلك عليه السلام بقوله، كيف يمكن أن يؤمل البقاء من كان له يوم لا بدّ من بلوغه ولا يمكنه تجاوزه، والموت يجرى خلفه ليسوقه إلى حتفه وان كان كارها: «وما عسى أن يكون بقاء من له يوم لا يعدوه، وطالب حثيث (٦) من الموت يحدوه (٧)، ومزعج (٨) في الدنيا حتى يفارقها رغماً (٩)» .

ص: ٢٢٠

١-١ (١) سورة البقره/٢١٦. [١]

٢-٢ (٢) «مبليه» من ماده «بلاء» منهكه.

٣-٣ (٣) «سفر» جمع «مسافر» بمعنى مسافر.

٤-٤ (٤) «أموا» من ماده «أم» على وزن غم القصد.

٥-٥ (٥) «مجرى» من ماده «اجراء» كناية عن المسافر، وقد وردت في تفسيره عدّه أقوال، الأنسب ما أوردناه في المتن.

٦-٦ (٦) «حثيث» من ماده «حث» بفتح الحاء السرعة في العمل.

٧-٧ (٧) «يحدوه» من ماده «حدى» يسوق.

٨-٨ (٨) «مزعج» من ماده «ازعاج» السوق والاضطراب والاجتثاث.

٩-٩ (٩) «رغم» بمعنى الاجبار، ومنه تمرّغ الأنف بالتراب حين يضاف للأنف فيقال رغم أنفه.

فالعبارات بمجموعها تكشف النقاب عن ذات الحقيقه وهى تقلب الدنيا وانعدام قيمتها؛ الحقيقه التى يغفلها أغلب الناس، فتقودهم هذه الغفله إلى البؤس والشقاء والحرمان من السعاده.

ثم يخلص الإمام عليه السلام من هذا البحث بشأن تفاهه الدنيا إلى نتيجته ينبغى أن يبلغها الجميع، وهى مادامت الدنيا كذلك فلا ينبغى اضاعه الجهود من أجل الحصول على مفاخرها الزائفه وعزتها الموهومه، كما لا ينبغى الانخداع بزینتها وزخارفها الزائله، ولا-ينبغى الشعور بالامتعاظ والغصه على آلامها وأحزانها: «فلا تنافسوا (١) فى عز الدنيا وفخرها، ولا- تعجبوا بزینتها ونعيمها، ولا تجزعوا من ضررائها وبؤسها» .

وذلك لأنّ فخرها آيل إلى الزوال ونعمتها إلى الفناء، وآلامها إلى انقضاء «فان عزها وفخرها إلى انقطاع، وان زینتها ونعيمها إلى زوال، وضرائها ويؤسها إلى نفاذ (٢)، كل مده فيها إلى انتهاء، وكل حى إلى فناء» .

فقد ركز الإمام عليه السلام فى هذه العبارات الرائعه على عزه الدنيا وفخرها ونعمها وزینتها وآلامها ومصائبها، ليرى فناء كل شىء فيها وزواله، ثم عرض لقانون كلى إلى أنّ كل عز فيها إلى انقطاع وزينه ونعيم إلى زوال وضرء وبؤس إلى نفاذ وكل مده فيها إلى انتهاء، وكل حى فيها إلى فناء؛ فاذا كان الأمر كذلك فما معنى كل هذا النزاع والتنافس والجزع؟! فقد صرح أحد شراح نهج البلاغه بأن الماضين قد ذهبوا وأصبحوا ترابا واننا لنطى ترابهم ثم نكون مثلهم، ثم يعبر علينا الآخرون من بعدنا. ومع كل هذا لا نفيق من غفلتنا!! وما أروع حديث الإمام الباقر عليه السلام الذى شبه نعم الدنيا بالمال الذى يراه النائم فان نهض من نومه لم ير شيئاً: «أو كمال وجدته فى منامك، فاستيقظت وليس معك منه شىء» (٣).

أو كما صورها الشاعر: ألا إنّما الدنيا كمنزل راكب أناخ عشياً وهو فى الصبح راحل

وكل شباب، أو جديد إلى البلاء وكل امرء يوماً إلى الله صائر

ص: ٢٢١

١- ١) «تنافسوا» من ماده «تنافس» بمعنى بذل الجهد والسعى، ومحاولة شخصين او مجموعتين للحصول على شىء نفيس.

٢- ٢) نفاذ بمعنى الفناء والزوال.

٣- ٣) بحار الانوار ٧٠/٣٦. [١]

«أُولَئِكَ لَكُمْ فِي آثَارِ الْأَوَّلِينَ مُرَدِّجٌ، وَفِي آيَاتِكُمُ الْمَاضِيْنَ تَبَصُّرَةٌ وَمُعْتَبِرٌ، إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ! أَوْلَمْ تَرَوْا إِلَى الْمَاضِيْنَ مِنْكُمْ لَا يَرْجِعُونَ، وَإِلَى الْخَلْفِ الْبَاقِيْنَ لَا يَبْقَوْنَ! أَوْلَسْتُمْ تَرَوْنَ أَهْلَ الدُّنْيَا يُصْبِحُونَ وَيُمْسُونَ عَلَى أَحْوَالٍ شَتَّى: فَمَيِّتٌ يُنْكِي، وَآخِرٌ يُعْزِي، وَصَرِيحٌ مُبْتَلِيٌّ، وَعَائِدٌ يَعُودُ، وَآخِرٌ بِنَفْسِهِ يَجُودُ، وَطَائِبٌ لِلدُّنْيَا وَالْمَوْتِ يُطَلِّبُهُ، وَعَاقِلٌ وَلَيْسَ بِمَغْفُولٍ عَنْهُ؛ وَعَلَى أَثَرِ الْمَاضِيِّ مَا يَمْضِي الْبَاقِي!».

الشرح والتفسير

واصل الإمام عليه السلام هذا المعلم الرباني العظيم كلامه السابق من أجل نفخ اليقظه في هذه الأرواح التي تعيش السبات والغفله من خلال للدنيا وتقلب أحوالها فقال عليه السلام: «أوليس لكم في آثار الأولين مزدجر (1)، وفي آباءكم الماضين تبصره ومعتبر، ان كنتم تعقلون» .

ثم وضع عليه السلام هذه العبارة بقوله: «أولم تروا إلى الماضين منكم لا يرجعون، وإلى الخلف الباقين لا يبقون» .

إشاره إلى قانون الموت والفناء؛ القانون العام الشامل الذي ليس فيه أى إستثناء، فمن ذهب لا يعود، ومن بقى فهو سائر اثر تلك القافله إلى الزوال وعدم العوده. مع هذا الفارق وهو أنّ البعض فى الصفوف المقدمه والبعض الآخر فى الصفوف المؤخره؛ على غرار عباراته التي

ص: ٢٢٣

(١-١) مزدجر من ماده زجر المانع، مصدر ميمي بمعنى اسم الفاعل.

خاطب بها الأموات ممن دفنوا ظهر الكوفه: «أنتم لنا فرط سابق، ونحن لكم تبع لاحق» (١).

ثم خاض عليه السلام في بيان هذا الكلام بعبارات أدق وأوضح و تحليل دقيق و بليغ بعد أن قسم أحوال أهل الدنيا في مصابهم بالحوادث إلى سبعة أقسام ليقول: «أولستم نزون أهل الدنيا يصبحون ويمسون على أحوال مشتى: فميت يبكى، وآخر يعزى، وصريح مبتلى، وعائد (٢) يعود، وآخر بنفسه يجود (٣)، وطالب للدنيا والموت يطلبه، وغافل وليس بمغفول عنه؛ وعلى أثر الماضي مايمضى الباقي» .

يا لها من عبارات رائعة وشامله عظيمه التأثير إذا استطاع الإنسان أن يتمثل صورها للناس وهم يتحركون؛ فهذا يموت ويبكى عليه، وهنالكم مجلس للغزاء تتوافد عليه الناس جماعات ليعزوا ذوى الفقيده. وهناك من رقد على فراش المرض وقد عاده جمع من الاخوه والأصدقاء. وهناك من يعالج سكرات الموت ويحتضر وليس لأحد أن يفعل له شيئاً. وهناك صوره أخرى يطالعك فيها الناس وهم يسارعون في الركض والحركه دون الالتفات إلى الحلال والحرام والمشروع والممنوع بغيه الحصول على شىء من حطام الدنيا؛ بينما كمن لهم الموت فى الطريق؛ وإذا به يباغتهم ليقضى على جميع آمالهم وأحلامهم. وبالتالي هناك فئه غافله مشغوله بالدائد العيش وسكر النعم والفرح والسرور دون أن تلتفت إلى الموت الذى ينتظرها؛ فاذا هجم الموت على أحدهم أحال فرحهم حزناً وغماً.

هذه هى صور الحياه السائده طيله تاريخ البشرىه وستكون كذلك، ويا لها من صور تنطوى على الدروس والعبر، إلا أن القله القليله من تعتبر.

ص: ٢٢٤

١- (١) نهج البلاغه، كلمات القصار ١٣٠.

٢- (٢) «عائد» من يذهب لعباده أحد.

٣- (٣) «يجود» من ماده «جود» السخاء، وتستعمل فى الاحتضار وكأن الإنسان يسخو بانفس ما لديه وهى روحه.

«أَلَا فَاذْكُرُوا هَيَادِمَ اللَّذَاتِ، وَمُنْعَصَ الشَّهَوَاتِ، وَقَطَاعَ الْأُمِّيَّاتِ، عِنْدَ الْمَسَاوِرَةِ لِلْأَعْمَالِ الْقَبِيحَةِ، وَاسْتَعِينُوا اللَّهَ عَلَىٰ أَدَاءِ وَاجِبِ حَقِّهِ، وَمَا لِأَيْحَصَىٰ مِنْ أَعْدَادِ نِعْمِهِ وَإِحْسَانِهِ» .

الشرح والتفسير

أشار الإمام عليه السلام في ختام هذه الخطبة الفصيحة والبلیغه النافذه إلى نقطتين تكملان البحث السابق:

الأولى: الإشارة إلى الموت الذى يدعو ذكره إلى يقظه الإنسان من سباته وغفلته: «ألا- فاذكروا هادم اللذات، ومنغص (١) الشهوات، وقاطع الامنيات، عند المساوره (٢) للأعمال القبيحه» .

فقد وصف الإمام عليه السلام الموت هنا بثلاث: الأول: أنه هادم اللذات؛ لأن أغلب الناس يفنون أعمارهم ليوفرا لأنفسهم العيش الهنيئ واللذيد، بالضبط فى الوقت الذى تهجم فيه الأمراض على الإنسان وترديه ميتاً. أضف إلى ذلك كثيراً ما تشاهد مجالس السرور واللذذ وقد تعكرت وتبدلت عزاءا إثر بعض الحوادث، والعجيب ليس هنالك من ضمانه لأحد بعدم وقوع هذه الحوادث.

ص: ٢٢٥

١- ١) «منغص» من ماده «نغص» على وزن نقص بمعنى ليس عذب، وبمعنى اعتراض الماء فى الحلق، ثم اطلقت على الحياه الصعيه ونحو ذلك.

٢- ٢) «مساوره» من ماده «سور» على وزن غور الموائبه، كأنه يرى العمل القبيح لبعده عن ملاءمه الطبع الإنسانى بالخطره ينفر عن مقترفه كما ينفر الوحش، فلا يصل إليه المغبون إلا بالوثبه عليه.

الثانى: منغص الشهوات؛ لأن الموت - الذى ليس له من زمان معين ولا- يمكن التكهّن به قط - يهجم على الإنسان فى تلك اللحظه التى ينعم فيها بالشهوات.

الثالث: قاطع الامنيات؛ فامانى الإنسان كثيره طويله لاتعرف الحدود ولا يقطعها ويعطلها سوى الموت. فهذه العبارات على درجه من القوه. بحيث تؤثر على كل إنسان. و الرائع أنه قال «الافاذكروا هادم اللذات... عند المساوره للأعمال القبيحه» إشاره إلى أن القبائح كثيرا ما تترين بحيث يهجم عليها الإنسان كالوحش الذى ينقض على فريسته - ففى هذه اللحظه يمكن أن يصدّه عن ذلك ذكر الموت.

ثم أوصى عليه السلام بذكر نعم الله التى تحول دون ارتكاب الذنوب على أنها العامل الثانى الذى يصد عن المعاصى «واستعينوا الله على أداء واجب حقه، وما لا يحصى من أعداد نعمه وإحاسنه» .

فشكر المنعم لا يؤدي إلى معرفه الله فحسب، بل يلعب دوراً مباشراً فى دفع الإنسان لاداء الواجبات وترك المحرمات.

تأملان

١ - خداع الدنيا محدود

يزعم أغلب الناس أن الدنيا خادعه بزيتها وزخرفها؛ وقد أشير إلى هذا المعنى فى الآيات القرآنيه والروايات الإسلاميه. إلّا أننا إذا فكرنا بصوره سليمه لتوصلنا إلى أنّ هذا الخداع إنّما يطيل السذج والحمقى من الناس. وهذا ما أورده الإمام عليه السلام حيث صور الدنيا وقد ملئت بحوادث الغدر والخيانه والتنكر والتقلب. كما حفلت بالآف الصور التى تبعث على الاعتبار من قبيل المرض والموت والعزاء والحوادث الاليمه وماشاكل ذلك، فهل خادعه هى الدنيا وهى بهذه الصفات.

ومن هنا قال عليه السلام وقد سمع رجلاً يذم الدنيا، أيها الدام للدنيا، المغتر بغرورها، المخدوع بأباطيلها! أتغتر بالدنيا ثم تدمها؟ أنت المتجرم عليها، أم هى المتجرمه عليك؟ متى استهوتك، أم متى غرتك؟ أمصارع آباتك من البلى أم بمضاجع أمهاتك تحت الثرى؟ كم عللت بكفيك،

وكم مرضت بيديك! تبتغى لهم الشفاء، وتستوصف لهم الأطباء، غداه لا يغنى عنهم دواؤك، ولا يجدى عليهم بكاؤك. (١)

كما قال عليه السلام: مثل الدنيا كمثل الحيه لين مسها، والسم الناقع فى جوفها، يهوى اليها الغر الجاهل، ويحذرها ذواللب العاقل.

(٢)

٢ - أكيس الناس

ورد فى بعض الروايات سئل رسول الله صلى الله عليه وآله من أكيس المؤمنين؟

فقال صلى الله عليه وآله: «أكيس المؤمنين أكثرهم ذكرا للموت، وأشدهم له استعدادا» (٣).

وفى حديث آخر عنه صلى الله عليه وآله تحت عنوان: «أكيس الناس وأحزمهم» جاء فى آخره: «أولئك الأكياس ذهبوا بشرف الدنيا وكرامه الآخرة» (٤).

والدليل على ذلك واضح لأن ذكر الموت وفناء الحياه عامل مهم فى الصد عن الذنوب والمعاصى التى تنشأ عاده من حب الدنيا والتعلق بزخارفها والحرص والطمع الذى ينسى ذكر الموت والآخرة «فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْمِكِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ» (٥).

ومن الأمور التى حث عليها الإسلام زياره القبور التى تهدف إلى احترام أرواح الأموات من المؤمنين، إلى جانب كونها من العوامل المهمه فى إيقاظ الإنسان، حيث لا يملك الإنسان هناك سوى الأذعان لهذه الحقيقه. كل فتى وان طالت سلامته لا بد يوماً على آله الحدباء محمول

ص: ٢٢٧

١-١) نهج البلاغه، [١] كلمات القصار ١٣١.

٢-٢) نهج البلاغه، [٢] كلمات القصار ١١٩.

٣-٣) ميزان الحكمه ٣/ ح ١٨٠١٣.

٤-٤) ميزان الحكمه ٣/ ح ١٨٠١٤.

٥-٥) سوره العنكبوت/ ٦٥. [٣]

ومن خطبه له عليه السلام

فى رسول الله وأهل بيته عليه السلام

نظرة إلى الخطبه

كما أشرنا فى سند الخطبه فإن الإمام عليه السلام خطبها أوائل خلافته. حيث استهلها بحمد الله والثناء عليه، ثم تطرق إلى رساله النبى صلى الله عليه وآله وضروره طاعته واتباعه. ثم أشار عليه السلام إلى بعض الأخبار عنه وعن أهل العراق فقال: فاذا أنتم ألتم له رقابكم، وأشرتم إليه باصابعكم، جاءه الموت فذهب به.

ثم يختتم الخطبه بالحديث عن عظمه آل محمد صلى الله عليه وآله وبركتهم واستمرار هدايتهم، و كلما ذهب منهم أحد خلفه آخر.

ص: ٢٢٩

١ - ١) سند الخطبه، لابن أبى الحديد كلام فى هذه الخطبه يدل على أنه نقلها من مصدر آخر غير نهج البلاغه فقد قال: واعلم أن هذه الخطبه خطب بها أمير المؤمنين على عليه السلام فى الجمعه الثالثه من خلافته، وكنى فيها عن مال نفسه، وأعلمهم فيها أنهم سيفارقونه ويفقدونه بعد اجتماعهم عليه وطاعتهم له؛ وهكذا وقع الأمر، فإنه نقل أن أهل العراق لم يكونوا أشد اجتماعاً عليه من الشهر الذى قتل فيه عليه السلام. وجاء فى الأخبار أنه عقد للحسن ابنه عليه السلام على عشره آلاف، ولأبى أيوب الأنصارى على عشره آلاف ولفلان وفلان، حتى اجتمع له مائه ألف سيف، وأخرج مقدمته، أمامه يريد الشام فضربه اللعين ابن ملجم، وكان من أمره ما كان، وانفضت تلك الجموع، وكانت كالغنم فقدت راعيها. (مصادر نهج البلاغه ٢/١٩٨). [١]

«الْحَمْدُ لِلَّهِ النَّاشِرِ فِي الْخَلْقِ فَضْلَهُ، وَالْبَاسِطِ فِيهِمْ بِالْجُودِ يَدَهُ. نَحْمَدُهُ فِي جَمِيعِ أُمُورِهِ، وَنَسْتَعِينُهُ عَلَى رِعَايَةِ حُقُوقِهِ، وَنَشْهَدُ أَنَّ لَأِلَهَ غَيْرُهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، أَرْسَلَهُ بِأَمْرِهِ صَادِعًا، وَيَذْكُرُهُ نَاطِقًا، فَأَدَّى أَمِينًا، وَمَضَى رَشِيدًا؛ وَخَلَفَ فِيْنَا رَايَةَ الْحَقِّ، مَنْ تَقَدَّمَهَا مَرَقَ، وَمَنْ تَخَلَّفَ عَنْهَا زَهَقَ، وَمَنْ لَزِمَهَا لِحَقَّ، دَلِيلُهَا مَكِيثُ الْكَلَامِ، بَطِيءُ الْقِيَامِ، سَرِيعٌ إِذَا قَامَ، فَإِذَا أَنْتُمْ أَنْتُمْ لَهُ رِقَابِكُمْ، وَأَشْرُتُمْ إِلَيْهِ بِأَصَابِعِكُمْ، جَاءَهُ الْمَوْتُ فَذَهَبَ بِهِ، فَلَبِثْتُمْ بَعْدَهُ مَا شَاءَ اللَّهُ حَتَّى يُطَلَعَ اللَّهُ لَكُمْ مَنْ يَجْعَلُكُمْ وَيَضُمُّ نَشْرُكُمْ، فَلَا تَطْمَعُوا فِي غَيْرِ مُقْبِلٍ، وَلَا تَيْأَسُوا مِنْ مُدْبِرٍ، فَإِنَّ الْمُدْبِرَ عَسَى أَنْ تَزَلَ بِهِ إِحْدَى قَائِمَتِيهِ، وَتَثْبِتَ الْأُخْرَى، فَتَرْجِعَا حَتَّى تَثْبِتَا جَمِيعًا» .

الشرح والتفسير

لاشك أن الهدف الأصلي للخطبة بيان أوصاف رسول الله صلى الله عليه وآله ومقامات أهل بيته عليهم السلام، ولكن وعلى ضوء الحديث المعروف: «أن كل خطبه ليس فيها تشهد فهي كاليد الجذماء» (1)، فإن الإمام عليه السلام إستهل كلامه بحمد الله والثناء على والشهادة له بالوحدانيه وللرسول الأكرم صلى الله عليه وآله بالنبوه، لتستنير القلوب بهاتين الشهادتين وتأهب لسماع المطالب القادمه. فقال عليه السلام: «الحمد لله الناشر في الخلق فضله، والباسط فيهم بالجوود يده» .

ص: ٢٣١

فوصف بالله بهذه الصفات هو فى الواقع دليل على تفرده سبحانه بكل حمد وثناء، نعم فهو الجدير بكل مدح وحمد وثناء، كيف لا وقد عم فضله وانتشر جوده وملأت أركان العالم نعمه وآلائه. ولا ينبغي ذلك لمن سواه، فهم عيال على نعمه.

ثم أشار إلى سعه حمده و الثناء عليه قال عليه السلام: «نحمده فى جميع أمورهم، ونستعينه على رعايه حقوقه» .

فالعباره «جميع أمورهم» تفيد أننا لانحمده عند النعم والرفاه والدعه والعافيه فحسب، بل نحمده ونشكره فى البلاء والشده وحين الوقائع الخطيره، وذلك لأنه أولاً: كل ما يفعله الله يتفق والحكمه والمصلحه، حتى المصائب التى تصب علينا إختباراً فهى كفاره لذنوبنا، أو أنها سبب ليقظتنا من نوم الغفله.

وثانياً: أن هذه الحوادث تجعلنا ننال أجر وثواب الصابرين وجزاء الشاكرين وهذه نعمه كبرى.

والعباره «ونستعينه. . .» أى إننا يجب أن نستمد العون منه لطاعته وإمتثال أوامره ورعايه حقوقه، حيث لايسعنا فعل شىء دون عونهم، وهذا ما نردده ليل نهار فى صلواتنا «إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ» ولما فرغ عليه السلام من حمد الله والثناء عليه، شهد الله بالوحدانيه وأن لا- معبود سواه «ونشهد أن لا- إله غيره» . لأننا إذ سلمنا أن النعم منه، فإن العبوديه والطاعه لاتليق الا به سبحانه وبذاته المقدسه.

ثم اتبعها بالشهاده للنبي صلى الله عليه و آله بالنبوه والعبوديه: «وأن محمدا عبده ورسوله» أما تقديم العبوديه على الرساله، فتنفيذ فيها لكافه أنواع الشرك عن المؤمنين، إلى جانب كون مقام العبوديه أفضل وأسمى من مقام النبوه! لأن العبد الكامل المخلص لله يرى تمام وجوده لله، فلايفكر فى سواه ولايرجو غيره، وهذا بحد ذاته أوج تكامل الإنسان الذى ليس بعده من مقام. ثم أشار عليه السلام إلى بعض صفات النبي الأكرم صلى الله عليه و آله فى أنه صدح بالحق، وأدى رسالته بكل أمانه حتى مضى إلى ربّه بعد أن ثبت دعائم الحق: «أرسله بأمره صادعاً، (1)وبذكره ناطقاً،

ص: ٢٣٢

١- ١) «صادع» من ماده «صدع» فالقابه، كما وردت هذه المفرده بمعنى الاظهار والاعلان، حيث يظهر باطن الشىء عند فلقه وهذا ما اريد بها فى العباره، وأما «الصداع» الذى يطلق على وجع الرأس فكأنه يريد أن يفلقه.

فأدى أميناً، ومضى رشيداً؛ وخلف فينا رايه الحق» .

فقد أشار الإمام عليه السلام بهذه العبارة إلى الخدمات الجليلة التي أسداها النبي الأكرم صلى الله عليه وآله، إلى جانب ابلاغه لأوامر الحق ونواهيه، كما شرح من جانب آخر كل ما يلزم لمعرفة الله سبحانه، وأنه صلى الله عليه وآله كان أميناً في قيامه بهذه المهمة في أداء الرسالة، كما عمل صلى الله عليه وآله بما قال ليكون للأخرى أسوة صالحه، كما كان حريصاً على الأجيال القادمة فنصب لهم رايه الحق، حيث خلف في الأمة كتاب الله وسنته.

واختلف الشراح في تفسير المراد بقوله: «رايه الحق» فذهب البعض الر أن المراد به القرآن الكريم، وقيل الكتاب والسنة، كما فسر بالكتاب والعترة اللذان وردا في حديث الثقلين.

إلّا أنّ تفسيرها بالكتاب والسنة (لأنّ الكتاب دعا إلى السنة) أنسب بالنظر لتصدر الكلام بالعبارة: «دليلها مكيبث الكلام» .

ثم أضاف عليه السلام قائلاً: «من تقدمها مرق (١)، ومن تخلف عنها زهق (٢) ومن لزمها لحق» .

فالعبارة تشير إلى كيفية التعامل الطوائف الثلاث من الناس مع الحق: طائفه مفرطه تتقدم على الحق فتصيبها الحيره والضلال كالخوارج الذين ذهب بهم الظنون بأنهم إنّما يعملون بالقرآن فتقدموا على إمام زمانهم فعاشوا بحماقتهم ذلك التناقض، أو كأولئك الذين كانوا على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله فرأوه أفطر حين سافر فزعموا أنّهم لا يفطرون رعايه طرحه شهر رمضان حتى تسموا بالعصاه (٣) الطائفه الثانيه من أهل التفريط الذين يتقدمون بضع خطوات في الحق ثم تحول أهوائهم وضعفهم دون مواصلة الطريق.

والطائفه الثالثه الملازمه للحق التي لا تتقدم عليه ولا تتخلف عنه؛ فهي تتحرك دائماً في ضل الحق حتى تبلغ أهدافها. (٤)

ص: ٢٣٣

١ - ١) «مرق» من ماده «مروق» على وزن غروب الخروج عن الدين، ومن هنا اطلق الخوارج على تلك الفرقة التي خرجت عن الإيمان.

٢ - ٢) «زهق» من ماده «زهوق» الاضمحلال والهلكه.

٣ - ٣) وسائل الشيعه ٧/١٢٥، ح ٧ (ابواب من يصح منه الصوم) .

٤ - ٤) يمكن أن يكون مفعول لحق كتاب الله أو رسول الله أو الحق أو جميعها.

ثم قال عليه السلام: «دليلها مكيث (١) الكلام، بطييء القيام، سريع إذا قام» .

والسؤال الذى يطرح نفسه هنا: هل المراد بالدليل فى العبارة حامل الرايه؟ أم الشخص الذى يتحرك فى مقدمه العسكر والعارف بالطريق الذى يهدى الآخرين إلى جاده الصواب؟

يبدو الاحتمال الأول هو الاقوى، لأنّ حامل الرايه ينهض بمسؤوليه الهدايه أيضاً، والعسكر مكلف باتباعه أينما حل.

على كل حال فقد صرح أغلب شرّاح نهج البلاغه أنّ المراد به شخص أمير المؤمنين عليه السلام أو جميع أهل البيت عليهم السلام؛ فقد قرنوا عليه السلام - حسب حديث الثقلين - بالقرآن وأنهم لن يفترقوا عنه أبداً، حيث جاء فى الحديث: «إني تارك فيكم الثقلين ما أن تمسكتم بهما لن تضلوا بعدى أبداً كتاب الله وعترتى أهل بيتى وقد نبأنى اللطيف الخبير أنّها لن يفترقا حتى يردا على الحوض، فانظروا كيف تخلفوني فيهما» .

وأمرالمؤمنين على عليه السلام من قال له رسول الله صلى الله عليه و آله حسب مصادر الفريقين: «انت مع الحق والحق معك حيثما دار» (٢).

فقد كان عليه السلام القرآن الناطق ومبين سنه رسول الله صلى الله عليه و آله.

والعبارة «مكيث الكلام» لا تعنى أنّه قليل الكلام؛ بل تعنى تريثه فى الكلام، وبعباره أخرى أنّه رزين فى كلامه فلا يبادر من غير رويه. والعبارة «بطيئى القيام، سريع إذا قام» تأكيد لهذا المعنى وهو أنّ أعماله هى الاخرى رزينه كأقواله، فلا يعجل فى قيامه بالأعمال، ولكن إذا حان العمل لم يفوت الفرصه، فيقدم عليه بكل صرامه دون أدنى ترديد. والحق أنّ من عرف

ص: ٢٣٤

١- ١) «مكيث» من ماده «مكث» الرزين فى قوله فلا يبادر من غير رويه فى قوله وعمله.

٢- ٢) نقل هذه الحديث عن أم سلمه بطرق مختلفه عن النبى الأكرم صلى الله عليه و آله. ومن ذلك نقله ابن عساكر فى تاريخ دمشق وأبوبكر البغدادي فى تاريخ بغداد والحموى فى فرائد السمطين. وجاء فى صحيح الترمذى أنّ رسول الله صلى الله عليه و آله قال «اللهم أدر الحق معه حيثما دار» (للقوف على تفاصيل هذا الحديث راجع كتاب احقاق الحق ٥/٦٢٣ [١] والغدير ٣/١٧٦). [٢] والطريف مانقله الفخر الرازى فى تفسير سوره الحمد فى مورد الجهر بالبسمله عن البيهقى عن أبى هريره ان رسول الله صلى الله عليه و آله كان يجهر بالبسمله، ثم قال: كما كان يجهر بها عمر وابن عباس وعبدالله بن عمر وعبد الله بن الزبير أمّا على عليه السلام فقد ثبت بالتواتر أنّه كان يجهر بالبسمله دائماً، فمن اقتدى به فى دينه هدى إلى الحق والدليل على ذلك حديث النبى صلى الله عليه و آله أنّه قال: «اللهم أدر الحق مع على حيث دار» (تفسير الفخر الرازى ١/٢٠٤ - ٢٠٥).

سيره أمير المؤمنين على عليه السلام يذعن بهذه الصفات التي انطوت عليها شخصيته. فقد تواتر عليه بعض الأفراد بعد رحيل النبي صلى الله عليه وآله وناشدوه القيام؛ إلا أنه لم يجبههم بسبب عدم توفر الشرائط اللازمة إلى جانب خشيته من الأعداء المتربصين بالإسلام، بينما نهض بالأمر لما تغيرت الظروف.

وهناك شواهد أخرى كثيرة وردت في كلماته عليه السلام بهذا الشأن (١).

ثم قال عليه السلام: «فاذا أنتم أنتم له رقابكم، وأشرتم إليه باصابعكم، جاءه الموت فذهب به» .

إشاره إلى أنه يعاني الأمرين حتى يجمعكم تحت رايته، وتسلمون لإمامته بحيث تشيرون إليه من كل جانب، ولكن ما أن تتمهد مقومات الاتحاد وعناصر النصر والغلبة حتى تأخذه يد القدر منكم فتتفرقون ثانيه ويتسلط عليكم الأعداء.

ولعل العبارة إشارة لما أوردناه سابقاً في سند الخطبة في أن الناس اجتمعوا على الإمام عليه السلام في الشهر الذي قتل فيه بحيث اجتمع له مائة الف سيف، عقد كل عشرة آلاف لرجل، فخرج عليه السلام يريد الشام، فحال ابن ملجم بينه وبين ذلك. إلا أن بعض شراح نهج البلاغة فسروها بعصره عليه السلام، إلا أن هذا التفسير يبدو بعيداً، وذلك لأن العبارات قبل هذه الجملة تفيد خلاف هذا المعنى، ولا سيما أن الخطبة بعد خلافه عليه السلام وفيها اشارات إلى المستقبل.

ثم حاول الإمام عليه السلام الحيلولة دون شعور أصحابه باليأس، فبشرهم بالنصر القادم قائلاً: «فليتيم بعده ما شاء الله حتى يطلع الله لكم من يجمعكم، ويضم نشركم» .

أمّا من المقصود بهذا القيام؟ فقد أورد الشراح احتمالين: أحدهما: أن يكون المراد قيام الإمام المهدي عليه السلام، والآخر قيام بنى العباس الذي أنهى حكمه بنى أمية واجتث جذور ظلمهم وفسادهم، وان ما رسوا بدورهم نوعاً آخر من الجرائم والجنايات. ويبدو الاحتمال الأول أنسب، فلم تكن لبنى العباس مثل هذه الجداره في عباراته عليه السلام، كما لم تكن جنایاتهم بحق شيعه على عليه السلام وأهل العراق بأقل من جنایات بنى أمية. أضف إلى ذلك فالكلام في رافع رايه

ص: ٢٣٥

١-١) راجع شرح الخطبة الخامسة والسادسه من المجلد الأول من هذا الكتاب.

الحق، ومن المسلم به أنّ رايه بنى العباس كانت باطله.

كما قيل فى تفسير العبارة المذكوره أنّ المراد بذلك الاجتماع لأصحابه هو الاجتماع الفكرى والثقافى إلى جانب الاجتماع السياسى والعسكرى، وهو المعنى الذى تحقق على عهد الإمام الباقر والصادق والرضا عليه السلام، والعبارات الأخيره من الخطبه إنّما تؤيد هذا المعنى.

إلّا أنّ هذا الاحتمال يبدو مستبعداً بالنظر إلى عدم انسجام هذا التفسير مع العبارات السابقه التى أشارت إلى الاجتماع السياسى والعسكرى. ولكن على كل حال، فالهدف من هذه العبارة نفى ما يسيطر على الأفكار عاده بعد الهزيمه و هو اليأس و التشاؤم. فوصفها بأنها أمواج عابره و هنالك المستقبل المشرق الذى ينتظر المجتمع الإسلامى. و من هنا ذكر ما يؤيد ذلك.

ثم قال عليه السلام: «فلا تطمعوا فى غير مقبل، ولا تيأسوا من مدبر، فإنّ المدبر عسى أن تنزل به إحدى قائمتيه، وتثبت الأخرى، فترجعا حتى تثبتا جميعاً» .

قالوا هو أنّ الإمام عليه السلام بين قاعدتين كليتين لا بدّ من الاهتمام بهما فى الحوادث الصعبه: الاولى: لا ينبغى التفاؤل المفرط فى مثل هذه الحالات والاعتماد على شىء لم تتوفر بعد مقدماته.

الثانيه: ألا تدعو الهزيمه إلى اليأس والقنوط - فيشبهه الإمام عليه السلام ذلك بمن يتحرك فى جاده فتزل إحدى قدميه، فيظن الناس أنّه سقط ولا سبيل إلى قيامه ثانيه، إلّا أنّه سرعان ما يعتمد على قدمه الأخرى فينهض من سقطته ويجد فى الحركة ثانيه.

يناءً على هذا لا ينبغى اليأس عند الحوادث الاجتماعيه الصعبه والاستسلام لمعاناتها، كما لا ينبغى التعلق بالحركات الطائشه.

وذهب بعض شراح نهج البلاغه إلى أنّ سائر الأئمه عليه السلام غير الإمام المهدي عليه السلام هم المرادون بقوله «غير مقبل»، وأنّ قوله عليه السلام لا تطمعوا فى غير مقبل، إشاره إلى الشرائط اللازمه لقيامهم عليه السلام ليست متوفره، ومدبر إشاره إلى الإمام المهدي عليه السلام فلا ينبغى اليأس من ظهوره فى أى زمان.

إلّا أنّ هذا التفسير لا ينسجم قط والعبارات فى آخر هذا المقطع من الخطبه؛ لأنّ زلل القدم

والاعتماد على الأخرى لا ينطبق عليه عليه السلام إلبتكلف شديد.

اضافه إلى أنّ التعبير بمقبل ومدبر بصيغه التنكير يدل على أنّ المراد بيان قاعده كليه، لا الإشاره إلى مصداق شخصي، وإلّا كان من المناسب تحليلتها بالالف واللام.

تأملان

١ - أولياء الله

إنّ الخصائص التي ذكرها الإمام عليه السلام بحقه بصوره غير مباشره في العبارة المذكوره، هي في الواقع إشاره إلى الصفات التي ينبغي أن يشتمل عليها كل زعيم رباني مدير ومدبر:

الأول: لا بدّ أن يكون رزيناً في كلامه إلى جانب التريث والتروي قبل المبادرة. كما ورد ذلك في ماروي عن أميرالمومنين عليه السلام قوله «لسان العاقل وراء قلبه، وقلب الأحمق وراء لسانه». (١)

فالعاقل يفكر أولاً ثم يتكلم، أمّا الأحمق فهو يتكلم ثم يفكر.

الثاني: أعماله هي الأخرى رزينه كأقواله، فهو يفكر في عواقب العمل، فإذا احاط به وعرفه أقدم عليه دون تردد - فقد جاء في الحديث الشريف عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: «إذا هممت بأمر فتدبر عاقبته، فإن يك خيراً ورشداً فاتبعه، وإن يك غياً فاجتنبه» (٢).

٢ - الفشل قنطره النجاح

هناك من يشعر باليأس لأدنى حادثه صعبه، فيما رس بعض ردود الفعل الساذجه، ومثل هذا اليأس يحول دون القيام بالأنشطه والمواقف المطلوبه مستقبلاً؛ الأنشطه التي قد تحيل النشل نجاحاً والهزيمه نصراً. والالتفات إلى أمرين مهمين أوردتهما الإمام عليه السلام في الخطبه من شأنه أن يعالج هذه المواقف السلبيه.

الأول: إجتناّب الاستعجال في الأعمال والتعويل على ما لم تتوفر مقدماته، الثاني: عدم

ص: ٢٣٧

١- (١) نهج البلاغه، الكلمه ٤٠.

٢- (٢) شرح نهج البلاغه للعلامة الخوئي ٧/١٥٩.

اليأس من جراء بعض الاخفاقات المرحليه؛ لأنّ الاخفاق يتحول إلى نجاح بالتجارب.

أضف إلى ذلك فإنّ الألفاظ الإلهيه قد تشمل الإنسان وتهمد له كل أسباب النجاح ومقومات النصر. فقد ورد عن أميرالمؤمنين على عليه السلام طبق روايه الشيخ الصدوق في الامالى أنّه قال «كن لما لاترجو أرجى منك لما ترجو» ، ثم يوضح ذلك عليه السلام بذكر ثلاثه نماذج رائعه بقوله أنّ موسى بن عمران خرج يلتمس لاهله ناراً فعاد نبياً، كما قدمت ملكه سبأ للقاء نبى الله سليمان عليه السلام فأسلمت وآمنت، كما خرج السحره يبغون العزه لفرعون فانقلبوا مؤمنين بالله وبموسى عليه السلام. (1)

ص: ٢٣٨

١-١) امالى الصدوق / ١٥٠/ ح ٧. [١]

«أَلَمْ إِنَّ مَثَلَ آلِ مُحَمَّدٍ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ كَمَثَلِ نُجُومِ السَّمَاءِ، إِذَا خَوَى نَجْمٌ طَلَعَ نَجْمٌ، فَكَأَنَّكُمْ قَدْ تَكَامَلْتُمْ مِنَ اللَّهِ فِيكُمْ الصَّنَائِعُ، وَأَرَاكُمْ مَا كُنْتُمْ تَأْمَلُونَ» .

الشرح والتفسير

خاطب الإمام عليه السلام كافة الناس في آخر الخطبه داعيا اياهم إلى الحركة خلف آل النبي صلى الله عليه وآله بصفتهم الكواكب الزاهره، وكلمما غاب كوكب خلفه آخر «الأ- إن مثل آل محمد صلى الله عليه وآله كمثل نجوم السماء، إذا خوى (1)نجم طلع نجم» .

ثم قال عليه السلام: «فكأنكم قد تكاملت من الله فيكم الصنائع (2)، وأراكم ما كنتم تأملون» ، فقد أشار الإمام عليه السلام بهذه العبارة القصيره إلى عدّه أمور: منها أنّ آل محمد صلى الله عليه وآله كالنجوم التي قال بشأنها الحكيم في كتابه الكريم: «وَبِالنُّجُومِ هُمْ يَهْتَدُونَ» (3)، كما قال في موضع آخر: «وَهُيَوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ» (4)فالقوافل كانت تهتدى في الصحارى والبحار فى الليالى الظلماء بنجوم السموات، حيث لم يخترع آنذاك البوصله، كما لم تكن الطرق معبده بالشكل الذى هى عليه اليوم.

فالنجاه فى الدنيا والآخرة ونيل السعاده إنّما تتحقق فى ظل هدى آل محمد صلى الله عليه وآله والأمر الآخر أنّ السماء لاتخلو لياليها من النجوم، فاذا غابت نجمه، أشرقت أخرى فى أفقها؛ وهكذا

ص: ٢٣٩

١-١) «خوى» من ماده «خوى» بمعنى غرب.

٢-٢) «صنائع» جمع «صنيعه» النعمه والاحسان.

٣-٣) سوره النحل/١٦. [١]

٤-٤) سوره الانعام/٩٧. [٢]

أهل البيت عليه السلام إذا رحل امام خلفه آخر حتى يقوم آخرهم المهدي عليه السلام فيملاً الدنيا قسطاً وعدلاً، فالعبارة تفيد اتصال سلسله الإمامه التي تأتي القطع. بعبارة أخرى فإنّ الأرض لا تخلو من حجه الله. والعجيب ما أورده بعض شراح نهج البلاغه كابن أبي الحديد حين بلغ العبارة المذكوره اذ قال: وهذا إشارة إلى المهدي الذي يظهر في آخر الوقت، وعند أصحابنا أنه غير موجود الان وسيوجد ويملاً الأرض قسطاً وعدلاً.

ولو أمعن هذا القائل في العبارات التي وردت في ذيل الخطبه لوقف على خطأه في ما ذهب إليه؛ ولكن للأسف! فإنّ التعصب قد لايسمح أحياناً بان يلتفت الإنسان إلى القرائن الواضحه.

وأخيراً قال الإمام عليه السلام بأنّ اتباع أهل البيت عليه السلام يؤدي إلى نيل كافة الأمانى وبلوغ جميع النعم، وهذا ما يكشف بدوره عن دور أهل البيت في التكامل الديني والديني في كافة الازمنه، وماذهب إليه بعض الشراح من أنه إشاره إلى زمان ظهور الإمام المهدي عليه السلام فهو كلام يفتقر إلى الدليل.

كما يكمن ان يكون المراد بالعبارة هو أنّ الإمام عليه السلام قال: إنّ الله سبحانه وفرّ لكم كل أسباب السعاده ومنها وجود آل محمد صلى الله عليه وآله.

تأملان

١ - حديث النجوم

ما أورده الإمام عليه السلام في هذه الخطبه شأن آل محمد صلى الله عليه وآله وتشبيهم بنجوم السماء، هو في الواقع اقتباس من الحديث النبوي المعروف الذي قال فيه صلى الله عليه وآله: «النجوم أمان لأهل الأرض من الغرق، وأهل بيتي أمان لأمتي من الاختلاف».

رواه الحاكم النيشابوري من علماء العامه في كتاب المستدرک عن ابن عباس وقال: «هذا حديث صحيح الاسناد» (١).

ص: ٢٤٠

١- ١) مستدرک الحاكم ٣/١٤٩ (طبق نقل احقاق الحق ٩/٢٩٤). [١]

كما رواه عدد من محدثي العامه ومنهم الحمويني في فرائد السمطين وابن حجر في الصواعق ومحمد بن صبان في اسعاف الراغبين وغيرهم (١) وقد أفرد المرحوم العلامة المجلسي في بحث الإمامه من كتابه بحار الانوار عنواناً أسماه: «إنهم أمان لأهل الأرض من العذاب»، وقد نقل فيه عدة أحاديث عن طرق أهل البيت، كما صرح قائلاً: رواه أحمد بن حنبل في مسنده عن النبي صلى الله عليه وآله. (٢)

ومن الواضح أنّ تشبيه أهل البيت عليه السلام بالنجوم يدل على ما أورده الإمام عليه السلام في الخطبه أيضاً بدليل الدلاله الالتزاميه، لأنّ طبيعه نجوم السماء بهذه الشاكلة إذا غرب أحدها في أفق المغرب، طلع الآخر في أفق المشرق - أضف إلى ذلك فان التعبير بأمّتي تفيد أن جميع أمّه النبي صلى الله عليه وآله على طول الزمان يمكنها أن تهتدى بأهل البيت عليه السلام، وبالنتيجه فانه سيكون هناك إماماً على الدوام من اهل البيت عليه السلام في الأمّه.

٢ - آخر مراحل تكامل النعم الإلهيه

هذه النقطة جديره بالالتفات أيضاً وهي أنّ تكامل النعم الإلهيه في ظل أهل البيت عليه السلام سيكون في كل زمان، إلّا أنّ ذروه كما لها ستكون في عصر ظهر الإمام المهدي عليه السلام أرواحنا فداه.

فقد نقل المرحوم ابن ميثم حديثاً في شرح هذه الخطبه وقال: رأيت حديثاً للإمام عليه السلام يمكنه أن يوضح هذه الخطبه: «يا قوم اعلّموا علماً يقيناً، إن الذي يستقبل قائمناً من أمر جاهليّكم ليس بدون ما استقبل الرسول من أمر جاهليّكم... ولعمري لينزع عنكم قضاءه السوء، وليقبض عنكم المراضين (المرائين) وليعزلن عنكم أمراء الجور، وليطهرن الأرض من كل غاش، وليعملن فيكم بالعدل، وليقومن فيكم بالقسطاس المستقيم». (٣)

ص: ٢٤١

١- (١) احقاق الحق ٩/٢٩٤ - ٢٩٦. [١]

٢- (٢) بحار الانوار ٢٧/٣٠٨. [٢]

٣- (٣) شرح نهج البلاغه لابن ميثم ٣/٩.

ومن خطبه له عليه السلام

وهى إحدى الخطب المشتمله على الملاحم

نظره إلى الخطبه

هذه الخطبه كما ينهم من عنوانها تتحدث بصوره رئيسيه عن الحوادث القادمه، والأخطار التى تهدد المسلمين، خاصه أهل العراق.

الا- أنها تتناول أمرين قبل ذلك: الأول: حمد الله والثناء عليه والشهاده له بالوحدانيه مع ذكر بعض الأمور. والثانى: الاعراب عن القلق من بعض من يسمع كلمات الإمام عليه السلام واخباراته على سبيل الشك والترديد.

ص: ٢٤٣

١- ١) سند الخطبه: ورد فى كتاب مصادر نهج البلاغه لم تذكر هذه الخطبه فى غير مصدر السيد الرضى (ره)، وأن ذكرت اسناد هذه الخطبه فى نهج البلاغه، طبعه جماعه مدرسى الحوزه للمحقق المرحوم حجه الإسلام الدشتى، غير أنه تبين خطأها بعد الرجوع إلى المصادر الأصلية التى ذكرت فى ذلك الكتاب.

«الْحَمْدُ لِلَّهِ الْأَوَّلِ قَبْلَ كُلِّ أَوَّلٍ، وَالْآخِرِ، بَعْدَ كُلِّ آخِرٍ، وَبِأَوْلَيْتِهِ وَجِبَ أَنْ لَا أَوَّلَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ شَهَادَةً يُوَافِقُ فِيهَا السِّرُّ الْإِغْلَانِ، وَالْقَلْبُ اللَّسَانِ» .

الشرح والتفسير

استهل عليه السلام هذه الخطبة كسائر الخطب بحمد الله والثناء عليه والشهادة له بالوحدانية، ثم تطرق إلى ذكر صفات الحق سبحانه: «الحمد لله الأول قبل كل أول، والآخر بعد كل آخر» .

فالإمام عليه السلام انطلق هنا نحو أزليه الله وأبديته سبحانه التي تعد من أهم صفاته وتعود إليها سائر الصفات؛ وذلك لأننا قلنا في بحث الصفات: أن أساس صفاته الجمالية والجلالية عدم تناهي ذاته المقدسه من جميع الجهات، والأزليه والأبديه هي بيان آخر لعدم محدوديه تلك الذات المقدسه.

ثم خاض عليه السلام في بيان الدليل أو وضع ذلك بقوله «وبأوليته وجب أن لا أول له، وبآخريته وجب أن لا آخر له» .

فالعبارة تشتمل على نقطه لطيفه وهي أن أوليته سبحانه وتعالى ليست أوليه زمانيه، بل أوليه ذاتيه وبمعنى الأزليه، ومن الواضح أن الذاتى الذى هو أزلى ليس له من أوليه زمانيه. وكذلك آخريته هي الآخري ذاتيه، لا- زمانيه وبمعنى الأبديه، وما كان أبدأً فلا آخر زمانى له.

وقد أورد بعض شراح نهج البلاغه احتمالات أخرى في تفسير هذه العبارة لا تنسجم وسائر عبارات الإمام عليه السلام.

ثم شهد لله بالوحدانيه والعبوديه له على مستوى اللسان والقلب: «وأشهد أن لا إله إلا الله شهاده يوافق فيها السر الاعلان، والقلب اللسان» .

فالعباره تفيد ان الشهاده المطلوبه التى تشمل تمام وجود الإنسان والكيان والتى ينسجم فيها الظاهر والباطن والقلب واللسان.

فالأعم الأغلب يشهد بالوحدانيه لساناً، بينما يعيش الوثنيه والصنميه فى قلبه. وكذلك الكثير ممن يشهد قلباً بهذه الوجدانيه، بينما تخالط الشرك أعمالهم وأفعالهم. فهم يسجدون للمال والمقام ويركعون أمام الشهوات؛ بينما قد يرددون صباح مساء على ألسنتهم أو قلوبهم «لا إله إلا أنت»، و نعلم أن كل هذا من شعب النفاق، ومثل هؤلاء الأفراد بحق فى زمرة المنافقين.

ص: ٢٤٦

«أَيُّهَا النَّاسُ، لَمَّا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي، وَلَمَّا يَسِيْهَوْا بِكُمْ عِصْيَانِي، وَلَمَّا تَتَرَامُوا بِالْأَبْصَارِ عِنْدَ مَا تَسْمَعُونَهُ مِنِّي. فَوَالَّذِي فَلَقَ الْحَبَّةَ وَبَرَأَ النَّسَمَةَ، إِنَّ الَّذِي أُتْبِئُكُمْ بِهِ عَنِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، مَا كَذَبَ الْمُبَلِّغُ، وَلَا جَهْلَ السَّامِعُ» .

الشرح والتفسير

مهد الإمام عليه السلام في الواقع بكلامه ما أراد أن يورده هنا في إماطه اللثام عن بعض الحوادث الآتية هو عين اليقين والحق الذي سمعه من رسول الله صلى الله عليه وآله ولا سبيل إلى مخالفته. وتفيد هذه العبارات أن الإمام عليه السلام قد أخبر سابقاً عن بعض الحوادث فانكرها عليه بعض المنافقين أوضاع الإيمان. فو عظهم عليه السلام بأن عدايتي ومخالفتكم لي لا تدفعكم إلى مقارفة الذنب، ولا ينبغي أن تسوقكم معصيتكم لي إلى اتباع هوى أنفسكم، فاذا سمعتم ما أقول أنكرتم عليّ «أيها الناس لا يجرمنكم (١) شقاي (٢)، ولا يستهويكم (٣) عصياني، ولا تتراموا بالأبصار، عند ما تسمعونه مني» .

ومراد عليه السلام أن الحقد والحسد والضغينة تسوق الإنسان في أغلب الأحيان إلى ارتكاب الذنب والمعصية، فتكون حجاباً على بصره لتمنعه عن رؤيه الحقائق.

ص: ٢٤٧

١- (١) «يجرمن» من ماده «جرم» على وزن جهر (جرم على وزن ظلم، اسم مصدر) تعنى فى الأصل القطع، ولما كان الإثم يقطع صلته بالله، فهذه الكلمه تطلق على الذنب، وعليه لا يجرمنكم بمعنى لا يحملنكم على الذنب.

٢- (٢) «شقاق» فى الأصل تعنى المخالفه والنزاع.

٣- (٣) «يستهيون» من ماده «هوى» من هوى النفس.

ثم قال عليه السلام: «فو الذى فلق (١) الحبه وبرأ (٢) النسمة (٣) إن الذى أنبئكم به عن النبى الأسمى (٤) صلى الله عليه وآله، ما كذب المبلغ، ولا- جهل السامع» والعبارة التى صدرت بالقسم لمن ابداعات أميرالمؤمنين عليه السلام التى ذكرت لمرات فى خطب نهج البلاغه، حيث يشير إلى نقطه مهمه وهى أن أهم وأعقد مسأله فى نظام عالم الوجود هى مسأله الحياه؛ سواء فى عالم النباتات أوفى عالم البشريه، ورغم الجهود المضنيه التى بذلها الإنسان فى هذا المجال، مازالت هنالك الأسرار التى تختزنها هذه الحياه لم تكتشف بعد. وبناءً على هذا فإنّ الحياه رائعه الخلق و هو الشىء الذى يربطنا تأمله باللّه و يدل على أن هذه الظاهره العجيبه ليست بالشىء الذى انبثق دون علم الله وقدرته، فالاستفاده من هذه الأوصاف حين القسم تجسد مفهومًا بارزاً فى الأذهان.

على كل حال فإنّ هدف الإمام عليه السلام طمأنه مخاطبيه إلى أنّ مايقوله بشأن الحوادث المستقبلية لايستند إلى الحدس والتخمين، ولا- من قبيل نبوءات الكهنة، بل هو واقع وحق سمعه من رسول الله صلى الله عليه وآله وليس الإمام عليه السلام من يخطىء فى إدراك كلام النبى صلى الله عليه وآله. وعليه فما يقوله هو عين الحقيقه والصواب، واطلاعهم على هذه الأحداث من سبيله الحد من أخطارها.

فقد ورد فى الخبر حين نزلت الآيه الشريفه: «وَتَعَبَّهَا أُذُنٌ وَاَعْيَتْ» (٥).

قال رسول الله صلى الله عليه وآله لعلى عليه السلام: «سألت الله تعالى أن يجعلها أذنك يا على! قال عليه السلام فما نسيت شيئاً بعد ذلك» (٦).

ص: ٢٤٨

١- ١) «الخلق»: وتأتى أحياناً بمعنى الإبداع والإيجاد والتقدير، وأحياناً بمعنى الابتعاد والبرائه من الشىء. وفى هذه الخطبه جاءت هذه الكلمه بالمعنى الاول.

٢- ٢) «برأ» من ماده «برء» على وزن ظلم وتعنى الصحه وحسن الحال، أى خروج الشخص من حالته الاولى، والتى كان فيها مريضاً إلى حاله جيده وحسنه.

٣- ٣) «نسمه» تعنى فى الأصل هبوب الرياح المعتدله، كما تأتى بمعنى التنفس، ومن هنا تطلق على الإنسان.

٤- ٤) التعبير بالأسمى يطلق على الشخص الذى لا يعرف القراءه والكتابه، أو على الشخص الذى ينسب الى الأم، وهو الذى تعلم فى أحضان أمه ولم يتعلم من غيرها. وهنا نود ان نشير اشاره لطيفه فى هذا المورد، وهى أن الرسول الاكرم صلى الله عليه وآله كان أمياً، ولكنه أخبر عن الماضى والمستقبل، وهذه من علامات ارتباطه بالله سبحانه وتعالى.

٥- ٥) سورة الحاقه/١٢. [١]

٦- ٦) كفايه الطالب للكنجى ٤٠/ وردى مثل هذا المعنى أغلب مفسرى العامه كالقرطبى فى تفسير جامع الأحكام والبرسوى فى روح البيان والآلوسى فى روح المعانى، ذيل الآيه ١٢ من سورة الحاقه.

«لَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى ضَلِيلٍ قَدْ نَعَقَ بِالشَّامِ، وَفَحَصَ بِرَايَاتِهِ فِي ضَوَاحِي كُوفَانٍ، فَإِذَا فَغَرَتْ فَاعْرَتْهُ، وَاشْتَدَّتْ شَكِيمَتُهُ، وَثَقُلَتْ فِي الْأَرْضِ وَطَأْتُهُ، عَضَّتِ الْفِتْنَةُ أَبْنَاءَهَا بِأَنْيَابِهَا، وَمَاجَتِ الْحَرْبُ بِأَمْوَاجِهَا، وَبِيدَا مِنَ الْأَيَّامِ كَلُوحُهَا، وَمِنَ اللَّيَالِي كُدُوحُهَا. فَإِذَا أَيْنَعَ زَرْعُهُ، وَقَمَامَ عَلَى بِنْعِهِ، وَهَيَدَرَتْ شَقَاشِقُهُ، وَبَرَقَتْ بَوَارِقُهُ، عَقَدَتْ رَايَاتُ الْفِتَنِ الْمُعْضَلَةَ، وَأَقْبَلْنَ كَاللَّيْلِ الْمُظْلِمِ، وَالْبَحْرِ الْمُتَلَطِّمِ. هَذَا، وَكَمْ يَخْرِقُ الْكُوفَةَ مِنْ قَاصِفٍ وَيَمُرُّ عَلَيْهَا مِنْ عَاصِفٍ وَعَنْ قَلِيلٍ تَلْتَفُّ الْقُرُونُ بِالْقُرُونِ، وَيُحْصَدُ الْقَائِمُ، وَيُحْطَمُ الْمَحْصُودُ!»

الشرح والتفسير

كشف الإمام عليه السلام في هذا الكلام - الذى يمثل فى الواقع جوهر الخطبه - النقاب عن الحوادث المستقبلية الخطيره التى تنتظر أهل العراق، ثم يشرح عليه السلام بعض تفاصيل جزئيات هذه الحوادث المروعه، بغيه أعداد الأمم للحد من أخطارها: «لكأنى أنظر إلى ضليل (١) قد نعق (٢) بالشام، وفحص (٣) براياته فى ضواحي كوفان» (٤).

ص: ٢٤٩

١-١) «ضليل» من ماده «ضلال» الشديد الضلال فهو ضال مضل.

٢-٢) «نعق» من ماده «نعق» على وزن نعل تعنى فى الاصل صوت الفرس، ثم اطلق على الأصوات التى تطلق لحركه الحيوانات و أمرها ونهيبها، و وردت فى العبارة بمعنى أن بنى أميه قد استضعفوا جماعه، يسوقونها كالحيوانات حيثما أرادوا.

٣-٣) «فحص» البحث والتفتيش.

٤-٤) «كوفان» بمعنى الكوفه.

ثم خاض في توضيح هذه الفاجعه الكبرى: «فاذا فغرت (1) فاغرته، واشتدت شكيمته (2) وثقلت في الأرض وطأته، عضت الفتنة أبناءها بانيابها، وماجت الحرب بامواجها، وبدا من الايام كلوحها (3)، ومن الليالي كدوحها (4)» .

هناك قولان رئيسيان لشراح نهج البلاغه في المراد بالضليل في عبارته الإمام عليه السلام:

الأول: أن يكون المراد به معاويه الذي أحكم قبضته على العراق بعد شهادته أميرالمؤمنين على عليه السلام وصلحه مع الإمام الحسن عليه السلام، وقد نفذ كل ماورد في العبارة عملياً، والثاني: أن يكون المراد به عبدالملك بن مروان الذي سلب ذلك المجرم المعروف الحجاج على الكوفة فسام الناس سوء العذاب وجرعهم أنواع الظلم، ومهما كان فالعبارة إشاره إلى الطغاه من حكام بني أميه.

والعبارة: «عضت الفتنة أبناءها بانيابها» إشاره إلى أن هذه الفتن ستطيل حتى أولئك الذين يثيرونها! فعاده ماتعصف بهم الاختلافات الداخليه، أو أن يتسلط عليهم أعداؤهم فيذيقونهم أشد العذاب.

ثم قال عليه السلام: «فاذا أبنع زرعه وقام على ينعه (5)، وهدرت شقاشقه (6)، وبرقت بوارقه، عقدت رايات الفتن المعضله، وأقبلن كالليل المظلم، والبحر الملتطم» .

في إشاره إلى أن حكومه هؤلاء لن تدوم، كما لن يلتذ هؤلاء الضلال الظلمه بفتنهم، وسرعان ما تحيط بهم رايات المخالفين.

ويمكن أن تكون هذه العبارة إشاره إلى قيام بني العباس ضد بني أميه.

ثم اختتم عليه السلام الخطبه بالقول: «هذا، وكم يخرق الكوفه من قاصف، ويمر عليها من

ص: ٢٥٠

١-١) «فغرت» من ماده «فغر» على وزن فقر فتح الضم.

٢-٢) «شكيمه» تعنى فى الاصل الحديده المعترضه فى اللجام فى فم الدابه، ويعبر بقوتها عن شده البأس، ثم اطلقت على كل قوه.

٣-٣) «كلوح» عبوس.

٤-٤) «كدوح» شده السعى والجهد، وتعنى فى الأصل الخدش وأثر الجراحات.

٥-٥) «ينع» بمعنى نضج الفاكهه، ثم اطلق على كل نضج واستعداد لتلقى نتيجه.

٦-٦) «شقاشق» جمع «شقاشقه» شىء كالرئه يخرج البعير من فيه إذا هاج.

عاصف، وعن قليل تلتف القرون بالقرون، ويحصد القائم، ويحطم المحصود» .

والعجيب أن ما تكهن به الإمام عليه السلام في هذه العبارات القصار قد وقع سريعاً، فقد طحنت الكوفة بفتن بنى أميه ومن بعدهم بنى العباس؛ لتصبح هذه المنطقه مركزاً للمختلف الحوادث العنيفه، وكل من كان له أدنى المام بتاريخ الكوفه يدرك بسهولة عمق كلمات الإمام عليه السلام التي أوردتها في هذه الخطبه.

والعبارة: «تلتف القرون بالقرون» إشاره إلى الحروب الطاحنه التي خاضها مختلف الأقبام في العراق والكوفه، ولاسيما حروب بنى أميه وبنى العباس.

والعبارة: «يحصد القائم، ويحطم المحصود» كناية لطيفه عن الاضرار والخسائر التي تلحق بالأمة طيله هذه الحوادث. فمن كان قائماً صرع، و من كان مصروعاً تحطم.

أما ابن أبي الحديد فقد قال في شرحه للعبارة: «يحصد القائم» كناية عن قتل أمراء بنى أميه في الحرب و «يحطم المحصود» كناية عن قتل المأسورين منهم صبراً، وهكذا وقعت الحال.

والحق أن ما ذكره ابن أبي الحديد هو بعض مصاديق المفهوم الواسع للعبارة المذكوره.

تأملان

١ - الملاحم

ملاحم جمع ملحمه تعنى فى الأصل الواقعه المهمه المقرونه بالفتنه، وقد طالعنا أغلب خطب نهج البلاغه فى بعض الموارد التي يتحدث فيها أميرالمومنين على عليه السلام عن الفتن المهمه التي تنتظر الناس، ثم يشرح جزئياتها، ويعلن صراحه أنه سمع ذلك عن رسول الله صلى الله عليه و آله. ويبدو أن الإمام عليه السلام يهدف شيئين من هذه الأخبار: الأول: حب الإمام عليه السلام للناس الذى يدفعه لاخبارهم بغيه تأهبهم واستعدادهم ليحذروا من أخطار هذه الفتن؛ بالضبط كمن يخبر الآخرين قبل وقوع الزلزال أو السيل؛ وان تعذر منعها، إلا أن العلم المسبق يحد من هذه الاخطار، الثانى: افهامهم أن التوانى عن الجهاد والضعف والاختلاف إنما يقود إلى مثل هذه الحوادث، عليهم يفيقون إلى أنفسهم فيتوبون وينيبون إلى الله.

وسنبحث نظير هذه الأمور فى شرحنا للخطب ١٢٨ و ١٣٨ من هذه الكتاب.

لاشك أنّ من له أدنى معلومات مختصره بتأريخ الكوفه، ليعلم أنّ الكوفه من المناطق التي شهدت أفسى الأحداث وأخطرها طيله التأريخ الإسلامى. بعبارة أخرى فان الكوفه كانت مسرحاً لأحداث داميه، وجرائم وجنايات بشعه مارسستها بحقها طغاه بنى أميه وبنى العباس، بما يندى لها جبين البشريه حين يتصفح التاريخ.

هذا وقد أوردنا شرحاً مفصلاً فى الخطبه ٢٥ و ٤٧ من المجلد الثانى والخطبه ٨٧ من المجلد الثالث بشأن الحوادث البشعه التي تعرضت لها الكوفه، ولا نرى من ضروره لإعادتها.

ومن خطبه له عليه السلام

تجرى هذا المجرى وفيها ذكر يوم القيامه وأحوال الناس المقبله

نظره إلى الخطبه

تتالف هذه الخطبه من قسمين:

القسم الأول: وهو قصير، إشاره إلى الحوادث الصعبه ويوم القيامه، الذى يجمع الله فيه الاولين والاخرين للحساب والثواب والعقاب القسم الثانى: إشاره إلى الفتن المرعبه التى تهجم على الناس كقطع الليل المظلم فتضيق الخناق على الناس، حتى يهب لها جماعه من المجاهدين. ثم يركز الإمام عليه السلام فى كلامه على البصره التى ستكون مسرحا لهذه الفتن.

ص: ٢٥٣

١ - ١) سند الخطبه: لم ترد هذه الخطبه فى المصادر التى الفت قبل السيد الرضى (ره)، ولكن يبدو أنها جزء من الخطبه ١٢٨ التى سنتعرض باذن الله لشرحها، إلا أنها ذكرت فى الكتب التى دونت بعد السيد الرضى (ره).

«وَذَلِكَ يَوْمٌ يَجْمَعُ اللَّهُ فِيهِ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ لِنَقَاشِ الْحِسَابِ، وَجَزَاءِ الْأَعْمَالِ، خُضُوعاً، قِيَاماً، قَدْ أَلْجَمَهُمُ الْعَرَقُ، وَرَجَفَتْ بِهِمُ الْأَرْضُ، فَأَحْسَنَهُمْ حَالاً مَنْ وَجَدَ لِقَدَمَيْهِ مَوْضِعاً، وَلِنَفْسِهِ مَتْسَعاً» .

الشرح والتفسير

كما أوردنا سابقاً أن الإمام عليه السلام أشار في القسم الأول من الخطبة إلى وضع الناس في يوم القيامة بعبارات قصار مؤثره وقد ذكر المميزات المهوله لذلك اليوم.

فقد قال عليه السلام: «وذلك يوم يجمع الله فيه الأولين والآخرين لنقاش الحساب، وجزاء الاعمال، خضوعاً قياماً» .

فالعباره «الأولين» و «الآخرين» تشير إلى حقيقه وهى أن القيامة والحساب سيضم جميع الناس فى يوم واحد، كما ورد ذلك فى القرآن الكريم: «وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا» (١). وورد فى موضع آخر: «قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ * لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ» (٢).

والتعبير بالنقاش يفيد الدقه فى الحساب حيث تخضع أصغر الأعمال ذلك اليوم للحساب فيعاقب الإنسان أو يثاب عليه.

والتعبير بالخضوع والقيام إشاره إلى أن الناس يوم القيامة كمثل من يحضر فى المحكمه ويمثل بين يدى القاضى العادل، حيث تظهر عليه آثار الخوف والخشيه.

ص: ٢٥٥

١-١ (١) سورة مريم/٩٥. [١]

٢-٢ (٢) سورة الواقعة/٤٩ - ٥٠. [٢]

وقد أشارت بعض الآيات القرآنية إلى هذه المعاني، ومن ذلك الآية الشريفة: «خُشِعًا أَبْصَارُهُمْ. . .» (١) والآية «يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ» (٢).

ثم قال عليه السلام: «قد الجمهم العرق، ور جفت (٣) بهم الأرض» .

فهل هذا العرق بسبب حراره محيط المحشر، أم من شدة الخجل، أم كلاهما؟ وهل رجف الأرض بسبب أعمالهم، أم هكذا هي طبيعه محكمه العدل الإلهي، بحيث يشغل الجميع بأنفسهم ويعترفوا بكل ما اقترفوا؟

كيفما كان فالاجواء هناك مرعبه مهوله للغايه.

وقد صرحت الآيات والروايات الإسلاميه بالعوامل التي تدعو إلى الخوف والخشيه في ذلك اليوم (نسأل الله أن يشملنا جميعاً برحمته وألطفه ويجنبنا هلع ذلك اليوم) .

وقد ذهب بعض شراح نهج البلاغه - كديدهم في سائر الموارد - إلى أن الألفاظ المذكوره كناية عن الأمور الباطنيه والروحيه، والحال ليست هناك آيه قرينه تدعو إلى مثل هذا التأويل - ولو فتح الباب لمثل هذه التأويلات بشأن الآيات والروايات وباب التفسير بالرأى وأن يسطر الإنسان كل ما يفهمه من الآيه والروايه، أو الاسلوب الذي يعتمده بعض من يتسمى بالانفتاحى والذي يكمن فى القراءات الجديده للآيات والروايات، فمن المسلم به لسوف تزول إصالة المتون الدينيه، ولا يبقى من شىء للاستدلال بالمسائل العقائديه والعلميه.

ثم أشار عليه السلام فى ختام هذا القسم من الخطبه إلى معضله أخرى من معضلات القيامة: «فأحسنهم حالاً من وجد لقدميه موضعاً، ولنفسه متسعاً» .

فالعباره تشير إلى زحام الناس وضيق المكان، حيث يفهم من الروايات أن هول المحشر ووحشه حساب الأعمال مسأله عامه تشمل كافه أهل المحشر؛ وذلك لأن خالص عباد الله أيضاً يخشون الحساب! فلهول المحشر عده عوامل، يكمن أحدها فى ضيق المكان الذى ورد فى هذه العبارة.

ص: ٢٥٦

١- ١) سورة القمر/٧. [١]

٢- ٢) سورة المطفقين/٦.

٣- ٣) «رجف» من ماده «رجف» على وزن ربط تعنى الاضطراب، ولما كانت أخبار الفتن تدعو لاضطراب المجتمع فقد اصطلح عليها بالاراجيف.

ومنها:

«فَتَنُ كَقَطْعِ اللَّيْلِ الْمُظْلَمِ، لَا تَقُومُ لَهَا قَائِمَةٌ، وَلَا تُرَدُّ لَهَا رَايَةٌ، تَأْتِيكُمْ مَزْمُومَةٌ مَرْحُومَةٌ: يَحْفِزُهَا قَائِمُهَا، وَيَجْهَدُهَا رَاكِبُهَا، أَهْلُهَا قَوْمٌ شَدِيدٌ كَلْبُهُمْ، قَلِيلٌ سَيْلَبُهُمْ، يُجَاهِدُهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَوْمٌ أَذَلَّهُ عِنْدَ الْمُتَكَبِّرِينَ، فِي الْأَرْضِ مَجْهُولُونَ، وَفِي السَّمَاءِ مَعْرُوفُونَ. فَوَيْلٌ لَكَ يَا بَصْرَةَ عِنْدَ ذَلِكَ، مِنْ جَيْشٍ مَنْ نَقَمَ اللَّهُ! لَا رَهَجَ لَهُ، وَلَا حَسَّ، وَسَيَبْتَلِي أَهْلَكَ بِالْمَوْتِ الْأَحْمَرِ، وَالْجُوعِ الْأَعْبَرِ» .

الشرح والتفسير

أشار الإمام عليه السلام في هذا الكلام من الخطبه إلى فتنه أخرى تنتظر أهل العراق ولا سيما البصره، لعل الأُمَّه تستعد للدفاع وتقلل من خسائرها في هذه الفتنه، وكذلك تخشى العقاب الإلهي الذي يتمثل أحياناً بظهور الفتن فلا تحيد عن الطريق وتلتزم بدينها. فقد وصف عليه السلام هذه الفتن بأنها كقطع (١) الليل المظلم، والتي لا يسع أحد الوقوف برجها والتغلب عليها «فتن كقطع الليل المظلم، لا تقوم لها قائمه، ولا ترد لها رايه» .

في إشاره إلى أنّ مثيرى هذه الفتن يردون الميدان بكل قوه واقتدار فيأتون على كل ما يقف في طريقهم.

ص: ٢٥٧

١- ١) «قطع» جمع «قطعه» ولعله إشاره إلى بعض أقسام الليل كنصفه، أو الوقت الذي فيه القمر، كما فسره البعض بالظلمه.

ثم يواصل الإمام عليه السلام كلامه بتشبيه هذه الفتن بالناقة التي وضع عليها رجلها ويسوقها سائقها بسرعة: «تأتيكم مزموه (١) مرحوله (٢) يحفزها (٣) قائدها، ويجهدا راكبيها» .

ثم أشار عليه السلام إلى شدة هذه الفتنة وجسامه خسائرها بعد أن شبهها بالناقة المعده للركوب وقد استسلمت لراكبيها بعبارته أخرى فإن كل شيء جاهز للفتنة بحيث تكون ضربه أصحابها غاية في الشدة و تلفاتها قليلة: «أهلها قوم شديد كلبهم (٤) وقليل سلبهم (٥)» .

فالإمام عليه السلام بين خصائص هؤلاء القوم الذين يقتحمون الميدان بكامل العده والعدد، وسنرى لاحقاً ومن خلال ما ورد في التواريخ من تنطبق عليه هذه الأوصاف.

ثم أشار الإمام عليه السلام إلى نقطه مهمه وهي عدم تداوم هذه الفتنة لمدته طويله، حيث يتصدى لها طائفه من أولياء الله فيهبون للوقوف بوجه أصحاب هذه الفتن (ويقضون عليهم) ، ثم وصف هذه الطائفه بأنها ذليله لدى المتكبرين، فهي ليست معروفه في الأرض، لكنها معروفه في السماء: «يجاهدهم في سبيل الله قوم أذله عند المتكبرين، في الأرض مجهولون، وفي السماء معروفون» .

فهذه الطائفه من أولياء الله ذات المقام الرفيع لديه والشديده في الجهاد في سبيل الله ستخدم نار الفتنة، كما تفقد هذه الطائفه منزلتها لدى المتكبرين بسبب زهداها في الدنيا وبعدها عن التظاهر والرياء، فهي مجهوله في الأرض بين الناس، بينما معروفه لدى ملائكة السماء الخبيره بباطن هذا العالم.

أمّا من هم هؤلاء القوم الذين أخبر الإمام عليه السلام عن فتنهم وفجائهم، ومن هم المجاهدون الذين سيتصدون لهم ويخدموا نيران الفتنة، فيبدو هنالك اختلاف بين شراح نهج البلاغه بهذا الشأن.

ص: ٢٥٨

١-١) «مزموه» من ماده «زمام» الحيوان الذي الجم.

٢-٢) «مرحوله» من ماده «رجل» جهاز الناقه أو أدوات السفر، ومرحوله هنا بمعنى الناقه الجاهزه للركوب، وهي كناية عن تمام الفتن وقوتها.

٣-٣) «يحفز» من ماده «حفز» على وزن حبس يحث ويدفع.

٤-٤) «كلب» على وزن طلب الاذى والشده.

٥-٥) «سلب» محرکه ما يأخذه القاتل من ثياب المقتول وسلاحه في الحرب.

فقد ذهب البعض إلى أنّ المراد بأصحاب الفتن هم أنصار رجل يدعى صاحب الزنج واسمه على بن محمد وقد نسبوه إلى سلاله النبي صلى الله عليه وآله (وإن كان هنالك شك في نسبه) حيث يجمع عددا من الزنوج حوله ومن هنا لقب بصاحب الزنج. فقد نهض في نصف القرن الثالث وأشار فتنه عظيمه أطراف البصره، ثم قتل على يد المجاهدين بعد ١٢ سنة من حكمه لتلك المنطقه.

كما فسرها البعض الآخر بفتنه المغول، الذين لم يسيطروا على العراق فحسب، بل سيطروا على أجزاء واسعة من العالم الإسلامي، ثم تصدى لهم المجاهدون المسلمون بعد مده طويله وقضوا عليهم. وأخيرا فسرها البعض بحوادث آخر الزمان وتعم الفتنه أغلب العالم الإسلامي فلا تقتصر على العراق، ثم يهب لهم جيش الإمام المهدي عليه السلام فيقضى عليهم.

ولما كان أغلب شراح نهج البلاغه يرون هذه الخطبه جزءا من الخطبه ١٢٨، لذلك نرجح تناول هذا الموضوع بصوره أعمق حين نخوض في شرح تلك الخطبه.

ثم اختتم الإمام عليه السلام خطبته مخاطبا البصره: «فويل لك يا بصره عند ذلك، من جيش من نقم الله! لارهج (١) له ولا حس (٢)، وسيبتلى أهلك بالموت الأحمر، والجوع الأغبر (٣)».

والعبارة عند ذلك تشير إلى أنّ حادثه البصره ليست حادثه منفصله، بل البصره إحدى مراكز الفتنه التي يتعرض أهلها إلى أشد الضربات والعقوبات.

والعبارة نقم الله تفيد أنّ هذه الفتنه المرعبه جزاء لاعمالهم.

والعبارة لارهج له ولا حس إشارة إلى الاستعداد التام للقوات المهاجمه بحيث تدخل المدينه وفق خطه دقيقه دون أن تثير بعض الاصوات والجلبه فتسلب زمام المبادره من الطرف الآخر بحيث لا يبقى أمامه من مجال للمقاومه.

والعبارة الموت الاحمر إشارة إلى عظم المقتله التي تقع في البصره، فقد ورد في تاريخ صاحب الزنج أنّه قتل ثلاثمئه ألف من الناس حين دخل البصره. (٤)

ص: ٢٥٩

١-١) «رهج» بالتحريك والسكون الغبار كناية عن دخول الجيش بكل هدوء وبصوره مباغته دون أن يثير شيئا.

٢-٢) «حس» الجلبه والاصوات المختلفه.

٣-٣) «أغبر» من الغبار والجوع الأغبر كناية عن المحل والجذب والقحط الشديد؛ فوجوه الناس تبدو مغبره في القحط من شدة الجوع.

٤-٤) مروج الذهب ٤/١١٩. [١]

والعبارة الجوع الأغير إشاره إلى القحط الشديد إثر الحروب والاضطرابات بحيث يشحب وجههم.

وقد صرح بعض المؤرخين بأن الظروف الصعبة جعلتهم يقتلون بعض الحيوانات من قبيل الكلب والقط والفأر ويأكلونها، كما كانوا أحياناً يأكلون ميتة الإنسان (١).

وقد فسّر بعض شراح نهج البلاغه الموت الأحمر والجوع الأغير بالطاعون والوباء والغرق أثر السيول وهجوم أمواج البحر، ولا يبدو مثل هذا التفسير مناسباً.

ص: ٢٤٠

١-١) مروج الذهب ٤/١١٩.

ومن خطبه له عليه السلام

فى الترهيد فى الدنيا

نظره إلى الخطبه

يستفاد من تعبيرات المرحوم السيد الرضى (ره) (منها ومنها) أنه لم يأت تمام الخطبه هنا، بل اقتطف بعضها كعادته. ويبدو بصوره عامه أن لهذه الخطبه عده أهداف: الأول: الحث على الزهد والتقوى والرغبه عن الدنيا. الثانى التفكير والاعتبار والتبصر فى الأمور، ثم التعريف بالعالم الحق وبيان اتباع الحق من اتباع الباطل من خلال ذكر الصفات، ثم اختتام الخطبه ببيان محن المؤمنين فى آخر الزمان ومصير الإسلام فى ظل تلك الشرائط، بغيه تأهب المؤمنين والحد من الاضرار على مستوى الإيمان والأخلاق.

والخطبه على العموم ارشاد معنوى ومادى للإنسان يجعله يتغلب على ما يواجهه من مشاكل.

ص: ٢٤١

١- ١) سند الخطبه: ما نقله المرحوم السيد الرضى (ره) فى هذه الخطبه جزء من خطبه طويله ولذلك قال منها ومنها. وقد وردت أجزاء مختلفه من هذه الخطبه فى عده مصادر قبل نهج البلاغه، ومنها روضه الكافى وتحف العقول واصول الكافى وعيون الأخبار لابن قتيبيه وكتاب الفتن لنعيم بن حماد الخزاعى المتوفى عام ٢٢٨ (مصادر نهج البلاغه ٢/٢٠٦).

«أَيُّهَا النَّاسُ! انظُرُوا إِلَى الدُّنْيَا نَظَرَ الزَّاهِدِينَ فِيهَا، الصَّادِقِينَ عَنْهَا؛ فَإِنَّهَا وَاللَّهِ عَمَّا قَلِيلٍ تُرِيْلُ الثَّأْوَى السَّاكِنَ، وَتَفْجَعُ الْمُتَرْفَ الْآمِنَ؛ لَأَيَّزِجُ مَا تَوَلَّى مِنْهَا فَأُدْبِرَ، وَلَا يُدْرَى مَا هُوَ آتٍ مِنْهَا فَيَنْتَظِرَ. سُرُورُهَا مَشُوبٌ بِالْحُزْنِ، وَجِلْدُ الرَّجَالِ فِيهَا إِلَى الضَّعْفِ وَالْوَهْنِ، فَلَا يُغَزِّنُكُمْ كَثْرَةُ مَا يُعْجِبُكُمْ فِيهَا لِقَلِّهِ مَا يَصْحَبُكُمْ مِنْهَا» .

الشرح والتفسير

كما ذكرنا سابقاً فإنَّ الإمام عليه السلام تطرق في هذا الكلام من الخطبه إلى مسأله الزهد في الدنيا الذي يقود إلى كافه الصالحات والفضائل.

فقال عليه السلام: «أَيُّهَا النَّاسُ! انظُرُوا إِلَى الدُّنْيَا نَظَرَ الزَّاهِدِينَ فِيهَا، الصَّادِقِينَ (١)عَنْهَا» ، طبعاً لا تعنى هذه العبارة أنَّ الإنسان ينبغي أن يترك الدنيا ويعيش الرهبنة فيها، بل الهدف عدم فقدان النفس، وعدم الركون إلى الدنيا والاعتثار بها. فقد ثبت بوضوح أنَّ التعلق بالدنيا والاعتثار بما لها وجاهاها ولذاتها يشكل حجاباً على سماع الإنسان وبصره، فيؤدى به إلى مقارفة الذنب والمعصية.

فقد ورد في الحديث أنَّ رسول الله صلى الله عليه و آله قال: «حب الدنيا رأس كل خطيئه» (٢).

ص: ٢٤٣

١-١) «صادف» من ماده «صدف» على وزن حرف بمعنى الأعراض عن الشيء.

٢-٢) روى هذا الحديث بعبارات مختلفه عن النبى الأكرم صلى الله عليه و آله وأمير المؤمنين والإمام الصادق وحتى الأنبياء الماضين عليهم السلام. (ميزان الحكمه ٢ / ح ٥٨١٣ - ٥٨٢٣) - [١] وفى الحديث الذى نقله الكلينى فى الكافى عن الإمام السجاد عليه السلام بعد شرح ودوافع الذنوب قال: «فاجتمعن كلهن فى حب الدنيا» . فقال الأنبياء والعلماء - بعد معرفه ذلك - «حب الدنيا رأس كل خطيئه» . (اصول الكافى ٢/١٣١) . [٢]

إنّ الذنب هو المادة التي تفضى إلى كافة الحروب والنزاعات والجنايات وسفك الدماء وما إلى ذلك من انحرافات.

ثم تطرق الإمام عليه السلام بعبارات قصيرة لأدله اثبات تلك الحقيقة فأوجزها في سته أدله: «فأنها والله عما قليل تزيل الثاوى (١) الساكن» .

نعم لا بدّ لكل إنسان دون استثناء ان يودع يوماً هذا العالم، بعضهم يودع أبكر، والبعض الآخر قليل يتأخر، ولكن لا مناص من تذوق هذه المراره: «كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ» (٢).

والفارق بين ثاوى وساكن هو أنّ الثاوى تطلق عن من أقام بصوره مستمره في مكان وقد استقر فيه، وقد يكون الساكن كذلك أو لا يكون، وبناءً على هذا فالشباب الذين يعتقدون باستقرارهم لمدته مديده في هذه الدنيا معرضون للزوال، وكذلك الكهول يبدو سكنهم مؤقتاً ومحدوداً، فالجميع يسير نحو الفناء والزوال، إلى عالم البقاء والخلود.

ثم قال في الدليل الثاني أنّ الدنيا تفجع بمصائبها من غرق في النعم واغتربها: «وتفجع المترف (٣) الأمن» .

نعم بينما ترى هذا الإنسان غارقاً في لذاته ونعمه وإذا نقل إليه خبر موت فلان. ويالها من عبره هذه الوفيات المفاجئه، وما أكثرها في هذا الزمان. ويالها من عبره أنّ تراه غارقاً ليلاً في نعمه وملذاته فيضحوا صباحاً وقد فقد كل شيء.

أمّا الدليل الثالث والرابع فهو أنّ ما يذهب من الدنيا لا يعود أبداً، ولا يعلم كيف سيكون المستقبل: «لا يرجع ما تولى منها فأدبر، ولا يدرى ما هو آت منها فينتظر» .

ويالها من محنه إلّيعثر الإنسان على ضالته قط، كما يفقد الأمل بالمستقبل! فهو في حسره دائمه! فلا الشباب يعود إليه، ولا قواه وطاقاته التي ذهبت أدراج الرياح مع تقادم العمر، هذا كله من جانب، ومن جانب آخر فالخوف من المستقبل الغامض الذي يهز كيانه ويؤرق تفكيره ويقض مضجعه.

ص: ٢٤٤

١-١) «ثاوى» من ماده «ثواء» الاقامه مع الاستقرار.

٢-٢) سورة آل عمران/١٨٥. [١]

٣-٣) «مترف» من ماده «ترف» التمتع ويطلق «المترف» على من تغفله كثره النعم وتؤدى به إلى الغرور والطغيان.

ثم أورد عليه السلام الدليل الخامس والسادس الذى يدعو إلى الزهد فى الدنيا وهو أنّ فرحها مقرون بالحزن وسرورها بالهم وقدره الرجال وقوتهم إلى الضعف والوهن: «سرورها مشوب بالحزن وجلد (١) الرجال فيها إلى الضعف والوهن» .

فمشكله النعم المادية الدنيوية قد أشار إليها الإمام عليه السلام فى موضع آخر فقال: «لاتنالون منها نعمه إلا بفراق أخرى» (٢)، على سبيل المثال فالعقيم يتصدع قلبه بفعل عدم وجود الأولاد؛ إلا أنّ مشكلته قد تحل بأن يمنح الأولاد، فسرعان ما تهجم عليه سائر المشاكل! ليس له ثروه كافيه فيؤرقه ألم الفقر والحاجه، فاذا ما أصاب ثروه، واجهته مشاكل الحسد وخيانه الخونه وطمع اللصوص بثروته، حتى يفقد سكينته واستقراره. نعم فسرور الدنيا مشوب بالهم والغم والحزن، وقوه الإنسان آيله فيها إلى الوهن، وهكذا يخلص الإمام عليه السلام من هذه الأدله إلى نتيجه مؤداها: «فلا يغرنكم كثره ما يعجبكم فيها لقله ما يصحبكم منها» .

صحيح أنّ الدنيا مليئه بمعانى الزينه والجمال والمظاهر الخلايه، إلا أنّها وعلاوه على استبطانها للمشاكل والمحن، فهى متقلبه سائره نحو الفناء والزوال. وعليه فلا يجدر بالعقل الاهتمام بها والركون إليها.

على كل حال فإنّ أدنى تأمل لهذه الأدله يكفى لافاقه الغافلين من سباتهم، إلا أنّ المؤسف هو أنّ أغلب الناس ييخل على نفسه حتى بتلك اللحظه من التأمل.

تأمل: الزهد فى الدنيا

قد يتصور أحياناً بأنّ مفهوم الزهد هو التخلّى التام عن الدنيا، والتفوق فى زاويه والابتعاد عن المجتمع، والحال لا ينسجم هذا المعنى والروح الاجتماعيه للإسلام؛ الأمر الذى ورد النهى عنه فى الروايات الإسلاميه.

والحق أنّ للزهد معنى آخر وهو ترك التعلق المفرط بالدنيا وعدم الوقوع أسيراً فى قبضه

ص: ٢٤٥

(١-١) جلد بمعنى القوه والصلابه.

(٢-٢) نهج البلاغه، الخطبه ١٤٥. [١]

زخارفها ومفاتها؛ وبخلافه فإنَّ الإنسان يسير نحو الذنب والخطيئه ويبيع دينه وآخرته بمتاع الدنيا الفانى وهذا ما أشار إليه الإمام عليه السلام بقوله: «إنَّ من أعون الاخلاق على الدين، الزهد فى الدنيا» (١).

وقال الإمام الصادق عليه السلام بهذا الخصوص: «إذا تخلى المؤمن من الدنيا لسما، ووجد حلاوه حب الله» (٢). وورد فى الحديث أنَّ علياً عليه السلام رأى جابر بن عبدالله وهو يتنهد فقال: «يا جابر علام تنفسك؟ أعلى الدنيا؟» قال جابر: بلى.

فتطرق الإمام عليه السلام إلى بيان لذات الدنيا وأنها لا تعدو أن تكون فى المأكل أو المشرب أو اللباس الفاخر، أو اللذنه الجنسيه أو المركب الهنيئ، ثم شرح ذلك قائلاً: فألذ المأكولات العسل وهو بصدق من ذبابه، وأحلى المشروبات الماء؟ وكفى باباحته وسياحته على وجه الأرض، وأعلى الملبوسات الديباج وهو من لعاب دوده، وأعلى المنكوحات النساء وهو مبال فى مبال، ومثال لمثال، وإنما يراد أحسن ما فى المرأه لأفصح ما فيها، وأعلى المركوبات الخيل وهو قوادل، وأجمل المشمومات المسك وهو دم من سره دابه، وأجل المسوعات الغناء والترنم وهو إثم، فما هذه صفته لم يتنفس عليه عاقل.

قال جابر بن عبدالله: فو الله ما خطرت الدنيا بعدها على قلبى (٣).

ص: ٢٦٦

١- ١) منهاج البراعه، للعلامة الخوئى ٧/١٨٢.

٢- ٢) المصدر السابق.

٣- ٣) بحار الانوار ٧٥/١١ [١]

«رَحِمَ اللهُ امْرَأً تَفَكَّرَ فَاَعْتَبَرَ فَاَبْصَرَ، فَكَانَ مَا هُوَ كَائِنٌ مِنَ الدُّنْيَا عَنْ قَلِيلٍ لَمْ يَكُنْ، وَكَانَ مَا هُوَ كَائِنٌ مِنَ الْآخِرَةِ عَمَّا قَلِيلٍ لَمْ يَزَلْ، وَكُلُّ مَعْدُودٍ مُنْقَضٍ، وَكُلُّ مُتَوَقَّعٍ آتٍ، وَكُلُّ آتٍ قَرِيبٌ دَانَ» .

الشرح والتفسير

قال عليه السلام فى هذا المقطع من الخطبه - والذى يعتبر فى الواقع نتيجته لما تقدم - «رحم الله امرأ تفكر فاعتبر، واعتبر فأبصر» .

طبعاً مراد الإمام عليه السلام التفكير فى مصير الدنيا الذى تطرق إليه سابقاً، فإن مثل هذا التفكير يودى إلى الاعتبار واليقظه. ومن الواضح أن من يعتبر ويتعظ يتبصر الأمور ويقف على بواطن الأشياء بدلاً من ظواهرها، ويفكر فى المقدمات والنتائج فيلتمس سبيل النجاه فى ظل هذا الاعتبار والأبصار. وبعبارة أخرى فإن الإنسان ليتعرف على سلسله من الحقائق من خلال تأمل حوادث الماضى والحاضر، فيحتذ بها فى مسيره ليميز الحق من الباطل.

فقد ورد فى الحديث أن رجلاً سأل الإمام الصادق عليه السلام عن صحه هذا الخبر «إن تفكر ساعه خير من قيام ليله»، فأجاب عليه السلام: نعم، قال رسول الله صلى الله عليه و آله: «تفكر ساعه خير من قيام ليله». فسأل الراوى: «كيف يتفكر؟». قال عليه السلام: «يمر بالدور الخربه، فيقول: أين بانوك؟ أين ساكنوك؟ مالك لا تتكلمين؟» (1).

ص: ٢٤٧

ولو كانت له أذن سامعه لسمعها وهي تناديه: لقد ارتحلوا جميعاً بعد أن توسدوا التراب ولم يبق سوى آثارهم.

ثم قال عليه السلام: «فكأن ما هو كائن من الدنيا عن قليل لم يكن، وكأن ما هو كائن من الآخرة عما قليل لم يزل» .

أى أنّ الدنيا لتمضى بسرعه، والآخرة تأتي بسرعه بحيث يتصور الإنسان أنه لم تكن هناك من دنيا، والآخرة هي التي كانت موجوده دائماً.

وقد جربنا هذه المسأله فى العديد من حوادث الدنيا؛ فقد نمر أحياناً بدار بعض الاشراف وقد كانت داره تغط بالناس والذهب والاياب، وإذا بها صامته هادئه وكأن لم تشهد تلك الضجه.

ثم اختتم عليه السلام خطبته بثلاث عبارات غايه فى الروعه والدقه، فى أنّ ما كان محدوداً (كساعات عمر الإنسان) فهو إلى انقضاء، وما كان منتظراً فهو إلى قدوم ووقوع، وما كان قريباً فهو حاصل: «وكل محدود منقض، وكل متوقع آت، وكل آت قريب دان» .

فالعباره الأولى إشاره إلى قاعده كليه فلسفيه فى محدوديه كل ما دخل تحت العدد، وما كان محدوداً فهو إلى انقضاء، ولما كان عمر الإنسان والدنيا برمتها داخل فى العدد والارقام، فلا بدّ من انتظار انقضائه، والعبارات اللاحقه مكمله لذلك؛ لأنّ ما ننتظره سيأتينا يوماً لا محاله، وما يأتينا ليس ببعيد عنا! وعليه فلا ينبغي الاعتقاد ببعده الموت وخلود الحياه، والعمر ليس بباق. و الواقع هو أنّ هذه العبارات الثلاث بمنزله الدليل على العبارات السابقه.

تأمل: فى الاعتبار

مليئه حياه الإنسان فى كل عصر ومصر بالدروس والعبر؛ الدروس التى توقظ القلب وترفع الحجب وتفضح ماهيه الحياه الدنيا؛ إلماً أنّ الموسف قله الاعتبار. فالناس عاده ما تمرّ الكرام على الحوادث التى من شأنها اثاره الاعتبار لديهم، كما أنّ تكرارها يدعوهم لاهمالها.

العامل الآخر الذى يقف وراء عدم الاعتبار إنّما يكمن فى حصر مكاره الدهر فى الآخرين،

وكأنا بمعزل عن تلك المكاره وأنا مخلدون في هذه الدنيا. ولو كانت هناك بصيره حقا فإن كل شيء في الأرض يشتمل على عبره تدعوننا للإعتبار.

جاء في الأخبار أن هارون الرشيد كتب رساله إلى الإمام موسى بن جعفر عليه السلام طلب فيها أن يعظه قائلاً «عظني وأوجز» (طبعا من المستبعد أن يكون مثل هؤلاء الأفراد صادقين وأنهم يطلبون النصيح والوعظ والارشاد؛ لأن هذه الأمور إنما تكون عادة جزءاً من مخططاتهم السياسيه، ليوحوا للآخرين أنا من اهل الوعظ الذي نسأله من ابن رسول الله).

فأجابه عليه السلام: «ما من شيء تراه عينك ألو فيه موعظه» (١).

نعم فالأرض والسماء والكائنات والاشجار والحوادث وأنين المرضى ومشيب الشعر وانحناء الظهر والمقابر والقصور الخاويه للملوك، كلها تغص بالدروس والعبر فالواقع هو أن الإمام عليه السلام اراد أن يقول له لو كان لك عين باصره لاعتبرت.

فقصور الملوك مملوءه بالعبر، ولكن لا يعتبر بها سوى من له آذانا صاغيه.

و كفى بالقرآن واعظا بهذا الشأن: «كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ * كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخِرِينَ * فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ». (٢).

ص: ٢٤٩

١-١) سفينه البحار - ماده وعظ.

٢-٢) سوره الدخان / ٢٥ - ٢٩. [١]

ومنها: «العالم مَنْ عَرَفَ قَدْرَهُ، وَكَفَى بِالْمَرْءِ جَهْلًا أَلَّا يَعْرِفَ قَدْرَهُ؛ وَإِنَّ مِنْ أُبْعَضِ الرِّجَالِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى لَعَبْدًا وَكَلَهُ اللَّهُ إِلَى نَفْسِهِ، حَيِّئًا عَنِ قَضِيْدِ السَّيْلِ، سَيِّئًا بَعِيْرًا دَلِيْلًا؛ إِنَّ دُعَى إِلَى حَرْثِ الدُّنْيَا عَمَلٌ، وَإِنَّ دُعَى إِلَى حَرْثِ الْمَآخِرَةِ كَسِيْلٌ! كَأَنَّ مَا عَمِلَ لَهُ وَاجِبٌ عَلَيْهِ؛ وَكَأَنَّ مَا وَنَى فِيهِ سَاقِطٌ عَنْهُ!». .

الشرح والتفسير

اتجه الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الخطبه - والذي يبدو منفصلاً، وان كان له نحو ارتباط بالمقاطع الماضيه - صوب التعريف بالعلماء الحق ومن تشبه بالعلماء (العلماء الحقيقيون والعلماء المزيّفون) حيث يعرض لصفات كل منهما، فقال عليه السلام: «العالم من عرف قدره» .

ثم أكد هذه العبارة بقوله عليه السلام «وكفى بالمرء جهلاً ألا يعرف قدره» .

وقد وردت عدة احتمالات في تفسير هاتين العبارتين كلها مناسبة، ويمكن جمعها في مفهوم كلامه عليه السلام.

الأول: أنّ العالم الحقيقي من يعرف قيمته وقدره ازاء عظمه الله سبحانه في هذا العالم، فيرى أنّه ليس بشيء يذكر بالنسبه لذلك الوجود المطلق، وأنّه تابع له، فيحث الخطى للفوز بقربه، ولعل هذا هو المعنى الذى هدف إليه الحديث: «من عرف نفسه فقد عرف ربه» (١).

والثانى: أن المراد معرفه القيم والمكانه الواقعيه فى المجتمع، وبعبارة أخرى: العالم الحقيقي من

يبتعد عن الامال التي لا تستند لأى المنطق، ولا يتجاوز حدود نفسه، ولا يضع نفسه فى موضع ليس له باهل، فلا يعيب بماء وجهه وقدره. على غرار ما ورد فى بعض الروايات: «رحم الله من عرف قدره، ولم يتجاوز حده» (١).

والثالث: أنّ المراد هو أنّ الإنسان موجود قيم له استعدادته العاليه، فلا ينبغى أن يبيع هذه الجواهره الثمينه برخص ولا يزهّد فى نفسه وإمكاناته؛ الأمر الذى ورد فى الشعر المنسوب لأمير المومنين على عليه السلام إذ قال: أتزعم أنك جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر

وبالنظر إلى إمكانيه استعمال اللفظ لأكثر من معنى، حيث يعد ذلك من جماليه الكلام وبدائعه، فلا يبدو من المستبعد الجمع بين هذه الاحتمالات الثلاث فى تفسير الكلام المذكور؛ وإن كانت العبارات القادمه أنسب للمعنى الثانى والثالث.

ثم واصل عليه السلام كلامه بالتعريف بمن تشبه من العلماء من الجهال البعيدين عن الحق والصواب فقال عليه السلام: «وإن من أبغض الرجال إلى الله تعالى لعبدا وكله الله إلى نفسه، جائراً عن قصد السبيل، سائراً بغير دليل» .

طبعاً لا يسع الإنسان ما لم تحفه عنايه الله والطفه ان يتجاوز هذه الموانع والآفات الخطيره التى تعترض طريقه، فاذا وكلّ إلى نفسه فسوف لن تكون عاقبته سوى المهلكه؛ فهو ينحرف عن الصراط، ويفقد الدليل فيسير على عمى وضلال.

ثم وضع ذلك عليه السلام بالقول أنه اغتر بالدنيا وخدع بها بحيث لا يعمل إلالها ولا يجهد نفسه إلا من أجل الحصول على متاعها: «إن دعى إلى حرث الدنيا عمل، وإن دعى إلى حرث الآخرة كسل» .

فهو نشط من أجل الدنيا، كسل من أجل الآخرة، وذلك لضعف ايمانه بالآخرة وعدم اعتقاده بالوعد والوعيد الإلهى. فلم يبصر سوى الدنيا وينسى الآخرة.

ومن هنا إختتم عليه السلام كلامه بهذا الشأن بالقول: «كأن ما عمل له وأحب عليه، وكأن ما ونى فيه ساقط عنه» (٢).

ص: ٢٧٢

١- ١) اشتهرت هذه العبارة التى يطلقها العلماء بالاستفاده من الاحاديث.

٢- ٢) «ونى» بمعنى ضعف وتعب.

والتعبير بالزرع عن الدنيا والآخرة هو اقتباس من الآية الشريفة: «مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ» (١).

يمكن للدنيا أن تكون مزرعه الآخرة، كما يمكنها أن تكون مزرعه لنفسها. ويذرهما الأعمال الحسنه والسيئه، وأعمالها الحسنه كالجهه التي تنبت سبع سنابل وفي كل سنبله مأه حبه، أمّا الأعمال السيئه فهي البذور التي تزرع في الأراضى المالحة: «لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا» (٢).

وتشير العبارة الأخيره ضمناً إلى أنّ الأعمال الصالحه والطالحه إنّما تفرزها طبيعه الاعتقادات القويه والضعيفه.

تأمل: العلماء الحقيقيون

أوضح الإمام عليه السلام بجلاء في هذه الخطبه صفات العلماء، و من تشبه بهم من علماء السوء، فكان في مقدمتها عدم معرفه قدر النفس. عدم معرفه قدر النفس ازاء عظمه الله، ولا قدره تجاه المجتمع، ولا قدر نفسه حيال نفسه. ومن لم يعرف قدر نفسه فأنه سيته في أمواج من الجهل والبؤس والحيره والشقاء، حتى يكله الله إلى نفسه فيضل في خضم هذه الحياه؛ فهو لا يرى سوى النعم الماديه، وعليه فالدنيا عنده ماء، والآخرة سراب من الهواء. والحلال والحرام والحق والباطل لديه على حد سواء؛ وهو ينطلق نحو المال والمقام وكأنّها أوجب الواجبات، بينما يتقاعس عن واجباته وكأنّها من المحرمات.

وقد اوردنا شرحاً مفصلاً بهذا الخصوص في الخطبه السابعه عشر من المجلد الأول، ولا حاجه للتكرار.

ص: ٢٧٣

١-١ (١) سورة الشورى/٢٠. [١]

١-٢ (٢) سورة الاعراف/٥٨. [٢]

ومنها: «وَذَلِكَ زَمَانٌ لَا يَنْجُو فِيهِ إِلَّا كُلُّ مُؤْمِنٍ نُومِهِ، إِنْ شَهِدَ لَمْ يُعْرَفْ، وَإِنْ غَابَ لَمْ يُفْتَقَدْ، أَوْلَيْكَ مَصَابِيحُ الْهُدَى، وَأَعْلَامُ السُّرَى، لَيْسُوا بِالْمَسَايِحِ، وَلَا الْمَذَابِيعِ الْبُذُرِ، أَوْلَيْكَ يَفْتَحُ اللَّهُ لَهُمْ أَبْوَابَ رَحْمَتِهِ وَيَكْشِفُ عَنْهُمْ ضَرَاءَ نَقْمَتِهِ.

أَيُّهَا النَّاسُ، سَيَأْتِي عَلَيْكُمْ زَمَانٌ يُكْفَأُ فِيهِ الْإِسْلَامُ، كَمَا يُكْفَأُ الْإِنَاءُ بِمَا فِيهِ، أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَعَاذَكُمْ مِنْ أَنْ يَجُورَ عَلَيْكُمْ، وَلَمْ يُعِذْكُمْ مِنْ أَنْ يَبْتَلِيَكُمْ، وَقَدْ قَالَ جَلَّ مِنْ قَائِلٍ: «إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ» .

الشرح والتفسير

أشار الإمام عليه السلام في هذا المقطع الذي يمثل آخر الخطبه إلى الوضع في آخر الزمان، وبعبارة أخرى الزمان الذي يسوده الشر قبل الإمام المهدي عليه السلام. فكان عليه السلام يتطرق إلى خصائص المؤمنين في ذلك الزمان أحياناً، وأحياناً أخرى إلى وضع الإسلام والأحكام الإسلامية. (١)

فقال عليه السلام: «وذلك زمان لا ينجو فيه إلا كل مؤمن نومه، إن شهد لم يعرف وإن غاب لم يفتقد» .

صحيح أن النومه من النوم بمعنى الشخص الكثير النوم؛ إلا أنه من الواضح هنا أن ذلك كناية عن الفرد المجهول وغير المعروف، ولا سيما أن الإمام عليه السلام وضح ذلك بالعبارات القادمة.

ص: ٢٧٥

١- ١) يفيد عدم الارتباط المعنوي بين هذا المقطع من الخطبه والذي سبقه، أن السيد الرضى (ره) حذف بعض الأقسام بينهما، والشاهد على ذلك تعبيره (منها) .

طبعاً من البديهي في الظروف التي يعم فيها الفساد المجتمع، ويكون زعماء المجتمع وقادته من الفسده والمنحرفين، ألا يكون الأفراد المؤمنين من الشخصيات المعروفة في المجتمع، لأنهم سيكونون فريسه للجبايره الذين لن يتركوهم وشأنهم أبداً؛ فأما أن يتسلموا ويكونوا عوناً لهم، وأما ان يقاوموا ويمتنعوا وفي هذه الحاله ليس لهم سوى الحديد والنار.

وبناءً على هذا يتوجب على الأفراد المؤمنين في ظل هذه الظروف أن يختلفوا عن الأضواء ويعيشوا بعيداً عن الشهرة والمعرفه، كي لا يكون هناك من يتعقبهم ويبحث عنهم.

وبالطبع فان هذه المجهوليه لن تحط من قدرهم وتقلل من مكانتهم، وأنهم لن يتخلوا عن دورهم المعنوي في المجتمع، ومن هنا وصفهم الإمام عليه السلام بقوله: «أولئك مصايح الهدى، وأعلام السرى» (١).

فهم صامتون خاملون، إلا أنهم قدوه للآخرين، فهم مصايح هدى كتلك العلامات التي تنصب على الطريق لكي لا يضل السائر فيه ليلاً.

ثم قال عليه السلام في وصف هذه الطائفة من المؤمنين: «ليسوا بالمسايح، ولا المذايع البذر» .

قال المرحوم السيد الرضى المسايح جمع مسياح وهو الذى إذا سمع لغيره بفاحشه أذاعها، والبذر جمع بذور وهو الذى يكثر سفهه ويلغو منطقته.

وعليه فمعنى العبارة هو أن هذه الطائفة من المؤمنين ليست بمفسده ولا مثيره للفتنه وليست سفيهه تشيع الفاحشه.

ثم قال: «أولئك يفتح الله لهم أبواب رحمته، ويكشف عنهم ضراء نقمته» . فالعبارة تفيد أن الله سبحانه وتعالى لم يسلب الطائفة المؤمنه الحقه عنصر هدايتها في تلك الظروف العصبيه، وهو حافظهم من شر الظلمه ومكاره ذلك الزمان وحوادثه.

ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه بنبوءه صريحه وتوضيح أكثر لذلك الزمان، فقال عليه السلام: «أيها الناس! سيأتى عليكم زماناً يكفا (٢) فيه الإسلام، كما يكفا الاناء بما فيه» .

فالعبارة «يكفا فيه الإسلام» كناية لطيفه عن انقلاب كافه المفاهيم الإسلاميه رأساً على

ص: ٢٧٦

١-١) «السرى» تعنى السير في الليل.

٢-٢) «يكفاً» من ماده «كفاً» على وزن نفع بمعنى الانقلاب.

عقب وذهاب حقيقتها وجوهرها، لأنها شبهت الإسلام بالاناء الذى وضعت فيه المعارف والقوانين والأحكام والأخلاق الإسلاميه، وكما يضيع كل الماء إذا قلب الاناء، فكذلك الإسلام فى ذلك الزمان يضيع كل محتواه، ولا يبقى منه سوى القشور.

ويبدو أنّ عصرنا يشهد مثل هذه العلامات حيث يكتفى أغلب المسلمين بذكر اسم الإسلام فقط، دون أن يكون هناك أى أثر للأخلاق أو انفتاح على السنه النبويه؛ فليس هناك سوى الشهوات والمال والمقام واللذه الماديه والشهوات الحيوانيه.

ولا شك أنّ احد عوامل البؤس والشقاء هو التفسير بالرأى والقراءات الكاذبه والمنحرفه للإسلام، حيث يقوم بعض الأفراد خداعاً لأنفسهم وللآخرين بتقديم بعض التفاسير المشبوهه للحقائق الإسلاميه المسلمه انسجاماً مع أهوائهم وأفكارهم؛ الأمر الذى يجعل الإسلام العوبه بيدهم يفعلون به ما يشاؤون.

فقد ورد فى الحديث أنّ النبى الأكرم صلى الله عليه وآله قال لعلى عليه السلام: «يستحلون حرامه بالشبهات الكاذبه، والأهواء الساهيه» (١).

ثم اختتم الإمام عليه السلام كلامه بالاجابه على سؤال مقدر وهو: لم يتلى الله المسلمين بهذه الحوادث والاضطرابات؟ فقال عليه السلام: «أيها الناس إنّ الله قد أعاذكم من أن يجور عليكم، ولم يعذكم من أن يبتليكم، وقد قال جل من قائل إن فى ذلك لآيات وإن كنا لمبتلين» (٢).

فى إشاره إلى أنّ مثل هذه الحوادث اختبار للناس وامتحان لهم، ولا بدّ أن يخوض عامه الناس - بما فيهم الأنبياء وسائر الأفراد - هذا الامتحان الإلهى! الامتحان الذى قد ينطوى أحياناً على بعد فردى، وأحياناً جماعى؛ كما ورد فى العبارة المذكوره من شمول الجميع بالامتحان، لتمييز الصادق من الكاذب والمؤمن من المنافق.

كلام السيد الرضى (ره)

قال السيد الشّريف الرّضى: «أَمَّا قَوْلُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «كُلُّ مُؤْمِنٍ نُؤْمِهِ» فَإِنَّمَا أَرَادَ بِهِ الْخَامِلَ الذُّكْرَ، الْقَلِيلَ الشَّرِّ.

ص: ٢٧٧

١- ١) نهج البلاغه، الخطبه ١٥٦. [١]

٢- ٢) سوره المؤمنون/٣٠. [٢]

وَ «الْمَسَائِيحُ» جَمْعُ «مَسِيحٍ» وَهُوَ الَّذِي يَسِيحُ بَيْنَ النَّاسِ بِالْفِسَادِ وَالنَّمَائِمِ. وَ «الْمِذَابِيحُ» جَمْعُ «مِذْبَاحٍ» وَهُوَ الَّذِي إِذَا سَمِعَ لغيرِهِ بِفَاحِشَةٍ أَدَاعَهَا، وَنَوَّهَ بِهَا. وَ «الْبُدُورُ» جَمْعُ «بُدُورٍ» وَهُوَ الَّذِي يَكْثُرُ سَفَهُهُ وَيَلْغُو مَنْطِقَهُ.

تأمل: الفساد في آخر الزمان

وردت عدة روايات التي تدم آخر الزمان، حيث فسر آخر الزمان عادة بالزمان القريب من ظهور الإمام المهدي عليه السلام: والواقع هو كثره الفساد الذي يجتاح العالم بأسره: «كما ملئت ظلماً وجوراً» فيعد القلوب الوالهة إلى تقبل وجوده عليه السلام بصفته مظهر العدل والصلاح.

هذا ومن جملة العوامل التي تؤدي إلى سعه حجم الفساد في آخر الزمان ما يلي:

١ - الابتعاد عن تعاليم الأنبياء وارشادات الاوصياء عليهم السلام.

٢ - إزدیاد وسائل الفساد والشهوات.

٣ - اتساع حجم الوسائل الدعائية التي تقوم بنشر الفساد إلى مختلف الأماكن لمجرد حصوله في زاويه من الأرض.

٤ - إزدیاد الشبهات في المباني الدينيه والأخلاقية من خلال التفسير بالرأى والقراءات المختلفه للمعارف والمفاهيم الدينيه.

٥ - تسلط حكام الجور والفساد الذين لا يهتمون سوى بتحقيق منافعهم الماديه، إلى جانب بذلهم الجهود الحثيئه من أجل افساد الناس ولا سيما الشباب من اجل الوصول إلى اهدافهم الخبيئه.

حقاً أنّ التدين لصعب في مثل هذه العصور والأزمته، بل الواقع هو أنّ هذا العصر من أصعب العصور اختباراً وامتحاناً. ولا يمكن للصالحين اجتياز هذا الامتحان العسير إلّا من خلال الاستغاثه بالله ليشملهم بلطفه وعنايته.

ومن خطبه له عليه السلام

نظره إلى الخطبه

أشار الإمام عليه السلام في القسم الأول من هذه الخطبه إلى قيام النبي الأكرم صلى الله عليه وآله في وسط جاهليه العرب وجهوده المضنيه في سبيل هدايه الأُمَّه.

وأشار في القسم الآخر من الخطبه إلى سعى بعض المنحرفين لاحياء تقاليد الجاهليه: ثم قال عليه السلام أنى سأواصل طريق رسول الله صلى الله عليه وآله ولأبقرن الباطل حتى أخرج الحق من خاصرته، لتعلم الأُمَّه كيف تنهض بتكاليها وتعامل معه، وتناهب لمحاربه أعراف الجاهليه.

ص: ٢٧٩

١-١) سند الخطبه: تشيه هذه الخطبه إلى حد كبير الخطبه الثالثه والثلاثين. ومن هنا قال المرحوم السيد الرضى (ره) في آخر الخطبه: وقد تقدم مختار هذه الخطبه، إلّا أنى وجدتها في هذه الروايه على خلاف ما سبق من زياده ونقصان، فأوجبت الحال إثباتها ثانيه. فالعبارة تفيد ان الخطبتين مرتبطه بواقعه واحده، وإن نقلهما الرواه مع بعض الاختلاف؛ إلّا أن التفات الواضح بين الخطبتين يجعل احتمال التعدد أقوى. وللوقوف على التفاصيل راجع ما أوردناه ذيل الخطبه ٣٣.

«أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ بَعَثَ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ، وَآلِهِ وَوَلِيِّهِ أَحَدٌ مِنَ الْعَرَبِ يَقْرَأُ كِتَابًا، وَلَا يَدْعَى نُبُوَّةً وَلَا وَحِيًّا، فَقَاتَلَ بِمَنْ أَطَاعَهُ مِنْ عَصَاهُ، يَسُوقُهُمْ إِلَى مَنَاجِزِهِمْ؛ وَيُبَادِرُ بِهِمُ السَّاعَةَ أَنْ تَنْزِلَ بِهِمْ، يَحْسِرُ الْحَسِيرُ، وَيَقِفُ الْكَسِيرُ، فَيَقِيمُ عَلَيْهِ حَتَّى يُلْحِقَهُ غَايَتُهُ، إِلَّا هَالِكًا لَأَخِيرِ فِيهِ، حَتَّى أَرَاهُمْ مَنَاجِزَهُمْ وَبَوَّأَهُمْ مَحَلَّتَهُمْ، فَاسْتَدَارَتْ رِحَاهُمْ، وَاسْتَقَامَتْ قَنَاتُهُمْ» .

الشرح والتفسير

استهل الإمام عليه السلام الخطبه - بعد الحمد والثناء الذى لم يذكر فى عبارته - بالحديث عن بعثه النبي الأكرم صلى الله عليه و آله فى ذلك الوسط الجاهلى فقال عليه السلام: «أما بعد، فإن الله سبحانه بعث محمداً صلى الله عليه و آله وليس أحد من العرب يقرأ كتاباً، ولا يدعى نبوه ولا وحياً» .

فالعباره إشاره إلى الأغلبيه الساحقه من العرب آنذاك التى كانت تعبد الأوثان والأصنام وقد تناست دعوه الأنبياء السابقين. وبناءاً على هذا فليس هناك من منافاه بين هذا الحكم العام الناظر للأغلبيه العظمى ووجود الأقليات الدينيه آنذاك كاليهود والنصارى. أضف إلى ذلك فإن الأقلية اليهوديه كانت مهاجره أتت إلى الحجاز من الشام، كما قدمت الأقلية النصرانيه من اليمن، فهما لا تنتميان إلى العرب. كما يحتمل أن يكون المراد بالكتاب، الكتاب السماوى غير المحرف، الذى لم يكن موجوداً آنذاك. أما ما قيل من أن المراد بالكتاب هنا هو القراءه والكتابه فيبدو بعيداً، لا سيما أن العباره القادمه على الخلاف من ذلك.

أضف إلى ذلك فقد كما هناك من يحسن القراءة والكتابه آنذاك.

ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه بتقسيم الناس ازاء الدعوه الإسلاميه إلى ثلاث طوائف: الطائفه التي تقبلت الإسلام بكل كيانها، وأخرى التي استجابت بعد جهود، والثالثه التي اعتمدت التعصب واللجاجه فوقفت بقوه بوجه الدعوه، فلم تتعاطف معها أبدا، وقد قضى عليها.

فقال عليه السلام بشأن الطائفه الاولى: «فقاتل بمن أطاعه من عصاه، يسوقهم إلى منجاتهم، ويبادر بهم الساعه أن تنزل بهم». .

والمراد بالساعه فى هذه العبارة القيامه الصغرى يعنى الموت، لا القيامه الكبرى التي تقوم بعد نهايه العالم.

وقال بشأن الطائفه الثانيه: «يحسر الحسير (١)، ويقف الكسير، فيقيم علمه حتى يلحقه غايته». .

ثم أشار إلى الطائفه الثالثه وهى الطائفه الضالاه التي لا يؤمل هدايتها: «إلّا هالكاً لا خير فيه». .

فما ورد فى الحديث الشريف هو عين ماورد فى عباره أميرالمؤمنين عليه السلام، ثم عاد عليه السلام إلى أصل المطلب: «حتى أراهم منجاتهم وبوأهم محلثهم، فاستدارت رحاهم (٢)، واستقامت قناتهم (٣)». .

تأملان

١ - هل بعث نبي من العرب؟

تضمنت بدايه الخطبه إشاره إلى عدم قيام نبي من العرب؛ وهذا فى الواقع اقتباس من الآيه الشريفه: «لَتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ» .

(٤)

ص: ٢٨٢

١-١) «حسير» من ماده «حسر» على وزن حبس بمعنى العرى وسلب اللباس من شىء. ثم استعمل بمعنى الكسل والتعب.

٢-٢) «رحى» كناية عن وفره أرزاقهم، فالرحى تدور على ما تطحنه من حب.

٣-٣) «القناه» من ماده «قنو» على وزن صنف فى الأصل فرع الشجره، كما اطلقت على الرمح لشباهته بفرع الشجره، وهى كناية عن صحه الأحوال وصلاحتها.

٤-٤) سورة يس/٦. [١]

وهنا يمكن أن يطرح هذا السؤال: إنَّ القرآن صرَّح في موضع آخر قائلاً: «وَإِنْ مِنْ أُمَّهِ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ» (١).

أضف إلى ذلك فإنَّ قاعده اللطف تقتضى أن يكون لكل أمَّة رسول مبعوث من الله.

ونقول في الجواب: أنَّ المراد بالآيه وما ورد في الخطبه كبار أنبياء الله الذين ذاع صيتهم في الارحاء، وإلَّا فليس هناك من زمان ليس لله فيه من حجه بين الناس. ومن هنا يصطلح بالفترة على الفاصله الواقعه بين بعث السيد المسيح عليه السلام والنبى صلى الله عليه وآله؛ والحال كان هناك أوصياء المسيح عليه السلام من بعده.

أضف إلى ذلك لم يدع أحد من العرب في زمان بعثه النبى صلى الله عليه وآله - المراد بهذه الخطبه - النبوه والاتصال بالوحى والإتيان بكتاب سماوى.

٢ - القوه في الدين

يستفاد من عبارات الإمام عليه السلام الوارده في هذه الخطبه أنَّ ظهور الإسلام لم يقتصر على اصلاح دين الناس فقط، بل حل إلى جانب ذلك الكثير من مشاكلهم الدنيويه.

وهكذا تبلورت أمه قويه وحكومته مقتدره في ظل الدين الجديد، تمكنت من إداره شؤون الأُمَّه وزعامتها لسنوات طويله؛ ولعل هذه الحكومه كانت ستخلد لو لم تنحرف عن المسار الإسلامى الصحيح. اضافه إلى ذلك نهضت الحضاره وتطورت ثقافه لتشهد اتساعاً ورقياً في ظل التعليمات الإسلاميه، حتى كانت صفحه جديده في فصل التاريخ البشرى.

كل هذه أدله على أن اتباع التعاليم الإسلاميه إنما يؤدى إلى ضمان سلامه دين الإنسان وعمارته دنياه.

والعبارات الاربع الوارده في الخطبه شاهد على هذا الادعاء، فقد قال عليه السلام: حتى أراهم منجاتهم، وبوأهم محلثهم، فاستدارت رحاهم، واستقامت قناتهم. لتصف بمجموعها سعادتهم المعنويه والماديه.

ص: ٢٨٣

القسم الثاني: بقر الباطل واخراج الحق

«وَإِيمُ اللَّهِ، لَقَدْ كُنْتُ مِنْ سَاقَتِهَا حَتَّى تَوَلَّتْ بِحِذَافِيرِهَا، وَاسْتَوَسَيْتُ فِي قِيَادِهَا؛ مَا ضَعُفْتُ، وَلَا جُبُنْتُ، وَلَا خُنْتُ، وَلَا وَهَنْتُ وَإِيمُ اللَّهِ، لِأَبْقُرَنَّ الْبَاطِلَ حَتَّى أُخْرِجَ الْحَقَّ مِنْ خَاصِرَتِهِ!». .

الشرح والتفسير

أشار الإمام عليه السلام هنا إلى دوره في انتشار الدعوة الإسلامية ودحر عسكر الكفر فقال عليه السلام: «وايم الله، لقد كنت من ساقتها حتى تولت بحذافيرها (١)، واستوسقت قيادها» (٢).

ساقه جمع سائق. وقد كان سائداً في السابق أن يتقدم حركة الركب أو القافلة شخص يسمى القائد، ويقال عن خلفه السائق.

وهكذا كان الأمر بالنسبة للجيش فقد كان القاده في مقدمه الجيش و الأمرء خلفه. فالإمام عليه السلام يشير إلى أن الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله كان القائد للجيش وهو بمنزله السائق، كما ورد السائق أحياناً بمعنى القائد. أضف إلى ذلك فان ساقه الجيش وردت بمعنى القسم الخلفى منه و فى هذه الحالة لا تكون جمع سائق.

على كان حال فان العبارة تكشف عن دور الإمام عليه السلام فى زعامه جيش الإسلام وهزيمة جيش الكفر.

ص: ٢٨٥

١-١) «حذافير» جمع «حذفور» الجماعة الكثيره، كما وردت بمعنى الجانب، إشاره إلى أن كل طوائف الباطل تولت وانتهت.
٢-٢) حسب التفسير الذى اوردها فان الضمير فى «ساقتها» و «قيادها» يعود إلى جيش الإسلام، بينما يعود إلى جيش الكفر فى حذافيرها بقرينه المقام.

ثم قال عليه السلام: «ما ضعفت، ولا جبت، ولا خنت، ولا وهنت» فالواقع هو أنّ الهزيمة إنّما يفرزها أحد هذه العناصر الأربعة: الضعف الخوف، الخيانه والوهن.

والفارق بين الضعف والوهن هو أنّ الضعف يعنى العجز وعدم وجود القدره، بينما هناك قدره فى الوهن، غير أنّ هناك مسامحه فى الاستعمال. وعليه فلا يمكن العثور على أى من هذه العناصر فى شخص الإمام عليه السلام، ومن هنا كان منتصراً على الدوام.

ثم اختتم الخطبه بالقول: «وايم الله، لأبقرن الباطل حتى أخرج الحق من خاصرته» .

فالعباره تفيد وجود الحق فى الدنيا دائماً، وإن غطاه الباطل وعليه فبقر الباطل وطرح حجابيه يظهر منه الحق. وهى نقطه رائعه أشار إليها الإمام عليه السلام بكلامه.

كلام السيد الرضى:

قال السيد الشريف الرضى: وَقَدْ تَقَدَّمَ مُخْتَارُ هَذِهِ الْخُطْبَةِ، إِلَّا أَنَّنِي وَجَدْتُهَا فِي هَذِهِ الرَّوَايَةِ عَلَى خِلَافِ مَا سَبَقَ مِنْ زِيَادَةٍ وَنُقْصَانٍ، فَأَوْجَبَتِ الْحِجَالَ إِثْبَاتَهَا ثَمَانِيَةً. (وهذا يكشف بدوره عن مدى دقه السيد الرضى (ره) فى ذكر الخطب حيث لم يهمل حتى إختلاف الروايات).

ومن خطبه له عليه السلام

فى بعض صفات الرسول الكريم صلى الله عليه و آله و تهديد بنى أميه وعظه الناس

نظره إلى الخطبه

يتضح من عنوان الخطبه أنّها تشتمل على ثلاثة أقسام:

القسم الأول فى ذكر بعض صفات الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله و يصرح الإمام عليه السلام فيه بأنّ الرسول صلى الله عليه و آله خير الخليفه طفلاً- وأعظمها كهلاً- حيث هدف الإمام عليه السلام فى الواقع إلى لفت إنتباه الناس إلى أهميه موروث النبى صلى الله عليه و آله و حفظ القرآن و الإسلام.

القسم الثانى يذم فيه بنى أميه و يلفت إنتباههم إلى الدنيا التى أقبلت عليهم، ويحذرهم من غضب الله لما سفكوه من دماء بريئه، مؤكداً على أنّ هذه الخلافه ستؤول قريباً إلى الاعداء.

القسم الثالث فى وعظ الناس ونصيحتهم بعدم الاستجابه للاهواء، والسعى لتحصيل العلم وعدم ترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.

ص: ٢٨٧

١ - ١) سند الخطبه، روى بعض هذه الخطبه المفسر المعروف على بن ابراهيم المتوفى عام ٣٠٧ فى المجلد الأول من تفسيره ٣٨٤/ ذيل الآيه «ليحملوا أوزارهم كامله يوم القيامه» (سوره النحل / ٢٥) [١] عن الإمام الصادق عليه السلام. كما ورى بعضها الشيخ المفيد فى كتابه الارشاد / ١٦٠٠ وقد عاش كلاهما قبل السيد الرضى (ره) .

القسم الأول: صفات النبي صلى الله عليه وآله

«حَتَّى بَعَثَ اللَّهُ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، شَهِيدًا وَبَشِيرًا، وَنَذِيرًا، خَيْرَ الْبَرِيَّةِ طِفْلاً، وَأَنْجَبَهَا كَهْلاً، وَأَطْهَرَ الْمُطَهَّرِينَ شِيْمَةً، وَأَجْوَدَ الْمُسْتَمَطَّرِينَ دِيْمَةً» .

الشرح والتفسير

أشار الإمام عليه السلام في القسم الأول من هذه الخطبة إلى النعمة الوفيرة بظهور نبي الإسلام صلى الله عليه وآله وقد أثنى على سبع من صفاته البارزة، فقال عليه السلام: (أن الناس كانوا في هاله من الضلال) حتى بعث الله سبحانه محمداً صلى الله عليه وآله شهيداً على أعمالهم وبشيراً (بالثواب الإلهي على الأعمال الصالحة) ونذيراً (بين يدي عذاب شديد على السيئات) وقد كان خير الخلق طِفْلاً وانجبتهم كهلاً، أخلاقه تفوق أخلاق الجميع، وكرمه وسخاؤه ليس له من مثيل «حتى بعث الله محمداً صلى الله عليه وآله لشهيداً وبشيراً ونذيراً، خير البرية طِفْلاً، وانجبتهم كهلاً (١)، وأطهر المطهرين شيمه (٢)، وأجود المستمطرين ديمه» (٣).

فصفه الشهيد إشاره لما ورد في الآية الشريفة: «وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ» (٤). وصفه البشير والنذير إشاره لما وردت كراراً في الآيات القرآنية كآية «إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا» (٥).

ص: ٢٨٩

١-١ «كهل» متوسط العمر، وقيل تطلق على من جاوز الثلاثين، ولا تعني العجز.

٢-٢ «شيمه» بمعنى الأخلاق وجمعها «شيم» .

٣-٣ «ديمه» بكسر الدال المطر المستديم الذي يخلو من الرعد والبرق.

٤-٤ سورة النحل/٨٩. [١]

٥-٥ سورة البقرة/١١٩. [٢]

ثم تحدث الإمام عليه السلام عن طفولته صلى الله عليه وآله حيث كان متميزاً فيها. حيث ورد في مناقب ابن شهر آشوب عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وآله كان يخالط الأطفال دون أن يأتي ببعض أعمالهم التي تستند إلى الجهل. كما ورد عن أبي طالب قوله: لم أعهد فيه كذبه ولم يتخلق بأخلاق الجاهليه، و لم يضحك عبثاً. كما يروى أن عبدالمطلب كان يفرش في ظل الكعبه ولم يجلس على فرشه أحد حتى يخرج سوى رسول الله صلى الله عليه وآله و آله و حين يحاول أعمامه إبعاده كان يرد عليهم عبدالمطلب: دعوه، فوالله إن له لشأنا عظيماً. (١)

و قد أنشد ابوطالب في خلقه هذين البيتين: ولقد عهدتك صادقاً

و العجيب ما روى أنه كان يكتفى بالثدى الأيمن من مرضعته حلیمه السعديه و كأنه كان حريصاً على العدل ليرك الثدى الايسر لولد حلیمه. (٢)

ثم أشار عليه السلام إلى نجابه النبي صلى الله عليه وآله و آله و كرامته في الكهوله؛ الأمر الذي يشهد به التأريخ، كما لا يخفى على أحد.

أما تواضعه و رأفته و فطنته و عفوه و صفحه فقد دوت في أرجاء كافه المعموره و هي أشهر من نار على علم. كان يهب كل مالديه للآخرين و وجود بالعطاء.

كان أسخى الجميع بحيث لم يبق عنده دينار أو درهم، وان زاد لديه شيء لم تكن تغمض عينيه دون أن يوصله إلى المحتاجين.

كان يكرم الفضلاء، و يجهد في صله الأرحام، و كان يقبل العذر و يصفح عن المسيء.

ص: ٢٩٠

١-١) مناقب ابن شهر آشوب ١/٣٤ - ٣٧ ([١] طبق نقل شرح نهج البلاغه للشوشتری ٢/٢٠٤) و [٢] سيره ابن هشام ١/١٧٨. [٣]

٢-٣) ابن شهر آشوب طبق نقل بحار الأنوار ١٥/٣٣٢. [٤]

«فَمَا اخْلَوْلْتُ لَكُمْ الدُّنْيَا فِي لَمَدَّتِهَا، وَلَا تَمَكَّنْتُمْ مِنْ رِضَاعِ أَخْلَافِهَا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا صَادَفْتُمُوهَا جَائِلًا خَطَامُهَا، قَلِقًا وَضَمِنُهَا، قَدْ صَارَ حَرَامُهَا عِنْدَ أَقْوَامٍ بِمَنْزِلَةِ السِّدْرِ الْمَخْضُودِ، وَحَلَالُهَا بَعِيدًا غَيْرَ مَوْجُودٍ، وَصَادَفْتُمُوهَا، وَاللَّهِ، ظَلَمًا مَمْدُودًا إِلَى أَجْلِ مَعْدُودٍ. فَالْأَرْضُ لَكُمْ شَاغِرَةٌ. وَأَيْدِيكُمْ فِيهَا مَبْسُوطَةٌ؛ وَأَيْدِي الْقَادَةِ عَنْكُمْ مَكْفُوفَةٌ، وَسُيُوفُكُمْ عَلَيْهِمْ مَسْلُطَةٌ، وَسُيُوفُهُمْ عَنْكُمْ مَقْبُوضَةٌ. أَلَا وَإِنَّ لِكُلِّ دَمٍ شَائِرًا، وَلِكُلِّ حَقٍّ طَالِبًا وَإِنَّ الثَّائِرَ فِي دِمَائِنَا كَالْحَيَاكِمِ فِي حَقِّ نَفْسِهِ، وَهُوَ اللَّهُ الَّذِي لَمَّا يُعْجِزُهُ مَنْ طَلَبَ، وَلَمَّا يَفُوتُهُ مَنْ هَرَبَ. فَأُقْسِمُ بِاللَّهِ، يَا بَنِي أُمَّيَّةَ، عَمَّا قَلِيلٍ لَتَعْرِفَنَّهَا فِي أَيْدِي غَيْرِكُمْ وَفِي دَارِ عَيْدُوكُمْ! أَلَا إِنَّ أَبْصَرَ الْأَبْصَارِ مَا نَفَذَ فِي الْخَيْرِ طَرْفُهُ! أَلَا إِنَّ أَسْمَعَ الْأَسْمَاعِ مَا وَعَى التَّذْكَيرَ وَقَبْلَهُ!» .

الشرح والتفسير

صرح أغلب شرّاح نهج البلاغه بأنّ هذا المقطع من الخطبه - والذي يبدو أنّ هناك حذف بينه وبين القسم الأول، جريا على عادة السيد الرضى فى اقتطاف بعض كلمات الإمام عليه السلام - فى بنى أميه، والشاهد على ذلك أن اسمهم ورد صراحة فى أواخر هذا القسم، بينما يرى جمع من شرّاح نهج البلاغه أنّ المخاطب هو من تبقى من الصحابه والتابعين، وذيلها فى بنى أميه، والعبارات التى استهل بها هذا القسم إنّما تؤيد المعنى الثانى؛ لأنّ هذه العبارات تبين أن الإمام عليه السلام إنّما عاتب أفرادا لم يكن يتوقع منهم الانحراف عن جاده الحق، ونعلم أنّ بنى أميه

طائفه ظالمه طيله التاريخ معروفه بانحرافها عن الإسلام. على كل حال قال الإمام عليه السلام: «فما احلوت (١) لكم الدنيا في لذتها، ولا تمكنتم من رضاع اخلافها (٢) إلا من بعد ما صادقتموها جائلاً (٣) خطامها، (٤) قلقتا (٥) ووضينها (٦)». .

المراد أنكم تكالبتم على لذات الدنيا وزخارفها في عهد عثمان وبعد الفتوحات الإسلامية والتداول على بيت المال، وهذا ماجعلكم تبتعدون عن الله، فقد انهمك الحكام بجمع الثروات، بينما انشغلت الأمة بدنياها ولذاتها.

ومن هنا قال عليه السلام أن حرام الدنيا أصبح سهلاً يسيراً كالسدر الخالى من الشوك، بينما أصبح الحلال بعيداً غائباً: «قد صار حرامها عند أقوام بمنزله السدر المخضود، وحلالها بعيداً غير موجود»، فقد انهال البعض على بيت المال فنهب ماشاء، ثم اتسعت هذه الأموال الحرام بين الناس.

العباره «السدر المخضود» إشاره إلى أن نهى الله وتحريمه كالشوك تجاه لذات الدنيا المحظوره، أما الأفراد من عديمى الورع والتقوى فهم لا يكثرثون للنواهي الإلهيه، والحرام عندهم كالسدر المخضود، وقد صرح ارباب اللغه أن شجره السدر أنواع، لبعضها ثمار شديده الحلاوه فواحه العطر تفيض رائحته على يد الإنسان وثيابه إذا ما تناول منه. (٧)

نعم فاصحاب الدنيا يبتلعون الأموال الحرام وكأنها ثمار لذيذه كالسدر المنضد الذى قطع شوكه، ولا يلتفتون إلى أوامر الله ونواهييه، وبالطبع فإن الحرام إنما ينتشرويعم مثل هذا الوسط فلا يبقى للحلال من مكان.

ص: ٢٩٢

١-١) «احلوت» أصبحت حلوه من ماده «حلو» .

٢-٢) «اخلاف» جمع «خلف» على وزن جلف حلمه ضرع الناقه.

٣-٣) «جائل» من ماده «جولان» تعنى فى الأصل إزاله الشى من مكانه، وتطلق على الحيوان الذى ينزل عنانه وينطلق اينما يشاء.

٤-٤) «خطام» ما يوضع فى أنف البعير ليقاد به.

٥-٥) «قلقت» من ماده «قلق» الاضطراب وتحريك الشىء.

٦-٦) «وضين» بطن عريض منسوج من سيور أو شعر يكون للرحل كالخرام للسرجه.

٧-٧) لسان العرب، ماده سدر.

ثم قال عليه السلام: «وصاد فتموها والله، ظلًا ممدوداً إلى أجل معدود، فالأرض لكم شاغره (١)، وأيديكم فيها مبسوطه؛ وأيدي القاده عنكم مكفوفه، وسيوفكم عليهم مسلطه، وسيوفهم عنكم مقبوضه» .

فهذه العبارات تبين أنّ الكلام هنا بخصوص فريق من المؤمنين من بقيه الصحابه والتابعين الذين لم يتمالكوا أنفسهم حين الاختبار الإلهي، فيميلون حيثما مالت الريح.

فقد شغلتهم الدنيا وغرتهم بزینتها وزخرفها وبالطبع قد حصل هذا في وقت لم يسع الإمام عليه السلام حتى في زمان حكومته أن يصددهم عنه؛ وذلك لأنهم غرقوا في هذه الدنيا على عهد عثمان بالشكل الذي لم يبق معه من أمل لانقاذهم بسهولة.

ثم هددهم عليه السلام ليعلموا أن المسأله ليست بهذه السهوله وهناك الحساب الذي ينتظرهم، محذرهم قائلاً: اعلموا أنّ لكل دم شائراً، ولكل حق طالباً: «ألا وإن لكل دم ثائراً، (٢) ولكل حق طالباً، وإن الثائر في دمائنا كالحاكم في حق نفسه، وهو الله الذي لا يعجزه من طلب، ولا يفوته من هرب» .

فاذا تأخر العذاب والانتقام الإلهي عن بعض العصاه المرده الذين يجاهرون بجنایاتهم، فهذا لا يعنى نسيان هذه الأعمال الشائنه، أو قدره هؤلاء الجناه على الفرار من مخالف العدل الإلهي.

والعبارة «إن الثائر في دمائنا. . .» تعنى أنّ الثائر لدمائنا أهل البيت والتي تسفك بغير حق هو الله سبحانه وتعالى، فهي تسفك في سبيل الله ومن أجل إعلاء كلمته، فلا تشتمل هذه الدماء على جانب شخصي أو قبلي، وقطعاً أن مثل هذا الثائر لا يعجزه شيء، ولا يفوته شيء وهو بالمرصاد.

ص: ٢٩٣

١- ١) «شاغره» من ماده «شغور» خاليه.

٢- ٢) «ثائر» من ماده «ثأر» على وزن قعر «وقد بُدلت الهمزه بألف. و «ثأر» تقرأ على وزن غار. وفي الاصل جاءت بمعنى الثأر والانتقام، وتأتى أحياناً بمعنى الدم، وهو كناية عن الثأر أيضاً. وتعبير «ثأر الله» أطلق على الإمام الحسين والإمام علي عليهما السلام «يا ثأر الله وابن ثاره»، ومعنى ذلك ان ثأر هذين الامامين لا- يتعلق بعائله او قبيله، بل يرتبط بالله سبحانه وتعالى وبكل بنى الانسان في هذا العالم.

ثم حذر بنى أميه قائلاً: «فاقسم بالله، يا بنى أميه، عما قليل لتعرفنها فى أيدى غيركم وفى دار عدوكم» .

إياكم والظن بأنكم أن سفكنم دماء الأبرياء ولم ترحموا صغيراً وتوقروا كبيراً، ورسختم دعائم حكومتكم على الظلم والعدوان ونهب الأموال وقتل الناس، فإنّ هذه الحكومه دائمه لكم! فسرعان ما ينهض لكم الأعداء ويسددوا لكم ضرباتهم الماحقه حتى يطيحوا بحكومتكم ويقضوا عليكم، بل سوف لن يرحموا حتى موتاكم، فسيخرجونهم من قبورهم ويحرقون أجسادهم.

ويشير التاريخ إلى تحقق كل ما أخبر به الإمام عليه السلام، وقد مر شرح ذلك فى الخطبه ٨٧. (١)

ثم إختتم الكلام بقوله عليه السلام: «ألا إن أبصر الأبصار ما نفذ فى الخبر طرفه! ألا إن أسمع الاسماع ما وعى التذكير وقبله» .

أى إن كان لكم بصر وسمع مفتوح، لم تعد عليكم من صعوبه فى الظفر بسبيل الخير والسعاده، غير أنه لمن المؤسف أن أهوائكم النفسيه وطغيانكم قد غطى أبصاركم وأسماعكم بالحجب، بحيث لا يسمعكم رؤيه الحق ولا سماع المواعظ.

جدير ذكره سئل بعض شيوخ بنى أميه عقيب زوال الملك عنهم:

ما كان سبب زوال ملككم؟ فقال: جار عمالنا على رعيتنا، فتمنوا الراحة منا، وتحومل على أهل خراجنا فجلوا عنا، وخربت ضياعنا فخلت بيوت أموالنا، ووثقنا بوزرائنا فأثروا مرافقهم على منافعنا، وأمضوا أموراً دوننا، أخفوا علمها عنا، وتأخر عطاء جندنا فزالت طاعتهم عنا، واستدعاهم عدونا فظافروه على حربنا، وطلبنا أعداءنا فعجزنا عنهم لقله أنصارنا، وكان استتار الأخبار عنا من أوكد أسباب زوال ملكنا. (٢)

ونرى هنا يوضح عمق ما أخبر به الإمام عليه السلام فى هذه الخطبه.

ص: ٢٩٤

١- (١) المجلد الثالث من هذا الكتاب فى الخطبه ٨٧؛ ج ٤ الخطبه ٩٣.

٢- (٢) شرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد ٧/١٣٦. [١]

«أَيُّهَا النَّاسُ، اسْتَصْبِحُوا مِنْ شُعْلِهِ مِصْبَاحٍ وَاعْظُوا مُنْعَظًا، وَامْتَاخُوا مِنْ صَفْوِ عَيْنٍ قَدْ رُوِّقَتْ مِنَ الْكَدْرِ.

عِيَادَ اللَّهِ، لَاتَزُكُّنَا إِلَى جَهَالَتِكُمْ، وَلَا تَنْفَادُوا لِأَهْوَائِكُمْ، فَإِنَّ النَّازِلَ بِهَذَا الْمَنْزِلِ نَازِلٌ بِشَفَا جُرْفٍ هَارٍ، يَنْقُلُ الرَّدَى عَلَى ظَهْرِهِ مِنْ مَوْضِعٍ إِلَى مَوْضِعٍ، لِأَيِّ يُحَدِّثُهُ بَعْدَ رَأْيٍ؛ يُرِيدُ أَنْ يُلْصِقَ مَا لَا يَلْتَصِقُ، وَيُقَرِّبَ مَا لَا يَتَقَارَبُ! فَاللَّهُ اللَّهُ أَنْ تَشْكُوا إِلَيَّ مَنْ لَا يُشْكِي شَجْوَكُمْ، وَلَا يَنْقُضُ بِرَائِيهِ مَا قَدْ أُبْرِمَ لَكُمْ».

الشرح والتفسير

خاض الإمام عليه السلام هنا في نصح الناس ووعظهم فقال في البدايه لإعداد أنفسهم: «أَيُّهَا النَّاسُ، اسْتَصْبِحُوا مِنْ شُعْلِهِ مِصْبَاحٍ وَاعْظُوا مُنْعَظًا، وَامْتَاخُوا (١) مِنْ صَفْوِ عَيْنٍ قَدْ رُوِّقَتْ (٢) مِنَ الْكَدْرِ».

كما أنّ الاشارات الضوئيه تنير للإنسان طريقه إذا مشى ليلاً في الظلام وتقيه الوقوع في المطبات أو أن يضل الطريق، فإنّ نصائح الواعظ المتعظ تصون الإنسان في مسيرته وسلوكه المعنوي والفكري والأخلاقي من الانحرافات العقائديه، وكما أنّ الماء الزلال والخالي من الكدر هو ماده حياه جسم الإنسان وسائر الكائنات الحيه؛ كذلك نصائح دعاه الحق تشكل ماده حياه روح الإنسان ونفسه.

ومن الواضح أنّ المراد بهذا الواعظ المتعظ الذي ينبغي الاستصباح من شعلته والتروى من

ص: ٢٩٥

١-١) «امتأخوا» من ماده «متح» سحب الدلو من بئر الماء.

٢-٢) «روقت» من ماده «روق» على وزن فوق بمعنى صفيت، فتأني بمعنى التصفيه إذا حملت على باب التفعيل.

صفو عينه هو الإمام عليه السلام الذى وظفت الناس بالتمسك به والاستفاده منه: أما للأسف لم يفعلوا واننا لنهتدى اليوم بما وصلنا من كلماته عليه السلام ونستقى من عينه الصافية.

ثم واصل عليه السلام كلامه بخطاب كافه عباد الله وحذرهم من الجهل والهوى والأفكار الباطلة المنحرفة.

فقال عليه السلام: «عباد الله، لا تركنوا إلى جهالتكم، ولا تنقادوا لأهوائكم» ثم بين عليه السلام دليل ذلك قائلاً: «فان النازل بهذا المنزل نازل بشفاً (١) جرف هار، ينقل الردى على ظهره من موضع إلى موضع»، ثم قال عليه السلام: «لرأى يحدثه بعد رأى؛ يريد أن يلصق ما لا يلتصق، ويقرب ما لا يتقارب».

فقد بين الإمام عليه السلام بهذه العبارات البليغة حقيقه مهمه وهى أن أحد مصادر الضلال إنما يكمن فى الاستناد إلى الاوهام والظنون الباطلة والآراء الفاسده البعيده عن البرهان والدليل.

وقد شبههم الإمام عليه السلام بحافه النهر حيث يتمتعون بظاهر خلاب، فى حين يستبطن الخلاء والجوفيه! فاذا وطى الجهال تلك الحافه هروا فى القعر.

ثم خلص الإمام عليه السلام إلى هذه النتيجة: «فالله الله أن تشكوا إلى من لا يشكى شجوكم (٢)، ولا ينقض برأيه ما قد أبرم لكم».

ولعل هذه العبارة إشاره إلى أن أحد منابع الجهل وعدم العلم والوقوع فى متاهات الظنون الباطله إنما يتمثل باستشاره غير الاكفاء من الأفراد الذين يفتتروا إلى الفكر السليم والرأى القاطع والاطلاع الكافى واللازم للتغلب على المشاكل والصعوبات، فاذا ما استشير حمل معه من استشاره إلى وادى الضلال والهلكه.

كما يحتمل أن تكون إشاره إلى ضروره عدم الاغترار بالقدرات الكاذبه والجباره التى لا تفكر سوى فى تحقيق أطماعها ومآربها (كبنى أميه). وعليه فلا ينبغى لهم الاستعانه بهؤلاء من أجل حل مشاكلهم. فهم ليسوا فقط غير قادرين على حل هذه المشاكل فحسب، بل غالباً ما يسهمون فى مضاعفه هذه المشاكل.

ص: ٢٩٦

١- ١) «شفا» حافه الشىء وتعنى فى الأصل حافه البئر والنهر، و «الهار» من «هور» على وزن غور بمعنى المتهدم أو المشرف على الانهدام.

٢- ٢) «شجو» الهم والغم (ولهذه المفرده معنى المصدر واسم المصدر).

«إِنَّهُ لَيْسَ عَلَى الْإِمَامِ إِلَّا مَا حُمِّلَ مِنْ أَمْرِ رَبِّهِ: أَلَّا يَبْلُغَ فِي الْمَوْعِظَةِ، وَالْإِجْتِهَادِ فِي النَّصِيحَةِ، وَالْإِحْيَاءِ لِلسُّنَّةِ، وَإِقَامَةِ الْحُدُودِ عَلَى مُسْتَحِقِّيهَا، وَإِصْدَارِ السُّهُمَانِ عَلَى أَهْلِهَا. فَبَادِرُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِ تَصْوِيحِ نَبِيِّهِ، وَمِنْ قَبْلِ أَنْ تُشْغَلُوا بِأَنْفُسِكُمْ عَنْ مُسْتَتَارِ الْعِلْمِ مِنْ عِنْدِ أَهْلِهِ، وَانْهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَتَنَاهَوْا عَنْهُ، فَإِنَّمَا أُمِرْتُمْ بِالنَّهْيِ بَعْدَ التَّنَاهِي!» .

الشرح والتفسير

أشار الإمام عليه السلام في هذا الموضوع من الخطبة إلى الوظائف الخمس لإمام المسلمين ووظائف المسلمين فذكر بعض الأمور المهمة بهذا الشأن، وكان ما أورده الإمام عليه السلام سابقاً يدعو إلى سؤال يقتدح في الازدهان، وهو أننا إذا وقعنا في وادي الجهل أو شكونا ما يحل بنا لغير أهله، فذلك لأن الإمام لم يأخذ بأيدينا ويهدينا ويدلنا على الطريق.

فقد رد الإمام عليه السلام على مثل هذا السؤال المقدر بالقول: «إنه ليس على الإمام إلّا ما حمل من أمر ربّه» .

والوظائف الملقاه على عاتقه هي:

١ - الوعظ لعامة الناس «الابلاغ في الموعظة» .

٢ - الجد والاجتهاد في الخير والنصح «والاجتهاد في النصيحة» .

٣ - «والإحياء للسنه» .

٤ - «واقامه الحدود على مستحقيها» .

ص: ٢٩٧

هذه هي وظائف حاكم المسلمين. فعليه أن يوصل الأحكام الإسلامية كامله إلى الأمّة بحيث يخرج من نشد الحق عن الجهل والضلال ولا يبقى له من عذر في الجهل بهذه الأحكام. هذا من جانب.

ومن جانب آخر: يسعى ويجتهد من أجل خير المسلمين وإصلاح أوضاعهم الدينيه والدينيويه والاجتماعيه والاقتصاديّه والسياسيه. ومن جانب ثالث: أن يسعى لحياء السنه النبويه والأحكام الشرعيه من خلال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أو سائر الوسائل.

ومن جانب رابع: إجراء الحدود بحق المستحقين دون التمييز بين أحد وآخر والتساهل في إقامتها بهدف منع الجرائم والجنايات. ومن جانب خامس: دفع حقوق المستحقين والمحتاجين من بيت المال.

فاذا فعل امام المسلمين ذلك فقد أدى دينه تجاه عبادالله، فان كان هناك من اشكال واضطراب فأتما يعود إلى الناس.

ثم خاض عليه السلام في وظائف الأمّة ليجزها في ثلاث، تعلم العلم من قبل أن تجف شجرته، وقبل أن ينشغلوا بأنفسهم ويتلوثوا بالدنيا، كما عليهم أن يستقوا هذا العلم من منابعه: «فبادروا العلم من قبل تصويح (٢) نبتة، ومن قبل أن تشغلوا بأنفسكم عن مستثار (٣) العلم من عند أهله» .

ولعل المراد بجفاف شجره العلم شهادته عليه السلام، والمراد شخسه عليه السلام أيضاً بمركز فيض العلم - ومن هنا فقد لفت انتباههم إلى ضروره السؤال والاستفسار مادامه عليه السلام بينهم.

والعبارة تشبه تلك التي أطلقها عليه السلام أواخر عمره الشريف: «سلوني قبل أن تفقدوني» (٤).

كما يحتمل ان يكون المراد بهذه العبارة جفاف شجره وجود الإنسان، لأنّ الإنسان لا يمتلك

ص: ٢٩٨

١-١) «سهمان» على وزن لقمان جمع «سهم» الحظ والنصيب.

٢-٢) «تصويح» جفاف النبات.

٣-٣) «استثار» من ماده «استيثار» بمعنى الاستثارة والنشر.

٤-٤) نهج البلاغه، الخطبه، ٩٣.

القدره الكافيه على تناول العلم فى أى سن وعمر وينسجم هذا الاحتمال والعبارة القادمه، لأنّ الإنسان كلما تقدم به العمر ازدادت مشاكله وهمومه، كما يقل استعداده - كما يمكن الجمع بين الاحتمالين.

ثم أشار إلى الوظيفة الثانيه والثالثه للآمه بالقول: «وانهوا عن المنكر وتناهوا عنه، فآما أمرتم بالنهى بعد التناهى» .

وعليه فوظيفه الناس أولاً: ان يرفع من مستواه العلمى ويزيد من معارفه، لأنّ الجهل من عوامل التخلف.

وثانياً: الجد فى امتثال أوامر الله وعدم نسيان وظيفه الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر التى تعد وظيفه عامه. والحق أنّ السعاده ستعم الآمه لو عملت بوظائفها ونهض أئمه المسلمين بوظائفهم.

وقد برز سؤال بين شراح نهج البلاغه - وهو السؤال الذى يتبادر إلى ذهن كل متتبع - وهو؛ كيف اشترط الإمام عليه السلام النهى عن المنكر بانتهاه، الشخص عن فقال: «فانما أمرتم بالنهى بعد التناهى»؟ رد ابن أبى الحديد على هذا السؤال بالقول: لم يرد عليه السلام أنّ وجود النهى عن المنكر مشروط بانتهاه ذلك التناهى عن المنكر، وإنّما أراد: أنى لم آمركم بالنهى عن المنكر إلّا بعد أن أمرتكم بالانتهاه عن المنكر. (١)

بينما اعتبر الشارح الخوئى هذا الرد تكلفاً وقال: الأفضل أن يقال للسائل: أنه عليه السلام أوجب الأمرين (دون اشتراط أحدهما بالآخر) والعبارة الأخيره إشاره إلى الانتهاه عن المنكرات التى أكدت أكثر عن وجوب النهى عن المنكر. لأنّ اصلاح النفس مقدم على اصلاح الآخرين. (٢)

إلّا أنّ الأفضل أن يقال: إنّ الانتهاه عن المنكر لشرط كمال النهى عنه، لا شرط وجوبه، لأنّ الإنسان حين يرتكب الذنب ويريد نهى الآخرين عنه، سوف لن يكون لكلامه من تأثير، ولو علم الناس منه ذلك لسخروا منه وقالوا: «طيب يعالج الناس وهو عليل» .

ص: ٢٩٩

١- ١) شرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد ٧/١٧٠. [١]

٢- ٢) شرح نهج البلاغه للمرحوم الخوئى ٧/٢٥١.

ومن هنا أكد أئمة الدين عليه السلام أننا لا ننهاكم عن شيء حتى ننتهي عنه قبلكم.

فقد قال أمير المؤمنين عليه السلام: «أيها الناس، إني والله ما أحثكم على طاعة إلوأسبقكم إليها، ولا- أنهاكم عن معصية إلوأتناهى قبلكم عنها» (١).

ص: ٣٠٠

(١-١) نهج البلاغه، الخطبه ١٧٥. [١]

ومن خطبه له عليه السلام

وفيها يبين فضل الإسلام ويذكر الرسول الكريم صلى الله عليه وآله ثم يلوم أصحابه

نظره إلى الخطبه

كما يتضح من عنوان الخطبه أنها تتألف من ثلاثه أقسام:

القسم الأول: يتحدث عن أهميه الإسلام وبركاته وآثاره والتركيز على بعض النقاط المهمه بهذا الشأن.

القسم الثانى: يتحدث عن شخصيه الرسول الأ-كرم صلى الله عليه وآله بعبارات قصار عميقه المعنى، ثم يختتمه بالدعاء للنبي صلى الله عليه وآله وعامه المؤمنين.

القسم الثالث: يلوم أصحابه على سكوتهم على الظلم والفساد رغم ما آتاهم من النعم، والسماح لهؤلاء الظلمه بانتهاك الحرمات. وممارسه كل ما يحلو لهم من أعمال.

وجاء فى بعض الروايات أن رجلاً سأل أمير المؤمنين عن الإسلام والإيمان والكفر والنفاق فخطب عليه السلام بهذه الخطبه. وفى خبر عن الاصغ بن نباته أنّ أمير المؤمنين عليه السلام خطبها فى داره أوفى دار الاماره ثم أمر بكتابتها. (٢)

ص: ٣٠١

١- ١) سند الخطبه: ورد فى مصادر نهج البلاغه سنذكر مدارك هذه الخطبه فى ذيل الكلمات القصار (الكلمات ٣٠، ٣١، ٢٦، ٢٦٨) ويبدو انها فى خطبه واحده للإمام عليه السلام (فصلها المرحوم السيد الرضى (ره))، ولكن ليس لدينا مدارك واضحه لما نقله المصادر. والذى يستفاد من كتاب المستدرک والمدارك لنهج البلاغه ان جانب من هذه الخطبه ورد فى كتاب اصول الكافى وجانب آخر منها فى الامالى للطوسى (من اول الخطبه إلى العبارة والجئه سبقته).

٢- ٢) شرح نهج البلاغه للشوشترى ١٢/٣٣٩. [١]

«الْحَمِيدُ لِلَّهِ الَّذِي شَرَعَ الْإِسْلَامَ فَسَيِّئِلَ شَرَائِعُهُ لِمَنْ وَرَدَهُ، وَأَعَزَّ أَرْكَانَهُ عَلَى مَنْ غَابَهُ، فَجَعَلَهُ أَمْنًا لِمَنْ عَلِقَهُ، وَسَلَّمَ لِمَنْ دَخَلَهُ، وَبُزْهَانًا لِمَنْ تَكَلَّمَ بِهِ، وَشَاهِدًا لِمَنْ خَاصَمَ عَنْهُ، وَنُورًا لِمَنْ اسْتَبْصَأَ بِهِ، وَفَهْمًا لِمَنْ عَقَلَ، وَلُبًّا لِمَنْ تَدَبَّرَ، وَآيَةً لِمَنْ تَوَسَّسَ، وَتَبَصَّرَهُ لِمَنْ عَزَمَ، وَعَيْزَةً لِمَنْ اتَّعَظَ، وَنَجَاءً لِمَنْ صَدَّقَ، وَثِقَةً لِمَنْ تَوَكَّلَ، وَرَاحَةً لِمَنْ فَوَّضَ، وَجَنَّةً لِمَنْ صَبَرَ، فَهُوَ أَبْلَجُ الْمَاهِجِ، وَأَوْضَحُ الْوَلَائِحِ؛ مُشْرِفُ الْمَنَارِ، مُشْرِقُ الْحَيَوَادِّ، مُضَيءُ الْمَصَابِيحِ، كَرِيمُ الْمِضَارِ، رَفِيعُ الْغَايَةِ، حَيَامِعُ الْحَلَبَةِ، مُتَنَافِسُ السُّبْقَةِ، شَرِيفُ الْفُرْسَانِ. التَّصَدِيقُ مِنْهَاجُهُ، وَالصَّالِحَاتُ مَنَارُهُ، وَالْمَوْتُ غَايَتُهُ، وَالدُّنْيَا مِضْمَارُهُ، وَالْقِيَامَةُ حَلَبَتُهُ، وَالْجَنَّةُ سُبْقَتُهُ» .

الشرح والتفسير

أشار الإمام عليه السلام في هذه الخطبة ضمن الخطبة ٢٦ إلى الخصائص المهمة للإسلام والمميزات التي ينطوى عليها بعبارات قصيرة ذات معان عميقة. وكما أوردنا سابقاً - نظره إلى الخطبة - أن الإمام عليه السلام خطب بهذه الخطبة في المسجد لعامة الناس، رداً على من سأله عن خصائص الإسلام والكفر والإيمان والنفاق. فقد استهل عليه السلام خطبته بحمد الله والثناء عليه قائلاً: «الحمد لله الذي شرع الإسلام فسهل شرائعه لمن ورده». حيث نعلم أن الشريعة تعنى الطريق الذي يشقه الناس إلى جانب الأنهار الكبيرة نحو الماء لستفيد منه الناس.

فقد بين الإمام عليه السلام أن الإسلام أشبه بالنهر العظيم و وصف طرق الوصول إليه بأنها سهله

يسيره. كما أنّ اعتناق الإسلام سهل يخلو من أى تكلف؛ فيكفى فيه أن ينطق الإنسان من صميم قلبه بالشهادتين ليخرج من صف الكفر والنفاق ويلتحق بصفوف المسلمين والمؤمنين، كما أنّ البرامج الإسلاميه هي الأخرى سهله يسيره سمحاء، فهناك الأدله من قبيل «لا ضرر» و «نفى الحرج» التي رفعت أى تكلف و ثقل عن كاهل الإنسان! كما منحت الاصاله فى الشرع للبراءه وحمل أفعال الآخريين على الصحه. كما رفضت أى إكراه أو إجبار، كما حكم ببطالان كافه العقود التي تبرم على أساس إلا-كراه والاجبار والاضطرار. كما صرحت ببعض الواجبات التي لاتدعو إلى المشقه والعسر والحرج. وزبده الكلام فقد قال النبي صلى الله عليه وآله: «بعثت إليكم بالحنيفيه السمحه السهله البيضاء» (١).

إلما أن لسهولتها لا- تعنى قدره أرباب السوء على السيطره عليها والتغلب عليها، ومن هنا قال: «وأغر أركانه على من غالبه»، ثم بحكم: «أشداء على الكفار رحماء بينهم» (٢) فإن المسلمين مكلفون بالقوه والشده تجاه الأعداء والرحمه والرأفه ازاء المؤمنين.

ثم واصل ذكر الصفات الأخرى للإسلام كونه ملاذاً آمناً لمن لجأ إليه من الأفراد وسلاماً وأمناً لمن دخل حصنه وولج حريمه، ودليلاً وبرهاناً قاطعاً لمن اعتمده فى منطقته، وحجه دامغه لمن احتج به على خصمه: «فجعله آمناً لمن علقه (٣)، وسلماً لمن دخله، وبرهاناً لمن تكلم به، وشاهداً لمن خاصم به» .

نعم فالمسلمون جميعاً يتمتعون بالأمن قاطبه دون استثناء فى الإسلام، وأسسده ودعائمه رصينه قويه تدعو دعاه الحق للاستدلال بها، كما تسوقهم للدفاع عنها تجاه خصوم الدعوه وأعدائها.

ثم قال عليه السلام فى ذكره لعهده صفات أخرى: «ونوراً لمن استضاء به، وفهماً لمن عقل، ولباً لمن تدبر»، فبلوغ الحقيقه يمر عبر ثلاث مراحل: الظفر بموقعها ومن ثم إدراكها وفهمها وأخيراً تحليلها بصوره دقيقه. وقد بين الإمام عليه السلام هذه المراحل الثلاث بالعبارات الثلاث

ص: ٣٠٤

١-١) بحار الانوار ٦٥/٣٤٦. [١]

٢-٢) سورة الفتح/٢٩. [٢]

٣-٣) «علق» من ماده «علق» التعلق بالشىء والالتصاق به.

المذكوره، فقال أولاً أنّ الإسلام نور يستقطب نحوه الأفراد ليصلوا إليه. ثم قال: إنّ من تعقله سيد ركه ويفهمه. وأخيراً من تدبر بلغ حقيقته.

والحق أنّ الإسلام يتمتع بكل هذه الصفات، فالقرآن الذى تكفل بشرح الإسلام وتوضيحه إنّما يستند على الدوام إلى الدليل والبرهان والمنطق والعقل؛ الأمر الذى نلمسه بوضوح فى الآيه ١٥ و١٦ من سورة المائدة: «قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين* يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ» .

ثم قال عليه السلام: «وآيه لمن توسم، وتبصره لمن عزم، وعبره لمن اتعظ»، توسم من ماده وسم وضع العلامه، والمتوسم تطلق على من يفهم الواقعه من خلال أبسط أثر أو علامه، وهى الفراسه التى ذكرها القرآن فى الآيه الشريفه: . «إِنَّ فِي ذَلِكْ لآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ» (١). فعبارة فى الواقع إشاره إلى أمور مهمه و ظريفه فى القرآن يدر كها ممن تحلى بالفراسه.

ثم واصل عليه السلام ذكره لسائر صفات الإسلام بصفته وسيله النجاه لمن صدق به، والاطمئنان والثقه لمن استند إليه وتوكل عليه، كما يغرق الإنسان بالهدوء والراحه إذا ما وكل أعماله إليه وهو الجنّه الواقيه لمن استقام وصبر: «ونجاه لمن صدق، وثقه لمن توكل، وراحه لمن فوض، وجنّه لمن صبر» .

فالعباره تتحدث عن أربع فضائل أخلاقيه هى: التصديق والتوكل والتفويض والصبر.

فتصديق الإسلام فى الاعتقاد والعمل إنّما يودى بلا- شك إلى النجاه، كما أن الاعتماد على المعارف الإسلاميه يقود إلى الاطمئنان بالمستقبل والحاضر للدنيا والآ-خره، وتفويض الأمور إلى أصول الإسلام وفروعه بمعنى الحركه فى ظله هى سبب الهدوء والسكينه والاستقرار والراحه، وأخيراً فان الصبر والاستقامه فى هذه المسيره وتحمل الشدائد فى سبيل حفظ العقيدته والعمل على ضوء أحكام الشريعه إنّما تجعل الفرد فى جنّه وثيقه تجاه الأمور التى تهدد سعادته أو سعادته المجتمع.

ص: ٣٠٥

والواقع هو أنّ الإنسان إنّما يطلب النجاه والاطمئنان والهدوء والراحة والأمن؛ وهى الأمور التى لا تحصل الأمن خلال العمل بالبرامج الإسلاميه وعلى ضوء التعاليم السماويه.

ثم تطرق عليه السلام إلى خمس صفات أخرى تمثل فى الواقع النتيجة لما سبق من أوصاف، وهى أنّ طرق الإسلام أوضح الطرق ومدخلها من أظهر المداخل، وعلاماتها جليه ظاهره، ومسالكتها بينه منيره «فهو أبلج (1) المناهج (2) وأوضح الولايج (3)؛ مشرف المنار (4) مشرق الجواد (5)، مضىء المصاييح» .

فالواقع هو أنّ الإمام عليه السلام رسم هنا صورته للجاده التى تضم كافة الامتيازات.

فهى على درجه من الوضوح بحيث يبلغها كل شخص بسهولة. ولها أبواب متعدده ماثله امام اصحاب الحق واضحه لديهم. وتتطلب هذه الجاده بعض العلامات التى تبدو من بعيد؛ وهذه فى الواقع جاده الإسلام.

(فقد كانوا يعمدون فى السابق إلى بناء الأبراج فى الطرق ثم ينصبون المصاييح فوقها لتبدو للعيان من مسافات بعيدة وتحول دون ضلال الطريق ويطلقون عليها اسم المنار؛ أى موضع النور، إلّا أنّ المعنى الواسع لهذه الكلمه يشمل جميع العلامات التى تمنع السالكين من الانحراف) .

ولعل هذه العبارات كناية عن محكمات الآيات القرآنيه وصريح السنه النبويه والمعجزات والكرامات وأدله العقل والنقل التى تضيئى معالم الطريق للموحدين السائرين على هدى الإسلام.

ثم شبه عليه السلام بالإسلام بالمسابقه التى تمثل أركانها ذروه الحسن والكمال.

فلمسابقه عاده بعض الأركان من قبيل:

١ - ميدان التمرين ٢ - نقطه انتهاء المسابقه ٣ - الخيل الجاهزه ٤ - الجائزه الكبيره ٥ - الفرسان النجباء.

ص: ٣٠٤

١-١) «أبلج» من ماده «بلوج» على وزن بلوغ واضح ونير.

٢-٢) «المناهج» جمع «منهج» الطريق الواضح والمستقيم.

٣-٣) «ولايج» جمع «وليجه» من ماده «ولوج» بمعنى الدخول فولايج أبواب الدخول.

٤-٤) «مشرف» من ماده «اشراف» بمعنى المرتفع.

٥-٥) «جواد» جمع «جاده» الطريق الواسع الواضح، كما تطلق على مطلق الطريق.

فقال عليه السلام أنّ ميدان السباق الإسلامى طاهر مطهر وكريم، ونقطه انتهاء السباق هى نقطه رفيعه ساميه، وفرسان هذه المسابقه معروفون بالاصاله والاستعداد، أمّا الجائزه المترتبه على هذه المسابقه فهى عظيمه للغايه، وأهلها من النجباء «كريم المضممار (١)، رفيع الغايه، جامع الحلبه (٢)، متنافس (٣)، سبقه (٤)، شريف الفرسان» .

ثم أضاف عليه السلام بأنّ التصديق واليقين هو سبيل (الوصول إلى الأهداف) الإسلام، وعلامه ذلك الأعمال الصالحه (فالواقع هو أنّ الإيمان والعمل الصالح هما العنصران الذان يؤديان إلى الفوز فى هذا السباق) .
«التصديق منهاجه، والصالحات مناره» .

ثم اختتم عليه السلام كلامه بالقول: «والموت غايته، والدنيا مضماره، والقيامه حلبته، والجَنّه سبقته» . ليشخص بصوره جزئيه ما ورد سابقاً بنحو الكلّيه.

أمّا عدم ذكر فرسان المسابقه فلوضوح الأمر؛ فهم ليسوا سوى المؤمنين من ذوى الأعمال الصالحه.

وقد مرعلينا مثل هذا التشبيه الرائع مع إختلاف طفيف فى الخطبه ٢٨ إذ قال عليه السلام: «ألا وإنّ اليوم المضممار، وغدا السباق، والسبقه الجَنّه والغايه النار» .

تأملان

١ - منزله الدنيا والآخرة فى النظرة الإسلاميه

تمثل الدنيا بالنسبه لطلابها ولاولئك الذين ينكرون الآخرة علماً أو عملاً منتهى الطموح والهدف، وعليه فهم يضحون بكافه القيم والمثل من أجلها.

ولعل البؤس والشقاء الذى يعيشه المجتمع العالمى هو وليد هذا النوع من التفكير. أمّا

ص: ٣٠٧

١-١) «المضممار» موضع تضمير الخيل وزمان تضميرها.

٢-٢) «الحلبه» من ماده «حلب» على وزن قلب خيل تجمع من كل صوب للنصره كما تطلق على حلب اللبن من الحيوان، ثم اطلقت على الخيل التى تتسابق فى الميدان.

٣-٣) «متنافس» من ماده «تنافس» سعى الإنسان للحصول على شىء نفيس.

٤-٤) «سبقه» جزاء السابقين.

الإسلام فهو لا يرى الدنيا سوى مرحلة عابره ومقدمه للآخرة، حتى وردت الروايات والأخبار التي شبهتها بالمزرعه والقنطره والمتجر (وقد مر شرح ذلك في الخطبه ٢٨).

أما في هذه الخطبه والبعض الآخر من خطب نهج البلاغه فقد شبهت الدنيا بميدان التمرين والآخرة بميدان السباق؛ وهو تشبيه رائع غايه في الدقه والروعه. فالإنسان إنما يتزود بالقوه والقدرة في هذا الميدان بواسطه التعاليم العقائديه والتربويه والأخلاقية، بما يمكنه من إجتياز مسابقه الأخرى بسرعه لدخول الجنه والفوز برضوان الله وقربه. والتصديق الذى ورد فى الخطبه بصفته المنهاج والصالحات بصفتها المنار إنما يشير إلى هذه التريه والتعليم الربانى.

فالذى نستفيد من هذا التشبيه ما يلى!

١ - أن السعاده والنجاه فى الآخرة ليست عبثاً؛ بل تتأتى فى ظل البناء الفكرى والأخلاقى والعقائدى.

٢ - إنما تغلق صحيفه الأعمال بانتهاء الدنيا، والقيامه يوم حساب ولا عمل، كما أن ميدان المسابقه للسباق لا للتمرين.

٣ - جائزه هذه المسابقه من أعظم الجوائز، وذلك لان هذه المسابقه من أعظم المسابقات

٤ - يعتمد تفاوت واختلاف درجات الناس ومقاماتهم على أعمالهم وعقائدهم وأخلاقهم. فقد يدخل الإنسان الجنه إلّا أن درجته تختلف عن غيره، على غرار الفائزين فى السباق، فهناك الفائز الأول والثانى والثالث وهكذا.

٥ - ليس هنالك أى عمل من أعمالنا فى هذه الدنيا يمكنه أن يزول وأن آثاره باقيه، على غرار آثار التمارين التى يقوم بها المتسابقون.

وهذا ما أشار إليه القرآن الكريم بالقول: «فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ» (١).

وجاء فى الحديث عن الإمام الحسن عليه السلام بعد أن وصف شهر رمضان بصفته مضمار الخلق وميدان التمرين أنه قال: «وايم الله لو كشف الغطاء لعلموا أن المحسن مشغول باحسانه، والمسيئ مشغول باسائه» (٢).

ص: ٣٠٨

١-١ (١) سورة الزلزله/٧ - ٨. [١]

٢-٢ (٢) بحار الانوار ٧٥/١١٠. [٢]

كما أوردنا في الخطبه المذكوره والروايه التي نقلناها في شرحها أنّ الإسلام لشريعه سهله سمحاء؛ أى ليس هنالك من تكلف ولا عسر ولا حرج فى ممارسته وطقوسه فهى لاتدعو إلى الضجر والتعب.

والتمعن فى أحكام الإسلام سواء فى العبادات والمعاملات والروابط الإنسانيه أو فى العقوبات والجزاء يفيد أنّها برمجت على ذلك الأساس أيضاً. فقد روعى هذا الأصل حتى فى أشد العقوبات الإسلاميه من قبيل قتل الزانى بالمحصنه، وذلك لأنّ العقاب ان كان شديداً تعذر بسهوله إثبات الجرم. فعاده ما تثبت الدعاوى بشاهدين، بينما يلزم هنا اربعة شهود. وهكذا الحال فى اجراء بعض الحدود من قبيل الجلد، فقد أوصى باجرائه فى الجو البارد فى فصل الصيف، والحار فى فصل الشتاء، وعدم رفع اليد إلى مكان مرتفع وعدم ضرب المواضع الحساسه وما إلى ذلك من الأوامر.

من جانب آخر فإنّ هؤلاء المجرمين ينالون العفو عما ارتكبوا فيما إذا تابوا قبل القبض عليهم، اضافه إلى العمل بقاعده درء الحدود عند الشبهات فى كافه الجرائم وعند بروز أدنى شك أو شبهه.

وقد جاء فى حديث عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال لأحد أصحابه كلفوا الناس من دينهم ما يطيقون، ثم نقل له عليه السلام قصه ذلك المسلم الذى كان له جار كافر رغب فى الإسلام، فكان يحمله صباحاً وظهراً وليلاً إلى المسجد، بحيث كان يقضى أغلب وقته فيه فى أداء الواجبات والمستحبات. حتى فارق هذا الرجل الإسلام بعد أن شق عليه الأمر وقال: لا طاقه لى بهذا الدين. ثم قال الإمام عليه السلام: «إن إماره بنى أميه كانت بالسيف والعسف، وإن إمارتنا بالرفق، والوقار، والتقيه، وحسن الخلطه، والورع، والاجتهاد. فرغبوا الناس فى دينكم، وفيما أنتم فيه» (١).

ص: ٣٠٩

ولا يخفى أن الحب والرفق والمداراه والخلطه الحسنه إنما تكون مع الأفراد الذين لا يعملون بالشر وإلّا فالإسلام صلب المعامله لشديد فيها تجاه الظلمه والطغاه والاشرار والأوباش، بغيه الحفاظ على سلامه المجتمع وأمنه.

ص: ٣١٠

ومنها في ذكر النبي صلى الله عليه وآله

«حَتَّى أَوْزَى قَبْسًا لِقَابِسٍ، وَأَنَارَ عِلْمًا لِحَابِسٍ، فَهُوَ أَمِينُكَ الْمَأْمُونُ، وَشَهِيدُكَ يَوْمَ الدِّينِ، وَبَعِيثُكَ يَوْمَ رَسُولِكَ بِالْحَقِّ رَحْمَةً، اللَّهُمَّ اقْسِمْ لَهُ مَقْسِمًا مِنْ عَيْدِكَ، وَاجْزِهِ مُضَ مَعْفَاتِ الْخَيْرِ مِنْ فَضْلِكَ. اللَّهُمَّ أَعِزِّ عَلَى بِنَاءِ الْبَانِينَ بِنَاءَهُ! وَأَكْرِمْ لَدَيْكَ نُزُلَهُ، وَشَرِّفْ عِنْدَكَ مَنْرَلَهُ، وَآتِهِ الْوَسِيلَةَ، وَأَعْطِهِ السَّنَاءَ وَالْفَضِيلَةَ، وَاحْشُرْنَا فِي زُمْرَتِهِ غَيْرَ خَزَايَا، وَلَا نَادِمِينَ، وَلَا نَاكِبِينَ، وَلَا نَاكِبِينَ، وَلَا ضَالِّينَ، وَلَا مُضِلِّينَ، وَلَا مُفْتُونِينَ» .

الشرح والتفسير

أشار عليه السلام في هذا الموضع من الخطبة إلى خصائص النبي صلى الله عليه وآله وعلو صفاته، ثم سأل الله تعالى له رفيع الدرجات، كما اختتم بالدعاء لنفسه ولجميع المؤمنين بالحشر في زمرة الرسول الكريم صلى الله عليه وآله. فقال عليه السلام: «حتى أوري (١) قبساً (٢) لقابس، وأنار علماً لحابس (٣)» .

وبالنظر إلى أن هذا القسم من الخطبة - كما صرح المرحوم السيد الرضى (ره) - رواه أخرى للخطب السابقه (٧٢) ، فالذى يفهم أن «حتى» غائيه بالنسبه لسعى النبي صلى الله عليه وآله وجهده،

ص: ٣١١

١ - ١) «أورى» من ماده «ورى» على وزن نفى بمعنى التغطية والستر، وتستعمل بمعنى اشعال النار إذا جاءت من باب الأفعال؛ وكأن النار التى كمنت فى جوف المواد المشتعلة قد خرجت، وتشير فى الخطبه إلى أنوار الهدايه التى نصبها الرسول صلى الله عليه وآله لدعاه الحق.

٢ - ٢) «قبس» الشعلة من النار، والقابس آخذ النار من النار، وهى هنا إشارة إلى النور والهدايه.

٣ - ٣) «الحابس» من حبس ناقته وعقلها حيره منه لا يدرى كيف يهتدى فيقف عن السير.

كما يمكن القول بأن الفاعل في عبارته أوري وأثار هو لشخص النبي الأكرم صلى الله عليه وآله. وعليه فقد قام صلى الله عليه وآله بعملين مهمين هما:

الأول: أنه أمد طلاب الحق بقبسات النور، والثاني أنه نصب مصابيح الهداية في طريق الحيارى.

وكانَّ العبارة الأولى إشارته إلى علماء الأمة الذين يأخذون بشعلة الهدى فيواصلون مسيرتهم ويحملون الآخرين معهم. والعبارة الثانية إشارته إلى الأفراد العاديين الذين ليست لديهم مثل هذه القبسات وعيونهم متطلعة إلى مصابيح الهدى الموضوعه على جانب الطريق. وبعبارته أخرى فإن النبي صلى الله عليه وآله قد أمد دعاه الحق بالهداية العامه والخاصه.

ثم قال عليه السلام على سبيل النتيجة الواضحه و الرائعه: «فهو أمينك المأمون، وشهيدك يوم الدين، وبعيثك نعمه ورسولك بالحق رحمه» .

وقوله عليه السلام أمينك المأمون تأكيد لمطلق أمانته وكمالها، وشهيد يوم الدين ويوم الحساب والجزاء إشارته للآية الشريفة ٨٩ من سورة النحل: «وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ» .

ويمكن أن تكون هذه الشهادة على الاصول الكليه التي تضمنتها دعوه كافه الأنبياء، أو على جزئيات الأعمال، بفعل الشهود العلمى للنبي صلى الله عليه وآله بالنسبه لأعمال كافه الأمم.

وقوله عليه السلام: «بعيثك نعمه» إشارته إلى أن بعثه النبي صلى الله عليه وآله كانت نعمه كبيره من جانب الله سبحانه، كما كانت نموذجاً بارزاً لرحمته الواسعه سبحانه، فقد اهدت به الملايين من أفراد البشريه وانقادت إلى الحق في ظل تعاليمه الساميه، وهذا الكلام في الواقع اقتباس من الآيات القرآنيه ومنها: «لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ» (١) و «وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ» (٢).

ثم واصل عليه السلام كلامه في إطار امتنانه وتقديره لجهود النبي صلى الله عليه وآله العظيمه، فرفع يده بالدعاء مبتهلاً إلى الله بافاضه نعمه على النبي صلى الله عليه وآله فقال: «اللهم أقسم له مقسماً من عدلك، واجزه

ص: ٣١٢

١-١) سورة آل عمران/١٦٤. [١]

٢-٢) سورة الأنبياء/١٠٧. [٢]

مضعفات الخير من فضلك، اللهم أعل على اباة البانين بناءه وأكرم لديك نزله (١)، وشرف عندك منزله، وآته الوسيله، واعطه السناء (٢) والفضيله» .

ويختزن الدعاء الأول والثاني هذه النقطه، وهى أنّ النبي صلى الله عليه وآله يستحق مزيد الثواب بمقتضى العدل الإلهي، كما يتضاعف هذا الثواب بمقتضى الفضل الإلهي. قال القرآن الكريم: «مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا» (٣).

وسؤال الله علو بناء النبي صلى الله عليه وآله على بناء جميع البانين إمّا إشاره إلى علو دينه على جميع الاديان بمقتضى «لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ» (٤).

وإمّا علو مقاماته فى الجنّه، أو علو فضائله المعنويه صلى الله عليه وآله.

ويبدو التفسير الأول أنسبها جميعاً.

والعبارة «آيه الوسيله» إشاره إلى المقام العالى للقرب ونتيجته ذلك الدرجات الرفيعه فى الجنّه، فقد ورد فى الحديث النبوى أنّه صلى الله عليه وآله خاطب أصحابه قائلاً: «سلوا الله لى الوسيله»، ثم أضاف: «هى درجتى فى الجنّه، وهى ألف مرقيه... فلا يبقى يومئذ نبي ولا صديق ولا شهيد إلّا قال طوبى لمن كان هذه الدرجه درجته» (٥).

ثم اختتم كلامه عليه السلام بهذا الدعاء: «واحشرنا فى زمرة غير خزايا (٦)، ولا نادمين، ولا ناكبين، ولا ناكثين، ولا ضالين، ولا مضلين، ولا مفتونين» فى إشاره إلى أن الأفراد يسعهم بالعمل والعلم أن يكونوا فى زمرة النبي صلى الله عليه وآله ويجتازوا هذه الفضائح السبع، فلا يندمون ويفتضحون يوم القيامة، وإذا رأوا أعمالهم لا يشعرون بالندم، فلا يكونوا فى صف الناكثين، ولا يحملون أوزار الآخرين ولا يخذعون بالشياطين.

فالواقع هو أنّ الإمام عليه السلام اشار إلى طوائف أمه النبي صلى الله عليه وآله حين ترد المحشر حيث ترد كل

ص: ٣١٣

١-١) «نزل» بضمّتين ما هيئى للضيف لينزل عليه.

٢-٢) «السناء» علو المقام والرفعه.

٣-٣) سورة الانعام/١٦٠. [١]

٤-٤) سورة الصف/٩. [٢]

٥-٥) تفسير نور الثقلين ١/٦٢٦ ح ١٧٨. [٣]

٦-٦) «خزايا» جمع «خزيان» الخجل والافتضاح.

واحد منها وادياً من الأودية المذكوره السبع، ولعل هذه الطوائف كانت موجوده وقد خاطبها عليه السلام محذراً إياها بهذا الدعاء.

كلام المرحوم السيد الرضى

قال المرحوم السيد الرضى (ره) ذيل هذا الكلام: «وقد مضى هذا الكلام فيما تقدم؛ إلا أننا كررناه هنا لما فى الروايتين من الاختلاف». (١)

تأمل: إعراف مهم

قال ابن ابي الحديد فى ذيل هذا المقطع من الخطبه: سألت استاذى النقيب أبا جعفر، وكان منصفاً بعيداً عن الهوى والعصبيه عن هذا الموضوع، فقلت له: وقد وقفت على كلام الصحابه وخطبهم فلم أر فيهم من يعظم رسول الله صلى الله عليه وآله تعظيم هذا الرجل، ولا يدعوا كدعائه: فانا قد وقفنا من نهج البلاغه ومن غيره على فصول كثيره مناسبه لهذا الفصل، تدل على إجلال عظيم، وتبجيل شديد منه لرسول الله صلى الله عليه وآله. فقال: ومن أين لغيره من الصحابه كلام مدون يتعلم منه كيفيه ذكرهم للنبي صلى الله عليه وآله؟

وهل وجد لهم إلا كلمات مبتدره، لاطائل تحتها! ثم قال: إنَّ علياً عليه السلام كان قوى الإيمان برسول الله صلى الله عليه وآله والتصديق له، ثابت اليقين، قاطعاً بالامر، متحققاً له، وكان مع ذلك يحب رسول الله صلى الله عليه وآله لنسبته منه، وتربيته له، واختصاصه به من دون أصحابه، وبعد، فشرفه له، لأنهما نفس واحده فى جسمين، الأب واحد، والدار واحده، والأخلاق متناسبه، فاذا عظمه فقد عظم نفسه، وإذا دعا إليه فقد دعا إلى نفسه، ولقد كان يود أن تطبق دعوه الإسلام مشارق الأرض ومغاربها؛ لأنَّ جمال ذلك لا حق به، وعائد عليه، فكيف لا يعظمه ويبجله ويجتهد فى إعلاء كلمته. (٢)

ص: ٣١٤

١-١) الخطبه ٧٢ فى المجلد الثالث.

٢-٢) شرح نهج البلاغه لابن ابي الحديد ٧/١٧٤. [١]

ومنها فى خطاب أصحابه

«وَقَدْ بَلَّغْتُمْ مِنْ كَرَامَةِ اللَّهِ تَعَالَى لَكُمْ مَنَزِلَهُ تُكْرَمُ بِهَا إِمَاؤُكُمْ وَتَوْصَلُ بِهَا جِيرَانُكُمْ، وَيُعْظَمُكُمْ مَنْ لَأَفْضَلَ لَكُمْ عَلَيْهِ، وَلَا يَدُ لَكُمْ عِنْدَهُ، وَيَهَابُكُمْ مَنْ لَا يَخَافُ لَكُمْ سَيْطَوَهُ، وَلَا لَكُمْ عَلَيْهِ إِمْرَةٌ وَقَدْ تَرَوْنَ عُهُودَ اللَّهِ مَنقُوضَةً فَلَا تَعْصِبُونَ! وَأَنْتُمْ لِنَقْضِ ذِمَمِ آبَائِكُمْ تَأْنِفُونَ! وَكَانَتْ أُمُورُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ تَرْدًا، وَعَنْكُمْ تَصُدُّرٌ، وَإِلَيْكُمْ تَرْجِعُ، فَمَكَّنْتُمُ الظَّالِمَةَ مِنْ مَنَزِلَتِكُمْ، وَالْقَيْتَمَ إِلَيْهِمْ أَرْمَتَكُمْ، وَأَسْلَمْتُمْ أُمُورَ اللَّهِ فِي أَيْدِيهِمْ، يَعْمَلُونَ بِالشُّبُهَاتِ، وَيَسْتَيِرُونَ فِي الشَّهَوَاتِ، وَإِنَّمَا اللَّهُ، لَوْ فَزَّقُوكُمْ تَحْتَ كُلِّ كَوْكَبٍ، لَجَمَعَكُمُ اللَّهُ لِشَرِّ يَوْمٍ لَهُمْ!». .

الشرح والتفسير

أشار الإمام عليه السلام فى هذا الموضع من الخطبه إلى أمرين مهمين مرتبطين مع بعضهما ارتباطاً واضحاً وهما:

الأول: أَنَّ المجد والعظمه التى بلغها المسلمون فى ظل الإسلام لهى عظمه فريده لدى العدو والصدىق.

الثانى: أَنَّ اولئك الناس لم يعرفوا قدر هذه النعمه، وقد آلت أمورهم إلى الحكام الظلمه من عديمى الإيمان وأصحاب الشهوات بفعل ضعفهم وذلهم وهو انهم، وهذا بحد ذاته جحود عظيم فقال عليه السلام: «وقد بلغتم من كرامه الله تعالى لكم منزله تكرم بها إماؤكم وتوصل بها جيرانكم». .

واثر ذلك أخذ يعظكم من لستم خيراً منه، وليس لكم من حق عليه «ويعظكم من لا فضل لكم عليه، ولا يد لكم عنده» .

كما يهابكم ويوجلّكم من ليس لكم قدره عليه، ولا حكمه أو سيطره عليه «ويها بكم (١) من لا يخاف لكم سطوه (٢)، ولا لكم عليه أمره» فالواقع هو أنّ الإمام عليه السلام قد بين بهذه العبارات الرائعة البليغة منزله المسلمين في ظل الإسلام، ولم تقتصر حرمه العدو والصديق لهم فحسب، بل شملت حتى جواريتهم، كما عومل جيرانهم باللطف والرحمة كرامه لهم، كما كان يكبرهم ويجلّهم من الأقوام من ليس لهم عليهم سطوه ولا قوه ولا فضل ولا احسان، بل كان يهابهم حتى من لم يكن تابعاً لبلادهم.

فمن الواضح وعلى ضوء الحديث الشريف: «من خاف الله أخاف الله منه كل شيء ومن لم يخف الله أخافه الله من كل شيء» (٣)، أنّ المسلم إذا التزم بجوهر الإسلام وعمل باحكامه وما أمر به الله سبحانه واعتمد الورع والتقوى في مسيرته الدينيه، يحظى باحترام الآخرين وإجلالهم. فهذه حقيقه لا مبالغه فيها.

فقد أصبح المسلمون وفي ظل الإيمان يتمتعون بكافه معانى الشجاعه والاقدام والتضحيه والقوه والمنعه.

أصنف إلى ذلك فقد حفتهم العنايه الإلهيه والامدادات الغيبيه.

فقد نقل ابن أبي الحديد قصه رائعه بهذا الشأن. حيث قال: قيل إنّ العرب لما عبرت دجله إلى القصر الأبيض الشرقى بالمدائن عبرتها في أيام مدها، وهى كالبحر الزاخر على خيولها وبأيديها رماحها، ولا درع عليها ولا بيض؛ فهربت الفرس بعد رمى شديد منها للعرب بالسهام؛ وهم يقدمون ويحملون، ولا- تهولهم السهام، فقال فلاح نبطى، بيده مسحاته وهو يفتح الماء إلى زرعه لأسوار من الاساوره معروف بالبأس وجوده الرمايه: ويلكم! أمثلكم فى سلاحكم يهرب من هؤلاء القوم الحاسرين! ولذعه باللوم والتعنيف: فقال له: أقم مسحاتك،

ص: ٣١٦

١- ١) «يهاب» من ماده «هيه» الاحترام المقرون بالخوف.

٢- ٢) «سطوه» و أصله كما ورد فى مفردات الراغب، من سطا الفرس اذا اقام على رجله رافعاً يديه. القهروالغلبه والتسلط.

٣- ٣) الكافى ٢/٤٨. [١]

فأقامها فرماها، فخرق الحديد حتى عبر النصل إلى جانبها الآخر، ثم قال: انظر الآن، ثم رمى بعض العرب المارين عليه عشرين سهماً لم يصبه ولا فرسه منها بسهم واحد؛ وأنه لقريب منه غير بعيد. ولقد كان بعض السهام يسقط بين يدي الاسوار، فقال له بالفارسيه: أعلمت أن القوم مصنوع لهم! قال: نعم. (١)

ثم أشار عليه السلام في القسم الأخير من هذا الموضع من الخطبه إلى جحد الناس لتلك النعم والقدرة، فقال عليه السلام رغم كل ذلك لا تهتز لكم قصبه وأنتم ترون كل هذه الانتهاكات ونقض العهود والقوانين والأحكام الإلهيه! في حين تشتاطون غضباً فيما إذا نقضت ذمم آبائكم: «وقد ترون عهود الله منقوضه فلا تغضبون! وأنتم لنقض ذمم آبائكم تأنفون (٢)» .

أى لو نقضت سنه قبله أو طائفه كانت شائعه بينهم لارتفعت أصواتهم، في حين ينتهك بنى أميه السنن الإلهيه بمرأى ومسمع منهم دون أن ينسوا بنت شفء، وهذا قمه جحود النعم الإلهيه.

ثم قال عليه السلام: «وكانت أمور الله عليكم ترد، وعنكم تصدر، وإيكم ترجع، فمكنتم الظلمه من منزلتكم، وألقيتم إليهم أزمتمكم، وأسلمتم أمور الله في أيديهم» .

وهذا جحود آخر، فبعد كل تلك القوه والقدرة - بحيث كان كل شىء بأيديهم وتابع لآرادتهم - أدخلوا الساحة للظلمه ودعوههم يجلسون على منبر رسول الله صلى الله عليه وآله ويتحكموا بأمر المسلمين.

ثم قال عليه السلام في وصف هؤلاء: «يعملون بالشبهات، ويسرون في الشهوات» .

نعم فقد فوضت الأمور على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله إلى الصالحين فكانوا يعملون على ضوء التعاليم الإسلاميه، إلّا أن الغفله والضعف وجحود النعم أدى لأن يتزعم الأمور تلك الثله من سليلى الجاهليه وبقايا أهل الشرك والعصبيه، حيث تربع ابن أبى سفيان - أعدى أعداء الإسلام - على عرش الحكومه الإسلاميه فقلب أمور الإسلام رأساً على عقب.

ذهب بعضى شراح نهج البلاغه إلى المراد بالعباره ١١: «وكانت أمور الله عليكم ترد. . .»

ص: ٣١٧

١- (١) شرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد ٧/١٧٧. [١]

٢- (٢) «تأنفون» من ماده «أنف» على وزن شرف بمعنى الحميه و الغضب و العزّه.

الأحكام الشرعية، لا- الحكومه وقالوا: كانت الأحكام الشرعيه اليكم ترد من رسول الله صلى الله عليه وآله ومن الإمام عليه السلام، ثم تصدر عنكم إلى من تعلمونه إياها من اتباعكم وتلامذتكم، ثم يرجع إليكم بأن يتعلمها بنوكم وإخوتكم من هؤلاء الاتباع. أو المراد الحكم فى الأحكام الإلهيه.

وتبدو هذه الاحتمالات ضعيفه، ولا تنسجم والعباره «فمكنتم الظلمه من منزلتكم» التى تشير إلى أمر الحكومه.

والمراد بالعباره «يعملون بالشبهات» هو أنّ بنى أميه كانوا يتمسكون بمتشابه القرآن أو كلمات النبى صلى الله عليه وآله - حيث كانوا يكيّفونها بالاستعانه بالقراءات الجديده على مقاصدهم الانحرافيه - من أجل توجيه أعمالهم الشائئه، وهم لا يفكرون سوى فى حفظ مصالحهم وشهواتهم الحيوانيه واحياء سنن الجاهليه.

ثم إختتم خطبته قائلاً: «وايم الله، لو فرقوكم تحت كل كوكب، لجمعكم الله لشر يوم لهم» .

وقد ذهب أغلب شراح نهج البلاغه إلى أنّ المراد بهذه العبارة قيام أبى مسلم الخراسانى وقيام أهل العراق ضد بنى أميه بحيث ينتقمون منهم شر انتقام ويجتثون جذورهم، بل قيل أنّهم ارتكبوا مالم يحفل التاريخ بمثيله.

ولا يبدو صحيح الاحتمال الذى أورده بعض شراح نهج البلاغه من أنّ المراد بالعباره المذكوره قيام المهدي عليه السلام حيث لا ينسجم وسائر عبارات الخطبه.

وتشير العبارة: «لو فرقوكم تحت كل كوكب» كناية إلى ذروه التشتت والفرقه، وإلّا لا يمكن جعل كل إنسان تحت كوكب.

ومن كلام له عليه السلام

فى بعض أيام صفين

نظره إلى الخطبه

بالنظر إلى أنّ الإمام عليه السلام اورد هذه الخطبه فى أحد أيام صفين، وأنّها ناظره إلى حادثه فى بدايه صفين حيث انسحب أصحاب الإمام عليه السلام وتراجعوا ثم عادوا فانتصروا على العدو، فمقصود الإمام عليه السلام هو ذم تراجعهم بالفاظ لطيفه رقيقه، ومن ثم الإشاره بحملتهم ثانيه إلى جانب حثهم وتشجيعهم على الصمود والمقاومه. ولا يخفى التأثير الذى يلعبه الكلام حين يتصدر بيان نقاط الضعف، ثم يتتابع بذكر عناصر القوه.

ص: ٣١٩

١-١) سند الخطبه: رواه الطبيرى فى تاريخه فى حوادث عام ٣٧، والمرحوم الكلينى فى كتاب الجهاد من فروع الكافى، ونصرين مزاحم فى كتاب صفين (باختلاف)، وفسر ابن أثير فى كتاب النهايه بعض مفرداتها، ممّا يدل على عثوره عليها (مصادر نهج البلاغه ٢/٢٢١). [١]

«وَقَدْ رَأَيْتَ حَيْوَلْتَكُمْ، وَانْحِيَا زُكْمَ عَن صُفُوفِكُمْ، تَحْوِزُكُمْ الْجُفَاءَ الطَّغَامَ، وَأَعْرَابُ أَهْلِ الشَّامِ، وَأَنْتُمْ لَهَا مِيمُ الْعَرَبِ، وَيَا فَيْخُ الشَّرَفِ، وَالْأَنْفُ الْمُقَدَّمُ، وَالسَّنَامُ الْأَعْظَمُ. وَلَقَدْ شَفَى وَحَاوَحَ صَدْرِي أَنْ رَأَيْتُكُمْ بِأَخْرِهِ تَحْوِزُونَهُمْ كَمَا حَاوِزُكُمْ، وَتُزِيلُونَهُمْ عَن مَوَاقِفِهِمْ كَمَا أَزَالُوكُمْ؛ حَسًّا بِالنُّصَالِ، وَشَجْرًا بِالرَّمَاكِ، تَزَكُّبُ أَوْلَاهُمْ أُخْرَاهُمْ كَاللَّيْلِ الْهَيْمِ الْمَطْرُودِ؛ تُزَمَى عَن حِيَاضِهَا؛ وَتُدَادُ عَن مَوَارِدِهَا!» .

الشرح والتفسير

أنلجتم صدرى

ذكر بعض شراح نهج البلاغه أن الإمام عليه السلام خطب هذه الخطبه حين تراجعت ميمنه أهل العراق، ثم عادت لتهجم ثانيه بعد أن قادها مالك الاشر وحمل على أهل الشام ففرقهم. (١)

فلما رأى ذلك الإمام عليه السلام خطب بهذا الكلام. فقد قال عليه السلام: إنى شاهدت فراركم وهزيمتكم وتراجعكم عن صفوفكم بعد أن ذادكم عنها الجفاه من العرب من أهل البادية: «وقد رأيت جولتكم (٢)، وانحيازكم (٣) عن صفوفكم تحوزكم الجفاه (٤) الطغام (٥) وأعراب أهل الشام» .

ص: ٣٢١

١- ١) جاء فى كتاب «وقعه صفين» «لنصر بن مزاحم» ، حول سبب ايراد هذه الخطبه قوله: كان ذلك فى يوم السابع من صفر، و هو من الايام العصيبه فى حرب صفين، فى ذلك اليوم هاجم جيش معاويه قسماً من جيش الإمام اميرالمؤمنين عليه السلام و أجبروهم على التراجع إلى الخلف، فتألم الإمام على عليه السلام لذلك، و لام جيشه، وبعدها حرضهم و شجعهم على القتال، وقد قاد هجوماً شاملاً بنفسه يصحبه مالك الاشر، فهزم جيش معاويه و فرقهم، و بعدها خطب الإمام على عليه السلام فى جيشه هذه الخطبه. (كتاب وقعه صفين، ٢٤٣/ [١] إلى ٢٥٤/، طبعه بصيرتى - قم المقدسه) .

٢- ٢) «جوله» من ماده «جولان» تعنى فى الأصل الدوران فى الميدان، ثم وردت بمعنى التراجع والحمله ثانيه، وهكذا وردت فى العبارة.

٣- ٣) «انحياز» ترك المواضع.

٤- ٤) «الجفاه» جمع «الجافى» بمعنى السفله من الناس و ذوى الخلق السيء و الخشن.

٥- ٥) «الطغام» جمع «طغامه» الأوباش والأراذل.

والحال لا يليق هذا بكم «وأنتم لها ميم (١)العرب، ويا فيخ (٢)الشرف، والانف (٣)المقدم، والسنام الاعظم» .

ولم أكن أتوقع هذا التراجع منكم، كما لا- يليق بكم، إلّا أنّ الذى اثلج صدرى معاودتكم الكر وازاحتكم لهم عن مواضعهم: «ولقد شفى وحاوح (٤)صدرى أن رأيتكم بأخره تحوزونهم كما حازوكم، وتزيلونهم عن مواقفهم كما أزالوكم» .

ثم وصف ذلك عليه السلام بقوله «حسا (٥)بالنصال (٦)، وشجراً (٧)بالرماح، تركب أولاهم أخراهم كالابل الهيم (٨)المطروده، ترمى عن حياضها، وتذاد (٩)عن مواردها» .

ومما لا شك فيه أن صفتين كانت مقابله بين عسكرين، ضم أحدهما أغلب الشخصيات الإسلاميه من قبيل بعض صحابه النبي صلى الله عليه وآله وابناء الصحابه ومن البيوتات الصالحه السابقه إلى الإسلام والإيمان، وقد كانت هذه الجماعه تحت إمره الإمام على عليه السلام. وبالمقابل كان الطرف الآخر يتمثل فى الواقع ببقايا الجاهليه والشرك والاراذل والابواش من طلاب الدنيا وعبيده الأهواء الذين قدموا الميدان بدينار معاويه ودرهمه واجزل لهم فى العطاء، وفى مقدمتهم عمرو بن العاص الذى لم يبايع لمعاويه حتى اشترط عليه ولايه مصر.

وعليه فعبارات الإمام عليه السلام بشأن أهل الشام والعراق كانت تمثل عين الواقع، بعيداً عن أسلوب الحث والتشجيع والمبالغه.

ص: ٣٢٢

١-١) «لهاميم» جمع «لهميم» و «لهموم» وهو السابق الجواد من الخيل والناس.

٢-٢) «يافيخ» جمع «يافوخ» وهو من الرأس حيث يلتقى عظم مقدمه مع مؤخره، ووردت هنا كناية عن القاده.

٣-٣) «الانف» المراد به الموضع البارز من الوجه، وتطلق العرب هذه الكلمه على المقدم.

٤-٤) «وحاوح» جمع «وحوح» صوت مع بحح يصدر عن المتألم.

٥-٥) «حس» بالفتح القتل.

٦-٦) «النصال» جمع «نصل» السهم.

٧-٧) «شجر» الطعن بالرمح.

٨-٨) «هيم» شده العطش جمع «أهيم» أو «هائم» .

٩-٩) «تذاد» من ماده «ذود» بمعنى الطرد و الدفع.

ومن خطبه عليه السلام

وهي من خطب الملاحم

نظرة إلى الخطبة

تتألف هذه الخطبة من أقسام: استهل عليه السلام القسم الأول: كسائر الخطب بحمد الله والثناء عليه وبيان أوصاف الجلال والجمال وأدله إثبات وجوده سبحانه. والقسم الثاني: جرى كسائر الخطب في الحديث عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وفضائله وكمالاته.

القسم الثالث: الحديث عن طيب دوار يتفقد مرضاه وقد اعد كافة وسائل العلاج، وفسره أغلب شراح نهج البلاغه بان المراد شخصه عليه السلام أو النبي صلى الله عليه وآله.

القسم الرابع: لوم الأصحاب الضعفاء وتذكيرهم بأن هذا الضعف والاختلاف يؤدي إلى عاقبه وخيمه يسلط فيها العدو عليكم، فيسد ضرباته إليكم ولا يبقى لكم باقية.

القسم الخامس: وهو أهم قسم في الخطبة في الوعظ والنصح. والقسم السادس والأخير اخبار عن الحوادث المستقبلية في قطع الأرض والسماء لبركتهما، وظهور التحريف وتحول المعروف إلى منكر والمنكر إلى معروف.

ص: ٣٢٤

١-١) سند الخطبة: روى بعض هذه الخطبة الآمدى في الغرر والزمخشري في ربيع الأبرار وجانباً آخر رواه الآمدى في الغرر باختلاف مع ماورد في نهج البلاغه، وهذا يدل على أنه نقلها من مصادر أخرى غير نهج البلاغه. (مصادر نهج البلاغه ٢/٢٢٧).

«الْحَمْدُ لِلَّهِ الْمُتَجَلَّى لِحَلْقِهِ بِخَلْقِهِ، وَالظَّاهِرِ لِقُلُوبِهِمْ بِحُجَّتِهِ. خَلَقَ الْخَلْقَ مِنْ غَيْرِ رَوِيَّةٍ، إِذْ كَانَتْ الرُّوِّيَّاتُ لَا تَلِيْقُ إِلَّا بِذَوَى الضَّمَائِرِ، وَلَيْسَ بِذِي ضَمِيرٍ فِي نَفْسِهِ. خَرَقَ عِلْمُهُ بَاطِنَ غَيْبِ الشُّرَاتِ، وَأَحَاطَ بِعُمُوضِ عَقَائِدِ السَّرِيرَاتِ» .

الشرح والتفسير

كما أوردنا سابقاً فإن الإمام عليه السلام استهل خطبه بحمد الله والثناء عليه وذكر جماله وجلاله وأدله وجوده سبحانه بعبارات قصار رائعة وهو يشير إلى أدله التوحيد، فقال عليه السلام: «الحمد لله المتجلى». والواقع هو أن العبارة تشير إلى برهان النظم الذى ورد فى عدة آيات قرآنيه التى تأخذ بيد الإنسان أحياناً إلى السموات والسيارات والثوابت والمجرات العظيمة كما تصحبه أحياناً أخرى إلى عمق الذره ودقه بنائها العجيب وتنتقل به تاره إلى عجيب خلقه الطيور، كما تربه تاره أخرى اسرار البحار والمحيطات، فهى تربه عظمه الخالق من خلال المخلوقات، ويتضح ممّا تقدم ان الخلق فى (لخلقه) تشير إلى الإنسان، وفى بخلقه إلى جميع المخلوقات فاحدها خاص والآخر عام.

ثم أشار عليه السلام فيما بعد إلى برهان الفطره فقال: «والظاهر لقلوبهم بحجته» .

فأيه حجه أعظم من هذه، وهى حين يعود الإنسان إلى قلبه وروحه يستمع نداء التوحيد يأتيه من كل مكان. ومن هنا مهما سعت الشياطين لانكار ذاته، وجهدت من أجل انحراف العباد، فبمجرد زوال هذه التزيينات، وتلاشى السحب القاتمه للوساوس الشيطانيه، تتجلى

هذه الفطره التوحيديه فى الإنسان فيعود إلى ربّه وخالقه.

ثم أشار فى العبارة الثالثه إلى ما يمكن تسميته ببرهان الابداع فقال عليه السلام: «خلق الخلق من غير رويه، إذ كانت الرويات لاتليق إلابدوى الضمائر (١)، وليس بذى ضمير فى نفسه» .

نعلم أنّ جميع المصنوعات البشريه إنّما تعود إلى الفكر والبرمجيه والخطط والمشاريع المسبقة، وهذه بدورها إلى المخلوقات والمصنوعات فى هذا العالم. أى كل ما يصنعه الإنسان فقد شاهد شبيهه فى عالم الخلقه، كما قد يركب أحيانا بين عدّه أشياء ليصنع منها شيئاً معيناً، فقد يحتذى بطيور البحر فى صنعه للسفينه وبخلقه الطيور فى صنعه للطائره وهكذا، وعليه فهو يحتاج إلى التفكير فى صناعته من جانب، ويحتاج إلى موجودات أخرى لكى يقلدها ويستعين بها فى صناعته من جانب آخر. أمّا الابداع بمعنى الخلق دون الحاجه إلى التفكير أو النموذج للاقتداء فأنّما يختص به وحده سبحانه. ثبت اليوم أن على الأرض فقط ملايين الأنواع من النباتات و الحيوانات و الحشرات، حيث لم تكشفت بعد للإنسان لأنها تعيش فى أعمال البحار أو فى متاهات الغابات أو فى الصحارى النائية و المناطق القطبيه، و كل ذلك يرمز إلى الإبداع الإلهى فى عجائب خلقتها، و يشير هذا الإبداع إلى وجوده و علمه و قدرته.

و بغض النظر عن كل ذلك فإن الصناعات البشريه إنّما تتكامل مع تقادم الزمان و الإنفتاح على تجارب الآخرين، و الحال مخلوقات الله ليست كذلك، فتكاملها يستند إلى ذاتها، لا إلى التجارب الجديده.

ثم فسر قوله السابق عليه السلام قائلاً: «خرق علمه باطن غيب السترات (٢)، وأحاط بغموض عقائد السريرات (٣)» .

فان كان غنياً سبحانه فى تنويعه لخلقه عن التفكير والمثال الذى يحتذيه فأنّما ذلك لعلمه المطلق النافذ فى كل شىء والمحيط بكل شىء.

ص: ٣٢٤

١- ١) «ضمائر» جمع «ضمير» من ماده «ضمور» على وزن قبول تعنى فى الأصل الضعف كما يراد بها باطن الإنسان.

٢- ٢) «سترات» جمع «ستره» على وزن قربه ما يستربه.

٣- ٣) «سريرات» جمع «سريره» ما يخفيه الإنسان ويكتمه، وقد تجمع سريره جمع تكسير فيقال سرائر، كما تجمع جمع مؤنث سالم.

نعم فمن يحتاج إلى الفكر والانفتاح على تجارب الآخرين، من كان علمه محدوداً، جاهلاً بما غاب عنه.

والعبارة السابقة من قبيل ذكر الخاص بعد العام؛ أي أنها تحدثت أولاً عن علم الله بباطن جميع الأشياء، ثم علمه بالعقائد الخفية للإنسان.

تأمل: في سعة علم الله

تعتبر مسأله علم الله من المسائل المهمه من خلال النظره المعرفيه، وكذلك من حيث الآثار الأخلاقية والتربويه.

وهي المسأله التي أورد القرآن بشأنها عدّه أبحاث مهمه، وقد كشف عن سعتها بأمثله رائع، من ذلك: «وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ» (١).

ولو تأملنا هذا المثال وتصورنا معناه، لا كشفنا هذه الحقيقه وهي أنّ علمه سبحانه أوسع وأشمل ممّا نعتقد.

ومن البدايه أنّ هذا العلم ليس بعلم حصولي يتأتى عن طريق التصور والتصديق، بل هو علم حضوري. أي أن حضور الحق سبحانه في كل زمان ومكان وحضور جميع الأشياء لدى ذاته المطهره يقتضى ألا يخفى عليه شيء، لأنّ حقيقه العلم تعنى حضور المعلوم لدى العالم. غير أنّه في العلم الحصولي لا يحضر شخصاً لدى العالم، بل تحضر صورته في الذهن عن طريق التصور أو التصديق. أمّا في العلم الحضوري فالذي يحضر لدى العالم ذات المعلوم، وجميع الأشياء والحوادث في كل زمان ومكان، باطنها وظاهرها عن طريق هذا العلم الحضوري واضحه لدى الله. ومن هنا قال عليه السلام: خرق علمه باطن غيب السترات، وأحاط بغموض عقائد السريرات.

ص: ٣٢٧

قد يتعذرفهم العلم الحضورى لدى البعض، ولكن توضيحه بمثال وهو: إنَّ ممَّا لا شك فيه أنَّ علمنا بصورنا الذهنيه والتصورات والتصديقات التى ترسم فى أذهاننا عن العالم الخارجى، والعلم الحضورى يعنى أن هذه الصور الذهنيه حاضره لدى روحنا ولا تنفصل عنها.

نعم هذا هو علم الله بجميع عالم الوجود، لا أنَّ لديه صور ذهنيه عنها، بل وجودها العينى حاضر لديه، لأننا نعلم أنه معنا فى كل مكان: «وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ» (١) و«وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ» (٢).

ومن هنا نكتشف الآثار المهمه التربويه من خلال الالتفات إلى سعه علمه المطلق. لأنَّ الإنسان إذا علم بأنَّ العالم حاضر لدى الله وعلمه محيط بأسرار الأشياء وخفاياها فباليقين سيعيش حاله من مراقبه أعماله، بل حتى أفكاره ونياته. (٣)

ص: ٣٢٨

١-١) سورة الحديد/٤. [١]

٢-٢) سورة ق/١٦. [٢]

٣-٣) راجع نفعات القرآن ٤.

القسم الثاني: وصف النبي صلى الله عليه وآله

ومنها فى ذكر النبي صلى الله عليه وآله

«إِخْتَارَهُ مِنْ شَجَرَةِ الْأَنْبِيَاءِ، وَمَشْكَاةِ الضِّيَاءِ، وَذُؤَابِهِ الْعُلْيَاءِ، وَسُرِّهِ الْبَطْحَاءِ، وَمَصَابِيحِ الظُّلْمَةِ، وَيَنَابِيعِ الْحِكْمَةِ» .

الشرح والتفسير

بعد أن حمد الإمام عليه السلام الله سبحانه وتعالى وأثنى عليه وأشار إلى أدله وجوده، تطرق فى القسم الثانى من الخطبه إلى ذكر فضائل النبي صلى الله عليه وآله حيث عدد فضائله الفريده بوضع عبارات قصيره وسته تشبيهات فقال عليه السلام: «إخْتَارَهُ مِنْ شَجَرَةِ الْأَنْبِيَاءِ، وَمَشْكَاةِ الضِّيَاءِ، وَذُؤَابِهِ الْعُلْيَاءِ، وَسُرِّهِ الْبَطْحَاءِ، وَمَصَابِيحِ الظُّلْمَةِ، وَيَنَابِيعِ الْحِكْمَةِ» .

فكل تشبيه واستعاره فى هذه العبارة تشير إلى فضيله من فضائل رسول الله صلى الله عليه وآله.

التشبيه الأول - حسب قول أغلب شراح نهج البلاغه - إشاره إلى آل ابراهيم عليه السلام الذى ظهر منه الأنبياء العظام، وينتمى رسول الله صلى الله عليه وآله إلى نبي الله ابراهيم عليه السلام عن طريق إسماعيل.

التشبيه الثانى: إشاره إلى أن أنوار المعارف الإلهيه فى مشكاه وجود الأنبياء، وحامل هذه الأنوار هو رسول الله صلى الله عليه وآله. والمشكاه وعاء لحفظ السراج لا تطفأه الريح، وعليه فالأنبياء حفظه أنوار المعارف الإلهيه.

التشبيه الثالث: بالالتفات إلى أن ذؤابه شعر مقدم الرأس، وعلياء المرتفع، فهى إشاره إلى أن نسب رسول الله صلى الله عليه وآله ينتهى إلى أفضل السلالات البشريه وقد ورث عنها ذلك الشرف والمجد.

التشبيه الرابع: بالنظر إلى أنّ البطحاء جزء من مكة سكنته قبيله قريش، والسرّه تعنى المركز، فهى إشاره إلى أنّ النبى صلى الله عليه وآله قد انحدر من مركز قبيله تعتبر أشرف القبائل (وإن دفع حب الدنيا البعض منها إلى عدم اجابه دعوه النبى صلى الله عليه وآله حتى عرفوا بكفار قريش).

التشبيه الخامس: أنّ الأنبياء والرسل هم مصابيح الهدى ومشكاة الأنوار التى تكشف ظلمات الكفر والجهل، وأنه صلى الله عليه وآله مركز هذه الأنوار وحاملها.

التشبيه الأخير الذى شبه الأنبياء بينابيع العلم والحكمه وأنّ النبى صلى الله عليه وآله أحد هذه الينابيع.

ومنها: «طَيْبٌ دَوَّارٌ بِطَيْبِهِ، قَدْ أَحْكَمَ مَرَاهِمَهُ، وَأَحْمَى مَوَاسِمَهُ، يَضَعُ ذَلِكَ حَيْثُ الْحَاجَةُ إِلَيْهِ، مِنْ قُلُوبِ عُمَى، وَأَذَانِ صُمَّ، وَالسِّنِّهِ بُكُمْ؛ مُتَّبِعٌ بِدَوَائِهِ مَوَاضِعَ الْغَفْلَةِ، وَمَوَاطِنَ الْحَيْرَةِ؛ لَمْ يَسْتَضِئُوا بِأَضْوَاءِ الْحِكْمَةِ؛ وَلَمْ يَقْسِدُوا بِزِنَادِ الْعُلُومِ الثَّاقِبَةِ؛ فَهُمْ فِي ذَلِكَ كَالْأَنْعَامِ السَّائِمَةِ، وَالصُّخُورِ الْقَاسِيَةِ» .

الشرح والتفسير

ذهب أغلب شراح نهج البلاغه إلى أنّ المراد بهذه الصفات التي ذكرها الإمام عليه السلام إنّما تعود إليه، حيث خاض في بيان صفاته بعد أنّ بين صفات رسول الله صلى الله عليه وآله، واصفا نفسه بأنه طيب سيار وقد حمل معه كافة أسباب العلاج التي تشفى المرضى - ولم يشذ من الشراح في نسب هذه الصفات إلى شخص الإمام عليه السلام سوى شخص واحد نسبها إلى رسول الله صلى الله عليه وآله - فقد صرح الآمدي في كتاب غري الحكم قائلا: «إنّه في ذكر رسول الله صلى الله عليه وآله» (١).

إلا أنّ ارتباط هذه العبارة بالعبارة السابقة من جهة، وانطباقها على الأوضاع التي كانت سائده على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله من جهة أخرى تؤيد أنّ هذه الصفات في رسول الله صلى الله عليه وآله. وأننا لنتعجب كيف لم يطرح قاطبه الشراح هذا الأمر على الأقل - على نحو الاحتمال والحال أنّهم لم يقيموا أى دليل لاثبات صحه مدعاهم. صحيح أنّ النبي صلى الله عليه وآله و آله وعلى عليه السلام من شجره واحده، وهما

ص: ٣٣١

روح واحده فى جسمين وعامه الصفات تصدق عليهما معاً؛ غير أنه لا بدّ من الدقه فى ارجاع الضمائر إلى أصولها.

على كل حال فقد قال عليه السلام: «طبيب دوار بطبه، قد أحكم مراهمه (١) وأحمى مواسمه، (٢) يضع ذلك حيث الحاجه إليه: من قلوب عمى، واذان صم، والسنه بكم، متتبع بدوائه مواضع الغفله، ومواطن الحيره» .

يا لها من تعبيرات رائعه تشبه النبى صلى الله عليه و آله (أو الإمام) بالطبيب!

لأنّ الأطباء يتولون علاج مرضى الأبدان، وينهمك هو فى علاج مرضى الروح والأخلاق الذى يفوق بمراتب مرضى البدن.

حيث أشار إلى ثلاثه منها فى العبارة: أولئك الذين تعمى أبصار قلوبهم ويفقدون السمع واستقبال الحق وعجز اللسان عن ذكر الحق بفعل الذنب والمعصيه والغفله واتباع الهوى.

ثم وصفه بأنّه (دوار) فى إشاره إلى أنه ليس على غرار أطباء الابدان الذين يجلسون فى عياداتهم وينتظرون مراجعه المريض.

بل يحمل وسائله وعلاجه معه ويتجول بحثاً عن المريض، وهذا هو منهج الأنبياء والأوصياء وروثهم من العلماء، الذين ينبغى لهم أن يقتدوا بالأنبياء ولا يروا أنفسهم كالكعبه وأنّ أفراد الأُمَّه مطالبون بالطواف حولهم، بل عليهم أن يكونوا كالصياد الذى يبحث عن صيده، فيفيضوا علومهم على الناس ويأخذوا بأيديهم إلى الحق.

ثم قال عليه السلام واصفاً ما أورده سابقاً من مواضع الغفله ومواطن الحيره؛ وأصحابها من أهل الغفله والحيره: «لم يستضيئوا بأضواء الحكمه، ولم يقدحوا (٣) بزناد (٤) العلوم الثاقبه، فهم

ص: ٣٣٢

١-١) مراهم جمع مرهم الدهون التى يداوى بها الجروح.

٢-٢) «مواسم» جمع «ميسم» بمعنى الآلات التى يوسم بها بدن الانسان أو الحيوان بعد أن يحمى عليها. و «وسم» على وزن رسم، و يطلق على العلامه التى تظهر على جسم الحيوان أو الانسان بعد وسمه بالآلات الحاره.

٣-٣) «يقدحوا» من ماده «قدح» على وزن «مدح» بمعنى إضرام النار بواسطه القداحه «وهى الآله التى تحتوى على حجر خاص يستعمل فى قديم الزمان، حيث يقدح عليه فيولد ناراً، و كانوا يستفيدون منه كما نستفيد فى الوقت الحاضر من الشخاط الحاوى على الكبريت» .

٤-٤) «زناد» جمع «زند» وهى آلات تستخدم لتوليد شراره لغرض اضرام النار و اشعالها فى الوقود، كالخشب والفحم و الحطب، و قد اعتاد العرب فى القديم على الاستفاده من هذه الوسيله لاشعال النار فى الوقود.

فى ذلك كالانعام السائمه، (١)والصخور القاسيه» .

فالعباره لم يستضيئوا ولم يقدحوا تفيد أنهم كانوا يستطيعون حتى قبل قيام الأنبياء أن يتخلصوا من جانب من غفلتهم وحيرتهم بنور الحكمة والعلم ودليل العقل، إلا أنهم لم يلتفتوا قط للعلم والعقل.

ولعل «لم يستضيئوا. . .» و «لم يقدحوا. . .» إشاره إلى طائفتين من الأفراد الضالين الذين كان يمكن أن يتبدل ضلالهم نوراً ولو لومضه من العلم والمعرفه التى تصل إلى قلوبهم، والطائفة الأخرى التى كان لها أن تهدى نفسها وان عجزت عن هدايه الآخرين.

كما يمكن أن تكون العباره «أنعام سائمه» و «صخور قاسيه» إشاره إلى فئتين: فئه ضاله وهى كالأنعام التى لها إلى حد امكانيه التعليم والتربيه، والفئه الأخرى كالصخره الصماء التى يصعب اختراقها.

جدير بالذكر هناك تفاوت بين مواضع الغفله ومواطن الحيره؛ فالغفله تطلق حيث لايلتفت الإنسان إلى أمر ولايرى أخطاره المحدقه به؛ أو كالأمرض الخاليه من الألم وفجأه يصاب بها الإنسان فلا يشفى منها.

أمّا مواطن الحيره؛ فالإنسان يلتفت فيها إلى الأخطار، إلا أنه لايعرف كيف يواجهها.

على كل حال فإنّ هذا الطبيب الروحى السيار إنما يتجول بحساب وبرنامج حيثما حل، فيشفى المرضى ويمنحهم العافيه والسلامه.

ص: ٣٣٣

١- (١) «سائمه» من ماده «سوم» على وزن «قوم» بمعنى حركه الحيوان فى الصحراء. وكذلك على هبوب الرياح المستمره. و يطلق «الحيوانات السائمه» على الحيوانات التى ترعى و تحصل على علفها من الصحراء وهى سائبه فى الصحراء.

«قَدْ انْجَابَتِ السَّرَائِرُ لِأَهْلِ الْبَصَائِرِ، وَوَضَحَتْ مَحَجَّهُ لِحَابِطِهَا وَأَسْفَرَتِ السَّاعَهُ عَنْ وَجْهِهَا، وَظَهَرَتِ الْعَلَامَهُ لِمَتَوَسِّمِهَا. مَا لِي أَرَائِكُمْ أَشْبَاحًا بِلَا أَرْوَاحٍ، وَأَرْوَاحًا بِلَا أَشْبَاحٍ، وَنَسَاكَأً بِلَا صِيَالِحٍ، وَتُجَارًا بِلَا أَرْبَاحٍ، وَأَيْقَاطًا نَوْمًا، وَشَهُودًا غُيْبًا، وَنَاطِرَةً عَمِّيَاءَ، وَسَامِعَةً صَمَاءَ، وَنَاطِقَةً بِكَمَاءٍ!» .

الشرح والتفسير

أشار الإمام عليه السلام في هذا الموضع من الخطبه إلى وضع المنافقين والمعاندين من بنى أميه، فقال عليه السلام سرائرهم وبواطنهم ظاهره لأهل البصائر، وقد إتضح سبيل الحق لسالكه (وعليه فقد تمت الحججه على الجميع) «قد انجابت (١) السرائر لأهل البصائر، ووضحت محججه الحق لخابطها (٢)» .

ثم قال عليه السلام: «واسفرت (٣) الساعه عن وجهها، وظهرت العلامه لمتوسمها» .

يمكن أن يكون المراد من علامات ظهور القيامة، بعثه النبي الأكرم صلى الله عليه و آله بصفته خاتم

ص: ٣٣٥

١- ١) «انْجَابَتِ» من ماده «جوب» على وزن قَوَّمَ. و «جوبه» على وزن توبه بمعنى قطع وفصل، وعلى هذاالاساس سمي الرد على الكلام ب «الجواب» ، و ذلك لان السؤال يُقطع و ينتهى بواسطه الجواب. و اذا جاءت هذه الكلمه على وزن انفعال، فيكون معناها الانكشاف و الاعلان، وفي الخطبه أعلاه جاءت بهذا المعنى.

٢- ٢) «خابط» من ماده خبط، و تأتي تارةً بمعنى القرب الشديد، وتاره بمعنى السير على غير هدىً، كالذى يسير ليلاً بدون ضياء، وقد جاءت الكلمه هذه فى الخطبه أعلاه بهذا المعنى.

٣- ٣) «أسفرت» من ماده «سفور» بمعنى جلد أى شىء و يستفاد من هذه الكلمه بشكل أكثر عند الحديث عن جلود الحيوانات.

الأنبياء عليه السلام وآخر بنى من أنبياء الله، وكذلك ظهور الفتن فى العالم الإسلامى وعلى الأرض، وليست هناك من منافاه بين هذا الأمر ومرور آلاف السنين، لأنّ هذا الزمان قصير جداً إذا ما قورن بعمر الدنيا.

فقد ورد فى الحديث النبوى أنّه صلى الله عليه وآله قال: «بعثت أنا والساعه كهاتين وضم السبابه والوسطى» (١).

ونخلص ممّا سبق إلى أن اتضح السرائر ووضوح سبيل الحق واقتراب الساعه لمن دواعى يقظه الغافلين من نوم الغفله والتوبه إلى الله من الذنوب والمعاصى وسلوك طريق الحق والاستقامه عليه.

ومن هنا يتعجب الإمام عليه السلام لعدم وجود ردود الفعل المناسبه من قبل الناس ازاء هذه الأمور فقال عليه السلام: «مالى أراكم اشباحاً بلا أرواح، وأرواحاً بلا أشباح، ونسكاً (٢) بلا صلاح، وتجاراً بلا أرباح وأيقاظاً (٣) نوماً (٤)، وشهوداً غيباً، وناظره عمياء، وسامعه صماء، وناطقه بكماء» .

العباره: «أشباح بلا أرواح، وأرواح بلا أشباح» بعض الجماعات التى لها قدره ظاهريه بينما ليس لها من تفكير أو تدبر، أو أنّها مفكره ومدبره لكنها تفتقر إلى قدره الاستخدام. ومن الطبيعى ألا تكون كلا الجماعتين على صواب وليس من شأنها فعل شىء، كخواء الجسم الذى لا روح فيه والروح التى لا جسم لها. والعباره: «نسا كابلأ صلاح» إشاره إلى العبادات الجوفاء لعباد ذلك الزمان. لأنّ الأثر الأول للعباده إنّما يتمثل بالتريبه والصلاح الإنسانى؛ فاذا لم يكن العبد صالحاً كان ذلك دليل على أنّ عبادته قشر لا لبّ فيه.

والعباره «تجاراً بلا أرباح» يمكن أن تكون إشاره إلى ماورد فى سورة العصر: «وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ» .

ص: ٣٣٦

١-١) أورد أغلب مفسرين الفريقين هذا الحديث ذيل الآيه ١٨ من سورة محمد صلى الله عليه وآله.

٢-٢) «نساك» جمع «ناسك» العابد.

٣-٣) «أيقاظ» جمع «يقظان» ضد النائم.

٤-٤) «نوم» جمع «نائم» .

والعبارة «أيقاظانوماً» والعبارات الأربع القادمة إشاره إلى الأفراد اليقظين ظاهراً ولهم حضور في الساحة ويتمتعون بالسمع والبصر والنطق، إلا أنهم لا يبدون أى رد فعل تجاه الحوادث الحسنه والسيئه، وكأنهم نيام غير شهود، ولا سمع لهم ولا بصر ولا كلام.

نعم فالإسلام يرى وجود كل شىء فى آثاره، والإنسان الحى الذى لا اثر له كأنه فى عداد الأموات، ومن لا بصيره له فهو أعمى، وقد ورد هذا المعنى كراماً فى القرآن بشأن المنافقين من الأفراد عديمى الإيمان، كالاية: «صُمُّ بُكُمْ عُمَى فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ» (١) وما شابه ذلك فالذى يستفاد من كلامه عليه السلام أنه وبخ بشده أصحابه على عدم ابداء أى رد فعل تجاه بنى أميه بعد أن اتضح لهم باطنهم وخبث مقاصدهم، وكأنهم نيام فقدوا السمع والبصر والنطق، فلا يأبهون بجنايات بنى أميه. ولا يعلمون أى مصير مظلم ينتظر الإسلام والمسلمين.

تأمل: الوجود الباهت كالعدم

عاده ما ينظر إلى وجود الأشياء وعدمها من خلال عينيتها فى الخارج، بينما ينظر إليها فى المنطق القرآنى والروائى على أساس الآثار والمعطيات. وعليه فقد يرى بعض الأحياء فى عداد الموتى إذا ما انعدمت آثارهم والعكس الصحيح فقد يرى الموتى أحياءً بفعل عطائهم وآثارهم.

وقد أكد القرآن الكريم هذا المعنى كراماً. فقد خاطب النبى الاكرام صلى الله عليه وآله بالقول: «إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى وَلَا تَسْمَعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ» (٢).

ومن المسلم به أن المراد بالموتى والصم هنا الأفراد الذين يتمتعون بظاهر والحياه لهم أذان سامعه؛ إلا أن القرآن عددهم أمواتاً حين اتخذوا موقف المتفرج ازاء دعوه النبى صلى الله عليه وآله.

ثم قال فى موضع آخر: «وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشُّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ * لِيُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا» (٣).

ص: ٣٣٧

[١-١] سورة البقره/١٧١. [١]

[٢-٢] سورة النمل/٨٠. [٢]

[٣-٣] سورة يس/٦٩-٧٠. [٣]

قال أمير المؤمنين علي عليه السلام لكميل بن زياد: «هلك خزان الأموال وهم أحياء، والعلماء باقون ما بقى الدهر: أعيافهم مفقوده، وأمثالهم فى القلوب موجوده» (١).

ولو اعتمدنا المقياس القرآنى والروائى فى تقييم الأفراد والحضارات والمدنات وسائر الأمور، لرأينا العالم بحله جديده أُخرى، والحق لا بد أن يكون هذا هو المعيار والمقياس، وذلك لأن الكائن الحى من كان له آثار حيويه، ومن افتقر لهذه الآثار فهو ميت. والأموات الذين يخلفون بعض الآثار فهم أحياء مادامت آثارهم الوجوديه قائمه فى المجتمع البشرى. ولما كانت آثار الشهداء فى سبيل الله باقيه، فهم أحياء خالدون (بغض النظر عن الحياه البرزخيه). ليس للظلمه والطغاه سوى الموت كيف لا وهم يخلفون هذا الفساد والدمار.

ومن هنا نعت الإمام عليه السلام تلك الجماعه من أهل الكوفه والعراق بأنها أشباح بلا أرواح وايقاظ نوماً وشهود غيباً من خلال ذلك المعيار القرآنى والروائى.

ص: ٣٣٨

١-١) نهج البلاغه، [١] كلمات القصار ١٤٧.

«رَأَيْهِ ضَلَالٌ قَدْ قَامَتْ عَلَى قُطْبِهَا، وَتَفَرَّقَتْ بِشُعْبَيْهَا، تَكِيلُكُمْ بِصَاعِيهَا، وَتَخِيطُكُمْ بِبَاعِيهَا. قَائِمَةٌ خَارِجٌ مِنَ الْمِلَّةِ، قَائِمَةٌ عَلَى الضَّلَالَةِ؛ فَلَا يَبْقَى يَوْمَئِذٍ مِنْكُمْ إِلَّا نُفَالُهُ كُنْفَالَهُ الْقَدْرُ، أَوْ نُفَاضُهُ كُنْفَاضِهِ الْعِجْمُ، تَعْرُكُكُمْ عَزَكَ الْأَيْدِيمِ، وَتَدُوسُكُمْ دَوْسَ الْحَصِيدِ، وَتَسْتَخْلِصُ الْمُؤْمِنَ مِنْ بَيْنِكُمْ اسْتِخْلَاصَ الطَّيْرِ الْحَبَّةَ الْبُطِينَةَ مِنْ بَيْنِ هَزِيلِ الْحَبِّ» .

الشرح والتفسير

ذهب بعض شراح نهج البلاغه إلى أنّ هذا المقطع من الخطبه منفصلا عن الاقسام السابقه، ويرون أنّ بينهما مطالب أخرى حذفها السيد الرضى (ره) جريا على عادته فى اقتطاف بعض المقاطع من الخطب على أساس فصاحتها وبلاغتها. ومن هنا اعتبر اولئك الشراح هذا المقطع إشاره إلى حوادث وفتن آخر الزمان. فى حين لا يرى البعض الآخر من الشراح انفصلاً بين هذه المقاطع، ومنهم ابن ميثم البحرانى، فىرى هذا الكلام فى طغاه بنى أميه وحكامهم الظلمه، ويبدو هذا الاحتمال قريباً لأنّ عاده السيد الرضى (ره) حين يحذف بعض مقاطع الخطبه يذكرها بقوله (ومنها ومنها) ، الأمر الذى شاهدناه بوضوح فى الخطب السابقه.

على كل حال قال الإمام عليه السلام: «رايه ضلال قد قامت على قطبها، وتفرقت بشعبها» .

ورغم أنّ ذلك اخبار عن الحوادث الآتية ليتأهب الناس ويقللوا من اضرارها وخسائرها إلى أقل حد ممكن، مع ذلك فقد أوردتها بصيغه الفعل الماضى، أى أنّ مثل هذه الأمور واقعه لا محاله!

كما صرّح بذلك الأدباء بأنّ المضارع المتحقق الوقوع بمنزله الماضى. والعبارة «قد قامت على قطبها» إشاره إلى أنّ رايه الضلاله التى سترفعها الطغمه الفاسده والمفسده من بنى أميه على درجه من الثبات والرسوخ بحيث لايمكن الاطاحه بها بهذه السهوله.

والعبارة «تفرقت بشعبها» وإن بدت ظاهراً فى تفرق فروع هذه الرايه، إلّا أنّ المراد فى الواقع فرقه الانصار فى البلاد الإسلاميه، ثم قال عليه السلام: «تكيلكم (١) بصاعها، وتخبطكم بباعها (٢)»

فى إشاره إلى أنّهم يحملونكم على أساس معاييرهم، فمن وافقها رغبوا فيه وإلّا فلا، كما يحتمل أن يكون المراد بالعبارة الاولى أنّهم يمسكون بجميع مقدراتكم، ويعطون لكل شخص ما يريدون.

والعبارة «تخبطكم بباعها» بالنظر إلى «تخبط» التى تعنى تساقط ورق الأشجار بضرب الخشب وباع بمعنى الأيدى المفتوحه إشاره إلى أنّهم يستذلونكم بكل ما أوتوا من قوه، وهذا هو أسلوب الحكام الظلمه الذين يحرقون الاخضر واليابس فى البلاد. وهذا هو أسلوب الحكومات المستبده التى تسوق الجميع حسب معاييرها و يفنى كل من يخالف تلك المعايير.

ثم يصف عليه السلام هذه الحكومه الجائره بأنّها خارجة عن الإسلام، وقائمه على أساس الضلال والفساد: «قائدها خارج من المله، قائم على الضله» .

هذه العبارة التى تشير إلى معاويه أو سائر حكام بنى أميه، ناظره إلى هذه المعنى وهو أنّ زعماء هذه الجماعه ليس فقط لايعملون على ضوء قوانين الإسلام ويتجاوزون ضروريات الدين فحسب، بل أساس عملهم ونشاطهم هو الضلال؛ الأمر الذى يشهد به التاريخ.

ثم أشار عليه السلام إلى النهايه المأساويه لهذه الأحداث فى أنّه لا يبقى منكم آنذاك إلّا النزر اليسير كالذى يتبقى فى قعر القدر فاذا حرك وقع: «فلا يبقى يومئذ منكم إلا ثفاله (٣) كثقاله القدر، أو نفاضه (٤) كنفاضه الحكم (٥)» .

ص: ٣٤٠

١- ١) «تكيل» من ماده «كيل» على وزن ذيل بمعنى المكيال وتستعمل عاده فى المواد الغذائيه كاحنطه والشعير، كما تستعمل فى غيرها مجازاً.

٢- ٢) «باع» يعنى فى الأصل المسافه بين أصابع اليدين، حين يفتحها نحو اليمين أو اليسار بصوره تامه، كما يستعمل مجازاً بمعنى القدره الكامله للإنسان.

٣- ٣) «ثفاله» من ماده «ثفل» هو ما استقر تحت الشىء من كدره.

٤- ٤) «النفاضه» من ماده «نفض» على وزن نبض ما يسقط بالنفض.

٥- ٥) «العكم» بمعنى الكيس الذى يحفظ فيه الأشياء.

فالعباره تفيد عدم سلامتهم فيها سوى القله القليله منهم، لأنّ هؤلاء الظلمه لا يدعون بقاء أحد من المؤمنين الصالحين.

ولا يكتفون بذلك بل: «تعرككم (1)عرك الأديم (2)وتدوسكم (3)دوس الحصيد» .

ويفصلون أهل الإيمان منكم فيقصون عليهم كما تلتقط الطيور الحبوب القويه من الضعيفه: «وتستخلص المؤمن من بينكم استخلاص الطير الحبه البطينه (4)من بين هزيل (5)الحب» .

فى إشاره إلى أنّ ظلمهم يعم الجميع، إلّا أنّ ظلمهم وجورهم يتضاعف تجاه المؤمنين من الأفراد.

تأمل: الحكومات المستبده

إنّ ما اورده الإمام عليه السلام فى هذه الخطبه وإن كان أخباراً عن بنى أميه وحكومتهم فى المستقبل، إلّا أنّه يبدو أنّ ذلك يمثل قانوناً عاماً كلياً بشأن كافه الحكومات المستبده الجائره، فهى تجهد من أجل ترسيخ دعائمها واعتماد المعايير اللازمه لضمان منافعها وديمومتها، والتعامل بمنتهى العنف والقوه مع من يهب لمعارضتها، فتقمع العناصر المؤمنه ولا سيما الناشطه منها، فهى لا تعرف أيه قيمه لقانون أو رأفه ورحمه وإنسانيه، كما لا تأبه بحقوق الناس؛ الأمر الذى نلمسه بوضوح فى الحكومات المعاصره.

ص: ٣٤١

١-١) «تعرك» من ماده «عرك» شديد الدلك ومن هنا تطلق المعركه على ميدان القتال حيث يدك كل منها الطرف الآخر.

٢-٢) «الاديم» فى الأصل بمعنى جلد أى شىء. ويستفاد من هذه الكلمه بشكل أكثر عند الحديث عن جلود الحيوانات.

٣-٣) «تدوس» من ماده «دوس» على وزن قوس.

٤-٤) «بطينه» من ماده «بطن» سمين.

٥-٥) «هزيل» ضد بطين بمعنى الضعيف وخفيف الوزن.

«أَيْنَ تَذْهَبُ بِكُمْ الْمَذَاهِبُ، وَتَتَّبِعُهُ بِكُمْ الْغِيَاهِبُ وَتَتَّخِذُكُمْ الْكُوَاذِبُ؟ وَمِنْ أَيْنَ تُؤْتُونَ، وَأَنَّى تُؤْفَكُونَ؟ فَلَئِكَ أَجَلِ كِتَابٍ، وَلِكُلِّ غَيْبِهِ إِيَابٌ، فَاسْتَمِعُوا مِنْ رَبَّائِكُمْ، وَأَخْضِرُوا قُلُوبَكُمْ، وَاسْتَيْقِظُوا إِنْ هَتَفَ بِكُمْ. وَلِيُصَدِّقَ رَائِدُ أَهْلِهِ، وَلِيُجْمَعَ شَمْلُهُ، وَلِيُخْضِرَ ذَهْنُهُ، فَلَقَدْ فَلَقَ لَكُمْ الْأَمْرَ فَلَقَ الْخَرْزَهُ، وَقَرَفَهُ قَرْفَ الصَّمْغَةِ. فَعِنْدَ ذَلِكَ أَخَذَ الْبَاطِلُ مَا خَذَهُ، وَرَكِبَ الْجَهْلُ مَرَائِبَهُ، وَعَظَمَتِ الطَّاعِيَةُ، وَقَلَّتِ الدَّاعِيَةُ، وَصَالَ الدَّهْرُ صِيَالَ السَّبْعِ الْعُقُورِ، وَهَدَرَ فِينِقُ الْبَاطِلِ بَعْدَ كُظُومٍ، وَتَوَاخَى النَّاسُ عَلَى الْفُجُورِ، وَتَهَاجَرُوا عَلَى الدِّينِ، وَتَحَابُّوا عَلَى الْكُذِبِ، وَتَبَاغَضُوا عَلَى الصُّدْقِ».

الشرح والتفسير

خاطب عليه السلام صحبه من أجل الفات نظرهم إلى ما ينتظرهم من حوادث صعبه مأساويه - ستصيب المسلمين في المستقبل - بهدف كبس خسائرها واضرارها أو إرشادهم إلى طرق الإبتعاد عنها، فقال عليه السلام: «أين تذهب بكم المذاهب، وتتيه (1) بكم الغياهب (2) وتخذعكم الكواذب؟ ومن أين تؤتون، وأنى تؤفكون».

وهكذا قام عليه السلام هذا الزعيم الربانى بإيقاظ مخاطبيه من نوم الغفله واعدتهم لسماع قول الحق، ثم لفت انتباههم إلى الموت وانتهاه أجل الإنسان، فقال عليه السلام: «فللكل أجل كتاب، ولكل غيبه إياب».

ص: ٣٤٣

١- ١) «تتيه» من ماده «تیه» على وزن «بیه» بمعنى الضلال والحيره.

٢- ٢) «غياهب» جمع «غيهب» على وزن «حيرت» بمعنى شده ظلام الليل.

فلا تتصوروا أنّ أعماركم ممتدة لانهايه لها وأنّ الفرصه سانحه على الدوام لتدارك ما فرط، ولا تظنوا أنّ أعمالكم خافيه مستتره ولا تعود عليكم، فالموت حق والعمر محدود والأعمال محفوظه عند الله تنتظر الثواب أو العقاب.

وعليه فالمراد بقوله: «لكل غيبه إياب» إمّا الموات وأعمال الإنسان!

كما نرى مثل هذا التعبير فى سائر خطب نهج البلاغه. فقد خاطب عليه السلام الأئمه فى الخطبه ٨٣ داعياً إياها إلى التوبه قبل حلول الموت الذى عبر عنه بالقول: «قبل قدوم الغائب المنتظر» .

كما ورد مثل هذا المعنى فى الخطبه ٦٤ (١).

ثم قال عليه السلام: «فاستمعوا من ربانيكم، واحضروه قلوبكم، واستيقظوا إن هتف (٢) بكم» .

ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه بالنصح والوعظ والتحذيرات، على أنّ الزعيم لابدّ أن يتحدث بصدق إلى اتباعه، ويحرص على لم شملهم وجمع كلمتهم، ويحضر لديهم ذهنه بغيه نجاتهم وانقاذهم وهذا ما عليه الحال بالنسبه لزعيمكم «وليصدق رائد (٣) أهله، وليجمع شمله (٤)، وليحضر ذهنه» .

وخلاصه القول فإنّ لزيم الجماعه وظيفه، كما للأئمه وظيفه أيضاً، فهو يجب عليه أنّ يبيّن للأئمه الواقع والحقائق من جانب، ومن جانب آخر عليه أن يجمع أفرادهم وينظمهم ويمنحهم فكره وذهنه، فاذا قام الإمام بهذه الأمور، كانت وظيفه الامه تتمثل بالجد والاجتهاد من أجل امتثال أوامره.

ثم قال عليه السلام: «فلقد فلق (٥) لكم الأمر فلق الخرز (٦)، وقرفه (٧) قرف الصمغه» .

ص: ٣٤٤

١- ١) ذهب بعض شراح نهج البلاغه إلى ان هذه العبارة منقطعه حيث لم يروا من إرتباط واضح بينها وبين العبارات السابقه على أنّ السيد الرضى فصلها طبق عاداته فى الانتخاب، والحال هذا ليس من عاده الرضى (ره) فى ان يحذف عباره دون أن يشير إليها كما مر معنا ذلك بقوله (ومنها) وعليه وكما ذكرنا فان هناك علاقه معنويه وطيده.

٢- ٢) «هتف» من ماده «هتاف» صراخ.

٣- ٣) «الرائد» من يتقدم القوم ليكشف لهم مواضع الكلاّ ويتعرف سهوله الوصول اليها من صعوبته.

٤- ٤) «شمل» بمعنى الجمع.

٥- ٥) «فلق» بفتحيتين بمعنى الشق.

٦- ٦) «الخرزه» الجواهر القيمه النفيسه او قليله الثمن.

٧- ٧) «قرف» من ماده «قرف» على وزن حرف بمعنى التقشير.

فالعباره كنايه عن بيان الحقائق والواقعيات واطهار باطن الأمور، والعباره: «قرفه قرف الصمغه (١)» إشاره إلى أنى أخرجت لكم عصاره المطالب وجوهرتها، كما تجرى تلك الماده اللزجه من الأشجار. خاض الإمام عليه السلام هنا ثانيه فى الحديث عن الحوادث القادمه التى ذكرها سابقاً حيث أتمها بيان الوقائع الاجتماعيه و الأخلاقيه و الدينيه للحكومات المستبده، و قد أوضح الآثار المختلفه الاجتماعيه و الدينيه لهذه الحكومات. و إرتباط هذا القسم من الخطبه بالأقسام السابقه واضح تماماً، و إن تخللها بعض العبارات لإيقاظ أصحابه. و العجيب ما ذهب إليه بعض شراح نهج البلاغه من مجانبه هذا القسم للأقسام السابقه بفعل عاده السيد الرضى (ره) فى الإقتطاف، و كأن هذا الإقتطاف الرائع للسيد أصبح ذريعه لمن لم يتأمل الإرتباط بين أقسام الخطبه ليحملها جامع نهج البلاغه.

ثم قال عليه السلام: «فعد ذلك أخذ الباطل ماخذه، وركب الجهل مراكبه، وعظمت الطاغيه، وقلت الداعيه» .

يمكن أن يكون للطاغيه هنا معنى مصدرى: أى أنّ الطغيان يكبر ويتسع على مستوى المجتمع، كما يمكن أن يكون لها معنى اسم الفاعل؛ أى يستفحل أمر طائفه طاغيه، و يقل عدد دعاه الحق أمامها، فأمرًا أن تقضى عليهم أو تقصيههم عن الساحة الاجتماعيه، وهذه أهم الأخطار التى تنبثق من هذه الحكومات الباطله المستبده التى تجهد فى كم أفواه دعاه الحق.

ثم قال عليه السلام: «وصال الدهر صيال السبع العقور، وهدر فنيق الباطل بعد كظوم» .

نعم فقد اقتحمت الساحة ثانيه من قبيل الجماعات المنافقه وسليله الجاهليه - التى طردت من الميدان - أثر ضعف دعاه الحق. وعلى هذا الضوء تقلب كاهه الموازين والقيم: «وتوافى الناس على الفجور، وتهاجروا على الدين، وتحابوا على الكذب، وتباغضوا على الصدق» .

وهكذا وبمقتضى «الناس على دين ملوكهم» فإنّ هؤلاء الحكام الفسقه والفجره عديمى الدين يجدون فى طبع الأئمه بهذه الصفات الخبيثه بحيث يحيلون الساحة الإسلاميه إلى جحيم

ص: ٣٤٥

ورغم أنّ الدين يشمل ترك الكذب والفجور، وهجر الدين يعنى هجر القيم والمثل، إلّا أنّ الإمام عليه السلام يركز بالخصوص على مسأله الفجور والكذب، لأنّ هذه الرذائل لمن من أخطر الرذائل التي تفرزها طبيعه الحكومات المستبده الفاقدده للدين، حيث تركز على الفساد والتحليل الأخلاقي والكذب.

أمّا التعبير «توافى وتهاجروا وتحابوا وتباغضوا» تشير إلى نقطه لطيفه وهى أنّ الناس فى مثل هذه المجتمعات تتجه زرافات وجماعات نحو الكذب والفجور، وبعباره أخرى ليس لها من بعد فردى، بل بعد اجتماعى عظيم الخطر.

«فَإِذَا كَانَ ذَلِكَ الْوَلْمُدُ غَيْظًا، وَالْمَطَرُ قَيْظًا، وَتَفِيضُ اللَّيَامِ فَيْضًا، وَتَغْيِضُ الْكِرَامِ غَيْضًا، وَكَانَ أَهْلُ ذَلِكَ الزَّمَانِ ذُنَابًا، وَسَيَ لَا طِينُهُ سِبَاعًا، وَأَوْ سَاطَهُ أَكَالًا، وَفُقْرَاؤُهُ أَمْوَاتًا؛ وَغَارَ الصِّدْقُ، وَفَاضَ الْكَذِبُ، وَاسْتَعْمَلَتِ الْمَوَدَّةُ بِاللِّسَانِ، وَتَشَاجَرَ النَّاسُ بِالْقُلُوبِ، وَصَارَ الْفُسُوقُ نَسَبًا، وَالْعَفَافُ عَجَبًا، وَلَيْسَ الْإِسْلَامُ لِبَسِّ الْفُرُوقِ مَقْلُوبًا» .

الشرح والتفسير

واصل الإمام عليه السلام بحثه السابق في الأخبار عن المستقبل وسيطره الحكام الظلمه والأعمال الوحشيه التي يمارسونها بحق الناس، في التعرض إلى جانب آخر من الآثار المشؤومه لهذه الحكومات، والوضع الأخلاقي والاجتماعي والاقتصادي للناس في ظل هذه الحكومات.

فتطرق عليه السلام بادی الأمر إلى الأولاد الذين يثيرون غضب آبائهم، وأصبح المطر قَيْظًا، وانتشر اللثام في كل مكان وقل الاختيار: «فإذا كان ذلك كان الولد غيظاً (١) والمطر قَيْظًا (٢) وتفيض اللثام فيضاً (٣) وتغيض الكرام غيظاً (٤)» .

في إشاره إلى أنّ رذائل السوء للحكام الظلمه إنّما تخترق الأسر والعوائل، والأولاد الذين

ص: ٣٤٧

١-١) «غيض» بمعنى الغضب، وقيل حاله أشد من الغضب.

٢-٢) «قبض» بمعنى وسط الصيف «قلب الاسد» واذا وردت بالمعنى المصدرى فهي شدة الحراره.

٣-٣) فيض سيل الماء أو المطر والدمع.

٤-٤) غيض الغور في الأرض والنقصان.

ينبغي أن يكونوا قره أعين والديهم ومصدر سعادتهم وخيرهم، يكونون سبب شقائهم وبؤسهم.

من جانب آخر تتضح الآثار الوضعيه لهذه الأعمال السيئه فى عالم الطبيعه والنعم الإلهيه، كما ينزل المطر فى الصيف فيدعو إلى الانزعاج وضياح المحاصيل الزراعيه بدلاً من نزوله فى فصل الشتاء فيؤدى إلى بروده الجو وتلطيفه.

أضف إلى ذلك وإثر انقلاب القيم وضياحها يفتح الميدان لحثاله المجتمع فيصلولون ويجولون فيه، الأمر الذى يعنى إقصاء الأخيار والصالحين من الساحه، فهذه العناصر الأربعة تشهد بوضوح فى كل حكومه طاغيه مستبده.

ثم واصل كلامه عليه السلام بالإشاره إلى أربع صفات حيث قسم الفئات الاجتماعيه آنذاك إلى أربع وقال: «وكان أهل ذلك الزمان ذئاباً، وسلاطينه سباعاً، وأوساطه أكالاً، (١) وفقراؤه أمواتاً» .

والمراد بأهل ذلك الزمان أعوان الحكام الظلمه وعمالهم وولاتهم.

فاذا كان السلطان ذئباً ضارياً، كان من الطبيعى أن تكون هذه هى صفه بطانته، كما أنّ من الطبيعى أيضاً أن تكون الطبقة المتوسطه من المجتمع فريسه لهذه الذئاب، أمّا الفقراء فيعتريهم النسيان وكأنهم أموات محوا من صفحه التاريخ.

وكان الإمام عليه السلام قد طالع عن كتب كافه تفاصيل التاريخ البشرى، فكشف النقاب بهذه العبارات القصيره عن عمق مميزات الحكومات المستبده الطاغيه.

ثم إختتم عليه السلام خطبته بالاشاره إلى سبع ظواهر مقيته فى هذه المجتمعات والتي تمثل قمه البؤس والشقاء. حيث قال سيزول الصدق فى ذلك الزمان ويكثر الكذب وظهرت الموده على اللسان فى حين انطوت القلوب على البغض والعدوان، ويتفاخر بالذنب ويندهش من العفه والطهر،

ص: ٣٤٨

١-١) «أكال» جمع «آكل» مثل طلاب بمعنى الآكل، و على هذا المعنى يكون معنى الجملة «أوساطه أكالاً»، المقصود به الطبقة المتوسطه فى ذلك الزمان والذين لاهم لهم غير الاكل والشرب وسلب ونهب الأموال، واذا جاءت بصيغه اسم فاعل، حيث نرى أنها جاءت على صيغه «اسم مفعول، وهو ما يناسب الجمل التي سبقتها، فيكون معناها، بالشكل الذى أوردناه فى الشرح أعلاه.

فيلبس الإسلام ثوباً مقلوباً: «وغار (١)الصدق، وصار الفسوق نسباً، والعفاف عجباً، ولبس الإسلام لبس الفرو (٢)مقلوباً» .

يمكن أن تكون العبارة «غار الصدق، وفاض الكذب» وبالالتفات إلى معنى الغور الذى يعنى الانتشار داخل الأرض وفاض من فيض بمعنى الماء الوفير أو المطر وأمثال وذلك، إشاره إلى ذلك الزمان وكأَنَّ عيون الصدق قد غارت فيه فى الأرض بينما جفت بساتين الحياه الإنسانيه اثر ابتعادها عن هذه المياه، وبدلاً من ذلك فقد عم وانتشر الكذب وكأنه الماء المالح الذى يخرب كل شىء.

والعبارة «صار الفسوق نسباً» تفيد مدى اقتراب الفسقه من بعضهم وتوطيد أواصرهم وكأنهم قرابه ونسب.

وقد فسر بعض شراح نهج البلاغه الفسوق هنا بالزنا؛ أى يكثر أولاد الحرام فى المجتمع، وينسجم هذا التفسير والعبارة: «والعفاف عجباً» .

الاحتمال الآخر فى تفسير هذه العبارة أنّ الفسقه يفتخرون بفسقهم، كما تفتخر العرب بنسبها، وعلى العكس من ذلك فإنّ الأفراد من أهل الطهر والعفاف يشعرون بالخجل إثر ذم المجتمع وملامتهم لهم.

والعبارة: «لبس الإسلام لبس الفرو مقلوباً» إشاره إلى نقطه لطيفه وهى أنّ حكام الجور والفسقه والفجره لا يسعون إلى القضاء على الإسلام وسلب الناس دينهم، بل يحرفون الإسلام ويقلبون محتواه من أجل تحقيق أطماعهم ومآربهم. وشهد تاريخ الحكومات المستبده ولاسيما حكومه بنى أميه على صدق هذا الكلام.

طبيعى أنّ اللباس إذا قلب لم يعد له من شبه بثياب الناس، بل يبدو من يرتديه حيواناً، أما ذكر هذه العبارة بعد الحديث عن مفاسد ذلك الزمان يمكن أن يكون من قبيل ذكر العام بعد الخاص؛ لأنّ الإسلام إذا قلب كان الكذب بدل الصدق والفسوق بدل العفاف وسائر الرذائل بدل الفضائل والقيم.

ص: ٣٤٩

١ - ١) «غار» من ماده «غور» الدخول فى الشىء وإذا استعمل فى الماء عنى غوره فى الأرض، ومن هنا يستعمل بمعنى الانعدام أيضاً.

٢ - ٢) «فرو» ما يهيبىء من جلد الحيوانات وله صوف عاده ما يلبس فى الشتاء.

لقد رسم الإمام عليه السلام فى هذه الأقسام الثلاثه من الخطبه صورته واضحه بيانه للاحداث القادمه التى ستواجه المجتمع الإسلامى عن كافه الحكومات الطاغيه والمستبده على مدى التاريخ.

حيث تسعى هذه الحكومات لتقويه دعائمها فان استتبت لها الأمور واستقرت أقصت كافه الأخيار والشرفاء عن الميدان، واستقطبت بطانتها من حثاله المجتمع ليمارسوا أبشع الأساليب بحق الناس ولا سيما المؤمنين، كما يسعون إلى سوق الناس لأن يعيشوا فى هاله من الجهل والتخبط.

الكذب هو السائد والصدق غائب، والفسوق عامر والطهر ضامر. أضف إلى ذلك فإن الناس سرعان ما تكتسب رذائل الحاكم، ولاغرو فالناس على دين ملوكهم. وزبده الكلام فإن قيم المجتمع ومثله تقلب تماماً على سبيل المثال يكون الفسق والفجور فخراً، بينما يصبح الطهر والعفاف نقصاً.

وبالطبع فإن مثل هذه الحكومات لا تقف بوجه الدين فى الأوساط الدينيه بل تسعى جاهده لتحريفه واخلائه من محتواه بغيه تمرير مخططاتها، إلى جانب تعبئه الرأى العام لصالحها من خلال ترويجها للخرافات التى تستهوى العوام.

والحق اننا إذا اعتمدنا هذه المعايير التى أوردها الإمام عليه السلام تجاه عالمنا المعاصر ولاسيما غالبيه البلدان الإسلاميه لرأيناها مصداقاً واضحاً لما ذكر، وكأن الإمام عليه السلام كان ينظر لكافه الأحداث التى تشهدنا مجتمعاتنا اليوم.

أما ما أورده الإمام عليه السلام من نبوءه فى هذه الخطبه فأنما يشبه بعض مضامين الروايات التى نقلت عن رسول الله صلى الله عليه وآله فقد جاء فى الحديث الشريف أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال:

«يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ وَجُوهُهُمْ وَجُوهُ الْأَدَمِيِّينَ، وَقُلُوبُهُمْ قُلُوبُ الشَّيَاطِينِ، كَأَمْثَالِ الذَّنَابِ الضَّوَارِي، سَيَفَاكُونَ لِلدَّمَاءِ، لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنِ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ، إِنْ تَابَعْتَهُمْ ارْتَابُوا كَ وَإِنْ حَدَّثْتَهُمْ كَذَّبُوا كَ، إِنْ تَوَارَيْتَ عَنْهُمْ اعْتَابُوا كَ. أَلَسَنَّهُ فِيهِمْ بَدْعُهُ وَبَدْعُهُ فِيهِمْ سُنَّهْ،

وَالْحَلِيمُ مِنْهُمْ غَادِرٌ، وَالْغَادِرُ بَيْنَهُمْ حَلِيمٌ، الْمُؤْمِنُ فِيمَا بَيْنَهُمْ مُسْتَضْعَفٌ، وَالْفَاسِقُ فِيمَا بَيْنَهُمْ مُشْرَفٌ... فَعِنْدَ ذَلِكَ يَحْرِمُهُمُ اللَّهُ
قَطْرَ السَّمَاءِ فِي أَوَانِهِ، وَيُنزِلُهُ فِي غَيْرِ أَوَانِهِ، وَيُسَلِّطُ عَلَيْهِمْ شَرَارَهُمْ...» (١).

ص: ٣٥١

١-١) سفينه البحار، [١] ماده زمن.

ومن خطبه له عليه السلام

فى بيان قدره الله وانفراده بالعظمه وأمر البعث

نظره إلى الخطبه

تعد هذه الخطبه من أفصح وأبلغ خطب نهج البلاغه إلى جانب عظم محتواها ومن هنا أسموها بالزهراء. حتى صرح ابن أبى الحديد قائلاً: من أراد أن يتعلم الفصاحه والبلاغه، ويعرف فضل الكلام بعضه على بعض فليتأمل هذه الخطبه، فإن نسبتها إلى كل فصيح من الكلام نسبه الكواكب المنيره الفلكيه إلى الحجاره المظلمه الأرضيه، ثم لينظر الناظر إلى ما عليها من البهاء، والجلاله والرواء والديباجه وما تحدثه من الروعه والرهبه والمخافه والخشيه؛ حتى لو تليت على زنديق ملحد مصمم على اعتقاد نفى البعث والنشور لهدت قواه، وأرعبت قلبه، وأضعفت على نفسه، وزلزلت اعتقاده. (٢)

والخطبه تتألف بصوره عامه من ثمانية أقسام:

القسم الأول: يتحدث عن عظمه قدره الله وعجز المخلوقات أمامه حيث يورد بعض الأمور الدقيقه بهذا الشأن.

ص: ٣٥٣

١-١) سند الخطبه: جاء فى مصادر نهج البلاغه أن المرحوم الرضى (ره) اقتطفها من الخطبه المعروفه بالزهراء، ورواها ابن عبد ربّه المالكي فى العقد الفريد والزمحشرى والآمدى (مصادر نهج البلاغه ٢/٢٣٥).

٢-٢) شرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد ٧/٢٠٢. [١]

القسم الثاني: فى خلقه الملائكه وبعض صفاتها وخصائصها، التى ستحقر عبادتها تجاه عظمه الحق، لو اطلعت على اسرار الغيب، رغم اجتهادها وذوبانها فى العباده والطاعه.

القسم الثالث: عن غفله العباد واقبالهم على الدنيا وابتعادهم عن دعوه الأنبياء مع وجود الآخره ونعمها الدائمه.

القسم الرابع: يعالج عشاق الدنيا من أهل الذنوب والمعاصى حين الموت، بعبارات بليغه مؤثره تسوق الغافل إلى التفكير وإعاده النظر فى سلوكه وتصرفاته.

القسم الخامس والسادس: حول القيامه ومقدمات يوم الحساب وسؤال الإنسان عن أعماله، وسعاده المؤمنين، وتعاسه المذنبين وعاقبه كل من هاتين الطائفتين.

القسم السابع: عن النبى الأكرم صلى الله عليه وآله وزهده بالدنيا ورغبته عنها. و كونه الأسوه التى ينبغى لأهل الايمان الاقتداء بها.

القسم الثامن: عن أهل البيت عليهم السلام واتباعهم وعظم منزلتهم.

«كُلُّ شَيْءٍ خَاشِعٌ لَهُ، وَكُلُّ شَيْءٍ قَائِمٌ بِهِ: غِنَى كُلِّ فَقِيرٍ، وَعِزُّ كُلِّ ذَلِيلٍ، وَقُوَّةُ كُلِّ ضَعِيفٍ، وَمَفْزَعُ كُلِّ مَلْهُوفٍ. مَنْ تَكَلَّمَ سَمِعَ نُطْقَهُ، وَمَنْ سَكَتَ عَلِمَ سِرَّهُ، وَمَنْ عَاشَ فَعَلَيْهِ رِزْقُهُ، وَمَنْ مَاتَ فَإِلَيْهِ مُنْقَلَبُهُ. لَمْ تَرَكَ الْعُيُونَ فَتُخْبِرَ عَنْكَ، بَلْ كُنْتَ قَبْلَ الْوَاصَةِ بَيْنَ مَنْ خَلَقِكَ. لَمْ تَخْلُقِ الْخَلْقَ لَوْحْشِهِ، وَلَا اسْتَعْمَلْتَهُمْ لِمَنْفَعِهِ، وَلَا يَسْبِقُكَ. مَنْ طَلَبْتَ، وَلَا يُفْلِتُكَ، مَنْ أَخَذْتَ، وَلَا يَنْقُصُ سُلْطَانَكَ مِنْ عَصِيَاكَ، وَلَا يَزِيدُ فِي مُلْكِكَ مِنْ أَطَاعِكَ، وَلَا يَزِيدُ أَمْرَكَ مِنْ سَخِطِ قَضَاءِكَ، وَلَا يَسْتَتَغْنِي عَنْكَ مَنْ تَوَلَّى عَنْ أَمْرِكَ. كُلُّ سِرٍّ عِنْدَكَ عَلَانِيَةٌ، وَكُلُّ غَيْبٍ عِنْدَكَ شَهَادَةٌ. أَنْتَ الْأَبَدُ فَلَا أَمَدَ لَكَ، وَأَنْتَ الْمُنتَهَى فَلَا مَحِيصَ عَنْكَ، وَأَنْتَ الْمَوْعَدُ فَلَا مَنْجِي مِنْكَ إِلَّا إِلَيْكَ. بِيَدِكَ نَاصِيَةٌ كُلِّ دَابَّةٍ، وَإِلَيْكَ مَصِيرُ كُلِّ نَسِيمَةٍ. سُبْحَانَكَ مَا أَعْظَمَ شَأْنُكَ! سُبْحَانَكَ مَا أَعْظَمَ مَا نَزَى مِنْ خَلْقِكَ! وَمَا أَضْيَعُ كُلَّ عَظِيمَةٍ فِي جَنْبِ قُدْرَتِكَ! وَمَا أَهْوَلَ مَا نَزَى مِنْ مَلَكُوتِكَ! وَمَا أَحْقَرَ ذَلِكَ فِيمَا غَابَ عَنَّا مِنْ سُلْطَانِكَ! وَمَا أَسْبَغَ نِعْمَكَ فِي الدُّنْيَا، وَمَا أَصْغَرَهَا فِي نِعَمِ الْآخِرَةِ!» .

الشرح والتفسير

كما ذكرنا سابقاً فإن هذه الخطبة من أعمق خطب نهج البلاغة و أروعها و أجملها، وقد تطرق عليه السلام في بدايه الخطبه إلى أوصافه سبحانه وتعالى الجماليه والجلاليه وصفات الأفعال بصوره واسعه جامعته.

فاشار عليه السلام إلى عشر صفات من صفات الكمال: «كل شيء خاشع له، وكل شيء قائم به: غنى كل فقير، وعز كل ذليل، وقوه كل ضعيف، ومفزع كل ملهوف» .

فهذه الصفات الست تعود إلى قدرته المطلقة سبحانه ووجوده المطلق اللامحدود وحاجه جميع الممكنات إليه.

«خاشع» من ماده «خشوع» تعنى فى الأصل الخضوع؛ مع ذلك لها مفهوم أوسع يشمل الخضوع الظاهرى والباطنى والتشريعى والتكوينى. وعليه فخشوع كل شيء له بمعنى التسليم لله والانصياع لقوانينه.

وقيام كل شيء بالله من حيث إنه واجب الوجود وغيره ممكن الوجود، والممكن يتوقف على الواجب، كتوقف ضياء الشمس عليها. وإليه يعزى أيضاً غنى كل فقير وعز كل ذليل وقوه كل ضعيف؛ وذلك لأن الممكنات والمخلوقات لا تملك لنفسها شيئاً، وكل ما لديها من الله، وكل كمال تحصل عليه فأنما هو فيض من كماله المطلق.

ملهوف من ماده لهف تعنى فى الأصل الغم والهم الذى يعانى منه الإنسان اثر فقدانه لشيء: كما تستعل أحياناً لمن يظلم من الأفراد ويصرخ مستغيثاً. ولما كانت قدره الناس زهيدة لا تمكنهم من تحقيق كافة رغباتهم أو الحفاظ على مالديهم، فان حاله الهم والغم والحزن تسيطر عليهم حين يفقدون سندهم المادى والمعنوى، فليس أمامهم من سبيل سوى اللجوء إلى تلك الذات القادرة المقتدره من أجل حل مشاكلهم والتغلب على مصاعبهم.

والواقع هو أن ماورد سابقاً إنما اقتبس من عدّه آيات قرآنيه اشارت إلى هذه الصفات. فقد صرح القرآن فى موضع: «وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ» (١). وقال فى موضع آخر: «اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ» (٢). وقال: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ» (٣). وقال: «قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكِ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» (٤).

ص: ٣٥٦

١-١) سورة النمل/٤٩.

٢-٢) سورة البقره/٢٥٥. [١]

٣-٣) سورة فاطر/١٥. [٢]

٤-٤) سورة آل عمران/٢٦. [٣]

ثم اردفها عليه السلام بست صفات أخرى: «ومن تكلم سمع نطقه، ومن سكت علم سره، ومن عاش فعليه رزقه، ومن مات فالإليه منقلبه» .

نعم فهو عليم بظاهرها وباطنها، وهو العالم بحياتنا وموتنا، وإنا إليه راجعون لا محاله.

والحق لو عشنا الإيمان على مستوى القلب والعمل بهذه الصفات التي بينها الإمام عليه السلام لكفتنا في اصلاح أنفسنا، لا بد أن نعلم بأن كل كالدينا منه سبحانه، وعلينا أن نسأله كل ما نريد، فهو العالم بأسرارنا، وأن يوماً سنعود إليه ونمثل بين يديه في محكمته العادله.

ثم قال عليه السلام وقد ذكر بعضاً من صفات الخالق السلبية: «لم ترك (1) العيون فتخبر عنك، بل كنت قبل الواصفين من خلقك» .

فالعباره «لم ترك العيون» إشاره إلى أنه ليس بمخلوق ولا بجسم ليرى، وتبين صفاته من خلال الرؤيه والمشاهده.

والعباره اللاحقه بمنزله العله؛ لأنّ الله كان منذ الأزل، ولا يمكن أن يكون جسمًا. فالجسم حادث. وعليه فان أردنا أن نصف الذات المقدسه علينا ان نستعين بما أورده انبياء الله وكتبه السماويه.

ثم اشار عليه السلام إلى ثمان صفات أخرى من صفات الجلال ذات البعد السلبى، وفي الواقع نتحدث عن غنى الحق المطلق.

«لَمْ تَخْلُقِ الْخَلْقَ لَوْحَشِهِ، وَلَا اسْتَعْمَلْتَهُمْ لِمَنْفَعَةٍ، وَلَا يَسْبِقُكَ مَنْ طَلَبَتْ، وَلَا يُفْلِتُكَ (٢) مَنْ أَخَذَتْ، وَلَا يَنْقُصُ سُلْطَانَكَ مَنْ عَصَاكَ، وَلَا يَزِيدُ فِي مُلْكِكَ مَنْ أَطَاعَكَ، وَلَا يَزِيدُ أَمْرَكَ مَنْ سَخِطَ قَضَاءَكَ، وَلَا يَسْتَعْنِي عَنْكَ مَنْ تَوَلَّى عَنْ أَمْرِكَ» .

نعم فهو الغنى عن الجميع، وكل كماله مصدره الحق سبحانه و ليس لشيء من قدره على تحدى إرادته - و عليه فخلقه للمخلوقات يستند إلى فيضه لا للدفع وحشه وحده أو جلب

ص: ٣٥٧

١- ١) «لم تر» فعل، والكاف مفعوله، و فاعله «العيون» يعنى «لا تبصر ك الانظار» .

٢- ٢) «يفلت» من ماده «افلايت» ينفك أو يفر. ومنه الحديث المعروف لعمر فى كتب الفريقين «إن بيعه أبى بكر كانت فلتة وفى الله شرها» .

منفعه، فلا- عباده العباد تزيد من جلاله، ولا كفرهم ينال من كبريائه، فمن تولى عنه لم يستغن عنه، و من إعترض على قضائه لم يسعه دفعه. ثم ذكر الإمام عليه السلام خمس من صفاته الجماليه فقال: «كل سر عندك علانيه، وكل غيب عندك شهاده، أنت الابد فلا أمد لك، وأنت المنتهى فلا محيص (١) عنك، وأنت الموعد فلا منجى منك إلا إليك» .

قد تبدو للوهله الاولى مفرده «سر» و «غيب» بمعنى واحد، وكذلك مفردتى «علانيه» و «شهاده» ، ولكن لايبعد أن يكون المراد بالسر، الأسرار الباطنيه للعباد التى يعلمها الله، وبعباره أخرى فإنّ كل سر علانيه لديه، أمّا الغيب فيعنى الحوادث الآتية، أو الماضيه الغائبه على حسناً وشعوراً، أو الكائنات الموجوده حالياً فى هذه السموات والأرض التى لا يبلغها حسناً. (٢)

والعباره أنت الأبد تأكيد لأبديه الله سبحانه. فهو على درجه من الأبديه وكأنه عينها وذاتها، فهو واجب الوجود، ومن هنا لا بدايه له ولا نهايه، فالبدايه والنهايه من صفات المخلوقات المحدوده من مختلف الجهات.

والتعبير بالمنتهى والموعد صفتان متفاوتان بشأن الله سبحانه وتعالى. فهو المنتهى بمعنى كل شىء ينتهى إليه: «انا لله وانا إليه راجعون» ، وليس لأحد القدره على الفرار من محكمه عدله. وقد قال القرآن الكريم صراحه: «وَعَرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صِيًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا» (٣).

والرساله التى تحملها هذه الصفات هو أن نعلم ونؤمن بان الله خبير عليم بكل شىء بما فى ذلك بواطن أسرارنا وخفائنا، فما نكتمه على الخلق ليس بمكتوم على الخالق، واننا مرجعنا يوماً إلى محكمه العدل الإلهى، واخيراً لا يخفى الدور التربوى والحيلوله دون الوقوع فى الذنب والمعصيه إذا ما التفتنا إلى هذه الصفات.

ثم واصل عليه السلام كلامه مؤكداً على قدره الله وعوده جميع الكائنات الحيه إليه فقال: «بيدك ناصيه كل دابه، وإليك مصير كل نسمة» .

ص: ٣٥٨

١- ١) «محيص» من ماده «حيص» على وزن حيف بمعنى العوده والعدول واعتزال الشىء ومحيص اسم مكان، وعليه قد تعنى الملاذ.

٢- ٢) استفاد من المصادر اللغويه ان السر ما يخفيه الإنسان، أمّا الغيب فما خفى على عيننا وحسناً.

٣- ٣) سوره الكهف/٤٨. [١]

فالتعبير بالناحية كناية عن تسليم المخلوقات لإرادة الله المطلقه. والتعبير بكل نسمة يعنى فى الأصل هبوب الرياح المعتدله، ثم اطلق على روح الكائنات الحيه، فى إشاره إلى أن كل موجود راجع إليه مائل فى محكمته.

ثم اختتم الإمام عليه السلام الخطبه بالقول: «سبحانك ما أعظم شأنك! سبحانك ما أعظم ما نرى من خلقك! وما أصغر كل عظيمه فى جنب قدرتك! وما أهول ما نرى من ملكوتك! وما أحقر ذلك فيما غاب عنا من سلطانك» .

والحق ان عظمه هذا العالم وعمق غرائبه تتسع لدينا شيئاً فشيئاً كلما تقدمت مسيره العلم وتطورت الأجهزة. وقد عبر أحد العلماء بأن عالم الخلقه - حسب ما لدينا من معلومات - بمثابة المكتبه العظيمه التى تضم ملايين الكتب، وكرتنا الأرضيه بكل ما فيها بمنزله نقطه فى صفحه من صفحات كتاب من تلك المكتبه الضخمه. كما صرح آخر بأن ما ثبت اليوم أن كواكب السماء على قدر من الكبر بحيث تذهل الإنسان. فكوكب الجوزاء يبلغ أكبر من كرتنا الأرضيه ثلاثين ملياردا، هذا بالنسبه لكواكب واحد - و ما أروع ما قاله الإمام عليه السلام بأن ماخفى عنا لأعظم مما نرى - وقد قال ذلك حيث تنعدم الإكتشافات آنذاك و حين كانت الهيئه البطليموسيه التى ترى صغر عالم الوجود هى السائده فى كافه الأوساط العلميه.

فقد انطلق الإمام عليه السلام فى الواقع من خلال الرؤيه القرآنيه لهذه المسأله «لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ» (١).

ثم اختتم عليه السلام كلامه فى بيان نعم الدنيا والآخره فقال: «وما أسبغ (٢) نعمك فى الدنيا، وما أصغرها فى نعم الآخره» .

ص: ٣٥٩

١-١ (١) سورة غافر/٥٧. [١]

٢-٢ (٢) «اسبغ» من ماده «اسبغ» الكثير الوافر.

ومنها: «مِنْ مَلَائِكَةٍ أَسْمَىٰ كُنْتَهُمْ سَمَاوَاتِكَ، وَرَفَعْتَهُمْ عَنْ أَرْضِكَ؛ هُمْ أَعْلَمُ خَلْقِكَ بِكَ، وَأَخَوْفُهُمْ لَكَ، وَأَقْرَبُهُمْ؛ لَمْ يَسْجُدُوا الْأَصْدِلَابَ، وَلَمْ يُضَمَّنُوا الْأَرْضِيَّاتِ، وَلَمْ يُخْلَقُوا «مِنْ مَاءٍ مَّهِينٍ» وَلَمْ يَتَشَجَّعْهُمْ «رَيْبَ الْمُنُونِ»؛ وَإِنَّهُمْ عَلَىٰ مَكَانِهِمْ مِنْكَ، وَمَنْزِلَتِهِمْ عِنْدَكَ، وَاسْتِجْمَاعَ أَهْوَائِهِمْ فِيكَ وَكَثْرَةَ طَاعَتِهِمْ لَكَ، وَقَلَّةَ غَفْلَتِهِمْ عَنْ أَمْرِكَ، لَوْ عَيَّيْنَا كُنْهَ مَا خَفِيَ عَلَيْهِمْ مِنْكَ لِحَقْرُوا أَعْمَالَهُمْ، وَلَزَرُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ، وَلَعَرَفُوا أَنََّّهُمْ لَمْ يَعْبُدُواكَ حَقَّ عِبَادَتِكَ، وَلَمْ يُطِيعُواكَ حَقَّ طَاعَتِكَ» .

الشرح والتفسير

لما فرغ الإمام عليه السلام من الحديث في الأقسام السابقة عن عظمه خلق الله وملكوت السموات، وأن ما نراه لأصغر بكثير عما خفى علينا من أسرار، أشار هنا إلى الملائكة بفضلها دلالة على عظمه خلق الله فقال عليه السلام: «من (١) ملائكة أسكنتهم سماواتك، ورفعتهن عن أرضك» .

لاشك أن ملائكة لا تقتصر على سكنه سماواته، فهناك ملائكة الأرض التي تحفظ أعمال الانس وتدبر الأمور باذن الله وتتولى قبض الأرواح. لكن بالنظر إلى أن الإمام عليه السلام لم يبين بالعباره المذكوره حكما كلياً بشأن الملائكة بل تحدث عن طائفه منها فليست هناك من مشكله - ولا ضروره لتلك التوجيهات التي ذكرها هنا بعض شراح نهج البلاغه.

ص: ٣٤١

١- ١) بناء على ماورد فان «من» تبعيضية وإشاره إلى بعض مخلوقات الله العظيمة التي وردت في المقطع السابق من الخطبه.

ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه فى الإشارة إلى بعض الصفات الثبوتية والسلبية للملائكة قائلاً: «هم أعلم خلقك بك، وأخوفهم لك، وأقربهم منك» .

فالصفات الثلاث مرتبطة مع بعضها؛ لأنه المعرفة العظمى للملائكة بالنسبة لذات الله تؤدى إلى خوفها، الخوف من التقصير فى إداء الوظائف والمسؤوليات، والخوف الناشئ من عظمتة وهيبه مقامه. والصفتان تؤديان إلى قرب الملائكة من الله.

وهنا يبرز هذا السؤال كيف أن الملائكة أعلم من جميع المخلوقات بالله وأقربها إليه، والحال أنا نعلم أن أنبياء الله - ولا سيما نبي الإسلام - وحتى بعض الصالحين أفضل من الملائكة، وأفضل دليل على ذلك سجود كافة الملائكة لآدم، وأفضليته عليهم من حيث العلم والمعرفة، وقد ورد فى الحديث أن طائفة من الملائكة تقوم على خدمة الأنبياء والصلحاء والمؤمنين، كما هناك الحديث المشهور عن تركيب خلق الإنسان من العقل والشهوه والملائكة من العقل دون الشهوه، فإن غلب عقله شهوته كان أفضل من الملائكة، هو الآخر دليل على أفضلية الإنسان على الملائكة (١) ويمكن القول فى الاجابة على هذا السؤال: المراد الأعلمية والقرب النسبى، وبعبارة أخرى فإن العبارة المذكورة شبيهة الحصر الإضافى، كما يمكن القول أن العبارة حكم عام يستثنى منه الأنبياء والأولياء.

ثم أشار إلى صفاتهم السلبية بعدم وجود نواقص فى الملائكة على غرار الناس، فذكر أربع صفات منها: «لم يسكنوا الأصلاب، ولم يضمّنوا الأرحام، ولم يخلقوا من ماء مهين (٢) ولم يتشعبهم (٣) ريب (٤) المنون» .

من الواضح أن الاستقرار فى مكان محدود كصلب الأب ومن ثم رحم الأم، والخلق من قطره ماء تبدو تافهه، لهو نقص فى الإنسان؛ والحال ليست الملائكة كذلك، فلا من زواج ولا ولادة كالإنسان.

ص: ٣٦٢

١- ١) وسائل الشيعة ١١/١٦٤، أبواب جهاد النفس، الباب ٩، ح ٢.

٢- ٢) «مهين» من مادة «مهانه» بمعنى الضعه والحقاره وماء مهين إشارة إلى المنى الذى ليس له قيمة من حيث المقدار ولا الظاهر.

٣- ٣) «يتشعبهم» من مادة «تشعب» التفرق، وشعبه بمعنى الفرع الذى فصل عن الأصل.

٤- ٤) «ريب» كل شك وترديد، ومنون حوادث الدهر أو الموت.

أضف إلى ذلك فهي لا- تموت ولا- تتغير بسبب الزمان، ولا- تمرض ولا تشيب وتعجز. فوجود هذه المميزات وإن كانت من علامات شرف خلقه الملائكة، وأنّ الإنسان لاشك هو أسمى مقاماً منها من هذه الناحية. إلّا أنّ سبب عظمه الإنسان وأفضليته على الملائكة إنّما تعود إلى روحه التي أشارت إليها الآية الشريفة: «نَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي» (١).

ومن هنا سجد الملائكة كلهم أجمعون لآدم عليه السلام.

أمّا هدف بيان الإمام عليه السلام لكل هذه الصفات ما أراد ذكره في العبارات اللاحقة «وأنّهم على مكانهم منك، ومنزلتهم عندك، واستجماع أهوائهم فيك، وكثرة طاعتهم لك، وقلة غفلتهم عن أمرك، لو عاينوا كنه ما خفى عليهم منك لحقروا أعمالهم، ولزروا (٢) على أنفسهم، ولعرفوا أنّهم لم يعبدوك حق عبادتك، ولم يطيعوك حق طاعتك» .

نعم فالملائكة ورغم تلك المعرفة والمقام الشامخ، فهي قاصره عن معرفه عظمته ودائره صفاته في الجمال والجلال، وعليه فلو فرض تعرفها على الله كما هو، لأكتشفوا أنّهم لم يعبدوه كما هو أهله ولم يطيعوه كما يستحقه. وكل ما أدوه ذره لاقيمه لها ولا وزن.

فالعبارة تفيد من جانب أنّ معرفه الإنسان بالله كلما تسامت، تضاعفت عبادته وطاعته لله. كما تفيد من جانب آخر أنّ أحداً لم يعبد الله حق عبادته، كما أنّ أحداً لم يعرف الله حق معرفته، وذلك لأنّ الإنسان والملك - حتى أعظم الناس والملائكة - إنّما هو وجود محدود، والذات الإلهية ليست محدوده، فليس لهذا المحدود أن يؤدي حق عبادته لله ولا طاعته ولا معرفته. أمّا التعبير بالأهواء جمع هوى في العبارة «واستجماع أهوائهم فيك» فلا تعنى هوى النفس وشططها، بل تعنى الحب والرغبة، لأنّ لهذا اللفظ معنيان. وعبارة أخرى يستعمل أحياناً في الحب الإيجابي وأخرى في السلبي. والمراد بالعبارة أنّ الملائكة ركزت حبها وعشقها في الله سبحانه والعبارة «قله غفلتهم عن أمرك» تفيد امكانيه غفله الملائكة، إلّا أنّها طفيفه جداً. وشاهد ذلك الروايات الواردة في بعضى الملائكة في ترك الاولى. وعليه فلا حاجة لذلك التكلف الذى صرح به بعض شراح نهج البلاغه من أنّ القله هنا تعنى العدم.

ص: ٣٤٣

١-١ (١) سورة الحجر/٢٩. [١]

٢-٢ (٢) «زروا» من ماده «زرى» على وزن سعى العيب والتوبيخ واللوم، والازراء بهذا المعنى أيضاً.

على كل حال هذا هو حال الملائكة بهذه العباده والطاعه لآلاف السنين فما ظنك بعباداتنا وطاعاتنا البخسه؟ والجدير بالذكر أنّ الرسول الأكرام صلى الله عليه وآله وبالنظر إلى الحديث المعروف «ما عبدناك حق عبادتك، وما عرفناك حق معرفتك» (١)، قد التفت إلى هذه الحقيقه، أى عدم معرفه الله وعبادته كما يستحق، بينما تبين العبارة المذكوره للإمام عليه السلام عدم التفات الملائكه لهذه المسأله، ولعل الآيه الشريفه: «وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ» (٢) دليل آخر على هذا المعنى، وهذا ما يوضح أفضله الإنسان على الملائكه.

ص: ٣٦٤

-
- ١-١) بين المرحوم العلامة المجلسى فى المجلد ٦٨ من بحار الانوار [١] ص ٢٣ الحديث المذكور عن النبى صلى الله عليه وآله ضمن شرحه لبعض الاحاديث.
- ٢-٢) سورة البقره/٣٠. [٢]

«سُبْحَانَكَ خَالِقًا وَمَعْبُودًا بِحُسْنِ بِلَائِكَ عِنْدَ خَلْقِكَ. خَلَقْتَ دَارًا، وَجَعَلْتَ فِيهَا مَأْدِبَهُ: مَشْرَبًا وَمَطْعَمًا، وَأَزْوَاجًا وَخُدَمًا، وَقُصُورًا، وَأَنْهَارًا، وَزُرُوعًا، وَثِمَارًا؛ ثُمَّ أَرْسَلْتَ دَاعِيًا يَدْعُو إِلَيْهَا، فَلَا الدَّاعِيَ أَجَابُوا، وَلَا فِيهَا رَغَبَتْ رَغْبُوا، وَلَا إِلَى مَا شَوَّقَتْ إِلَيْهِ اشْتَأَفُوا. أَقْبَلُوا عَلَى جِيفِهِ قَدْ افْتَضَّحُوا بِأَكْلِهَا، وَاصْبَطَلَحُوا عَلَى حُبِّهَا، وَمَنْ عَشِقَ شَيْئًا أَغْشَى بَصِيرَتَهُ، وَأَمْرَضَ قَلْبَهُ، فَهُوَ يَنْظُرُ بِعَيْنٍ غَيْرِ صَاحِحَةٍ، وَيَسْمَعُ بِأُذُنٍ غَيْرِ سَمِيعَةٍ، قَدْ خَرَقَتِ الشَّهَوَاتُ عَقْلَهُ، وَأَمَاتَتِ الدُّنْيَا قَلْبَهُ، وَوَلَهَتْ عَلَيْهَا نَفْسُهُ، فَهُوَ عَبْدٌ لَهَا، وَلَمْ يَفِ يَدِيهِ شَيْءٌ مِنْهَا، حَيْثُمَا زَالَتْ زَالَ إِلَيْهَا، وَحَيْثُمَا أَقْبَلَتْ أَقْبَلَ عَلَيْهَا؛ لَا يَنْزَجِرُ مِنَ اللَّهِ بِزَاجِرٍ، وَلَا يَنْعِظُ مِنْهُ بِوَاعِظٍ، وَهُوَ يَرَى الْمَأْخُودِينَ عَلَى الْغَرِّ، حَيْثُ لَا إِقَالَهَ وَلَا رَجْعَهَ، كَيْفَ نَزَلَ بِهِمْ مَا كَانُوا يَجْهَلُونَ، وَجَاءَهُمْ مِنْ فِرَاقِ الدُّنْيَا مَا كَانُوا يَأْمَنُونَ، وَقَدِمُوا مِنَ الْآخِرَةِ عَلَى مَا كَانُوا يُوعَدُونَ. فَغَيْرُ مَوْصُوفٍ مَا نَزَلَ بِهِمْ» .

الشرح والتفسير

تحدث الإمام عليه السلام هنا عن الدار الآخرة وخلق الجنة وما تضمنه من نعم جمه فقال عليه السلام: «سبحانك خالقاً ومعبوداً! بحسن بلائك عند خلقك» فقد خلقت تلك الدار العظيمة (الآخرة) وجعلت فيها مختلف النعم من مشارب ومطاعم وأزواج وخدمه وقصور وأنهار

وزرع وثمار «وجعلت فيها مآديه (١): مشرباً ومطعماً وأزواجاً وخداماً وقصوراً وأنهاراً وزروعاً وشماراً» .

قطعاً أنّ الهدف من بيان هذه الأمور هو تطهير الإنسان من الرذائل والادناس والذنوب والمعاصي وسوقه إلى القرب من الله سبحانه: وقد وفرها الحق جميعاً لعباده بصفاتها تشجع الإنسان على الثبات في الطريق القويم ومواصلته.

ثم قال عليه السلام: «ثم أرسلت داعياً يدعو إليها، فلا الداعي أجابوا، ولا فيما رغبت رغبوا، ولا إلى ما شوقت إليه اشتاقوا» .

فهم لم يكتفوا بعدم الرغبه بتلك النعم المطهره الخالده، بل اقبلوا على جيفه نتنه افتضحوا بأكلها والعجيب فى الأمر أن كلمتهم اتفقت على حبها: «أقبلوا على جيفه (٢) قد افتضحوا بأكلها، واصطلحوا على حبها» .

طبعاً مراد الإمام عليه السلام من ارسال الداعى هو بعث الأنبياء ولاسيما نبي الإسلام صلى الله عليه وآله والمراد بعدم إجابته الدعوه لاتشمل جميع الناس؛ بل الأغلبيه من أهل الدنيا المفارقين للآخره من اتباع الهوى والشهوات.

ومن هنا فقد شبههم بالحيوانات المفترسه التى تنهال على جيفه فتفضح نفسها؛ وذلك لأنّ الرائحه النتنه لتلك الجيفه تفوح من فمها ويدها.

وقوله عليه السلام: «واصطلحوا على حبها» لا يعنى عدم وجود النزاع بين أهل الدنيا، بل هم دائماً كالحيوانات التى تجتمع حول جيفه نتنه وتهجم عليها ليتناول كل قطعه منها. والمراد أنّهم اتفقوا على حبها.

وتشبيه الدنيا بالجيفه، هو تشبيه ورد فى بعض الروايات، وذلك للتعفن الكامن فى باطن

ص: ٣٦٦

١ - ١) «المآديه» بضم الدال وفتحها ما يصنع من الطعام للمدعوين فى عرس ونحوه، والمراد هنا نعيم الجنّه، من ماده أدب التى تعنى فى الأصل الدعوه.

٢ - ٢) «جيفه» بمعنى الميتة، وأصلها من ماده «جَيْفَ» و «الأ-جيف» بمعنى الأنتن، ولذلك فإن كل شىء فاسد و نتن يُشَبَّه ب «الجيفه»، ومن هنا فقد شَبَّهت الخطبه أعلاه الدنيا الماديه بانها «جيفه» .

الدنيا التي تختزن أنواع الظلم والذنب، أو لأن أصحاب الدنيا يهبون للتنازع والافتتال بهدف سلبها من بعضهم البعض الآخر.

ثم بين الإمام عليه السلام نتيجة هذا الحب للدنيا بشكل قاعده كليه وعامه وهى: «ومن عشق (١) شيئاً أعشى (٢) بصره، وأمراض قلبه، فهو ينظر بعين غير صحيحه، ويسمع باذن غير سميعة».

فقد ركز الإمام عليه السلام على نقطه يكشف فيها عن حقيقه وهى أنّ حب الدنيا وعشق زخرفها وزبرجها وزينتها الماديه إنّما يسلب الإنسان اصدار الأحكام بصوره صحيحه، بحيث يحسب أنّ سعادته وموفقيته إنّما تتمثل بالوصول إلى هذه الدنيا الماديه، مهما كان وكيفما كان الطريق المؤدى إليها.

ومن الطبيعى أن يتعذر على مثل هذا الفرد تشخيص الحق من الباطل والمصالح من المفاسد. فهو ينطلق بشكل جنونى نحو لذات الدنيا، فاذا أفاق رأى نفسه وقد فقد كل شىء.

وستحدث فى البحث القادم ان شاء الله عن حقيقه العشق وآثاره.

وتختتم هذا البحث بالحديث النبوى الشريف: «من جعل الدنيا أكبر همه، فرق الله عليه همه، وجعل فقره بين عينيه» (٣).

ثم قال عليه السلام: «قد خرقت الشهوات عقله، وأماتت الدنيا قلبه، وولعت عليها نفسه».

فقد شبه الإمام عليه السلام العقل فى العبارة الاولى بالثوب، الذى يمكنه أن يحفظ الإنسان ويكون له زينه، أما الشهوه فهى تمزق ثوب العقل الجميل. وفى العبارة الثانيه وصف غلبه الشهوات على العقل بأنّه موت للعقل. كما أشار عليه السلام فى العبارة الثالثه إلى أنّ حب الدنيا والرغبه فيها قد أحاط بجميع كيان أهل الدنيا وطلابها.

وعليه فمثل هذا الإنسان عبد للدنيا، ولمن فى يده شىء من حطامها: «فهو عبد لها، ولمن يده شىء منها، حيثما زالت زال إليها، وحيثما أقبلت أقبلت عليها».

ص: ٣٦٧

١- ١) «عَشَقَ» من ماده «عشق» على وزن فكر بمعنى العلاقه الشديده بالشىء. و «عشقه» على وزن ثمره بمعنى الشجره الخضراء اليانعه، والتي لا يمر عليها الا وقت قصير فتصبح صفراء وذابله. وبعضهم قال: ان العشق أشق فى الأصل من هذه ماده، وذلك لان العاشق يصبح نحيفاً ذابلاً.

٢- ٢) «أعشى» من ماده «عشو» على وزن «خشم» بمعنى ضعف النظر و عدم قدره العين على الابصار بصوره جيده، و تأتى أحيانا بمعنى العمى الليلى أو العشو ليلاً.

٣- ٣) شرح نهج البلاغه لابن ميثم ٣/٦٣. [١]

فهو لا-ينزجر بأى زاجر ولا- يكثرث لأى ناهى، ولا يتعظ بموعظه واعظ ولا يصغى إلى نصيح ناصح، والحال يرى بأم عينيه من يؤخذ بغته لاصفح ولا-عقو ولا-رجعه «لا ينزجر من الله بزاجر، ولا يتعظ منه بواعظ، وهو يرى المأخوذين على العزه (1) حيث لا إقاله (2) ولا-رجعه، كيف نزل بهم ما كانوا يجهلون، وجاءهم من فراق الدنيا ما كانوا يأمنون، وقدموا من الآخرة على ما كانوا يوعدون، فغير موصوف ما نزل بهم» .

نعم فمن يرى بعينه كل يوم تقلب أحوال الدنيا وغدرها بأهلها لابد أن يكون يقظاً، يستمع إلى الوعظ والنصح وينتهي بنهى الآخرين، إلّا أن المؤسف له هو أن حب الدنيا والتكالب عليها والاعتزاز بزخارفها ليعمى عين الإنسان ويصم سمعه ويستحوذ على فكره بحيث لا يسمح له بأن يفيق إلى نفسه.

تأمل: العشق المقدس والهجين

لقد أشار الإمام عليه السلام بعباره قصيره بليغه إلى حقيقه مهمه، طالما استغرق فيها العلماء والعرفاء والشعراء والأدباء.

فقد قال عليه السلام: «من عشق شيئاً أعشى بصره، وأمراض قلبه، فهو ينظر بعين غير صحيحه، ويسمع باذن غير سميغه»، وقد دفعنا هذه العباره لأن نتحدث عن العشق، المقدس منه الايجابى، والمستهجن السلبي. فقد قيل الكثير فى العشق وعظمته وجنونه وأمراضه، ولعلها من الكلمات القل التي وردت بشأنها كل هذه التعبيرات والتعاريف المختلفه والمتناقضه. فقد سمي به بعض الكتاب إلى درجه جعلتهم يرونه بمثابة ضابط الحياه والسعاده الأبدية! أو أن العشق معمار عالم الوجود.

كما أن تحدثوا عن إعجازاته بالنسبه للإنسان حيث ينشط روح الإنسان ويملاً قلبه حيويه وحركه، بل قيل بانعدام طعم الحياه بدونه.

ص: ٣٤٨

١- ١) «غره» بمعنى الغفله من ماده «غرور» بمعنى الخداع، حيث يستغفل هذا الخداع الإنسان ويأخذه بغته.

٢- ٢) «إقاله» من ماده «قيل» على وزن سيل بمعنى فسخ المعامله، وقيل معناها الأصلي انقاذ الإنسان من السقوط، ووردت فى الخطبه بمعنى العفوع عن الذنوب.

وبالمقابل فهناك طائفه من الكتاب والفلاسفه الذين صعدوا من حملاتهم واتهاماتهم للعشق ليصوره كمرض مقيت يدعو إلى التفرز. فقد قال أحد الكتاب المعروفين: علينا أن نرى العشق عباره عن عصاره الأدمغه الخاويه إن لم نقل بأنه نوع من الجنون.

وقال كاتب آخر: أن العشق كمرض السرطان والنقرس الذى ينبغى أن يفر منه الإنسان العاقل.

فالتفسيرات المتناقضه للعشق تشير إلى أن العلماء والمفكرين لم يتحدثوا جميعاً عن شىء واحد. فهناك من تكلم عن العشق المقدس الذى يضىء القدسيه والطهاره على الإنسان، ويشده بقوته الفائقه نحو معشوقه الحقيقى خالق الوجود.

أمياً من ذمه منهم فانما قصد به ذلك العشق المادى والمفعم بالخطايا والرذائل والجنايات الذى يفضى غالباً إلى المرض والفضيحه والشقاء.

فالإنسان فى العشق المادى يقبل بجنون على الشىء الذى يتعلق به ويعشقه، ويضحى بكل ماله من أجله. فالمراد بهذا العشق هو تلك القوه السحريه التى تقود الإنسان إلى المعصيه والذنب والخطيئه، وكل ما قيل فى ذمه فهو قليل.

فهذه القوه الطاغيه تخرب العقل وتشل حركته وفاعليته بحيث يقدم الإنسان على الأعمال الجنونيه الطائشه.

وتتمثل اولى مخاطر ذلك بتعظيمه العيوب والقبايح. فمثل هؤلاء العشاق يبتكرون أنواع التفاسير المذهله لأقبح العيوب.

فهم لا يقبلون النصيح ولا يصغون إلى الوعظ، بل يهبون أحياناً للوقوف بشده بوجه الناصحين والوعاظ.

والغريب فى الأمر أن الأشخاص الذين يعيشون مثل هذا العشق المادى الجنونى يشعرون أنهم بلغوا إدراكاً حرم منه معظم الآخرين.

فهم يعيشون فى هاله من الأوهام والخيالات ولا يفهمون سوى لغه العشق الطائش، فلا يفهمون لسان العلم والمنطق الذى يحدثهم به الآخرون.

وبالطبع فان جذبه هذا العشق غالباً ما تطفىء بالمجامعه!

آنذاك تطرح الحجب فيلتفت إلى الواقع. وكان هذا العاشق قد نهض من سبات عميق ليتبدل لديه ذلك العشق إلى نوره ومقت، وذلك لأنه يرى نفسه قد فقد كل شيء مقابل ذلك المعشوق؛ الأمر الذي يقود بالتالي إلى الفضيحة والخزى.

الفضيحة التي لا يمكن تلافيها بعد يقظته.

وبالطبع فإن أغلب حالات الانفصال والانتحار إنما تفرزه هذه الحالة من العشق لعمق الهوه بين الخيال والواقع.

ولا تقتصر هذه النتائج المريره على العشق الجنسي، بل تترتب نفسها على عشق المال والمقام والجاه والجلال المادى.

ولعل هذا هو المعنى الذى أشار إليه الإمام الصادق عليه السلام حين سأله أحد أصحابه فقال عليه السلام: «قلوب خلت عن ذكر الله، فأذاقها الله حب غيره» (١).

وورد فى حديث عن على عليه السلام فى عجز العاشق عن رؤيه الحقائق إذ قال: «عين المحب عميه عن معايب المحبوب، وأذنه صماء عن قبح مساويه» (٢).

وإلى هذا العشق المجازى أشار الحديث النبوى الشريف: «من عشق فعف ثم مات، مات شهيداً» (٣).

كما قال صلى الله عليه وآله: «من عشق وكرم وعف وصبر، غفر الله له، وأدخله الجنة» (٤).

وعلى العكس من ذلك فى العشق الحقيقى والمقدس فإن روح الإنسان تعيش حاله من الصفاء والنور، فلا يرى سوى معشوقه الحقيقى مظهر الكمال المطلق، فيتحمل فى سبيله كافة الشدائد. فقد ورد فى الحديث القدسى: «إذا كان الغالب على العبد الاشتغال بى جعلت بغيته ولذته فى ذكرى، فإذا جعلت بغيته ولذته فى ذكرى، عشقنى وعشقتة، فإذا عشقنى رفعت الحجاب فيما بينى وبينه» (٥).

ص: ٣٧٠

١-١ (١) بحار الانوار ٧٠/١٥٨. [١]

٢-٢ (٢) غرر الحكم، ٦٣١٤. [٢]

٣-٣ (٣) كنز العمال، ٦٩٩٩.

٤-٤ (٤) كنز العمال، ٧٠٠٢.

٥-٥ (٥) كنز العمال ١/٤٣٣، ح ١٧٧٢.

وما مناجاه أمير المؤمنين عليه السلام بالاسحار ودعاء الصباح ودعاء كميل وتضرع الإمام الحسين عليه السلام في يوم عرفه في تلك الصحراء والمناجاة الخمس عشره للإمام السجاد عليه السلام التي وردت في الصحيفة السجادية ودعاء الندبه الذي يلهج به لسان المنتظر لظهور إمام العصر والزمان عليه السلام الامعطيّات وآثار هذا العشق الطاهر. وعليه يتضح ممّا مر معنا أنّ الذم الذي أوردته بعض العلماء لمفرده العشق وتلك الحساسيه التي ابدوها تجاهه إنّما مرادهم العشق الملوّث المشوب بالخطيئه، وإلّا فالعشق المقدس من أعظم القوى المحركه للإنسان والتي تدفع به نحو الله سبحانه والقيم والمثل الإنسانيه النبيله، ويخطيء كل من يتصور خلو كلمات المعصومين عليهم السلام من هذه المفردة التي كثرت في روايات النبي صلى الله عليه وآله وأئمه العصمه عليهم السلام.

ومن ذلك ما رواه المرحوم الكليني عن النبي صلى الله عليه وآله أنّه قال: «أفضل الناس من عشق العباده فعانقها، وأحبها بقلبه، وباشرها بجسده، وتفرغ لها» (١).

وورد في حديث آخر بشأن الصحابي الجليل سلمان: «إن الجنّه لأعشق لسلمان من سلمان للجنّه» (٢).

قال العلامة المجلسي في ذيل الحديث الأول العشق يعني الإفراط في الحب وقد تصوره يختص بالأمر الباطله دون حب الله، بينما تفيد هذه الروايه ليس الأمر كذلك، وإن إقتضى الإحتياط أن لانستعمل مفرده العاشق والمعشوق على الله.

عالم الآخره

ص: ٣٧١

١-١) الكافي ٢/٨٣، ح ٣، باب العباده. [١]

٢-٢) بحار الانوار ٢٢/٣٤١. [٢]

«اجْتَمَعَتْ عَلَيْهِمْ سَيِّئَةُ الْمَوْتِ وَحَسِيرَةُ الْفُوتِ، فَفَتَّرَتْ لَهَا أَطْرَافُهُمْ، وَتَغَيَّرَتْ لَهَا أَلْوَانُهُمْ، ثُمَّ ازْدَادَ الْمَوْتُ فِيهِمْ وُلُوجًا، فَحِيلَ بَيْنَ أَحَدِهِمْ وَبَيْنَ مَنْطِقِهِ، وَإِنَّهُ لَسَيِّئٌ أَهْلُهُ يَنْظُرُ بِبَصِيرَةٍ، وَيَسْمَعُ بِأُذُنِهِ، عَلَى صِدْحِهِ مِنْ عَقْلِهِ، وَبَقَاءٍ مِنْ لُبِّهِ، يُفَكِّرُ فِيهِمْ أَفْنَى عُمْرِهِ، وَفِيهِمْ أَذْهَبَ دَهْرُهُ! وَيَتَذَكَّرُ أَمْوَالًا جَمَعَهَا، أَغْمَضَ فِي مَطَالِبِهَا، وَأَخَذَهَا مِنْ مُصَيَّرٍ حَاتِيهَا وَمُسْتَبْهَاتِيهَا، فَذَلِمَتْهُ تَبِعَاتُ جَمْعِهَا، وَأَشْرَفَ عَلَى فِرَاقِهَا، تَبَقَّى لِمَنْ وَرَاءَهُ يَنْعَمُونَ فِيهَا، وَيَتَمَتَّعُونَ بِهَا، فَيَكُونُ الْمَهْنَأُ لِعَيْبِهِ، وَالْعَبَاءُ عَلَى ظَهْرِهِ. وَالْمَرْءُ قَدْ غَلَقَتْ رُهُونُهُ بِهَا، فَهُوَ يَعْصُ يَدَهُ نَدَامَةً عَلَى مَا أَضْحَرَ لَهُ عِنْدَ الْمَوْتِ مِنْ أَمْرِهِ، وَيَزْهِيْدُ فِيمَا كَانَ يَزْعَبُ فِيهِ أَيَّامَ عُمْرِهِ، وَيَتَمَنَّى أَنَّ الَّذِي كَانَ يَغْبِطُهُ بِهَا وَيَحْسُدُهُ عَلَيْهَا قَدْ حَازَهَا دُونَهُ! فَلَمْ يَزَلِ الْمَوْتُ يُبَالِغُ فِي جَسَدِهِ حَتَّى خَالَطَ لِسَانَهُ سَمْعُهُ، فَصَارَ بَيْنَ أَهْلِهِ لَا يُنْطِقُ بِلِسَانِهِ، وَلَا يَسْمَعُ بِسَمْعِهِ: يُرَدِّدُ طَرْفَهُ بِالنَّظَرِ فِي وَجْهِهِمْ، يَرَى حَرَكَاتِ أَلْسِنَتِهِمْ، وَلَا يَسْمَعُ رَجْعَ كَلَامِهِمْ. ثُمَّ ازْدَادَ زَادَ الْمَوْتُ التِّيَاطُ بِه، فَقُبِضَ بِبَصَرِهِ كَمَا قُبِضَ سَمْعُهُ، وَخَرَجَتِ الرُّوحُ مِنْ جَسَدِهِ، فَصَارَ جِيفَةً بَيْنَ أَهْلِهِ، قَدْ أَوْحَشُوا مِنْ جَانِبِهِ، وَتَبَاعَدُوا مِنْ قُرْبِهِ. لَا يُسْعِدُ بَأَكْيَا، وَلَا يُجِيبُ دَاعِيًا. ثُمَّ حَمَلُوهُ إِلَى مَحَطٍّ فِي الْأَرْضِ، فَأَسْلَمُوهُ فِيهِ إِلَى عَمَلِهِ، وَأَنْقَطَعُوا عَنْ زُورَتِهِ».

الشرح والتفسير

تطرق الإمام عليه السلام هنا إلى سكرات الموت بعبارات تهز أعماق الإنسان وتلفت انتباهه إلى

تلك الحقيقه: «اجتمعت عليهم سكره الموت وحسره الفوت» .

فالواقع هناك هجوم ثقيل على الإنسان وهو على أعتاب الموت: الأول هجوم سكرات الموت، وهو حاله تشبه السكر تحدث للإنسان حين يحل أجله، وقد تستولى أحياناً على عقله فتجعله يعيش حاله من الاضطراب والقلق العظيم.

والآخر حسره فقد ان كل شيء كان قد أجهد نفسه عمراً طويلاً من أجل الحصول عليه وعانى في سبيله الأمرين.

وهي أمور تعلق وشغف بها وكأنها أصبحت جزءاً من وجوده وكيانه، وإذا به يرى الآن أنه يودعها إلى غير رجعه، وهذا ما يضاعف من قلقه واضطرابه ثم خاض عليه السلام في شرح تفاصيل تلك السكرات، حيث تضعف حينها الأعضاء والجسد بعد أن يتغير لونها، ثم يدب فيها الموت بالتدريج، فيفصلها عن اللسان، والحال هو جالس بين أهله يراهم بعينه ويسمع كلامهم باذنه، وهو على سلامه من عقله: «ففترت لها أطرافهم، وتغيرت لها أطرافهم، ثم ازداد الموت فيهم ولوجاً، فحيل بين أحدهم وبين منطقته، وإنه ليين أهله ينظر ببصره، ويسمع باذنه، على صحه من عقله، وبقاء من لبه» .

فالذى يستفاد من هذه العبارات أنّ أول ما يتوقف عن العمل هو لسان الإنسان. اللسان الذى يعدّ أكبر سند للإنسان من أجل حل مشاكله، ويالها من حسره وفاجعه أن يرى الإنسان بعينه ويسمع باذنه وهو على سلامه من عقله ولبه، لكنه لا يستطيع أن ينبس ببنت شفه فيلهج بما يريد. ذكر أحد شراح نهج البلاغه هنا مثالا من التوراه عن الموت حيث شبهته بالشجره ذات الأشواك التى تغوص فى جميع البدن، و يغرس كل شوكة فى عصب من عصبه فتمزقها جميعاً و تقضى عليه.

ثم واصل عليه السلام كلامه بشأن من هجم عليه سكره الموت فى أنه فاق من غفلته واستغرق فى التفكير فهو يفكر فيم أقضى عمره وذهب به أدراج الرياح وكيف أفنى دهره: «يفكر فيم أفنى عمره، وفيم أذهب دهره» .

يتذكر هنا الأموال والثروات التى جمعها وقد أغمض عينيه عن الكيفيه التى جمعت بها

دون الاكتراث إلى الحلال والحرام والمحظور والممنوع: «ويتذكر أموالاً جمعها، أغمض (١) في مطالبها، وأخذها من مصرحاتها ومشتبتها، قد لزمته تبعات جمعها، وأشرف على فراقها» .

نعم فهو يفوق إلى نفسه وأول كابوس يقض مضجعه ويهيمن على كيانه هو كابوس أمواله؛ الأموال التي لم يفكر بالحلال والحرام في جمعها بعد أن أعماه حبّ الدنيا، أو أنه اعتمد بعض التوجيهات المشبوهة ليستحوذ على بعض الأشياء، والآن بعد أن رفع عنه الحجاب فهو يرى العبيء الثقيل الذي طال عاتقه متمثلاً بحق الله وحق الناس، والأنكى من ذلك عدم وجود سبيل إلى الفرار. ليس له من لسان لبيان هذه المشكله، وإن كان له من بيان، فليس هنالك من يسمع! ولو سمعه من حوله من قرابته ووارثيه اکتفوا بالقول (أنه ليهجر حيث فقد عقله وفكره) ليتمكنوا من مصادرته أمواله بسهولة.

وهذا هو البؤس الحقيقي في أن يشقى الإنسان بجمع هذه الأموال وتبقى عليه تبعاتها ومسؤوليتها، بينما يخلفها الآن إلى غيره ويفارقها إلى غير رجعه.

ومن هنا قال عليه السلام: «تبقى لمن وراءه ينعمون فيها، ويتمتعون بها، فيكون المهنأ لغيره، والعب (٢) على ظهره، والمرء قد غلقت رهونه (٣) بها» .

يالها من مصيبه! أن يرى الإنسان كل هذه القصور الفخمه والأجهزه المتطوره والثياب الفاخره ووسائل الراحة الراقية والأموال الوفيره التي عانى ما عانى في الدنيا من أجل الحصول عليها وهو يهبها الان لقمه سائعه لمن وراءه! والأدهى من ذلك ذهب لذتها لغيره وبقيت تبعتها عليه.

وليت شعري ليس له الآن سوى الحسره والندم فلم تعد هناك من فرصه لتلافى ما فرط

ص: ٣٧٥

١- ١) «أغمض» من ماده «غمض» على وزن نبض اطباق الجفن على العين، ثم اطلق على كل تساهل وغفله.

٢- ٢) «العب» بمعنى الحمل والثقل.

٣- ٣) «رهون» جمع «رهن» حبس الشىء وهو عاده سند يسلم مقابل قرض لا يعاد مالم يسدد «والمرء قد غلقت رهونه بها» استحقتها مرتبتها وأعوزته القدره على تخليصها، كناية عن تعذر الخلاص.

منه وتدارك ما قصر فيه ولذلك قال عليه السلام: «فهو يعرض يده ندامه على ما أصحر له (١) عند الموت من أمره، ويزهد فيما كان يرغب فيه أيام عمره» .

وهنا يتذكر الحساد الذين واجهوه في حياته وحاولوا الاستيلاء على أمواله وثوراته ويسلبوه ملكيتها، إلا أنه حال دونهم بفكره وشطارته ولم يدعهم ينيلون منها، إذ ذاك تمنى حين هجم عليه الموت ألا يكون قد أخذها، وليتها صارت من نصيب من حسده وغبطه عليها: «ويتمنى أن الذي كان يغبطه بها ويحسده عليها قد حازها دونه» .

ثم خاض عليه السلام في تفاصيل الموت بعبارات تهز النفس وتوقظ الضمير، وكأنه يعيش تلك الحالة ويوشك أن يودع الدنيا الفانية: «فلم يزل الموت يبالغ في جسده حتى خالط لسانه سمعه، فصار بين أهله لا ينطق بلسانه، ولا يسمع بسمعه» .

فأخذت الأعضاء تموت الواحد بعد الآخر ولم يبق له من لسان ناطق أو أذن سامعه: «يردد طرفه بالنظر في وجوههم، يرى حركات ألسنتهم، ولا يسمع رجوع كلامهم» أنهم يسعون لأن يرتبطوا به ولكن لم يعد هنالك من سبيل.

ثم قال عليه السلام: «ثم ازداد الموت التياطاً (٢) به، فقبض بصره كما قبض سمعه، وخرجت الروح من جسده، فصار جيفه بين أهله، قد أو حشوا من جانبه، وتباعدوا من قربه، لا يسعد باكياً، ولا يجيب داعياً» .

ثم بلغ مرحلته الأخيرة: «ثم حملوه إلى مخط (٣) في الأرض، فأسلموه إلى عمله، وانقطعوا عن زورته (٤)» .

لقد ألفوه سنوات، كان يضحكون معه وربما لم يطيقوا بعده، أمّا الآن بعد أن حل الموت بساحته، فهم لم يعودوا يتحملوا الجلوس بقربه ولو لساعه، وكأنهم لم يألفوه وكانوا غرباء عنه.

تأمل: سكره الموت والاحتضار

ليست هناك من لحظة يتعرض فيها الإنسان لأعظم خطر طيله حياته وأبلغ وأوجع من لحظة الاحتضار فهى.

ص: ٣٧٦

١-١) «أصحر» برز في الصحراء، أى على ما ظهر له وانكشف من أمره.

٢-٢) «التياط» من ماده «ليط» على وزن ليل الالتصاق.

٣-٣) «مخط» الحفرة وتطلق على القبر، لأنهم يحظون ثم يحفرون.

٤-٤) «زوره» من ماده «الزياره» وجاءت بهذا المعنى.

لحظه انتهاء الامال والأمانى.

لحظه الاغماض عن كافه وسائل الحياه.

لحظه مفارقه الأهل والأقرباء والأصدقاء.

لحظه وداع الدنيا وما فيها.

وبالتالى لحظه الانتقال إلى عالم جديد ربما انطوى على كثير من المشاكل والمعضلات الخطيره.

وقد صور الإمام عليه السلام هذه اللحظات بصورة دقيقه متابعا الموت مرحله مرحله تملأ القلب رعبا وخشيه إذا ما تمثلها على حقيقتها.

فقد هدف الإمام عليه السلام إلى ايقاظ الإنسان من غفلته قبل أن يفيق فى اللحظه حين لا يجديه نفعاً، فيستعد لها ويهيى الزاد اللازم لها.

وهنا لا ينبغي أن ننسى بأن أولياء الله والصالحين من العباد إنما يستقبلون الموت برحابه صدر وطلاقه وجه؛ وذلك لأنهم يرون الموت طفره نحو السعاده والخلود والحياه الابديه، وبعباره أخرى فإنّ سكرات الموت إنما تتوقف على أعمال الإنسان، وعليه فيمكن أن تكون من أخطر اللحظات وأصعبها، كما يمكن أن تكون من أجملها وأروعها.

ص: ٣٧٧

«حَتَّى إِذَا بَلَغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ، وَالْأَمْرُ مَقَادِيرَهُ، وَالْحَقُّ آخِرُ الْخَلْقِ بِأَوَّلِهِ، وَجَاءَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ مَا يُرِيدُهُ مِنْ تَجْدِيدِ خَلْقِهِ، أَمَادَ السَّمَاءِ وَفَطْرَهَا، وَأَرْجَ الْأَرْضِ وَأَرْجَفَهَا، وَقَلَعَ جِبَالَهَا وَنَسَفَهَا، وَذَكَ بَعْضُهَا بَعْضًا مِنْ هَيْبَةِ جَلَالَتِهِ وَمَخُوفِ سَيْطَوْتِهِ، وَأَخْرَجَ مِنْ فِيهَا، فَجَدَّدَهُمْ بَعِيدَ إِخْلَاقِهِمْ، وَجَمَعَهُمْ بَعِيدَ تَفَرُّقِهِمْ، ثُمَّ مَيَّزَهُمْ لِمَا يُرِيدُهُ مِنْ مَسَائِلَتِهِمْ عَنِ خَفَايَا الْأَعْمَالِ وَخَبَايَا الْأَفْعَالِ، وَجَعَلَهُمْ فَرِيقَيْنِ: أُنْعَمَ عَلَى هَؤُلَاءِ وَاتَّقَمَ مِنْ هَؤُلَاءِ» .

الشرح والتفسير

خاض الإمام عليه السلام في مرحله أخرى تواجه الإنسان، بعد أن أشار إلى دنيا الطالحين واللحظات المريرة التي يعيشونها آخر حياتهم حين الاحتضار. فقد تطرق عليه السلام هنا إلى القيامة والحساب ليكمل بحث مصير الإنسان ويكون عبره للاخرين، بهدف اليقظة والابتعاد عن الانحراف وسلوك الصراط المستقيم.

فقال عليه السلام: «حتى إذا بلغ الكتاب أجله، والأمر مقاديره، وألحق آخر الخلق بأوله، وجاء من أمر الله ما يريد من تجديده خلقه»، نعم فحياء الإنسان في هذه الدنيا ليست هدفاً غائياً، بل هي مقدمه لتلك الحياه الخالده في ذلك العالم الخالد.

«أَمَادَ (١) السَّمَاءِ وَفَطْرَهَا، وَ أَرْجَ (٢) الْأَرْضِ وَ أَرْجَفَهَا، (٣) وَقَلَعَ جِبَالَهَا وَ نَسَفَهَا، (٤)»

ص: ٣٧٩

١- (١) «أَمَاد» من ماده «ميد» الحركه والاضطراب.

٢- (٢) «أَرْج» من ماده «رَجَّ» على وزن «حَجَّ» ومعناها التحريك الشديد.

٣- (٣) «أَرْجَف» من ماده «رَجَف» على وزن «كشَف» بمعنى الاضطراب والاهتزاز الشديد، ومن هنا يطلق على الأخبار التي تثير الفتنة ب «الأراجيف» والتي تسبب الاضطرابات فى المجتمع.

٤- (٤) «نَسَف» من ماده «نَسَف» على وزن «حذَف» بمعنى وضع الحبوب التي يستفاد منها كماده غذائيه فى الغراب، وتحريكه أو يُذرى فى الهواء من أجل فصل الحبوب عن القشور. وهنا تأتى بمعنى تحطيم وتلاشى الجبال و بشكل شديد.

ودك (١) بعضها بعضا من هيبة جلالته ومخوف سطوته» .

حيث يقع انفجار عظيم فى السموات والأرض فيضنى عالم المادة تماماً فيظهر عليه عالم جديد، كما أشار القرآن الكريم إلى ذلك العالم كونه العالم الذى تقام عليه القيامة والحساب: «يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ» .

(٢)

والواقع هو أن الإمام عليه السلام قد اقتبس هذه العبارة من الآية الشريفة: «إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ * وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ» (٣).

كما قال بشأن الأرض: «إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا * وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًا * فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًا» (٤).

وقال: «يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ * تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ» (٥)

ثم قال عليه السلام: «وأخرج من فيها، فجددهم بعد إخلاقهم جمعهم بعد تفرقهم» . (٦)

وهذه بدايه قيامه الإنسان، حيث يعود إلى حياه جديده يرد بها المحشر.

والعبارة «جددهم» إشاره واضحه إلى المعاد الجسماني واعاده بناء الإنسان وتكامله الجسمى فى المحشر.

والعبارة «وجمعهم بعد تفرقهم» ممكن أن تكون إشاره إلى تجمع الناس فى المحشر، أو جمع الذرات المتفرقه لكل إنسان من أجل تجديد حياته، ولا مانع أن تكون العبارة إشاره إلى كلا المعنيين.

ثم قال عليه السلام: «ثم مميزهم لما يريد من مسألتهم عن خفايا الأعمال، وخبايا الأفعال،

ص: ٣٨٠

١- ١) «دك» فى الاصل بمعنى تسويه الأرض، ومن هنا فان عمليه تسويه وتعديل الارض الغير المستويه يحتاج الى ان ندكها، ويستعمل هذا الاصطلاح فى موارد عديده بمعنى التحطيم الشديد.

٢- ٢) سورة ابراهيم/٤٨. [١]

٣- ٣) سورة الانفطار/١-٢. [٢]

٤- ٤) سورة الواقعة/٤-٦. [٣]

٥- ٥) سورة النازعات/٦-٧. [٤]

٦- ٦) «إخلاق» من ماده «خلق» على وزن شقق البلى.

وجعلهم فريقين: أنعم على هؤلاء وانتقم (١) من هؤلاء» .

والعبارة: «خبايا الأفعال، وخفايا الأعمال» يمكن أن يراد بها مطلب واحد، يعنى الأعمال الخفيه: كما يحتمل أن تكون «خفايا الاعمال» إشاره إلى الأعمال التى تتم فى الخفاء وان أتى بها وسط الناس، و «خبايا الأفعال» إشاره إلى الأعمال التى تتم فى الخلوات، لأنَّ خبايا جمع خبيئه الشيء المخبوء.

على كل حال ليس هنالك من عمل من أعمالنا بخفى على الله، لأنَّه حاضر فى كل مكان و العالم حاضر لديه.

ص: ٣٨١

١ - ١) «انتقم» من ماده «نقمه» على وزن نعمه تعنى فى الأصل الجزاء والعقاب، كما تأتي بمعنى الثأر المقرون بالعداء، الا انها وردت بالمعنى الأول فى الخطبه والاستعمالات القرآنيه.

«فَأَمَّا أَهْلَ الطَّاعَةِ فَأَثَابَهُمْ بِجَوَارِهِ، وَخَلَدَهُمْ فِي دَارِهِ، حَيْثُ لَا يَظْعَنُ النَّزَالَ، وَلَا تَتَغَيَّرُ بِهِمُ الْحِيَالُ، وَلَا تُنَوِّبُهُمُ الْأَفْرَاعُ، وَلَا تَنَالُهُمُ الْأَسْقَامُ، وَلَا تَعْرِضُ لَهُمُ الْأَخْطَارُ، وَلَا تُشَخِّصُهُمُ الْأَسْفَارُ. وَأَمَّا أَهْلَ الْمَعْصِيَةِ يَهْ فَأَنْزَلَهُمْ شَرَّ دَارٍ، وَغَلَّ الْأَيْدِيَ إِلَى الْأَعْنَاقِ، وَفَرَنَ النَّوَاصِيَ بِالْأَقْدَامِ، وَأَلْبَسَهُمْ سَيْرَ رَائِبِ الْقَطْرَانِ، وَمَقَطَّعَاتِ النَّيْرَانِ، فِي عَذَابٍ قَدِ اشْتَدَّ حَرُّهُ، وَبَابٍ قَدْ أُطْبِقَ عَلَى أَهْلِهِ، فِي نَارٍ لَهَا كَلْبٌ وَلَجْبٌ، وَلَهَبٌ سَاطِعٌ، وَقَصِيفٌ هَائِلٌ، لَا يَظْعَنُ مُقِيمُهَا، وَلَا يُفَادَى أَسِيرُهَا، وَلَا تُفْصَمُ كُبُولُهَا. لَا مِيْدَةَ لِلدَّارِ فَتَفْنَى، وَلَا أَجَلَ لِلْقَوْمِ فَيَقْضَى» .

الشرح والتفسير

أشار الإمام عليه السلام في هذا الموضوع من الخطبه - الذى يمثل فى الواقع آخر مرحله سير الإنسان - إلى جانب من ثواب المحسنين وعقاب المسيئين فقال: «فأما أهل الطاعة فأثابهم بجواره، وخلدهم فى داره» .

ثم تحدث عليه السلام عن خصائص تلك الدار بعبارات قصار بعيده المعنى «حيث لا يظعن (١) النزال، ولا- تتغير بهم الحال» . وإلى جانب ذلك فلا- من خوف ولا مرض ولاخطر ولاسفر يخرج من الديار «ولا تنوبهم الأفراع (٢)، ولا تنالهم الأسقام، ولا تعرض لهم الأخطار ولا تشخصهم (٣) الأسفار» .

ص: ٣٨٣

١- ١) «يظعن» من ماده «ظعن» السفر.

٢- ٢) «أفراع» جمع «فراع» الخوف.

٣- ٣) «تشخص» من ماده «إشخاص» الاخراج من منزل إلى آخر.

وعليه فالحوادث المزعجه والعوارض المقلقه التى تصدع باستمرار هدوء الإنسان فى الحياه الدنيا، لا- وجود لها فى الآخره، والإنسان فى راحه تامه هناك نعم بالسكينه والاستقرار والحياه المملوءه بالفرح والسرور، فليس هنالك من خطر يهدده، ولامرض ولا عوامل طبيعیه مرعبه من قبيل السيول والزلازل والقحط وسائر الحوادث الاجتماعيه التى تدعوا إلى النزاع والحرب فتهدد أمنه.

والفارق بين العبارة «لا يظعن النزال» والعبارة «ولا تشخصهم الأسفار» فى أنّ الاولى إشاره إلى السفر الاضطرارى الذى قد يجبر عليه الإنسان فى الدنيا أحياناً فيترك وطنه بالمره، والثانيه إشاره إلى الأسفار التى يضطر لها الإنسان فى الدنيا بهدف تلبية حاجاته ومتطلباته فيتحمل المشاق والمصاعب، وليس هنالك أى من هذين السفرين فى الدار الآخره.

نعم فالحياه الدنيا مهما كانت مريحه مفعمه بالنعم إلا أنّها ليست حلوه مرجوه بسبب تلك الآفات والعوارض؛ بينما حلوه هى الدار الآخره لخلوها من هذه الآفات والعوارض.

وهنا قد يقتدح إلى الأذهان هذا السؤال اننا لندرك قيمه النعمه حين نفقدها والصحه والعافيه والسلامه حين السقم والمرض، وما لم نر ظلمه الليل فلا نقف على أهميه شعاع الشمس فى النهار، أفلا يغيب عن الإنسان إدراك لذه تلك النعم إذا لم تطرأ عليها الحوادث المذكوره؟

وللإجاباه على هذا السؤال لابدّ من الالتفات إلى نقطتين: الاولى أنّ نعم الآخره فى حاله تغيير، أى هناك نعمه تستبدل بأخرى على الدوام، وكل يوم يفاض عليهم نعم جديده، ومن شأن هذا التغيير أن يقضى على حاله الرتابه. والثانيه ما يجعل نعم الدنيا مريره هو أنّها محفوفه بالاطار، والذى يورق الإنسان هو عدم انفكاكه عن التفكير فى سلبها وزوالها، وقد أشار الإمام عليه السلام إلى عدم وجود هذه الأمور فى نعم الآخره.

فقد ورد على لسان أهل الجنه حين حمدهم لله وثنائهم عليه: «وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ * الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا

فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ» (١).

ثم خاض عليه السلام في تفاصيل أهل المعصية وما يتعرضون له من مشقه «وأما أهل المعصية فأنزلهم شر دار، وغل الأيدي إلى الاعناق، وقرن النواصي بالأقدام» .

والعبارات إشاره إلى ما صرح به القرآن الكريم: «إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ * فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ» (٢).

ثم واصل عليه السلام كلامه قائلاً: «وألبسهم سراويل القطران، ومقطعات النيران، في عذاب قد اشتد حره، وباب قد أطبق على أهله، في نار لها كلب (٣) ولجب (٤)، ولهب ساطع، وقصيف (٥) هائل» .

فالعبارات تفيد شده حراره نار جهنم المحرقه، حيث تتصاعد السنتها إلى عنان السماء مصحوبه بالأصوات المرعبه.

ثم قال عليه السلام: «لا يظعن مقيمها، ولا يفادي أسيرها، ولا تفصم (٦) كبولها (٧) لا مده للدار فتفتنى، ولا أجل للقوم فيقضى» .

ولو تصور الإنسان في ذهنه لحظه هذا العذاب الشديد والمرعب، لما قارف الذنب، وهذا هو هدف الإمام عليه السلام من شرح هذا العذاب!

وقد أكدت الروايات الإسلاميه التمعن في الآيات القرآنيه التي تتحدث عن الثواب، والتوقف عند تلك التي تتحدث عن العذاب.

ص: ٣٨٥

١-١ (١) سورة فاطر/٣٤ - ٣٥. [١]

٢-٢ (٢) سورة غافر/٧١ - ٧٢. [٢]

٣-٣ (٣) «كلب» من ماده «كَلَب» على وزن «جلب» وفي الاصل بمعنى الضغظ على الحصان بواسطه المهماز و ذلك لكى يُسرع فى عدوه، وهذا الاصطلاح يستعمل لأى نوع من أنواع الشده.

٤-٤ (٤) «لجب» له معنى المصدر واسم المصدر الصوت المرتفع.

٥-٥ (٥) «قصيف» أشد الصوت.

٦-٦ (٦) «تفصم» من ماده «فصم» على وزن نظم كسر الشىء دون فصله، وتعنى القطع.

٧-٧ (٧) «كبول» جمع «كبل» القيد.

وهو ذات الأمر الذى أكده الإمام عليه السلام فى الخطبه ٩٣ وهو يصف المتقين: «فاذا مروا بآيه فيها تشويق ركنوا إليها طمعاً، وتطلعت نفوسهم إليها شوقاً، وظنوا أنّها نصب أعينهم، وإذا مروا بآيه فيها تخويف أصغوا إليها مسامع قلوبهم، وظنوا أن زفير جهنم وشهيقها فى أصول آذانهم» .

تأمل: أسلوب الهدايه

حقاً أنه لاسلوب عظيم فى هدايه الإنسان ونجاته هذا الذى اعتمده الإمام عليه السلام بهذه العبارات التى تختزن الآثار والتحذير. فقد السهل الخطبه بالإشاره إلى صفات الجمال والجلال وقدرته العظيمه سبحانه وعلمه المطلق بكل شيء ممّا يصدر من العباد إلى جانب عظمه عالم الوجود.

ثم تحدث عليه السلام عن خلق أصناف الملائكه وعبادتها وطاعتها، ليبين زهاده عباده الإنسان بالنسبه لتلك العباده.

آنذاك تطرق عليه السلام إلى خلق الإنسان ونعمه الجمه سبحانه، ثم ذم بشده طلاب الدنيا، محذراً إيّاهم من التعلق بهذه النعم الزائله.

كما تحدث عليه السلام عن الموت وانتهاء الحياه وسكرات الموت ومدعى الحسره والندم التى يشعر بها الاثم على أعتاب الموت، حتى رسم صورته يهتز لها القلب ويتيقظ لها الوجدان، وتفيق لها الأرواح الميته.

وأخيراً إختتم عليه السلام الخطبه بالإشاره إلى الثواب الذى ينتظر الصالحين والعقاب الذى ينتظر المسيئين، ليلتفت كل إنسان إلى نفسه ويراقب عمله.

نعم فقد خط هذا الطيب الروحى العظيم وصفه لمرضى القلوب لاتحمل لهم سوى العلاج إن إلتزموا بالعمل بها.

ومنها فى ذكر النبى صلى الله عليه وآله

«قَدْ حَقَّرَ الدُّنْيَا وَصَغَّرَهَا وَأَهْوَنَ بِهَا وَهَوَّنَهَا، وَعَلِمَ أَنَّ اللَّهَ زَوَاهِيَا، عَنْهُ اخْتِيَارًا، وَبَسَّطَهَا لِغَيْرِهِ احْتِقَارًا، فَأَعْرَضَ عَنِ الدُّنْيَا بِقَلْبِهِ، وَأَمَاتَ ذِكْرَهَا عَنْ نَفْسِهِ، وَأَحَبَّ أَنْ تَغِيبَ زِينَتُهَا عَنْ عَيْنِهِ، لِكَيْلَا يَتَّخِذَ مِنْهَا رِيَاشًا، أَوْ يَرْجُوَ فِيهَا مَقَامًا. بَلَغَ عَنِ رَبِّهِ مُعْذِرًا، وَنَصَّحَ لِأُمَّتِهِ مُنْذِرًا، وَدَعَا إِلَى الْجَنَّةِ مُبَشِّرًا، وَخَوَّفَ مِنَ النَّارِ مُحَذِّرًا» .

الشرح والتفسير

خاض الإمام عليه السلام هنا فى صفات النبى صلى الله عليه وآله ورغبته عن هذه الدنيا لتكون سيرته قدوة تامه للأمة، و لبيّن كيف يستطيع الإنسان أن يعيش الأمان من أخطار الدنيا فى ظل الإيمان والعمل الصالح فقال عليه السلام: «قد حقر الدنيا وصغرها، وأهون بها وهونها» .

فالعباره إشاره واضحه إلى زهده صلى الله عليه وآله: لأن من يحقر الدنيا ويوصى الآخرين باحتقارها، قطعاً ليس له أدنى تعلق بها، وذلك لأنّ الشئ الحقيق والتافه ليس له قيمه فى استقطاب القلب والسيطره على العقل.

ثم أكد عليه السلام هذا المعنى بالقول: «وعلم أنّ الله زواها (١) عنه اختياراً (٢)، وبسطها لغيره احتقاراً» . والعباره شبيهه ماورد فى الآيه الشريفه من سوره الزخرف: «وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ

ص: ٣٨٧

١- ١) «زوى» من ماده «زى» على وزن طى الجمع والفيض والابعاد.

٢- ٢) «اختيار» بمعنى الانتخاب والاصطفاء والاعتزاز ضد «الاحتقار» .

أُمَّهُ وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِيُوتِيَهُمْ سُقْفًا مِنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ* وَلِيُوتِيَهُمْ أَبْوَابًا وَسُرُورًا عَلَيْهَا يُتَكَبَّرُونَ*
وَزُخْرَفًا وَإِنْ كُلُّ ذِي لِكْلِ لَمَّا مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ». (١)

ثم واصل عليه السلام كلامه عن النبي صلى الله عليه وآله: «فأعرض عن الدنيا بقلبه، وأمات ذكرها عن نفسه، وأحب أن تغيب زينتها عن عينه، لكيلا يتخذ منها ريشاً، أو يرجو فيها مقاماً» .

ورد الرياش بمعنى المفرد والجمع وهو اللباس الفاخر، وأصلها الريش، ويمكن أن يراد به جميع زينه الدنيا ومنها اللباس الفاخر.

فأول مزيه لرسول الله صلى الله عليه وآله عدم اغتراره بزخرف الدنيا وزينتها فلم يقع في مخالبتها قط.

المزيه الأخرى للنبي الأكرم صلى الله عليه وآله تكمن في وظيفته بتبليغ الرساله وايصال أوامر الله ونواهيه إلى جميع العباد، وقد استفرخ وسعه في هذا السبيل، حيث قال عليه السلام: «بلغ عن ربّه معذراً، ونصح لأمته منذراً، ودعا إلى الجنّه مبشراً، وخوف من النار محذراً» .

قطعاً لو فشل الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله في المرحلة الاولى في كيفية التعامل مع الدنيا واغتر بنعمها ولذاتها، لما تمكن قط من القيام بالمرحلة الثانيه في ابلاغ الرساله السماويه، فأين إساره النفس في الدنيا من ابلاغ الرساله.

ورد في حديث الإمام الصادق عليه السلام أنّ الله أوحى إلى موسى بن عمران عليه السلام: «يا موسى إنّ الدنيا دار عقوبه عاقبت فيها آدم عند خطيئته، وجعلتها ملعونه، ملعون ما فيها إلّما كان لى. يا موسى إنّ عبادى الصالحين زهدوا فى الدنيا بقدر علمهم، وسائر الخلق رغبوا فيها بقدر جهلهم». (٢)

تأمل: الشرط الاصلى فى الزعامه

إنّ أعظم مشكله تهدد القاده والزعماء إنّما تمكن فى تهافتهم على ماديّات الدنيا؛ الأمر الذى يؤدى إلى تقديمهم الأفراد السيئين على الصالحين بدافع من حفظ منافعهم ومصالحهم الماديّه،

ص: ٣٨٨

١-١) سورة الزخرف/٣٣ - ٣٥. [١]

٢-٢) الكافي ٢/٣١٧ ح ٩. [٢]

إلى جانب إثارهم للظلم والجور على العدل والقسط لذات الهدف.

إنهم يعتمدون المنافع المادية كمعايير في تعاملهم مع كل شيء فيضحون بالمبادئ الإلهية والعقلانية والإنسانية من أجل تحقيق منافعهم الدنيوية الرخيصة.

ومن هنا كان أول أمر أكده الإمام عليه السلام في إطار وصفه للرسول الأكرم صلى الله عليه وآله هو عدم اعتناؤه بالدنيا وتصغيرها وتحقيرها، مما جعله لا يكثر لجمع ما فيها، ويمحوها من ذاكرته.

وقد صرح القرآن الكريم مراراً بشأن الأنبياء ولاسيما نبي الرحمة صلى الله عليه وآله أنهم لا يسألون الناس أجراً على ابلاغ الرسالة، وكانت معيشتهم في الدنيا معيشة المستضعفين وهذا ما جعلهم يجرون الحق ويقيمون العدل بحق الجميع ولا يخشون سطوه ظالم ولا يحسبون حساباً لأصحاب المال والثراء.

فضريبه الحياه المرفهه با هضه لاتتأتى إلآمن خلال مماشاه أصحاب الثراء ومداهنتهم؛ الأمر الذى يهدد بالصميم الحق والعدل والإداره الصالحه الطاهره.

وقد بلغ من زهد رسول الله صلى الله عليه وآله وانصرافه عن الدنيا أنه كان يجلس على الحصير ويتوسد الليف حتى أثر في بدنه الطاهر، ولما قيل له هذا كسرى وقيصر يجلسان على الحرير والديباج وانت تجلس على الحصير. رد رسول الله صلى الله عليه وآله: «إنما مثل الدنيا كمثل راكب مر على شجره ولها فيء فاستظل تحتها، فلما أن مال الظل عنها ارتحل فذهب وتركها» (١).

ص: ٣٨٩

القسم الثامن: أهل البيت عليهم السلام

«نَحْنُ شَجَرَةُ النَّبِيِّ، وَمَحِطُّ الرَّسَائِلِ، وَمُخْتَلَفُ الْمَلَائِكَةِ، وَمَعَادِنُ الْعِلْمِ، وَيَنَابِيعُ الْحُكْمِ، نَاصِرُونَ وَمُحِبُّونَا يَنْتَظِرُ الرَّحْمَةَ وَعَادُونَنا وَمُبْغِضُونَنا يَنْتَظِرُ السَّطْوَةَ» .

الشرح والتفسير

اختتم الإمام عليه السلام خطبته بعد ذكر أوصاف النبي صلى الله عليه وآله بالحديث عن صفات أهل البيت عليه السلام وقد بلغ بالفصاحة والبلاغه ذروتها بهذا الختام الحسن فقال: «نحن شجره النبوه، ومحط الرساله، ومختلف (1) الملائكه، ومعادن العلم، وينابيع الحكم» .

فالتعبير بالشجره يفيد أنّ النبوه كالشجره المثمره التي لها فروع وأغصان مختلفه، جذرها وساقها النبي الأكرم صلى الله عليه وآله، وأوراقها أولاده، وثمرتها هدايه الناس إلى الله.

وشبهه عليه السلام أهل البيت في العبارة الثانيه بالموضع الذى تهبط فيه الرساله من جانب الله سبحانه، كما وصفهم في العبارة الثالثه بالموضع الذى تختلف إليه الملائكه فى صعودها ونزولها. على عليه السلام وولده ممن تربوا فى هذه الاسره ليستضيئوا بنور الوحي.

ولعل المراد بالملائكه هنا ملائكه الوحي (جبرئيل ومن معه) الذين كانوا يهبطون على رسول الله صلى الله عليه وآله، أو أنّها إشارة إلى المعنى الأعم فيشمل جميع الملائكه الذين يختلفون عليهم للخدمه والبشاره وأمثال ذلك، على كل حال فليس المراد أنّ الوحي كان ينزل على غير رسول الله صلى الله عليه وآله.

ص: ٣٩١

١ - ١) «مختلف» من ماده «اختلاف» وتأتى هنا بمعنى الذهاب والإياب، ومن هنا فان كلمه «مُخْتَلَفٌ» تعنى هنا محل الذهاب والإياب.

والفارق بين شجره النبوه ومحط الرساله أنّ للنبي صلى الله عليه وآله مقامان: مقام النبوه وهو الأخبار عن الله ومقام الرساله وهو ابلاغها. وبعبارة أخرى فان النبي صلى الله عليه وآله مأمور بالابلاغ، والرساله تقتزن عاده بالإمامه والزعامه والإجراء.

والمراد بمعادن العلم أئمه أهل البيت عليهم السلام ورثه علوم النبي صلى الله عليه وآله وحفظه الكتاب والسنة.

فقد قيل في سبب نزول الآية الشريفه: «وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ» (١).

إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال: سألت ربّي أن يجعلها أذن عليّ. ثم قال عليّ عليه السلام: «ما سمعت من رسول الله شيئاً فنسيته» (٢).

وكذلك الحديث: «عليّ مع القرآن، والقرآن مع عليّ» (٣).

والحديث: «أنا مدينة العلم وعليّ بابها» (٤).

وهكذا سائر الأحاديث المعروفة التي روتها كتب الفريقين، تفيد بأجمعها كون أهل البيت معادن العلم والحكمه.

والفارق بين معادن وينابيع هو أنّ المعدن الشيء الذي يقصده الناس وينتفعون به، أمّا الينابيع ما يفيض على الناس.

ثم إختتم عليه السلام كلامه بالقول: «ناصرنا ومحبنا ينتظر الرحمه، وعدونا ومبغضنا ينتظر السطوه» (٥).

طبعاً لا تعنى هذه العبارة أنّ لهم حقاً مثل هذا الانتظار، بل تعنى أنّهم لابدّ أن ينتظروا مثل هذه العاقبه المشؤومه، فالواقع أنّه نوع من التهديد بالعذاب الإلهي في الدنيا والآخرة.

ص: ٣٩٢

١-١ (١) سورة الحاقه/١٢. [١]

٢-٢ (٢) راجع نفحات القرآن ٩/٣٥٩؛ [٢] بحار الانوار ٣٥/٣٢٦-٣٣١. [٣]

٣-٣ (٣) الغدير ٣/١٧٨ و ١٨٠.

٤-٤ (٤) الغدير ٦/٦١-٨٠.

٥-٥ (٥) «سطوه» الوثوب على الشخص وقهره، ولما كان من لوازم ذلك العقاب، فقد وردت بهذا المعنى في العبارة.

ومن خطبه له عليه السلام

فى أركان الدين

نظره إلى الخطبه

تألف هذه الخطبه فى الواقع من قسمين: القسم الأول: الذى تطرق فيه الإمام عليه السلام إلى أفضل ما تقرب به العباد إلى الله من قبيل الإيمان والجهاد والاخلاص والصلاه والزكاه، ثم ذكر فلسفه كل شعيره من هذه الشعائر بعباره قصيره عميقه المعنى.

القسم الثانى: بيان الأبعاد العمليه للإيمان وطرق بلوغها والوصيه بذكر الله والافتداء بهدى النبى صلى الله عليه وآله واتباع سنته والاهتمام بتعلم القرآن وفهم آياته.

ثم اختتم عليه السلام الخطبه بالذم الشديد للعالم بلا عمل وشده عقابه.

ص: ٣٩٣

١ - ١) سند الخطبه: قال صاحب مصادر نهج البلاغه بدايه الخطبه «الحمد لله فاطر الخلق وخالق الأشباح» وهى خطبه معروفه مشهوره تعرف بخطبه الديباج. رواها قبل السيد الرضى (ره) المرحوم الصدوق فى كتاب من لا يحضره الفقيه (١/١٣١) بتفاوت وفى علل الشرايع، كما وردت فى تحف العقول وفى كتاب المحاسن (مصادر نهج البلاغه ٢/٢٣٨) إلما أن الخطبه فى تحف العقول بدأت «الحمد لله فاطر الخلق، وخالق الاصباح» ثم اورد الخطبه وذكرانها تعرف بخطبه الديباج. (تحف العقول، ١٠٤ - ١٠٧).

«إِنَّ أَفْضَلَ مَا تَوَسَّلَ بِهِ الْمُتَوَسِّلُونَ إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، الْإِيمَانُ بِهِ وَبِرَسُولِهِ، وَالْجِهَادُ فِي سَبِيلِهِ، فَإِنَّهُ ذُرْوَةُ الْإِسْلَامِ؛ وَكَلِمَةُ الْإِخْلَاصِ فَإِنَّهَا الْفِطْرَةُ؛ وَإِقَامُ الصَّلَاةِ فَإِنَّهَا الْمِلَّةُ؛ وَإِيتَاءُ الزَّكَاةِ فَإِنَّهَا فَرِيضَةٌ وَاجِبَةٌ؛ وَصَوْمُ شَهْرِ رَمَضَانَ فَإِنَّهُ جُنَّةٌ مِنَ الْعِقَابِ؛ وَحُجُّ الْبَيْتِ وَعَتِمَاؤُهُ فَإِنَّهُمَا يَنْفِيَانِ الْفَقْرَ وَيَرْخِضَانِ الذَّنْبَ، وَصَلَمَةُ الرَّحِمِ فَإِنَّهَا مَثْرَاءٌ فِي الْمَالِ، وَمَنْسَأَةٌ فِي الْأَجْلِ؛ وَصِدْقَةُ السَّرِّ فَإِنَّهَا تُكَفِّرُ الْخَطِيئَةَ؛ وَصِدْقَةُ الْعَلَانِيَةِ فَإِنَّهَا تَدْفَعُ مِيتَةَ السُّوءِ؛ وَصَنَائِعُ الْمَعْرُوفِ فَإِنَّهَا تَقِي مَصَارِعَ الْهَوَانِ» .

الشرح والتفسير

تحدث الإمام عليه السلام هنا عن أفضل الأعمال التي يؤديها سالكي طريق العبودية ودعاه الحق للتقرب إلى الله فقال عليه السلام: «إِنَّ أَفْضَلَ مَا تَوَسَّلَ بِهِ الْمُتَوَسِّلُونَ (١) إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، الْإِيمَانُ بِهِ وَبِرَسُولِهِ» .

وكان هذه العبارة إشارة إلى الآية الشريفة: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ» (٢). إلى جانب شرحها و تفسيرها، فقد أمر الله سبحانه في هذه الآية بالتقوى ومن ثم انتخاب الوسيلة إلى الله.

وعلى هذا فالمراد بالوسيلة الإيمان والجهاد وسائر الأمور الواردة في هذه الخطبة وليس

ص: ٣٩٥

١-١) «متوسلون» من مادة «وسيلة» بلوغ الشيء مع الميل والرغبة.

٢-٢) سورة المائدة/٣٥. [١]

هناك من منافاه بين هذا الكلام والتفسير الآخر الذى عنى الوسيله هنا بشفاعه أولياء الله؛ لأنّ كل هذه الوسائل يمكن جمعها فى الآيه الشريفه.

على كل حال فإنّ الوسيله الاولى التى ذكرت هى الإيمان؛ الإيمان بالله والنبي، لأنّ الإيمان أساس الحركه البناءه والفاعله.

الطريف فى كلام الإمام عليه السلام أنّه تطرق فى كل نقطه دليلها بصيغه تعليل وفلسفه لكافه الواجبات العشر الوارده فى العبارة، سوى مسأله الإيمان بالله والنبي. وذلك لأنّ هذه المسأله غنيه عن ذكر الدليل، وعبارة أخرى فإنّ أساس الصالحات والخيرات واعمال البر إنّما يكمن فى الإيمان، وبدونه ليس هنالك من حركه نحو الفرائض الإلهيه والواجبات الدينيه. فالأمر على درجه من الوضوح بحيث لا يحتاج إلى دليل.

ثم أشار عليه السلام إلى الواجب الثانى: «والجهاد فى سبيله، فانه ذروه (١) الإسلام» وللجهاد هنا معنى واسع يشمل الجهاد العلمى والإعلامى والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وكافه الجهود والمساعى البناءه من أجل النهوض بالاهداف الإسلاميه وحتى جهاد النفس، إلى جانب الجهاد العسكرى والمقاومه ضد العدو.

والعبارة «ذروه الإسلام» تفيد عدم جدوى الجهاد ما لم يكن عاماً شاملاً. وقد قال الإمام عليه السلام فى موضع آخر من نهج البلاغه بشأن فلسفه الأحكام ومنها الجهاد: «والجهاد عن للإسلام» (٢).

ورغم سعى إعداء الإسلام إلى استغلال مفرده الجهاد الإسلامى واساءه تفسيرها من خلال وصفها بالعنف إلّا أنّهم يغفلون عن المعنى الواقعى للجهاد الذى يتمثل بالصمود من أجل الحياه ومقاومه العناصر الهدامه؛ وهو الأمر الذى أودع طبيعه كل إنسان.

فالحق أنّ الحياه لتتعذر علينا ولو ضعفت الخلايا ليوم واحد كتلك التى ركبت فى بدن الإنسان وتقوم بوظيفتها فى الدفاع عنه ومهاجمه المكروبات والجراثيم التى تحاول اختراق البدن، وما المرض الخطير الذى يصطلىح عليه بالايديز إلّا اختلال القوى الدفاعيه للبدن. فالمجتمع الذى يتخلى عن الجهاد إنّما يكون كهذا المريض المصاب بالايديز، فيصبح مسرحاً

ص: ٣٩٦

١- ١) «ذروه» على وزن قبله أعلى الشىء.

٢- ٢) نهج البلاغه، الحكمة ٢٥٢. [١]

لهجوم أنواع المشاكل والمعضلات.

وبالطبع أن أولئك الذين صوبوا سهام حقدهم نحو الجهاد الإسلامى، ليعلمون جيداً أنّ التسلط على المسلمين متعذر مادام هذا الأصل المتمثل بالجهاد نابض بالحياه، فلو حذف الجهاد بحجه العنف، لم تعد هنالك من مشكله أمام تسلط الاعداء.

على كل حال فان ذكر الإمام عليه السلام للجهاد كواجب بعد الإيمان بالله والنبي يفيد موت الدين فى حاله غياب هذا الواجب.

فقد ورد فى حديث عن على عليه السلام: «والله ما صلحت دنيا ولا دين إلاّ به» (١).

ثم ذكر عليه السلام الواجب الثالث «وكلمه الاخلاص فانها الفطره» .

والمراد بكلمه الاخلاص «لا إله إلاّ الله» التى تتضمن الشهاده لله بالوحدانيه والعبوديه ونفى الشرك والوثنيه.

وتفيد بعض الروايات أنّ للاخلاص بعد عملى يتمثل بالاقبال على الحق سبحانه والأغماض عما سواه إلى جانب التحفظ عن ارتكاب الذنب والمعصيه. فقد ورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «من قال لا إلاّ الله عما حرم الله» (٢).

ومن الواضح أنّ من يقارف الذنوب أو ينقاد للشيطان أو الأهواء فأنّه مشرك فى عمله، وهذا ما يتناقض وحقيقه الأخلاص.

ثم قال عليه السلام: «واقام الصلاه فأنّها المله» ، والمله هنا تعنى الدين، أمّا أنّ الصلاه لم تعد جزءاً من الدين بل الدين كله، وذلك لأنّ الصلاه الدعامة الأساسيه للدين. فقد جاء فى الحديث النبوى المعروف أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «الصلاه عماد الدين، فمن ترك صلاته متعمداً فقد هدم دينه» (٣).

كما ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «مثل الصلاه مثل عمود الفسطاط إذا ثبت العمود ثبتت الأطناب والأوتاد والغشاء، وإذا انكسر العمود لم ينفع طنّب، ولا وتد ولا غشاء» (٤).

ثم قال عليه السلام: «وايتاء الزكاه فانها فريضه واجبه» .

ص: ٣٩٧

١-١) وسائل الشيعه ١/٩.

٢-٢) بحار الانوار ٨/٣٥٩. [١]

٣-٣) جامع الأخبار ([٢] طبق نقل بحار الانوار ٧٩/٢٠٢). [٣]

٤-٤) منهاج البراعه ٧/٣٩٨ وبحار الانوار ٧٩/٢١٨. [٤]

تطلق الفريضة عادة على الواجب، وبناءً على ذلك فإن ذكر الواجب بعدها للتأكيد، إلّا أنّ للفريضة معنى آخر أنسب لموضع بحثنا، وهو قطع وفصل الشيء، وهنا قسم من المال الذى يفصل لهدف.

أو بعبارة أخرى الضريبة التى فرضت لمساعدته الضعفاء فى المجتمع وتأمين بعض تكاليف الحكومه الإسلاميه.

وقد ورد فى القرآن بشأن أسهم الإرث: «نَصِيبًا مَّفْرُوضًا» (١).

ومن هنا عبر العلماء الاعلام فى مباحث الإرث بكتاب الفرائض بدلاً من كتاب الارث.

على كل حال فإنّ مسأله الزكاه من أهم أركان الإسلام بعد الصلاه.

وقد جاء فى حديث عن الإمام الباقر عليه السلام أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله كان فى مسجده فنادى خمسه أشخاص وقال: «لاتصلوا فيه وانتم لا تزكون» (٢).

ثم قال عليه السلام: «وصوم شهر رمضان فإنّه جنّه من العقاب» .

ورد التعبير هنا «جنّه من العقاب» بينما وردت العبارة فى الحديث المعروف «جنّه من النار» (٣).

ويكفى فى فضل الصوم أنّه يخرج الإنسان من البهيميه إلى عالم الملائكه ويجلسه على بساط القرب الإلهي.

ثم بين الركن السابع من أركان الإسلام فقال: «وحج البيت واعتماره فإنهما ينفيان الفقر ويرحضان (٤) الذنب» .

لاشك أنّ لزياره بيت الله بركات ماديه وأخرى معنويه وروحانيه، وقد أشير إليهما هنا، وقد وردت خلاصه ذلك فى الآيه الشريفه ٢٨ من سورالحج: «لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ» وقد ورد فى الحديث «يخرج من ذنوبه كهيثه يوم ولدته أمه» (٥) أما تأثيره فى ازالة الفقر - علاوه على بركاته المعنويه - فذلك أنّ المسلمين يستطيعون أن يقيموا الاسواق الاقتصاديه إلى

ص: ٣٩٨

١-١ (١) سورة النساء/٧. [١]

٢-٢ (٢) شرح نهج البلاغه للمرحوم الشوشترى ١٣/١٠٢. [٢]

٣-٣ (٣) الكافى ٤/٦٢ ح ١.

٤-٤ (٤) «يرحضان» من ماده «رحض» على وزن محض الغسل، إشاره إلى أنّ الحج والعمره يغسلان الذنوب.

٥-٥ (٥) بحار الانوار ٦٩/٢٦. [٣]

جانب مراسم الحج من أجل ممارسه الانشطه والمبادلات التجاربه بحيث بديرون نوعاً من التجاره العالميه فيما بينهم، فقد كان هناك مثل هذه الأسواق البدائيه على عهد رسول الله صلى الله عليه و آله.

ولو جد المسلمون اليوم فى تقويه بناهم الاقتصاديه لتمكنوا حقاً من سد حاجات الفقراء والمعوزين. ومن هنا ورد فى حديث الإمام الصادق عليه السلام: «ما رأيت شيئاً أسرع عنى ولا أنفى للفقير من إدمان حج البيت» (١).

ثم قال عليه السلام فى بيان الركن الثامن: «وصله الرحم فأنها مثراه (٢) فى المال ومنسأه (٣) فى الأجل» .

فصله الرحم واضافه إلى تأثيرها فى ازدياد المال تؤدي إلى نماء العمر وزيادته، ولعل ذلك لدعاء الأرحام بعضهم لبعض، إلى جانب معونه بعضهم البعض فى الأمراض؛ الأمر الذى يؤدي إلى طول العمر، ناهيك عن تقليلها من الهم والغم والحزن.

فقد جاء عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «صله الأرحام تزكى الأعمال، وتنمى الأموال، وتدفع البلوى، وتيسر الحساب، وتنسىء فى الأجل» (٤).

ثم قال عليه السلام فى الركن التاسع من أركان الإسلام: «وصدقه السر فأنها تكفر الخطيئه، وصدقه العلانيه فأنها تدفع ميته السوء» ، المراد بصدقه السر المساعدات التى يقدمها الإنسان إلى الأفراد المحتاجين والمحترمين بدافع من نيه خالصه إلى جانب السعى لحفظ ماء وجههم، ومن هنا كانت بركاتها جمه، والعباره تشمل الصدقات الواجبه كالكفارات والندورات والصدقات المتجه والانفاقات. والمراد بصدقه العلانيه، المعونه الظاهره ومن بركاتها تشجيع الاخرين على أفعال الخير. والعباره اقتباس من الآيه الشريفه: «الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ» (٥).

ص: ٣٩٩

١-١) بحار الانوار ٤٠٦/٤٦٦. [١]

٢-٢) «مترأه» من ماده «ثرى» و «ثروه» وتعنى الزياده، وعلى هذا الاساس، يقال للمال الكثير «الثروه» و «مترأه» مصدر ميمى بمعنى اسم فاعل و يعنى سبب الزياده.

٣-٣) «منسأه» من ماده «نساء» على وزن نسخ بمعنى التأخير، ومنسأه: مصدر ميمى بمعنى اسم فاعل يعنى سبب التأخير. ويقال للعصا «المنسأه» لانها تستعمل لازاله الاشياء الضاره التى تعترضنا أثناء السير.

٤-٤) الكافى ٢/١٥٠. [٢]

٥-٥) سوره البقره/٢٧٤. [٣]

وتفيد روايات الفريقين أنها نزلت في علي عليه السلام حين كان له أربعة دراهم انفق واحد منها في النهار وآخر في الليل وآخر سراً وآخر علانية. (١)

طبعاً تطلق الصدقة في الفقه الإسلامي على ما يعطى للفقراء بقصد القربى إلى الله، إلا أن للصدقة مفهوم واسع يشمل كل عمل خير اجتماعي كبناء المساجد والمدارس والطريق والمستشفيات والأعمال الثقافية، ومن هنا جاء في رواية الإمام الكاظم عليه السلام: «عونك للضعيف من أفضل الصدقة» (٢) ولا شك أن بناء المستشفيات والمدارس وأمثال ذلك مصداق لعون الضعيف. وورد في الحديث النبوي: «كل معروف صدقة» (٣).

وورد عنه صلى الله عليه وآله أيضاً: «الكلمة الطيبة صدقة» (٤).

وقال الصادق عليه السلام: «إسماع الاصم من غير تزجر صدقة هنئه» (٥).

ونختم هذا الكلام بحديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله في أنه قال: على المسلم أن يتصدق كل يوم. فقال رجل: لانقدر كلنا على ذلك.

فقال صلى الله عليه وآله: «إماتتك الأذى عن الطريق صدقة، وإرشادك الرجل إلى الطريق صدقة، وعيادتك المريض صدقة، وأمرك بالمعروف صدقة، ونهيك عن المنكر صدقة» (٦).

والمراد بميته السوء، الموت تحت التعذيب والالام، كالاحتراق في النار، أو أثر الاصابه بمرض خطير شاق وحوادث الطريق.

ثم قال في الركن العاشر من أركان الإسلام: «وصنائع (٧) المعروف فأنها تقى مصارع (٨) الهوان» .

ص: ٤٠٠

١- ١) احقاق الحق ٣/٢٤٦-٢٥١. [١]

٢- ٢) تحف العقول، الكلمات القصار للإمام الكاظم عليه السلام.

٣- ٣) الخصال ١/١٣٤.

٤- ٤) بحار الانوار ٨٠/٣٦٩. [٢]

٥- ٥) بحار الانوار ٧١/٣٨٨. [٣]

٦- ٦) بحار الانوار ٧٢/٥٠ ح ٤. [٤]

٧- ٧) «صنائع» من ماده «صنع» على وزن «فعل» بمعنى صناعه الشيء وابداعه. وفي لغة العرب يقال للاعمال الجيده والحسنه «الصنائع» وهو جمع «صنيعه». «نقل من المعجم الوسيط» .

٨- ٨) «مصارع» جمع «مصرع» بمعنى السقوط على الارض، ويطلق لمحل القتل بالمصرع، ويقال للمصراع بين طرفين «المصارعه» لان كل طرف من هذين الطرفين يحاول أن يطرح الآخر أرضاً.

والعبارة بصنائع المعروف تشمل كل عمل صالح، من قبيل ذكر العام بعد الخاص، كما يحتمل أن يكون المراد بصنائع المعروف مساعده عباد الله.

وقد وردت عن الأئمة عليه السلام عدة روايات أكدت مسأله صنائع المعروف، منها ماورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «أول من يدخل الجنة أهل المعروف» (١)، وقال أميرالمؤمنين على عليه السلام: «عليك بصنائع المعروف فانها نعم الزاد إلى المعاد» (٢).

كما ورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنه كان يحث أصحابه على صنائع المعروف ويقول: إن للجنة باب اسمه المعروف لا يدخله إلا من كان يصنع المعروف في الدنيا، ثم قال: «إن العبد ليمشى في حابه أخيه المؤمن، فيوكل على الله عزوجل به ملكين واحداً عن يمينه، وواحداً عن شماله، يستغفرون له ربّه ويدعوان بقضاء حاجته» (٣).

فلسفه الأحكام

غالبا ما يعمد الاطباء المهرة إلى تنبيه مرضاهم إلى الآثار المهمة للأدوية والأطعمه المقويه التي تسرع في شفاء حالتهم المرضيه؛ لكي يتحملوا مراره الدواء برغبه ولهفه ويلتزموا بإرشادات الطبيب. ولعل الأطباء الروحانيين يسيرون على هذا النهج فيبينون فلسفه تشريع الأحكام ومعطيات البرامج الدينيه للناس، ليشيروا فيهم الشعور والدافع نحو هذه البرامج ويرسخوا عزمهم في تنفيذها.

وقد راينا فموزج ذلك - بيان فلسفه الأحكام - في هذه الخطبه، حيث ينطوى هذا البيان على عدة فوائد، إلى جانب كونه يحث الناس على التفاعل مع الوظائف الدينيه وممارستها بكل شوق ورغبه ويهون عليهم تحمل بعضى المشاق التي تشتمل عليها بعض الوظائف الدينيه. ومن الفوائد التي يمكن ذكرها هنا:

١- تحدد للناس الاسلوب الصحيح الذى ينبغى أن تؤدى فيه الفريضته، مثلاً حين تبين فلسفه الحج «فرض الله الحج تشييدا للدين» (٤)، فمفهوم ذلك إقامة مراسم الحج بكل عظمه

ص: ٤٠١

١-١) ميزان الحكمه ٢/١٩٣١ ح ١٢٤١١. [١]

٢-٢) غرر الحكم، ٦١٦٦. [٢]

٣-٣) الكافي ٢/١٩٥ ح ١٠. [٣]

٤-٤) خطبه الزهراء عليها السلام، احتجاج الطبرسى ١/٢٥٨، طبع اسوه، وورد مثل هذا المعنى فى الكلمات القصار، ٢٥٢.

لتحقيق هذا الهدف ولا يكتفون بأدابه الصوريه الظاهريه.

٢- أن يعلموا أن آثار وبركات هذه الأعمال تعود علينا، فليس هناك من مَنه على الله، بل الله يمن علينا، الأمر الذي صرح به القرآن الكريم بشأن الإسلام والإيمان: «يَمُنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلِمُوا قُلْ لَا تَمُنُوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ» (١).

٣- يمكننا تقييم أعمالنا من خلال الالتفات إلى فلسفه الأحكام، لنرى مدى قبولها عند الله، مثلاً حين يقال: «وفرض عليكم الصوم للتقوى والصلاه نهياً عن الفحشاء والمنكر» فإن علينا أن نرى هل حصلت لدينا ملكه التقوى بعد القيام بالصوم والصلاه أم لا؟ وهكذا نقف على قيمه عبادتنا وأعمالنا.

نعم اننا نعلم بأن الله حكيم، وحكمته تقتضى ألا يشرع شيئاً دون أن يبين هدفه ونتيجته، ويا لهم من جهال أولئك الذين يزعمون أن أفعال الله ليست معلله بغرض؛ أى ليس هناك من هدف فى تشريعاته وأعماله! أنهم ليسيون بهذا الكلام إلى كونه حكيماً سبحانه، وهم يزعمون أنهم اقتربوا من حقيقه التوحيد، والحال أنهم مصداق لهذه الآية الشريفه: «قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً* الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا» (٢).

نعم أفعال الله ليست معلله بأغراض، أى ليس هناك من هدف يعود إليه، لأنه غنى عن كل شىء وعن كل موجود؛ إلما أن المؤسف له أن هؤلاء الجهال لا يقولون ذلك، بل يزعمون أن لاضروره لأنّ تعود نتيجة أفعال الله وأوامره على العباد، وهذا منتهى الجهل!!

على كل حال فإن الإمام عليه السلام بين فلسفه الأحكام فى هذه الخطبه، بحيث يتأجج الشوق فى أعماق من يتمناها لأن يؤدى وظائفه على أكمل وجه دون أن يشعر بالتعب والملل.

ص: ٤٠٢

[١- ١] سورة الحجرات/١٧. [١]

[٢- ٢] سورة الكهف/١٠٣-١٠٤. [٢]

«أَفِيضُوا فِي ذِكْرِ اللَّهِ فَإِنَّهُ أَحْسَنُ الذِّكْرِ. وَارْعَبُوا فِيمَا وَعَمِدَ الْمُتَّقِينَ فَإِنَّ وَعِيدَهُ أَصْدَقُ الْوَعِيدِ. وَاقْتِيدُوا بِهَيْدِي نَبِيِّكُمْ فَإِنَّهُ أَفْضَلُ الْهَيْدِي. وَاسْتَيْتُوا بِسُنَّتِي فَإِنَّهَا أَهْدَى السُّنَنِ. وَتَعَلَّمُوا الْقُرْآنَ فَإِنَّهُ أَحْسَنُ الْحَدِيثِ، وَتَفَقَّهُوا فِيهِ فَإِنَّهُ رَبِيعُ الْقُلُوبِ، وَاسْتَشْفُوا بِنُورِهِ فَإِنَّهُ شِفَاءُ الصُّدُورِ، وَأَحْسِنُوا تِلَاوَتَهُ فَإِنَّهُ أَنْفَعُ الْقَصَصِ، وَإِنَّ الْعَالِمَ بِغَيْرِ عِلْمِهِ كَالْجَاهِلِ الْحَائِرِ الَّذِي لَا يَسْتَتَفِقُ مِنْ جَهْلِهِ؛ بَلِ الْحُجَّةُ عَلَيْهِ أَكْثَرُ، وَالْحَسْرَةُ لَهُ أَكْثَرُ، وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ أَلْوَمٌ» .

الشرح والتفسير

بعد أن فرغ الإمام عليه السلام من بيان أركان الإسلام وذكر فلسفه الأحكام، دعا الناس إلى امتثال الأحكام والعمل بالوظائف فقال عليه السلام: «أفيضوا في ذكر الله فإنه أحسن الذكر» .

فالعباره «أفيضوا» تفيد كثره ذكر الله سبحانه والتوجه إليه.

والعباره «أحسن الذكرى» لأن ذكر الله سبحانه مصدر وأساس كافة البركات المادية والمعنوية.

فقد جاء في الحديث النبوي: «ليس عمل أحب إلى الله تعالى، ولا أنجى لعبد من كل سيئه في الدنيا والآخرة، من ذكر الله. قيل: ولا القتال في سبيل الله؟ قال: لولا ذكر الله لم يؤمر بالقتال» (١).

ص: ٤٠٣

ثم قال عليه السلام: «وارغبوا فيما وعد المتقين فإنَّ وعده أصدق الوعد، واقتدوا بهدى نبيكم فإنه أفضل الهدى، واستنوا بسنته فإنها أهدى السنن» .

لاشك أنَّ الوعد الإلهي للمطيعين والمؤمنين الصالحين لهي أصدق الوعد، لأنَّ من يتخلف عن الوعد إمَّا عاجز، أو بخيل أو جاهل، حيث يعد دون علم، ثم لا يفى بوعدده. أمَّا من كان مطلق في علمه وقدرته فخلف الوعد محال عليه.

المراد بالهدى (على وزن منع) السبيل والاسلوب والطريقة.

والسنه تعنى ما يصدر من الأوامر فى مختلف المجالات، ولما كان رسول الله صلى الله عليه وآله هو خاتم الأنبياء، فمن الطبيعى أن تكون سنه أهدي السنن.

ثم أكد الإمام عليه السلام على القرآن فقال: «وتعلموا القرآن فإنه أحسن الحديث، وتفقهوا فيه، فإنه ربيع القلوب، واستشفوا بنوره فإنه شفاء الصدور، وأحسنوا تلاوته فإنه أنفع القصص» .

فقد ذكر الإمام عليه السلام أربع مراحل مختلفه تتقدم كل واحده منها بصورة طبيعیه على الأخرى.

فى المرحله الاولى أوصى عليه السلام بتعلم القرآن على أنه أحسن الحديث؛ وذلك لاشتماله على أكمل أسس سعادة الإنسان.

المرحلة الثانية أوصى عليه السلام بالتفكير والتدبر فيه وسبر غوره والوقوف على معناه ومضمونه، بفضله ربيع القلوب، فكما تتفتح البراعم فى فصل الربيع وتورق الأشجار وتنبت الأوراد والزهور وتنتشر رائحتها العطره فى كل مكان، فببركه القرآن الكريم تظهر على القلب زهور فضائل الأخلاق وبراعم المعارف الإلهيه، فمن لم يكتسب منه الحياه الإنسانيه، كان كالشجره اليابسه التى لاتتهتز وتتحرك فى فصل الربيع.

المرحلة الثالثه الأمر بالعمل والقول: عليكم بالاستشفاء بنور آيات الله، على غرار نور الشمس التى يستشفى فى ظلها المرضى، فقد قيل أشعه الشمس قد تغنى عن حضور الطبيب. والمرحلة الرابعه: «أحسنوا تلاوته» لتغوص القلوب فيه وتطبع بطابعه فتبلغه إلى الآخرين.

وهكذا يكون الإمام عليه السلام قد حدد وظيفه الأفراد تجاه القرآن الكريم. وليت الأفراد لم يكتفوا بالاعتصار على حسن تلاوه القرآن وتجويده والتركيز على جماليه الصوت، والتفتوا إلى سائر

المراحل التي تشكل الدف الأصلي للقرآن. وقد عبرت العبارة الاولى عن القرآن على أنه أحسن الحديث، والعبارة الأخيره أنفع القصص. فالحديث ما يصدر من المتحدث من كلام (لأنّ الحديث من ماده حدوث ويطلق على الكلام الحديث لأنه حادث باستمرار) فالمفهوم أنّ القرآن أفضل كلام بين الناس، من حيث الفصاحه والبلاغه، ومن حيث المحتوى والمضمون، والواقع هو أنّ العبارة إشاره إلى الآيه الشريفه: «اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِي» (١).

أمّا أحسن القصص فقد ذهب بعض شراح نهج البلاغه إلى أنّ المراد بها المجموعه القرآنيه بما فيها الآثار والنتائج العلميه للقرآن التي تتحصل في ظل اجراء الأحكام والتعاليم القرآنيه.

ومن هنا وردت الإشاره في آخر الخطبه إلى نقطه مهمه بالنسبه للعالم الذي لاعمل له، واولئك الذين يتلون القرآن ولايعملون به، إذ قال عليه السلام: «إنّ العالم بغير علمه كالجاهل الحائر الذي لايستفيق (٢) من جهله، بل الحججه عليه أعظم، والحسره ألزم، وهو عند الله ألوم (٣)».

فالعبارة تشتمل على تشبيه رائع للعالم بلا عمل (أو بتعبير الإمام عليه السلام العالم الذي لايعمل بعلمه) يفيد أنّ مثل هذا العالم أقلّ درجه في الواقع من الجاهل العادى. بل هو كالجاهل الحائر الذي لايفيق من جهله قط، فليس هنالك من أمل في هدايته؛ وذلك لأنه يسير عن علم على الطريق الاعوج، ومن هنا فان الله سبحانه يسلبه توفيق الهدايه فيفقد صوابه في هذه الحيره ولايصل ساحل النجاه أبدا فيسقط في الهاويه.

ثم أشار عليه السلام إلى مدى بؤس مثل هذه العالم السادر في غيه فقال عليه السلام أولاً بأنّ الحججه عليه أعظم، فقد يتذرع الجاهل بجهله (إن يكن الجهل عذراً) ولكن ما عذر العالم بلا عمل.

والثانى حسرته لازمه، فقد تخلف عن السعاده وكانت كافه أسبابها لديه فتاه حائراً في صحراء الحياه.

ص: ٤٠٥

١- ١) سورة الزمر/١٧. [١]

٢- ٢) «يستفيق» من ماده «استفاقه» بمعنى تحسن حاله الصحيه بعد المرض والوعى بعد السكر واليقظه من النوم وجاءت هذه الكلمه في هذه الخطبه بالمعنى الثالث أى اليقظه من النوم.

٣- ٣) «ألوم» من ماده «لوم» على وزن قوم بمعنى العتب، ومع الأخذ بنظر الاعتبار بان «ألوم» هى صيغه أفعال تفضيل، وهنا تعنى الملامه، وهو الأنسب.

والثالث أنه أكثر لوماً عند الله من الجاهل الحائر، لأنّ الحجة عليه أتم من غيره. ومن هنا ورد في الرواية عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «يغفر للجاهل سبعون ذنباً قبل أن يغفر للعالم ذنب واحد» (١). بل يتعذر قبول توبه هذا العالم الذي لا عمل له. فقد صرح القرآن الكريم قائلاً: «إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ. . .» (٢).

تأمل: عاقبه العالم غير العامل

الناس على أربع: عالم، جاهل مقصر، جاهل مقصر بسيط وجاهل مركب. فالعالم من يعلم المطلوب على نحو الاجمال أو التفصيل؛ أى قد يكون له أحياناً علم اجمالى بالشىء، وقد يكون له أحياناً أخرى علم تفصيلى. فهو يعلم مثلاً على نحو الإجمال أنّ المسكر حرام وله أضرار على جسم الإنسان وروحه. أو أنه رأى على نحو التفصيل أدله حرمة المسكر وقد درس الآثار الضاره له على كل عضو من أعضاء البدن.

والجاهل القاصر من لا يعلم، وليس له من سبيل إلى العلم، وربما كان بعيداً عن مراكز العلم فانغمس فى الغفلة والسهو.

والجاهل المقصر من له سبيل إلى العلم، إلّا أنّ الكسل والإهمال لم يدعه يتجه إلى العلم، فيبقى فى جهله، مع ذلك فهو يعلم بجهله!

أى يدري أنه لا يدري.

وأما الجهل المركب فهو من جهل ولا يدري أنه فى جهل. بل بالعكس يظن أنه عالم وما يفهمه من الأمور هو عين الواقع، وبعبارة أخرى فهو: لا يدري أنه لا يدري.

ويبدو أنّ الخطر والمسؤوليته التى تتوجه إلى الجاهل القاصر أقل من غيرها بالنسبة للطوائف الأربع، ويأتى بعده الجاهل المقصر ثم الجاهل المركب؛ الذى قد يدفعه جهله المركب لايجاد بعض المشاكل لنفسه والآخرين. إلّا أنّ الأخطر من الجميع هو العالم.

ص: ٤٠٦

١-١ (١) الكافى ١/٤٧ ح ١. [١]

٢-٢ (٢) سورة النساء/١٧. [٢]

الذى لا- عمل له. وإلى هذه الطائفة تعزى جميع الكوارث التى تكبدتها البشرية طيله التاريخ بما فيها النزاعات والحروب فى الماضى والحاضر.

فهم الذين يصنعون أخطر أسلحه الدمار الشامل التى تهدف إلى القضاء على الأبرياء من المجتمع البشرى. وهم الذين يشعلون فتيل الحرب من أجل تحقيق مآربهم واطماعهم.

وأخيراً هؤلاء هم الذين يستحذون على المواقع المتقدمه والمراكز الحساسه فى الأ-جهزه الإعلاميه ووسائل الدعايه ليمارسوا أوسع عمليه تضليل ليشوهوا الحقائق فيسوقوا الجهال إلى نيران فتنهم ويقضوا على حياتهم. وقد شبههم القرآن الكريم بالكلاب إذ قال: «فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ» (١).

والسؤال الذى يطرح نفسه هنا: ترى ما سر هذا التضاد بين العمل والعلم أولم يكن حرباً بهذا العالم أن يتجه إلى الصواب ويقود الناس إليه؟

ويبدو الجواب واضحاً على هذا السؤال وهو أن أسس ودعائم إيمان هذا العالم إنما هى فى الواقع ضعيفه خاويه، وإن انتحل الإسلام والعلم ظاهراً، إلّا أن لسانه الباطنى «يقولون إن الله خالق جنّه ونار وتعذيب وغل يدين» (٢).

كما قد يكون مؤمنا بالله إلّا أنه منقاد لهوى نفسه الذى يتغلب على إيمانه.

ونختتم هذا الكلام بحديث عن على عليه السلام فى أن التواره قد اختتمت بخمس عبارات هى (٣).

الأول: العالم الذى لا يعمل بعلمه فهو وابليس سواء.

والثانى: سلطان لا يعدل برعيته فهو وفرعون سواء.

والثالث: فقير يتذلل لغنى طمعاً فى ماله فهو والكلب سواء.

والرابع: غنى لا ينتفع بماله فهو والاجير سواء.

والخامس: إمراه تخرج من بيتها بغير ضروره فهى والأمة سواء.

ص: ٤٠٧

١- ١) سورة الأعراف/ ١٧٦. [١]

٢- ٢) ورد ذلك عن عمر بن سعد حين اقترح عليه قتال الحسين عليه السلام فى كربلاء، واعطائه ملك الرى، ففكر فى الأمر ثم انشد شعراً، زعم فيه أن يقتل الحسين عليه السلام ويفوز بملك الرى ثم يتوب اله الله سبحانه. ألا لعنه الله على الظالمين.

٣- ٣) الاثنى عشرية / ٢٠٦. [٢]

اللهم نسألك العمل بما نعلم من العلم الذي أفضتته علينا في ظل قبسات وعلوم نهج البلاغه لأمير المؤمنين على عليه السلام، اللهم ولا تقرنا مع الشيطان أبداً، اللهم نسألك حسن العاقبه وأن تختم لنا بالخير.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

تم بعون الله المجلد الرابع من شرح نهج البلاغه

في ١٧ شوال. عام ١٤٢٢ هـ ويليه المجلد الخامس ان شاء الله.

ص: ٤٠٨

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ
الزمر: ٩

المقدمة:

تأسس مركز القائمية للدراسات الكمبيوترية في أصفهان بإشراف آية الله الحاج السيد حسن فقيه الإمامي عام ١٤٢٦ الهجرى في المجالات الدينية والثقافية والعلمية معتمداً على النشاطات الخالصة والدؤوبة لجمع من الإخصائين والمثقفين في الجامعات والحوزات العلمية.

إجراءات المؤسسة:

نظراً لقلّة المراكز القائمية بتوفير المصادر في العلوم الإسلامية وتبعثها في أنحاء البلاد وصعوبة الحصول على مصادرها أحياناً، تهدف مؤسسة القائمية للدراسات الكمبيوترية في أصفهان إلى التوفير الأسهل والأسرع للمعلومات ووصولها إلى الباحثين في العلوم الإسلامية وتقديم المؤسسة مجاناً مجموعةً إلكترونيةً من الكتب والمقالات العلمية والدراسات المفيدة وهي منظمة في برامج إلكترونية وجاهزة في مختلف اللغات عرضاً للباحثين والمثقفين والراغبين فيها. وتحاول المؤسسة تقديم الخدمة معتمدةً على النظرة العلمية البحتة البعيدة من التعصبات الشخصية والاجتماعية والسياسية والقومية وعلى أساس خطة تنوى تنظيم الأعمال والمنشورات الصادرة من جميع مراكز الشيعة.

الأهداف:

نشر الثقافة الإسلامية وتعاليم القرآن وآل بيت النبي عليهم السلام
تحفيز الناس خصوصاً الشباب على دراسة أدق في المسائل الدينية
تنزيل البرامج المفيدة في الهواتف والحاسوبات واللابتوب
الخدمة للباحثين والمحققين في الحوزات العلمية والجامعات
توسيع عام لفكرة المطالعة
تهميد الأرضية لتحريض المنشورات والكتّاب على تقديم آثارهم لتنظيمها في ملفات إلكترونية

السياسات:

مراعاة القوانين والعمل حسب المعايير القانونية
إنشاء العلاقات المترابطة مع المراكز المرتبطة
الاجتناب عن الروتين وتكرار المحاولات السابقة
العرض العلمي البحت للمصادر والمعلومات

الالتزام بذكر المصادر والمآخذ في نشر المعلومات
من الواضح أن يتحمل المؤلف مسؤولية العمل.

نشاطات المؤسسة:

طبع الكتب والملزمات والدوريات

إقامة المسابقات في مطالعة الكتب

إقامة المعارض الالكترونية: المعارض الثلاثية الأبعاد، أفلام بانوراما في الأمكنة الدينية والسياحية

إنتاج الأفلام الكرتونية والألعاب الكمبيوترية

افتتاح موقع القائمة الانترنتى بعنوان : www.ghaemiyeh.com

إنتاج الأفلام الثقافية وأقراص المحاضرات و...

الإطلاق والدعم العلمى لنظام استلام الأسئلة والاستفسارات الدينية والأخلاقية والاعتقادية والردّ عليها

تصميم الأجهزة الخاصة بالمحاسبة، الجوال، بلوتوث Bluetooth، ويب كيوسك kiosk، الرسالة القصيرة (sms)

إقامة الدورات التعليمية الالكترونية لعموم الناس

إقامة الدورات الالكترونية لتدريب المعلمين

إنتاج آلاف برامج فى البحث والدراسة وتطبيقها فى أنواع من اللابتوب والحاسوب والهاتف ويمكن تحميلها على ٨ أنظمة؛

JAVA.١

ANDROID.٢

EPUB.٣

CHM.٤

PDF.٥

HTML.٦

CHM.٧

GHB.٨

إعداد ٤ الأسواق الإلكترونية للكتاب على موقع القائمة ويمكن تحميلها على الأنظمة التالية

ANDROID.١

IOS.٢

WINDOWS PHONE.٣

WINDOWS.٤

وتقدّم مجاناً فى الموقع بثلاث اللغات منها العربية والانجليزية والفارسية

الكلمة الأخيرة

نتقدم بكلمة الشكر والتقدير إلى مكاتب مراجع التقليد منظمات والمراكز، المنشورات، المؤسسات، الكتاب وكل من قدم لنا المساعدة في تحقيق أهدافنا وعرض المعلومات علينا.

عنوان المكتب المركزي

أصفهان، شارع عبد الرزاق، سوق حاج محمد جعفر آباده اي، زقاق الشهيد محمد حسن التوكلي، الرقم ١٢٩، الطبقة الأولى.

عنوان الموقع : : www.ghbook.ir

البريد الإلكتروني : Info@ghbook.ir

هاتف المكتب المركزي ٠٣١٣٤٤٩٠١٢٥

هاتف المكتب في طهران ٠٢١ - ٨٨٣١٨٧٢٢

قسم البيع ٠٩١٣٢٠٠٠١٠٩ شؤون المستخدمين ٠٩١٣٢٠٠٠١٠٩.

مركز
للبحوث والتحريرات الكمبيوترية
اصبهان
الغمامية

WWW

للحصول على المكتبات الخاصة الاخرى
ارجعوا الى عنوان المركز من فضلكم
www.Ghaemiyeh.com

www.Ghaemiyeh.net

www.Ghaemiyeh.org

www.Ghaemiyeh.ir

و للايحاء من فضلكم

٠٩١٣ ٢٠٠٠ ١٥٩